مرکز القائمیة اصبهان للبحوث والتحریات الکمبیوتریة

السلام علیک یا صاحب الزمان

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

الميزان في تفسير القرآن

للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

المجلد الخامس عشر

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحیم

الميزان فی تفسير القرآن

کاتب:

محمد حسين طباطبايی

نشرت فی الطباعة:

علامه طباطبايی

رقمی الناشر:

مرکز القائمية باصفهان للتحريات الکمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵

تفسیر المیزان المجلد ۱۵ ----- ۱۱

اشاره ----- ۱۱

اشاره ----- ۱۱

(۲۳)سوره المؤمنون مکیه و هی مائه و ثمانی عشره آیه(۱۱۸) ----- ۱۵

[سوره المؤمنون (۲۳): الآیات ۱ الی ۱۱] ----- ۱۵

اشاره ----- ۱۵

بیان ----- ۱۵

کلام فی معنی تأثیر الإیمان ----- ۱۷

[بیان] ----- ۱۹

(بحث روائی) ----- ۲۲

(بحث حقوقی اجتماعی) ----- ۲۷

[سوره المؤمنون (۲۳): الآیات ۱۲ الی ۲۲] ----- ۲۸

اشاره ----- ۲۸

بیان ----- ۲۹

(بحث روائی) ----- ۳۴

[سوره المؤمنون (۲۳): الآیات ۲۳ الی ۵۴] ----- ۳۴

اشاره ----- ۳۴

بیان ----- ۳۷

(بحث روائی) ----- ۴۷

[سوره المؤمنون (۲۳): الآیات ۵۵ الی ۷۷] ----- ۴۸

اشاره ----- ۴۸

بیان ----- ۴۹

(بحث روائی) ----- ۶۱

[سوره المؤمنون (۲۳): الآيات ۷۸ الى ۹۸] ---- ۶۳
اشاره ---- ۶۳
بيان ---- ۶۴
[سوره المؤمنون (۲۳): الآيات ۹۹ الى ۱۱۸] ---- ۷۶
اشاره ---- ۷۶
بيان ---- ۷۷
(بحث روائى) ---- ۸۵
(۲۴)سوره النور مدنيه و هى أربع و ستون آيه(۶۴) ---- ۸۸
[سوره النور (۲۴): الآيات ۱ الى ۱۰] ---- ۸۸
اشاره ---- ۸۸
بيان ---- ۸۹
(بحث روائى) ---- ۹۴
[سوره النور (۲۴): الآيات ۱۱ الى ۲۶] ---- ۹۸
اشاره ---- ۹۸
بيان ---- ۱۰۰
(بحث روائى) ---- ۱۰۷
[سوره النور (۲۴): الآيات ۲۷ الى ۳۴] ---- ۱۱۸
اشاره ---- ۱۱۸
(بيان) ---- ۱۲۱
(بحث روائى) ---- ۱۲۶
[سوره النور (۲۴): الآيات ۳۵ الى ۴۶] ---- ۱۳۱
اشاره ---- ۱۳۱
(بيان) ---- ۱۳۲
بحث فلسفى [فى معنى عليته تعالى للأشياء] ---- ۱۵۰
(بحث روائى) ---- ۱۵۱
[سوره النور (۲۴): الآيات ۴۷ الى ۵۷] ---- ۱۵۵

اشاره ----- ۱۵۵
(بیان) ----- ۱۵۷
(بحث روائی) ----- ۱۷۰
[سوره النور (۲۴): الآیات ۵۸ الی ۶۴] ----- ۱۷۴
اشاره ----- ۱۷۴
(بیان) ----- ۱۷۵
(بحث روائی) ----- ۱۸۱
(۲۵)سوره الفرقان مکیه و هی سبع و سبعون آیه(۷۷) ----- ۱۸۵
[سوره الفرقان (۲۵): الآیات ۱ الی ۳] ----- ۱۸۵
اشاره ----- ۱۸۵
(بیان) ----- ۱۸۵
(بحث روائی) ----- ۱۹۱
[سوره الفرقان (۲۵): الآیات ۴ الی ۲۰] ----- ۱۹۱
اشاره ----- ۱۹۱
(بیان) ----- ۱۹۴
(بحث روائی) ----- ۲۰۹
[سوره الفرقان (۲۵): الآیات ۲۱ الی ۳۱] ----- ۲۱۰
اشاره ----- ۲۱۰
(بیان) ----- ۲۱۱
(بحث روائی) ----- ۲۲۰
[سوره الفرقان (۲۵): الآیات ۳۲ الی ۴۰] ----- ۲۲۲
اشاره ----- ۲۲۲
(بیان) ----- ۲۲۲
(بحث روائی) ----- ۲۳۳
[سوره الفرقان (۲۵): الآیات ۴۱ الی ۶۲] ----- ۲۳۴
اشاره ----- ۲۳۴

(بیان) ---------- ۲۳۷
(بحث روائی) ---------- ۲۵۲
[سوره الفرقان (۲۵): الآیات ۶۳ الی ۷۷] ---------- ۲۵۳
اشاره ---------- ۲۵۳
(بیان) ---------- ۲۵۴
(بحث روائی) ---------- ۲۶۱
(۲۶)سوره الشعراء مکیه و هی مائتان و سبع و عشرون آیه(۲۲۷) ---------- ۲۶۴
[سوره الشعراء (۲۶): الآیات ۱ الی ۹] ---------- ۲۶۴
اشاره ---------- ۲۶۴
(بیان) ---------- ۲۶۴
(بحث عقلی متعلق بالعلم) [فی ارتباط الأشیاء بعلمه تعالی] ---------- ۲۶۷
(بحث روائی) ---------- ۲۶۹
[سوره الشعراء (۲۶): الآیات ۱۰ الی ۶۸] ---------- ۲۶۹
اشاره ---------- ۲۶۹
(بیان) ---------- ۲۷۳
[سوره الشعراء (۲۶): الآیات ۶۹ الی ۱۰۴] ---------- ۲۹۴
اشاره ---------- ۲۹۴
(بیان) ---------- ۲۹۶
(بحث روائی) ---------- ۳۰۸
[سوره الشعراء (۲۶): الآیات ۱۰۵ الی ۱۲۲] ---------- ۳۱۰
اشاره ---------- ۳۱۰
(بیان) ---------- ۳۱۱
(بحث روائی) ---------- ۳۱۴
[سوره الشعراء (۲۶): الآیات ۱۲۳ الی ۱۴۰] ---------- ۳۱۴
اشاره ---------- ۳۱۴
(بیان) ---------- ۳۱۵

(بحث روائی) ---------- ۳۱۸
[سوره الشعراء (۲۶): الآیات ۱۴۱ الی ۱۵۹] ---------- ۳۲۰
اشاره ---------- ۳۲۰
(بیان) ---------- ۳۲۰
[سوره الشعراء (۲۶): الآیات ۱۶۰ الی ۱۷۵] ---------- ۳۲۴
اشاره ---------- ۳۲۴
(بیان) ---------- ۳۲۵
[سوره الشعراء (۲۶): الآیات ۱۷۶ الی ۱۹۱] ---------- ۳۲۷
اشاره ---------- ۳۲۷
(بیان) ---------- ۳۲۸
(بحث روائی) ---------- ۳۲۹
[سوره الشعراء (۲۶): الآیات ۱۹۲ الی ۲۲۷] ---------- ۳۳۰
اشاره ---------- ۳۳۰
(بیان) ---------- ۳۳۱
کلام فی معنی نفی الظلم عنه تعالی ---------- ۳۴۰
[بیان] ---------- ۳۴۳
(بحث روائی) ---------- ۳۴۸
(۲۷)سوره النمل مکیه و هی ثلاث و تسعون آیه(۹۳) ---------- ۳۵۵
[سوره النمل (۲۷): الآیات ۱ الی ۶] ---------- ۳۵۵
اشاره ---------- ۳۵۵
(بیان) ---------- ۳۵۵
[سوره النمل (۲۷): الآیات ۷ الی ۱۴] ---------- ۳۵۷
اشاره ---------- ۳۵۷
(بیان) ---------- ۳۵۷
[سوره النمل (۲۷): الآیات ۱۵ الی ۴۴] ---------- ۳۶۲
اشاره ---------- ۳۶۲

(بیان) ---------- ۳۶۵
(کلام فی قصه سلیمان(ع)) ---------- ۳۸۴
۱ ما ورد من قصصه فی القرآن: ---------- ۳۸۴
۲ الثناء علیه فی القرآن: ---------- ۳۸۵
۳ ذکره(ع)فی العهد العتیق: ---------- ۳۸۵
۴ الروایات الوارده فی قصصه(ع): ---------- ۳۸۶
(بحث روائی) ---------- ۳۸۷
[سوره النمل (۲۷): الآیات ۴۵ الی ۵۳] ---------- ۳۸۸
اشاره ---------- ۳۸۸
(بیان) ---------- ۳۸۹
[سوره النمل (۲۷): الآیات ۵۴ الی ۵۸] ---------- ۳۹۲
اشاره ---------- ۳۹۲
(بیان) ---------- ۳۹۳
[سوره النمل (۲۷): الآیات ۵۹ الی ۸۱] ---------- ۳۹۴
اشاره ---------- ۳۹۴
(بیان) ---------- ۳۹۵
(بحث روائی) ---------- ۴۰۸
[سوره النمل (۲۷): الآیات ۸۲ الی ۹۳] ---------- ۴۱۱
اشاره ---------- ۴۱۱
(بیان) ---------- ۴۱۲
(بحث روائی) ---------- ۴۲۲
تعریف مرکز ---------- ۴۲۶

تفسیر المیزان المجلد ۱۵

اشاره

سرشناسه : طباطبائی، سیدمحمدحسین، ۱۲۸۱ - ۱۳۶۰.

عنوان و نام پدیدآور : تفسیر المیزان/ محمدحسین طباطبائی؛ ترجمه ناصر مکارم شیرازی... [و دیگران].

وضعیت ویراست : [ویراست ۲؟]

مشخصات نشر : قم: بنیاد علمی و فکری علامه طباطبائی ؛ تهران: مرکز نشر فرهنگی رجا: امیرکبیر، ۱۳۶۳-

مشخصات ظاهری : ۲۰ج.

شابک : ۱۶۰۰۰ریال(دوره کامل)

یادداشت : جلد ۱۱ و ۱۹ کتاب توسط سید محمدباقر موسوی همدانی ترجمه شده است.

یادداشت : ج.۱۱ (چاپ صد و بیست و هشتم: ۱۳۶۳).

یادداشت : ج.۱۹ (چاپ اول؟: ۱۳۶۳).

یادداشت : عنوان عطف: ترجمه تفسیر المیزان.

عنوان عطف : ترجمه تفسیر المیزان.

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : مکارم شیرازی، ناصر، ۱۳۰۵ -، مترجم

رده بندی کنگره : BP۹۸/ط۲۵م ۱۳۶۳ ۹۰۴۱

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۲۶

شماره کتابشناسی ملی : م ۶۳-۳۵۴۹

ص :۱

اشاره

(۲۳)سوره المؤمنون مکیه و هی مائه و ثمانی عشره آیه(۱۱۸)

[سوره المؤمنون (۲۳): الآیات ۱ الی ۱۱]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ اَلْمُؤْمِنُونَ (۱) اَلَّذِينَ هُمْ فِي صَلاٰتِهِمْ خٰاشِعُونَ (۲) وَ اَلَّذِينَ هُمْ عَنِ اَللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (۳) وَ اَلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكٰاةِ فٰاعِلُونَ (۴) وَ
اَلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حٰافِظُونَ (۵) إِلاّٰ عَلىٰ أَزْوٰاجِهِمْ أَوْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (۶) فَمَنِ اِبْتَغىٰ وَرٰاءَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ
اَلْعٰادُونَ (۷) وَ اَلَّذِينَ هُمْ لِأَمٰانٰاتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ رٰاعُونَ (۸) وَ اَلَّذِينَ هُمْ عَلىٰ صَلَوٰاتِهِمْ يُحٰافِظُونَ (۹) أُولٰئِكَ هُمُ اَلْوٰارِثُونَ (۱۰)
اَلَّذِينَ يَرِثُونَ اَلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ (۱۱)

بيان

فی السوره دعوه إلی الإیمان باللّه و الیوم الآخر و تمییز المؤمنین من الکفار بذکر ما لهؤلاء من جمیل صفات العبودیه و ما لأولئک من رذائل الأخلاق و سفاسف الأعمال، و تعقیب ذلک بالتبشیر و الإنذار،و قد تضمن الإنذار ذکر عذاب الآخره و ما غشی

ص: ۵

الأمم المكذبين للدعوه الحقه من عذاب الاستئصال فى مسير الدعوه آخذا من زمن نوح إلى زمن المسيح عيسى بن مريم(ع).

و السوره مكيه،و سياق آياتها يشهد بذلك.

قوله تعالى:« قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ »قال الراغب: الفلح -بالفتح فالسكون- الشق،و قيل:الحديد بالحديد يفلح أى يشق،و الفلاح الظفر و إدراك بغيه و ذلك ضربان:دنيوى و أخروى،فالدنيوى الظفر بالسعادات التى تطيب بها الحياه الدنيا و هو البقاء و الغنى و العز،و الأخروى أربعه أشياء:بقاء بلا فناء،و غنى بلا فقر، و عز بلا ذل،و علم بلا جهل،و لذلك قيل:لا عيش إلا عيش الآخره.انتهى ملخصا.

فتسميه الظفر بالسعاده فلاحا بعنايه أن فيه شقا للمانع و كشفا عن وجه المطلوب.

و الإيمان هو الإذعان و التصديق بشىء بالالتزام بلوازمه،فالإيمان بالله فى عرف القرآن التصديق بوحدانيته و رسله و اليوم الآخر و بما جاءت به رسله مع الاتباع فى الجمله،و لذا نجد القرآن كلما ذكر المؤمنين بوصف جميل أو أجر جزيل شفع الإيمان بالعمل الصالح كقوله: «مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰاةً طَيِّبَةً :النحل-٩٧«و قوله اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ طُوبىٰ لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ» :الرعد-٢٩،إلى غير ذلك من الآيات و هى كثيره جدا.

و ليس مجرد الاعتقاد بشىء إيمانا به حتى مع عدم الالتزام بلوازمه و آثاره فإن الإيمان علم بالشىء مع السكون و الاطمئنان إليه و لا ينفك السكون إلى الشىء من الالتزام بلوازمه لكن العلم ربما ينفك من السكون و الالتزام ككثير من المعتادين بالأعمال الشنيعه أو المضره فإنهم يعترفون بشناعه عملهم أو ضرره لكنهم لا يتركونها معتذرين بالاعتياد و قد قال تعالى: «وَ جَحَدُوا بِهٰا وَ اسْتَيْقَنَتْهٰا أَنْفُسُهُمْ» :النمل-١۴.

و الإيمان و إن جاز أن يجتمع مع العصيان عن بعض لوازمه فى الجمله لصارف من الصوارف النفسانيه يصرف عنه لكنه لا يتخلف عن لوازمه بالجمله.

قوله تعالى:« اَلَّذِينَ هُمْ فِي صَلاٰتِهِمْ خٰاشِعُونَ » الخشوع تأثر خاص من المقهور قبال القاهر بحيث ينقطع عن غيره بالتوجه إليه و الظاهر أنه من صفات القلب ثم ينسب إلى الجوارح أو غيرها بنوع من العنايه

كقوله(ص)-على ما روى: -فيمن يعبث بلحيته

فی الصلاه:أما إنه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه ،و قوله تعالی: «وَ خَشَعَتِ الْأَصْوٰاتُ لِلرَّحْمٰنِ» :طه:۱۰۸.

و الخشوع بهذا المعنی جامع لجمیع المعانی التی فسر بها الخشوع فی الآیه،کقول بعضهم:هو الخوف و سکون الجوارح،و قول آخرین:غض البصر و خفض الجناح، أو تنکیس الرأس،أو عدم الالتفات یمینا و شمالا،أو إعظام المقام و جمع الاهتمام، أو التذلل إلی غیر ذلک.

و هذه الآیه إلی تمام ثمانی آیات تذکر من أوصاف المؤمنین ما یلازم کون وصف الإیمان حیا فعالا یترتب علیه آثاره المطلوبه منه لیترتب علیه الغرض المطلوب منه و هو الفلاح فإن الصلاه توجه ممن لیس له إلا الفقر و الذله إلی ساحه العظمه و الکبریاء و منبع العزه و البهاء و لازمه أن یتأثر الإنسان الشاعر بالمقام فیستغرق فی الذله و الهوان و ینتزع قلبه عن کل ما یلهوه و یشغله عما یهمه و یواجهه،فلو کان إیمانه إیمانا صادقا جعل همه حین التوجه إلی ربه هما واحدا و شغله الاشتغال به عن الالتفات إلی غیره فما ذا یفعل الفقیر المحض إذا لقی غنی لا یقدر بقدر؟و الذلیل إذا واجه عزه مطلقه لا یشوبها ذله و هوان؟ و هذا معنی

قوله(ص)فی حدیث حارثه بن النعمان المروی فی الکافی،و غیره:

إن لکل حق حقیقه و لکل صواب نورا. الحدیث.

کلام فی معنی تأثیر الإیمان

الدین -کما تقدم مرارا-السنه الاجتماعیه التی یسیر بها الإنسان فی حیاته الدنیویه الاجتماعیه،و السنن الاجتماعیه متعلقه بالعمل مبنیا علی أساس الاعتقاد فی حقیقه الکون و الإنسان الذی هو جزء من أجزائه،و من هنا ما نری أن السنن الاجتماعیه تختلف باختلاف الاعتقادات فیما ذکر.

فمن یثبت للکون ربا یبتدئ منه و سیعود إلیه و للإنسان حیاه باقیه لا تبطل بموت و لا فناء یسیر فی الحیاه سیره یراعی فی الأعمال الجاریه فیها سعاده الحیاه الباقیه و التنعم فی الدار الآخره الخالده.

و من يثبت له إلها أو آلهه تدبر الأمر بالرضا و السخط من غير معاد إليه يعيش عيشه نظمها على أساس التقرب من الآلهه و إرضائها للفوز بأمتعه الحياه و الظفر بما يشتهيه من نعم الدنيا.

و من لا يهتم بأمر الربوبيه و لا يرى للإنسان حياه خالده كالماديين و من يحذو حذوهم يبنى سنه الحياه و القوانين الموضوعه الجاريه فى مجتمعه على أساس التمتع من الحياه الدنيا المحدوده بالموت.

فالدين سنه عمليه مبنيه على الاعتقاد فى أمر الكون و الإنسان بما أنه جزء من أجزائه،و ليس هذا الاعتقاد هو العلم النظرى المتعلق بالكون و الإنسان فإن العلم النظرى لا يستتبع بنفسه عملا و إن توقف عليه العمل بل هو العلم بوجوب الجرى على ما يقتضيه هذا النظر و إن شئت فقل:الحكم بوجوب اتباع المعلوم النظرى و الالتزام به و هو العلم العملى كقولنا: يجب أن يعبد الإنسان الإله تعالى و يراعى فى أعماله ما يسعد به فى الدنيا و الآخره معا.

و معلوم أن الدعوه الدينيه متعلقه بالدين الذى هو السنه العمليه المبنيه على الاعتقاد،فالإيمان الذى يتعلق به الدعوه هو الالتزام بما يقتضيه الاعتقاد الحق فى الله سبحانه و رسله و اليوم الآخر و ما جاءت به رسله و هو علم عملى.

و العلوم العمليه تشتد و تضعف حسب قوه الدواعى و ضعفها فإنا لسنا نعمل عملا قط إلا طمعا فى خير أو نفع أو خوفا من شر أو ضرر،و ربما رأينا وجوب فعل لداع يدعو إليه ثم صرفنا عنه داع آخر أقوى منه و آثر،كمن يرى وجوب أكل الغذاء لرفع ما به من جوع فيصرفه عن ذلك علمه بأنه مضر له مناف لصحته،فبالحقيقه يقيد الداعى المانع بما معه من العلم إطلاق العلم الذى مع الداعى الممنوع كأنه يقول مثلا:

إن التغذى لرفع الجوع ليس يجب مطلقا بل إنما يجب إذا لم يكن مضرا بالبدن مضادا لصحته.

و من هنا يظهر أن الإيمان بالله إنما يؤثر أثره من الأعمال الصالحه و الصفات الجميله النفسانيه كالخشيه و الخشوع و الإخلاص و نحوها إذا لم تغلبه الدواعى الباطله و التسويلات الشيطانيه،و بعباره أخرى إذا لم يكن إيمانا مقيدا بحال دون حال كما قال تعالى:

«وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللّٰهَ عَلىٰ حَرْفٍ» :الحج-۶۱.

فالمؤمن إنما یکون مؤمنا علی الإطلاق إذا جرت أعماله علی حاق ما یقتضیه إیمانه من الخشوع فی عبادته و الإعراض عن اللغو و نحوه.

[بیان]

قوله تعالی:« وَ اَلَّذِینَ هُمْ عَنِ اَللَّغْوِ مُعْرِضُونَ » اللغو من الفعل هو ما لا فائده فیه و یختلف باختلاف الأمور التی تعود علیها الفائده فرب فعل هو لغو بالنسبه إلی أمر و هو بعینه مفید مجد بالنسبه إلی أمر آخر.

فاللغو من الأفعال فی نظر الدین الأعمال المباحه التی لا ینتفع بها فی الآخره أو فی الدنیا بحیث ینتهی أیضا إلی الآخره کالأکل و الشرب بداعی شهوه التغذی اللذین یتفرع علیهما التقوی علی طاعه الله و عبادته،فإذا کان الفعل لا ینتفع به فی آخره و لا فی دنیا تنتهی بنحو إلی آخره فهو اللغو و بنظر أدق هو ما عدا الواجبات و المستحبات من الأفعال.

و لم یصف سبحانه المؤمنین بترک اللغو مطلقا فإن الإنسان فی معرض العثره و مزله الخطیئه و قد عفا عن السیئات إذا اجتنبت الکبائر کما قال: «إِنْ تَجْتَنِبُوا کَبٰائِرَ مٰا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُکَفِّرْ عَنْکُمْ سَیِّئٰاتِکُمْ وَ نُدْخِلْکُمْ مُدْخَلاً کَرِیماً» :النساء:۳۱.

بل وصفهم بالإعراض عن اللغو دون مطلق ترکه و الإعراض یقتضی أمرا بالفعل یدعو إلی الاشتغال به فیترکه الإنسان صارفا وجهه عنه إلی غیره لعدم اعتداده به و اعتنائه بشأنه،و لازمه ترفع النفس عن الأعمال الخسیسه و اعتلاؤها عن الاشتغال بما ینافی الشرف و الکرامه و تعلقها بعظائم الأمور و جلائل المقاصد.

و من حق الإیمان أن یدعو إلی ذلک فإن فیه تعلقا بساحه العظمه و الکبریاء و منبع العزه و المجد و البهاء و المتصف به لا یهتم إلا بحیاه سعیده أبدیه خالده فلا یشتغل إلا بما یستعظمه الحق و لا یستعظم ما یهتم به سفله الناس و جهلتهم ،وَ إِذٰا خٰاطَبَهُمُ اَلْجٰاهِلُونَ قٰالُوا سَلاٰماً ، وَ إِذٰا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا کِرٰاماً .

و من هنا یظهر أن وصفهم بالإعراض عن اللغو کنایه عن علو همتهم و کرامه نفوسهم.

قوله تعالی:« وَ اَلَّذِینَ هُمْ لِلزَّکٰاهِ فٰاعِلُونَ »ذکر الزکاه مع الصلاه قرینه علی کون المراد بها الإنفاق المالی دون الزکاه بمعنی تطهیر النفس بإزاله رذائل الأخلاق عنها و لعل المراد بالزکاه المعنی المصدری و هو تطهیر المال بالإنفاق منه دون المقدار المخرج من المال

فإن السوره مكيه و تشريع الزكاه المعهوده فى الإسلام إنما كان بالمدينه ثم صار لفظ الزكاه علما بالغلبه للمقدار المعين المخرج من المال.

و بهـذا يسـتصح تعلق« لِلزَّكاهِ »بقوله:« فاعِلُونَ »و المعنى:الـذين هم فاعلون للإنفاق المالى و أما لو كان المراد بالزكاه نفس المال المخرج لم يصـح تعلقه به إذ المال المخرج ليس فعلا متعلقا بفاعل،و لذا قدر بعض من حمل الزكاه على هذا المعنى لفظ التأديه فكان التقـدير عنـده و الذين هم لتأديه الزكاه فاعلون،و لذا أيضا فسر بعضـهم الزكاه بتطهير النفس عن الأخلاق الرذيله فرارا من تعلق« لِلزَّكاهِ »بقوله:« فاعِلُونَ ».

و فى التعبير بقوله:« لِلزَّكاهِ فاعِلُونَ »دون أن يقول للزكاه مؤدون أو ما يؤدى معناه دلاله على عنايتهم بها كقول القائل:إنى شارب لمن أمره بشرب الماء فإذا أراد أن يفيد عنايته به قال:إنى فاعل.

و من حق الإيمان بالله أن يـدعو إلى هـذا الإنفاق المالى فإن الإنسان لا ينال كمال سـعادته إلا فى مجتمع سـعيد ينال فيه كل ذى حق حقه و لا سـعاده لمجتمع إلا مع تقـارب الطبقـات فى التمتع من مزايـا الحيـاه و أمتعه العيش،و الإنفاق المالى على الفقراء و المساكين من أقوى ما يدرك به هذه البغيه.

قوله تعـالى:« وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ »إلى آخر الآيـات الثلاث،الفروج جمع فرج و هو-على مـا قيل-ما يسوء ذكره من الرجال و النساء،و حفظ الفروج كنايه عن الاجتناب عن المواقعه سواء كانت زنا أو لواطا أو بإتيان البهائم و غير ذلك.

و قوله:« إِلاّ عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ »اسـتثناء من حفظ الفروج،و الأزواج الحلائل من النساء،و ما ملكت أيمانهم الجوارى المملوكه فإنهم غير ملومين فى مس الأزواج الحلائل و الجوارى المملوكه.

و قوله:« فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ »تفريع على ما تقدم من الاسـتثناء و المستثنى منه أى إذا كان مقتضى الإيمان حفـظ الفروج مطلقـا إلا عن طـائفتين من النسـاء همـا الأزواج و ما ملكت أيمانهم،فمن طلب وراء ذلك أى مس غير الطائفتين فأولئك هم المتجاوزون عن الحد الذى حده الله تعالى لهم.

و قد تقدم كلام ما فيما يستعقبه الزنا من فساد النوع فى ذيل قوله: «وَ لا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَهً وَ ساءَ سَبِيلاً» :إسراء-۳۲ فى الجزء الثالث عشر من الكتاب.

ص:۱۰

قوله تعالى:« وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ رَاعُونَ » الأمانه مصدر فى الأصل و ربما أريد به ما اؤتمن عليه من مال و نحوه،و هو المراد فى الآيه،و لعل جمعه للدلاله على أقسام الأمانات الدائره بين الناس،و ربما قيل بعموم الأمانات لكل تكليف إلهى اؤتمن عليه الإنسان و ما اؤتمن عليه من أعضائه و جوارحه و قواه أن يستعملها فيما فيه رضا الله و ما ائتمنه عليه الناس من الأموال و غيرها،و لا يخلو من بعد بالنظر إلى ظاهر اللفظ و إن كان صحيحا من جهه تحليل المعنى و تعميمه.

و العهد بحسب عرف الشرع ما التزم به بصيغه العهد شقيق النذر و اليمين،و يمكن أن يراد به مطلق التكليف المتوجه إلى المؤمن فإن الله سبحانه سمى إيمان المؤمن به عهدا و ميثاقا منه على ما توجه إليه من تكاليفه تعالى بقوله: «أَ وَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ» :البقره-١٠٠،و قوله: «وَ لَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ» :الأحزاب-١٥،و لعل إراده هذا المعنى هو السبب فى إفراد العهد لأن جميع التكاليف يجمعها عهد واحد بإيمان واحد.

و الرعايه الحفظ،و قد قيل:إن أصل الرعى حفظ الحيوان إما بغذائه الحافظ لحياته أو بذب العدو عنه ثم استعمل فى الحفظ مطلقا.انتهى.و لعل العكس أقرب إلى الاعتبار.

و بالجمله الآيه تصف المؤمنين بحفظ الأمانات من أن تخان و العهد من أن ينقض، و من حق الإيمان أن يدعو إلى ذلك فإن فى إيمانه معنى السكون و الاستقرار و الاطمئنان فإذا آمن أحد فى أمانه أودعها عنده أو عهد عاهده و قطع على ذلك استقر عليه و لم يتزلزل بخيانه أو نقض.

قوله تعالى:« وَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ »جمع الصلاه و تعليق المحافظه عليه دليل على أن المراد المحافظه على العدد فهم يحافظون على أن لا يفوتهم شىء من الصلوات المفروضه و يراقبونها دائما و من حق إيمانهم أن يدعوهم إلى ذلك.

و لذلك جمعت الصلاه هاهنا و أفردت فى قوله:« فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ »لأن الخشوع فى جنس الصلاه على حد سواء فلا موجب لجمعها.

قوله تعالى:« أُولٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »

الفردوس أعلى الجنان،و قد تقدم معناها و شيء من وصفها في ذيل قوله تعالى: «كٰانَتْ لَهُمْ جَنّٰاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً» :الكهف-١٠٧.

و قوله:« اَلَّذِينَ يَرِثُونَ »إلخ،بيان لقوله:« اَلْوٰارِثُونَ »و وراثتهم الفردوس هو بقاؤها لهم بعد ما كانت في معرض أن يشاركهم فيها غيرهم أو يملكها دونهم لكنهم زالوا عنها فانتقلت إليهم،و قد ورد في الروايات أن لكل إنسان منزلا في الجنه و منزلا في النار فإذا مات و دخل النار ورث أهل الجنه منزله،و ستوافيك إن شاء الله في بحث روائي.

(بحث روائی)

في تفسير القمي،":و قوله:« اَلَّذِينَ هُمْ فِي صَلاٰتِهِمْ خٰاشِعُونَ »قال:غضك بصرك في صلاتك و إقبالك عليها.

أقول:و قد تقدم أنه من لوازم الخشوع فهو تعريف بلازم المعنى،

و نظيره ما رواه في الدر المنثور،عن عده من أصحاب الجوامع عن علي(ع): أن لا تلتفت في صلاتك.

و في الكافي،بإسناده عن مسمع بن عبد الملك عن أبي عبد الله(ع)قال:قال رسول الله ص: ما زاد خشوع الجسد على ما في القلب فهو عندنا نفاق.

أقول:

و روى في الدر المنثور،عن عده من أصحاب الجوامع عن أبي الدرداء عنه (ص)ما في معناه و لفظه: استعيذوا بالله من خشوع النفاق.قيل له:و ما خشوع النفاق؟قال:أن ترى الجسد خاشعا و القلب ليس بخاشع

و في المجمع،: في الآيه روي-أن النبي ص رأى رجلا يعبث بلحيته في صلاته فقال:

أما إنه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه.

و فيه،روي: أن رسول الله ص كان يرفع بصره إلى السماء في صلاته-فلما نزلت الآيه طأطأ رأسه و رمى ببصره إلى الأرض.

أقول:و رواهما في الدر المنثور،عن جمع من أصحاب الكتب عنه(ص) . و في معنى الخشوع روايات أخر كثيره.

و في إرشاد المفيد،في كلام لأمير المؤمنين(ع): كل قول ليس فيه لله ذكر فهو لغو.

و فی المجمع،:فی قوله:« وَ الَّذِینَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ »:و روی عن أبی عبد الله (ع)قال: أن یتقول الرجل علیک بالباطل أو یأتیک بما لیس فیک-فتعرض عنه لله- و فی روایه أخری أنه الغناء و الملاهی.

أقول:ما فی روایتی المجمع،من قبیل ذکر بعض المصادیق و ما فی روایه الإرشاد، من التعمیم بالتحلیل

و فی الخصال،عن جعفر بن محمد عن أبیه عن آبائه(ع)قال:قال أمیر المؤمنین(ع): تحل الفروج بثلاثه وجوه:نکاح بمیراث و نکاح بلا میراث و نکاح بملک یمین

و فی الکافی،بإسناده عن إسحاق بن أبی ساره قال: سألت أبا عبد الله(ع)عنها یعنی المتعه فقال لی:حلال فلا تتزوج إلا عفیفه إن الله عز و جل یقول:« وَ الَّذِینَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ »فلا تضع فرجک حیث لا تأمن علی درهمک.

أقول:و فیه تعمیم لمعنی حفظ الفروج بحیث یشمل ترک نکاح غیر العفیفه.

و الروایتان کما تری تعدان المتعه نکاحا و ازدواجا و الأمر علی ذلک فیما لا یحصی من روایات أئمه أهل البیت(ع)و علی ذلک مبنی فقههم.

و الأمر علی ذلک فی عرف القرآن و فی عهد النبی ص و ذلک أنه لیس وراء ملک الیمین إلا نوعان نکاح علی الزوجیه و زنا و قد حرم الله الزنا و أکد فی تحریمه فی آیات کثیره فی السور المکیه و المدنیه کسورتی الفرقان و الإسراء و هما مکیتان و سورتی النور و الممتحنه و هما مدنیتان.

ثم سماه سفاحا و حرمه فی سورتی النساء و المائده ثم سماه فحشاء و منع عنه و ذمه فی سور الأعراف و العنکبوت و یوسف و هی مکیه و فی سور النحل و البقره و النور و هی أو الأخیرتان مدنیتان.

ثم سماه فاحشه و نهی عنها فی سور الأعراف و الأنعام و الإسراء و النمل و العنکبوت و الشوری و النجم و هی مکیه و فی سور النساء و النور و الأحزاب و الطلاق و هی مدنیه.

و نهی عنه أیضا بالتکنیه فی آیه المؤمنون:« فَمَنِ ابْتَغیٰ وَرٰاءَ ذٰلِکَ فَأُولٰئِکَ هُمُ الْعٰادُونَ »و نظیره فی سوره المعارج و کان من المعروف فی أول البعثه من أمر الإسلام

أنه يحرم الخمر و الزنا (۱).

فلو لم يكن التمتع ازدواجا و المتمتع بها زوجا مشموله لقوله:« إِلاّ عَلىٰ أَزْوٰاجِهِمْ » لكان زنا و من المعلوم بالضروره أن التمتع كان معمولا به فى مكه قبل الهجره فى الجمله و كذا فى المدينه بعد الهجره فى الجمله و لازم ذلك أن يكون زنا أباحه النبى ص لضروره اقتضته لو أغمضنا عن قوله تعالى: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ» :النساء:۲۴ و لازم ذلك أن تكون آيه سوره المؤمنون« إِلاّ عَلىٰ أَزْوٰاجِهِمْ أَوْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُمْ »-إلى قوله- اَلْعٰادُونَ »،ناسخه لإباحه التمتع السابقه ثم يكون تحليل النبى ص أو تحليل آيه سوره النساء ذلك ناسخا لجميع الآيات المكيه الناهيه عن الزنا و بعض المدنيات مما نزلت قبل التحليل،و خاصه على قول من يقول:إن النبى ص حلله ثم حرمه مره (۲)بعد مره فإن لازمه نسخ الآيات الناهيه عن الزنا ثم إحكامها ثم نسخها ثم إحكامها مرات و لم يقل أحد من المسلمين بكونها منسوخه فضلا عن النسخ بعد النسخ و هل هذا إلا لعب بكلام الله تجل عنه ساحه النبى ص؟.

على أن الآيات الناهيه عن الزنا آبيه بسياقها و ما فيه من التعليل آب عن النسخ و كيف يعقل أن يسمى الله سبحانه فعلا من الأفعال فاحشه فحشاء و سبيل سوء و يخبر أن من يفعله يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامه و يخلد فيه مهانا ثم يجيز ارتكابه ثم يمنع ثم يجيز.

على أن أصل نسخ القرآن بالحديث لا معنى له (۳).

على أن عده من المرتكبين لنكاح المتعه فى عهد النبى ص كانوا من معاريف الصحابه و هم على ما هم عليه من حفظ ظواهر الأحكام فكيف استجازوا النبى ص فى الفحشاء؟و كيف لم يستخبثوه؟و كيف رضوا بالعار و الشنار و قد تمتع زبير من

۱- ۱) على ما رواه ابن هشام فى السيره و قد أوردنا الروايه فى بحث روائى فى ذيل قوله تعالى:«إنما الخمر و الميسر»الآيه من سوره المائده ج ۶ ص ۱۴۶ من الكتاب.

۲- ۲) و قد أوردنا الروايات الداله على ذلك فى البحث الروائى الموضوع فى ذيل قوله تعالى:«فما استمتعتم به فآتوهن أجورهن»الآيه النساء:۲۴ ج ۴ ص ۳۰۸.

۳- ۳) و قد بين ذلك فى علم الأصول بما لا مزيد عليه.

أسماء بنت أبی بکر فولدت له عبد الله بن زبیر و أخاه عروه بن زبیر و ورثاه بعد قتله و هم جمیعا من الصحابه.

علی أن الروایات الداله علی نهی النبی ص عن المتعه متهافته،و ما تسلموا علیه من قول عمر بن الخطاب حینما نهی أیام خلافته عن المتعه و ما ورد عنه حول القصه یکذب هذه الروایات و یدفع حدیث النسخ.و قد مر شطر من الکلام فی هذا المعنی فی تفسیر قوله تعالی: «وَ أُحِلَّ لَکُمْ مٰا وَرٰاءَ ذٰلِکُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوٰالِکُمْ مُحْصِنِینَ غَیْرَ مُسٰافِحِینَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِیضَةً» :النساء-۲۴.

و من لطیف الدلاله علی کون المتعه نکاحا غیر سفاح اقتران جمله« فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ » إلخ بقوله قبله متصلا به« مُحْصِنِینَ غَیْرَ مُسٰافِحِینَ ».

فقد تبین بما ذکرنا أن المتعه فی الشرع و فی عرف القرآن نکاح و زوجیه لا زنا و سفاح سواء قلنا بکونها منسوخه بعد بکتاب أو سنه کما علیه معظم أهل السنه أو لم نقل کما علیه الشیعه تبعا لأئمه أهل البیت(ع).

فالنکاح ینقسم إلی نوعین:نکاح دائم له أحکامه من العدد و الإرث و الإحصان و النفقه و الفراش و العده و غیر ذلک.و نکاح موقت مبنی علی التسهیل له من أحکام النکاح الدائم اختصاص المرأه بالرجل و لحقوق الأولاد و العده.

و بذلک یظهر فساد ما ذکره جمع منهم أن المتعه لیست بزوجیه و لو کانت زوجیه لجرت فیها أحکامها من العدد و المیراث و النفقه و الإحصان و غیر ذلک و ذلک أن الزوجیه تتقسم إلی دائمه لها أحکامها و موقته مبنیه علی التسهیل یجری فیها بعض تلک الأحکام کما تقدم.

و الإشکال بأن تشریع الازدواج إنما هو للتناسل بدوام الزوجیه و الغرض من المتعه مجرد دفع الشهوه بصب الماء و سفحه فهی سفاح و لیست بنکاح.

فیه أن التوسل إلی النسل حکمه لا عله یدور مدارها التشریع و إلا لم یجز نکاح العاقر و الیائسه و الصبی و الصبیه.

علی أن المتعه لا تنافی الاستیلاد و من الشاهد علی ذلک عبد الله و عروه ابنا زبیر أولدا له من أسماء بنت أبی بکر من المتعه.

و كذا الإشكال بأن المتعه تجعل المرأه ملعبه يلعب بها الرجل كالكره الدائره بين الصوالج ذكره صاحب المنار و غيره.

فيه أن هـذا يرد أول ما يرد على الشارع فإن من الضـرورى أن المتعه كانت دائره فى صدر الإسـلام برهه من الزمان فما أجاب به الشارع كان هو جوابنا.

و ثانيا أن جميع ما يقصد بالمتعه من لذه أو دفع شـهوه أو استيلاد أو استئناس أو غير ذلك مشتركه بين الرجل و المرأه فلا معنى لجعلها ملعبه له دون العكس إلا أن يكابر مكابر.

و للكلام تتمه ستوافيك فى بحث مستقل إن شاء الله تعالى.

و فى الـدر المنثور،أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صـححه عن ابن أبى مليكه قال": سألت عائشه عن متعه النساء-قـالت:بينى و بينكم كتـاب الله و قرأت- « وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حٰافِظُونَ إِلاّٰ عَلىٰ أَزْوٰاجِهِمْ-أَوْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُمْ »-فمن ابتغى وراء ما زوجه الله أو ملكه فقد عدا.

أقول:و روى نظيره عن القاسم بن محمد،و قد تبين بما قدمنا أن المتمتع بها زوج و أن الآيه تجيزها على خلاف ما فى الروايه.

و فى تفسير القمى،":« فَمَنِ ابْتَغىٰ وَرٰاءَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْعٰادُونَ »-قال:من جاوز ذلك.

و فيه،":

وَ الَّذِينَ هُمْ عَلىٰ صَلَوٰاتِهِمْ يُحٰافِظُونَ

»-قال:على أوقاتها و حدودها.

و فى الكافى،بإسناده عن الفضيل بن يسار قال: سألت أبا عبد الله(ع)عن قول الله عز و جل-:« وَ الَّذِينَ هُمْ عَلىٰ صَلَوٰاتِهِمْ يُحٰافِظُونَ »-قال هى الفريضه-قلت:

« اَلَّذِينَ هُمْ عَلىٰ صَلاٰتِهِمْ دٰائِمُونَ »قال:هى النافله.

و فى المجمع،روى عن النبى ص أنه قال: ما منكم من أحد إلا له منزلان:

منزل فى الجنه و منزل فى النار-فإن مات و دخل النار ورث أهل الجنه منزله:

أقول:و روى مثله القمى فى تفسيره بإسناده عن أبى بصير عن أبى عبد الله(ع)

فى حديث مفصل و تقدم نظيره فى قوله تعالى: «وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَهِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ» :مريم:۳۹ فى الجزء السابق من الكتاب.

(بحث حقوقی اجتماعی)

لا ریب أن الذی یدعو الإنسان و یبعثه نحو الاستنان بالسنن الاجتماعیه أو وضع القوانین الجاریه فی المجتمع البشری تنبهه لحوائج الحیاه و توسله بوضعها و العمل بها إلی رفعها.

و کلما کانت الحاجه أبسط و إلی الطبیعه الساذجه أقرب کان التوسل إلی رفعها أوجب و الإهمال فی دفعها أدهی و أضر فما الحاجه إلی أصل التغذی و الحیاه تدور معه کالحاجه إلی التنعم بألوان الطعام و أنواع الفواکه و هکذا.

و من الحوائج الأولیه الإنسانیه حاجه کل من صنفیه:الذکور و الإناث إلی الآخرین بالنکاح و المباشره،و لا ریب أن المطلوب بالنظر إلی الصنع و الإیجاد بذلک بقاء النسل و قد جهز الإنسان بغریزه شهوه النکاح للتوسل به إلی ذلک.

و لذلک نجد المجتمعات الإنسانیه التی نشاهدها أو نسمع بأخبارها مستنه بسنه الازدواج و تکوین البیت،و علی ذلک کانت منذ أقدم عهودها فلم یضمن بقاء النسل إلا الازدواج.

و لا یدفع هذا الذی ذکرنا أن المدنیه الحدیثه وضعت سنه الازدواج علی أصل الاشتراک فی الحیاه دون أصل التناسل أو إرضاء الغریزه فإن هذا البناء علی کونه بناء محدثا غیر طبیعی لم یبعث حتی الآن شیئا من المجتمعات المستنه بها علی شیوع هذه الشرکه الحیویه بین الرجال أنفسهم أو النساء أنفسهن و لیس إلا لمباینته ما تبعث إلیه الطبیعه الإنسانیه.

و بالجمله الازدواج سنه طبیعیه لم تزل و لا تزال دائره فی المجتمعات البشریه و لا یزاحم هذه السنه الطبیعیه فی مسیرها إلا عمل الزنا الذی هو أقوی مانع من تکون البیوت و تحمل کلفه الازدواج و حمل أثقاله بانصراف غریزه الشهوه إلیه المستلزم لانهدام البیت و انقطاع النسل.

و لذا کانت المجتمعات الدینیه أو الطبیعه الساذجه تستشنعها و تعدها فاحشه منکره و تتوسل إلی المنع عنه بأی وسیله ممکنه،و المجتمعات المتمدنه الحدیثه و إن لم

ص: ۱۷

تسد سبیله بالجمله و لم تمنع عنه ذلک المنع لکنها مع ذلک لا تستحسنه لما ترى من مضادته العمیقه لتکون البیوت و ازدیاد النفوس و بقاء النسل،و تحتال إلى تقلیله بلطائف الحیل و تروج سنه الازدواج و تدعو إلى تکثیر الأولاد بجعل الجوائز و ترفیع الدرجات و غیر ذلک من المشوقات.

غیر أنه على الرغم من کون سنه الازدواج الدائم سنه قانونیه متبعه فی جمیع المجتمعات الإنسانیه فی العالم و تحریض الدول علیها و احتیالها لتضعیف أمر الزنا و صرف الناس لا سیما الشبان و الفتیات عنه لا یزال یوجد فی جمیع البلاد صغیرتها و کبیرتها معاهد لهذا العمل الهادم لبنیه المجتمع علنیه أو سریه على اختلاف السنن الجاریه فیها.

و هذا أوضح حجه على أن سنه الازدواج الدائم لا تفی برفع هذه الحاجه الحیویه للنوع،و أن الإنسانیه بعد فی حاجه إلى تتمیم نقیصتها هذه،و أن من الواجب على من بیده زمام التقنین أن یتوسع فی أمر الازدواج.

و لذلک شفع شارع الإسلام سنه الازدواج الدائم بسنه الازدواج الموقت تسهیلا للأمر و شرط فیه شروطا ترتفع بها محاذیر الزنا من اختلاط المیاه و اختلال الأنساب و المواریث و انهدام البیوت و انقطاع النسل و عدم لحوق الأولاد و هی اختصاص المرأه بالرجل و العده إذا افترقا و لحوق الأولاد ثم لها ما اشترطت على زوجها و لیس فیه على الرجل شیء من کلفه الازدواج الدائم و مشقته.

و لعمر الحق إنها لمن مفاخر الإسلام فی شریعته السهله السمحه نظیر الطلاق و تعدد الزوجات و کثیر من قوانینه و لکن ما تغنی الآیات و النذر عن قوم لا یسمعون یقول القائل:لئن أزنی أحب إلی من أن أتمتع أو أمتع.

[سوره المؤمنون (۲۳): الآیات ۱۲ الی ۲۲]

اشاره

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا اَلْإِنْسانَ مِنْ سُلالَهٍ مِنْ طِینٍ (۱۲) ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَهً فِی قَرارٍ مَکِینٍ (۱۳) ثُمَّ خَلَقْنَا اَلنُّطْفَهَ عَلَقَهً فَخَلَقْنَا اَلْعَلَقَهَ مُضْغَهً فَخَلَقْنَا اَلْمُضْغَهَ عِظاماً فَکَسَوْنَا اَلْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَکَ اَللّهُ أَحْسَنُ اَلْخالِقِینَ (۱۴) ثُمَّ إِنَّکُمْ بَعْدَ ذلِکَ لَمَیِّتُونَ (۱۵) ثُمَّ إِنَّکُمْ یَوْمَ اَلْقِیامَهِ تُبْعَثُونَ (۱۶) وَ لَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَکُمْ سَبْعَ طَرائِقَ وَ ما کُنّا عَنِ اَلْخَلْقِ غافِلِینَ (۱۷) وَ أَنْزَلْنا مِنَ اَلسَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْکَنّاهُ فِی اَلْأَرْضِ وَ إِنّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ (۱۸) فَأَنْشَأْنا لَکُمْ بِهِ جَنّاتٍ مِنْ نَخِیلٍ وَ أَعْنابٍ لَکُمْ فِیها فَواکِهُ کَثِیرَهٌ وَ مِنْها تَأْکُلُونَ (۱۹) وَ شَجَرَهً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَیْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَ صِبْغٍ لِلْآکِلِینَ (۲۰) وَ إِنَّ لَکُمْ فِی اَلْأَنْعامِ لَعِبْرَهً نُسْقِیکُمْ مِمّا فِی بُطُونِها وَ لَکُمْ فِیها مَنافِعُ کَثِیرَهٌ وَ مِنْها تَأْکُلُونَ (۲۱) وَ عَلَیْها وَ عَلَى اَلْفُلْکِ تُحْمَلُونَ (۲۲)

بیان

لما ذکر سبحانه فلاح المؤمنین بما عندهم من الأوصاف الجمیله عقبه بشرح خلقهم و خلق ما أنعم علیهم من النعم مقرونا بتدبیر أمرهم تدبیرا مخلوطا بالخلق لینکشف به أنه هو رب للإنسان و لکل شیء الواجب أن یعبد وحده لا شریک له.

قوله تعالی:« وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَهٍ مِنْ طِینٍ »قال فی المجمع، :السلاله اسم لما یسل من الشیء کالکساحه اسم لما یکسح انتهی.و ظاهر السیاق أن المراد بالإنسان هو النوع فیشمل آدم و من دونه و یکون المراد بالخلق الخلق الابتدائی الذی خلق به آدم من الطین ثم جعل النسل من النطفه،و تکون الآیه و ما بعدها فی معنی قوله:«وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِینٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَهٍ مِنْ ماءٍ مَهِینٍ» :الم السجده:٨.

و يؤيـده قوله بعـد:« ثُمَّ جَعَلْنٰاهُ نُطْفَةً »إذ لو كـان المراد بالإنسـان ابن آدم فحسب و كـان المراد بخلقه من طين انتهـاء النطفه إلى الطين لكان الظاهر أن يقال:ثم خلقناه نطفه كما قيل: ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً إلخ.

و بذلك يظهر أن قول بعضهم:إن المراد بالإنسان جنس بنى آدم،و كذا القول بأن المراد به آدم(ع)غير سديد.

و أصل الخلق كما قيل التقدير يقال:خلقت الثوب إذا قسته لتقطع منه شيئا من اللباس فالمعنى و لقد قدرنا الإنسان أولا من سلاله من أجزاء الأرض المخلوطه بالماء.

قوله تعـالى:« ثُمَّ جَعَلْنٰاهُ نُطْفَةً فِي قَرٰارٍ مَكِينٍ » النطفه القليـل من الماء و ربما يطلق على مطلق الماء و القرار مصـدر أريـد به المقر مبالغه و المراد به الرحم التى تستقر فيها النطفه،و المكين المتمكن وصفت به الرحم لتمكنها فى حفظ النطفه من الضيعه و الفساد أو لكون النطفه مستقره متمكنه فيها.

و المعنى ثم جعلنا الإنسان نطفه فى مسـتقر متمكن هى الرحم كما خلقناه أولا من سـلاله من طين أى بـدلنا طريق خلقه من هـذا إلى ذاك.

قوله تعالى:« ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً -إلى قوله- فَكَسَوْنَا الْعِظٰامَ لَحْماً »تقـدم بيان مفردات الآيه فى الآيه ۵ من سوره الحج فى الجزء السابق من الكتاب و فى قوله:

« فَكَسَوْنَا الْعِظٰامَ لَحْماً »استعاره بالكنايه لطيفه.

قوله تعالى:« ثُمَّ أَنْشَأْنٰاهُ خَلْقاً آخَرَ » الإنشاء كما ذكره الراغب-إيجاد الشـىء و تربيته كما أن النشء و النشأه إحـداثه و تربيته كما يقال للشاب الحديث السن ناشئ.

و قد غير السـياق من الخلق إلى الإنشاء فقال:« ثُمَّ أَنْشَأْنٰاهُ خَلْقاً آخَرَ »دون أن يقال:ثم خلقناه إلخ،للدلاله على حدوث أمر حديث مـا كـان يتضـمنه و لا يقارنه ما تقـدمه من ماده فإن العلقه مثلا و إن خالفت النطفه فى أوصافها و خواصـها من لون و طعم و غير ذلـك إلاـ أن فى النطفه مكان كل من هـذه الأوصاف و الخواص ما يجانسه و إن لم يماثله كالبياض مكان الحمره و هما جميعا لون بخلاف ما أنشأه الله أخيرا و هو الإنسان الـذى له حياه و علم و قدره فإن ما له من جوهر الذات و هو الذى نحكى عنه بأنا لم يسبق من سنخه فى المراحل السابقه أعنى النطفه و العلقه و المضغه و العظام المكسوه لحما شىء،

و لا سبق فيها شيء يناظر ما له من الخواص و الأوصاف كالحياه و القدره و العلم فهو منشأ حادث مسبوق بالعدم.

و الضمير فى« أَنْشَأْنٰاهُ »-على ما يعطيه السياق-للإنسان المخلوق عظاما مكسوه باللحم فهو الذى أنشأ و أحدث خلقا آخر أى بدل و هو ماده ميته جاهله عاجزه موجودا ذا حياه و علم و قدره،فقد كان ماده لها صفاتها و خواصها ثم برز و هو يغاير سابقته فى الذات و الصفات و الخواص،فهو تلك الماده السابقه فإنها التى صارت إنسانا،و ليس بها إذ لا يشاركها فى ذات و لا صفات،و إنما له نوع اتحاد معها و تعلق بها يستعملها فى سبيل مقاصدها استعمال ذى الآله للآله كالكاتب للقلم.

و هذا هو الذى يستفاد من مثل قوله: «وَ قٰالُوا أَ إِذٰا ضَلَلْنٰا فِي الْأَرْضِ أَ إِنّٰا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقٰاءِ رَبِّهِمْ كٰافِرُونَ قُلْ يَتَوَفّٰاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ» :الم السجده:١١،فالمتوفى و المأخوذ عند الموت هو الإنسان،و المتلاشى الضال فى الأرض هو البدن و ليس به.

و قد اختلف العطف فى مفردات الآيه بالفاء و ثم،و قد قيل فى وجهه إن ما عطف بثم له بينونه كامله مع ما عطف عليه كما فى قوله:« ثُمَّ جَعَلْنٰاهُ نُطْفَةً »« ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً »،« ثُمَّ أَنْشَأْنٰاهُ خَلْقاً آخَرَ »،و ما لم يكن بتلك البينونه و البعد عطف بالفاء كقوله:« فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظٰاماً فَكَسَوْنَا الْعِظٰامَ لَحْماً ».

قوله تعالى:« فَتَبٰارَكَ اللّٰهُ أَحْسَنُ الْخٰالِقِينَ »قال الراغب:أصل البرك بالفتح فالسكون-صدر البعير.قال:و برك البعير ألقى ركبه و اعتبر منه معنى اللزوم.

قال:و سمى محبس الماء بركه بالكسر فالسكون-و البركه ثبوت الخير الإلهى فى الشيء قال تعالى:« لَفَتَحْنٰا عَلَيْهِمْ بَرَكٰاتٍ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ »و سمى بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء فى البركه و المبارك ما فيه ذلك الخير.

قال:و لما كان الخير الإلهى يصدر من حيث لا يحس و على وجه لا يحصى و لا يحصر قيل لكل ما يشاهد منه زياده غير محسوسه هو مبارك و فيه بركه.انتهى.

فالتبارك منه تعالى اختصاص بالخير الكثير الذى يجود به و يفيضه على خلقه و قد تقدم أن الخلق فى أصله بمعنى التقدير فهذا الخير الكثير كله فى تقديره و هو إيجاد

الأشياء و تركيب أجزائها بحيث تتناسب فيما بين أنفسها و تناسب ما وراءها و من ذلك ينتشر الخير الكثير.

و وصفه تعالى بأحسن الخالقين يدل على عدم اختصاص الخلق به و هو كذلك لما تقدم أن معناه التقدير و قياس الشيء من الشيء لا يختص به تعالى،و فى كلامه تعالى من الخلق المنسوب إلى غيره قوله: «وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ» :المائده:۱۱۰ و قوله: «وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً :العنكبوت:۱۷.

قوله تعالى:« ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ لَمَيِّتُونَ »بيان لتمام التدبير الإلهى و أن الموت من المراحل التى من الواجب أن يقطعها الإنسان فى مسير التقدير،و أنه حق كما تقدم فى قوله تعالى: «كُلُّ نَفْسٍ ذٰائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً» :الأنبياء:۳۵.

قوله تعالى:« ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ تُبْعَثُونَ »و هذا تمام التدبير و هو أعنى البعث آخر مرحله فى مسير الإنسان إذا حل بها لزمها و لا يزال قاطنا بها.

قوله تعالى:« وَ لَقَدْ خَلَقْنٰا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرٰائِقَ وَ مٰا كُنّٰا عَنِ الْخَلْقِ غٰافِلِينَ »، المراد بالطرائق السبع بقرينه قوله:« فَوْقَكُمْ »السماوات السبع و قد سماها طرائق -جمع طريقه-و هى السبيل المطروقه لأنها ممر الأمر النازل من عنده تعالى إلى الأرض،قال تعالى: «يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ» :الطلاق-۱۲،و قال: «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمٰاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ» :الم السجده-۵، و السبل التى تسلكها الأعمال فى صعودها إلى الله و الملائكه فى هبوطهم و عروجهم كما قال: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصّٰالِحُ يَرْفَعُهُ» :فاطر-۱۰،و قال: «وَ مٰا نَتَنَزَّلُ إِلاّٰ بِأَمْرِ رَبِّكَ» :مريم-۶۴.

و بذلك يتضح اتصال ذيل الآيه« وَ مٰا كُنّٰا عَنِ الْخَلْقِ غٰافِلِينَ »بصدرها أى لستم بمنقطعين عنا و لا بمعزل عن مراقبتنا بل هذه الطرائق السبع منصوبه بيننا و بينكم يتطرقها رسل الملائكه بالنزول و الصعود و ينزل منها أمرنا إليكم و تصعد منها أعمالكم إلينا.

و بذلك كله يظهر ما فى قول بعضهم:إن الطرائق بمعنى الطباق المنضوده بعضها فوق بعض من طرق النعل إذا وضع طاقاتها بعضها فوق بعض،و قول آخرين:إنها بمعنى المبسوطات من طرق الحديد إذا بسطه بالمطرقه.

على أن اتصال ذيل الآيه بصدرها على القولين غير بين.

ص :۲۲

قوله تعالى:« وَ أَنْزَلْنٰا مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنّٰاهُ فِی الْأَرْضِ وَ إِنّٰا عَلىٰ ذَهٰابٍ بِهِ لَقٰادِرُونَ »المراد بالسماء جهه العلو فإن ما علاك و أظلك فهو سماء،و المراد بالماء النازل منها ماء المطر.

و فی قوله:« بِقَدَرٍ »دلاله على أن الذى نزل إنما نزل على حسب ما يقتضيه التدبير التام الإلهی الذى يقدره بقدر لا يزيد قطره على ما قدر و لا ينقص،و فيه تلميح أيضا إلى قوله: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» :الحجر:۲۱.

و المعنى:و أنزلنا من جهه العلو ماء بقدر و هو ماء المطر فأسكناه فی الأرض و هو الذخائر المدخره من الماء فی الجبال و السهول تتفجر عنه العيون و الأنهار و تكشف عنه الآبار،و إنا لقادرون على أن نذهب بهذا الماء الذى أسكناه فی الأرض نوعا من الذهاب لا تهتدون إلى علمه.

قوله تعالى:« فَأَنْشَأْنٰا لَكُمْ بِهِ جَنّٰاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنٰابٍ »إلى آخر الآيه،إنشاء الجنات إحداثها و تربيتها،و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى:« وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنٰاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ » معطوف على« جَنّٰاتٍ »أی و أنشأنا لكم به شجره فی طور سيناء،و المراد بها شجره الزيتون التی تكثر فی طور سيناء،و قوله:« تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ »أی تثمر ثمره فيها الدهن و هو الزيت فهی تنبت بالدهن،و قوله:« وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ »أی و تنبت بصبغ للآكلين، و الصبغ بالكسر فالسكون الإدام الذى يؤتدم به،و إنما خص شجره الزيتون بالذكر لعجيب أمرها،و المعنى ظاهر.

قوله تعالى:« وَ إِنَّ لَكُمْ فِی الْأَنْعٰامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمّٰا فِی بُطُونِهٰا »إلخ،العبره الدلاله يستدل بها على أنه تعالى مدبر لأمر خلقه حنين بهم رءوف رحيم،و المراد بسقيه تعالى مما فی بطونها أنه رزقهم من ألبانها،و المراد بالمنافع الكثيره ما ينتفعون من صوفها و شعرها و وبرها و جلودها و غير ذلك،و منها يأكلون.

قوله تعالى:« وَ عَلَيْهٰا وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ »ضمير« عَلَيْهٰا »للأنعام و الحمل على الأنعام هو الحمل على الإبل،و هو حمل فی البر و يقابله الحمل فی البحر و هو الحمل على الفلك، فالآيه فی معنى قوله: «وَ حَمَلْنٰاهُمْ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ» :إسراء:۷۰،و الفلك جمع فلكه و هی السفينه.

(بحث روائی)

فی الدر المنثور،أخرج ابن أبی حاتم عن علی قال: إذا تمت النطفه أربعه أشهر بعث إلیها ملک-فنفخ فیها الروح فی الظلمات الثلاث،فذلک قوله:« ثُمَّ أَنْشَأْنٰاهُ خَلْقاً آخَرَ »یعنی نفخ الروح فیه.

و فی الکافی،بإسناده عن ابن فضال عن الحسن بن الجهم قال:سمعت أبا الحسن الرضا(ع)یقول:قال أبو جعفر(ع): إن النطفه تکون فی الرحم أربعین یوما، ثم تصیر علقه أربعین یوما،ثم تصیر مضغه أربعین یوما،فإذا کمل أربعه أشهر بعث الله ملکین خلاقین-فیقولان:یا رب ما نخلق ذکرا أو أنثی؟فیؤمران-فیقولان:یا رب شقی أو سعید؟فیؤمران-فیقولان:یا رب ما أجله و ما رزقه و کل شیء من حاله؟ و عدد من ذلک أشیاء،و یکتبان المیثاق بین عینیه.

فإذا کمل الأجل بعث الله إلیه ملکا فزجره زجره-فیخرج و قد نسی المیثاق، فقال الحسن بن الجهم:أ فیجوز أن یدعو الله-فیحول الأنثی ذکرا أو الذکر أنثی؟ فقال:إن الله یفعل ما یشاء.

أقول:و الروایه مرویه عن أبی جعفر(ع)بطرق أخری و ألفاظ متقاربه .

و فی تفسیر القمی،":«قوله عز و جل وَ شَجَرَهً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَیْنٰاءَ-تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَ صِبْغٍ لِلْآکِلِینَ »قال:شجره الزیتون،و هو مثل رسول الله ص و مثل أمیر المؤمنین (ع)-فالطور الجبل و سیناء الشجره.

و فی المجمع،:« تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَ صِبْغٍ لِلْآکِلِینَ »و قد روی عن النبی ص أنه قال:

الزیت شجره مبارکه فائتدموا منه و ادهنوا.

[سوره المؤمنون (۲۳): الآیات ۲۳ الی ۵۴]

اشاره

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا نُوحاً إِلیٰ قَوْمِهِ فَقٰالَ یٰا قَوْمِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ مٰا لَکُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَیْرُهُ أَ فَلاٰ تَتَّقُونَ (۲۳) فَقٰالَ اَلْمَلَأُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مٰا هٰذٰا إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُکُمْ یُرِیدُ أَنْ یَتَفَضَّلَ عَلَیْکُمْ وَ لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ لَأَنْزَلَ مَلاٰئِکَهً مٰا سَمِعْنٰا بِهٰذٰا فِی آبٰائِنَا اَلْأَوَّلِینَ (۲۴) إِنْ هُوَ إِلاّٰ رَجُلٌ بِهِ جِنَّهٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتّٰی حِینٍ (۲۵) قٰالَ رَبِّ اُنْصُرْنِی بِمٰا کَذَّبُونِ (۲۶) فَأَوْحَیْنٰا إِلَیْهِ أَنِ اِصْنَعِ اَلْفُلْکَ بِأَعْیُنِنٰا وَ وَحْیِنٰا فَإِذٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا وَ فٰارَ اَلتَّنُّورُ فَاسْلُکْ فِیهٰا مِنْ کُلٍّ زَوْجَیْنِ اِثْنَیْنِ وَ أَهْلَکَ إِلاّٰ مَنْ سَبَقَ عَلَیْهِ اَلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَ لاٰ تُخٰاطِبْنِی فِی اَلَّذِینَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (۲۷) فَإِذَا اِسْتَوَیْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَکَ عَلَی اَلْفُلْکِ فَقُلِ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلَّذِی نَجّٰانٰا مِنَ اَلْقَوْمِ اَلظّٰالِمِینَ (۲۸) وَ قُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِی مُنْزَلاً مُبٰارَکاً وَ أَنْتَ خَیْرُ اَلْمُنْزِلِینَ (۲۹) إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ وَ إِنْ کُنّٰا لَمُبْتَلِینَ (۳۰) ثُمَّ أَنْشَأْنٰا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِینَ (۳۱) فَأَرْسَلْنٰا فِیهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ مٰا لَکُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَیْرُهُ أَ فَلاٰ تَتَّقُونَ (۳۲) وَ قٰالَ اَلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ اَلَّذِینَ کَفَرُوا وَ کَذَّبُوا بِلِقٰاءِ اَلْآخِرَهِ وَ أَتْرَفْنٰاهُمْ فِی اَلْحَیٰاهِ اَلدُّنْیٰا مٰا هٰذٰا إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُکُمْ یَأْکُلُ مِمّٰا تَأْکُلُونَ مِنْهُ وَ یَشْرَبُ مِمّٰا تَشْرَبُونَ (۳۳) وَ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَکُمْ إِنَّکُمْ إِذاً لَخٰاسِرُونَ (۳۴) أَ یَعِدُکُمْ أَنَّکُمْ إِذٰا مِتُّمْ وَ کُنْتُمْ تُرٰاباً وَ عِظٰاماً أَنَّکُمْ مُخْرَجُونَ (۳۵) هَیْهٰاتَ هَیْهٰاتَ لِمٰا تُوعَدُونَ (۳۶) إِنْ هِیَ إِلاّٰ حَیٰاتُنَا اَلدُّنْیٰا نَمُوتُ وَ نَحْیٰا وَ مٰا نَحْنُ بِمَبْعُوثِینَ (۳۷) إِنْ هُوَ إِلاّٰ رَجُلٌ اِفْتَریٰ عَلَی اَللّٰهِ کَذِباً وَ مٰا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِینَ (۳۸) قٰالَ رَبِّ اُنْصُرْنِی بِمٰا

كَذَّبُونِ (۳۹) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (۴۰) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۴۱) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ
بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ (۴۲) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَ مَا يَسْتَأْخِرُونَ (۴۳) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا
بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَ جَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (۴۴) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَ أَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُبِينٍ (۴۵) إِلَى
فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْماً عَالِينَ (۴۶) فَقَالُوا أَ نُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَ قَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (۴۷) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ
الْمُهْلَكِينَ (۴۸) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (۴۹) وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً وَ آوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَ مَعِينٍ
(۵۰) يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ اعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (۵۱) وَ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ
(۵۲) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (۵۳) فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (۵۴)

ص :۲۴

بيان

بعد ما عد نعمه العظام على الناس عقبه فى هذه الآيات بذكر دعوتهم إلى توحيد

ص :۲۶

عبادته من طريق الرساله و قص إجمال دعوه الرسل من لدن نوح إلى عيسى بن مريم (ع)،و لم يصرح من أسمائهم إلا باسم نوح و هو أول الناهضين لدعوه التوحيد و اسم موسى و عيسى(ع)و هما فى آخرهم،و أبهم أسماء الباقين غير أنه صرح باتصال الدعوه و تواتر الرسل،و أن الناس لم يستجيبوا إلا بالكفر بآيات الله و الكفران لنعمه.

قوله تعالى:« وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ »قد تقدم فى قصص نوح(ع)من سوره هود أنه أول أولى العزم من الرسل أصحاب الكتب و الشرائع المبعوثين إلى عامه البشر و الناهضين للتوحيد و نفى الشرك،فالمراد بقومه أمته و أهل عصره عامه.

و قوله:« اُعْبُدُوا اللّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ »دعوه إلى عباده الله و رفض عباده الآلهه من دونه فإن الوثنيين إنما يعبدون غيره من الملائكه و الجن و القديسين بدعوى ألوهيتهم أى كونهم معبودين من دونه.

قال بعض المفسرين:إن معنى« اُعْبُدُوا اللّهَ »اعبدوه وحده كما يفصح عنه قوله فى سوره هود:« أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّهَ »و ترك التقييد به للإيذان بأنها هى العباده فقط و أما العباده مع الإشراك فليست من العباده فى شىء رأسا.انتهى.

و فيه غفله أو ذهول عن أن الوثنيين لا يعبدون الله سبحانه أصلا بناء على أن العباده توجه من العابد إلى المعبود،و الله سبحانه أجل من أن يحيط به توجه متوجه أو علم عالم،فالوجه أن يتقرب إلى خاصه خلقه من الملائكه و غيره ليشفعوا عنده و يقربوا منه،و العباده بإزاء التدبير و أمر التدبير مفوض إليهم منه تعالى فهم الآلهه المعبودون و الأرباب من دونه.

و من هنا يظهر أنه لو جازت عبادته تعالى عندهم لم يجز إلا عبادته وحده لأنهم لا يرتابون فى أنه تعالى رب الأرباب موجد الكل و لو صحت عبادته لم تجز إلا عبادته وحده و لم تصح عباده غيره لكنهم لا يرون صحتها بناء على ما زعموه من الوجه المتقدم.

فقوله(ع)لقومه الوثنيين:« اُعْبُدُوا اللّهَ »فى معنى أن يقال:اعبدوا الله وحده كما ورد فى سوره هود« أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّهَ »،و قوله:« ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ » فى معنى أن يقال:ما لكم من معبود سواه لأنه لا رب غيره يدبر أمركم حتى تعبدوه

رجاء لرحمته أو خوفا من سخطه، و قوله بالتفريع على ذلك:« أَ فَلاٰ تَتَّقُونَ »أى إذا لم يكن لكم رب يدبر أموركم دونه أ فلا تتقون عذابه حيث لا تعبدونه و تكفرون به؟ قوله تعالى:« فَقٰالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مٰا هٰذٰا إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ -إلى قوله- حَتّٰى حِينٍ ملأ القوم أشرافهم،و وصفهم بقوله:« اَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ » وصف توضيحى لا احترازى إذ لم يؤمن به من ملإ قومه أحد بدليل قولهم على ما حكاه الله: «وَ مٰا نَرٰاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرٰاذِلُنٰا بٰادِيَ الرَّأْيِ» :هود-٢٧.

و السياق يدل على أن الملأ كانوا يخاطبون بمضمون الآيتين عامه الناس لصرف وجوههم عنه و إغرائهم عليه و تحريضهم على إيذائه و إسكاته،و ما حكاه تعالى من أقاويلهم فى الآيتين وجوه أربعه أو خمسه من فريه أو مغالطه لفقوها و احتجوا بها على بطلان دعوته.

الأول قولهم:« مٰا هٰذٰا إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ »و محصله أنه بشر مثلكم فلو كان صادقا فيما يدعيه من الوحى الإلهى و الاتصال بالغيب كان نظير ما يدعيه متحققا فيكم إذ لا تنقصون منه فى شىء من البشريه و لوازمها،و لم يتحقق فهو كاذب و كيف يمكن أن يكون كمال فى وسع البشر أن يناله ثم لا يناله إلا واحد منهم فقط ثم يدعيه من غير شاهد يشهد عليه؟فلم يبق إلا أنه يريد بهذه الدعوه أن يتفضل عليكم و يترأس فيكم و يؤيده أنه يدعوكم إلى اتباعه و طاعته و هذه الحجه تنحل فى الحقيقه إلى حجتين مختلقتين.

و الثانى قولهم:« وَ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ لَأَنْزَلَ مَلاٰئِكَةً »و محصله أن الله سبحانه لو شاء أن يدعونا بدعوه غيبيه لاختار لذلك الملائكه الذين هم المقربون عنده و الشفعاء الروابط بيننا و بينه فأرسلهم إلينا لا بشرا ممن لا نسبه بينه و بينه.على أن فى نزولهم و اعترافهم بوجوب العباده له تعالى وحده و عدم جواز اتخاذهم أربابا و آلهه معبودين آيه بينه على صحه الدعوه و صدقها.

و التعبير عن إرسال الملائكه بإنزالهم إنما هو لكون إرسالهم يتحقق بالإنزال و التعبير بلفظ الجمع دون الإفراد لعله لكون المراد بهم الآلهه المتخذه منهم و هم كثيرون.

و الثالث قولهم:« مٰا سَمِعْنٰا بِهٰذٰا فِي آبٰائِنَا الْأَوَّلِينَ »و محصله أنه لو كانت دعوته حقه لاتفق لها نظير فيما سلف من تاريخ الإنسانيه،و آباؤنا كانوا أفضل منا و أعقل و لم

يتفق لهم و فى أعصارهم ما يناظر هذه الدعوه فليست إلا بدعه و أحدوثه كاذبه.

و الرابع قولهم:« إِنْ هُوَ إِلاّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتّى حِينٍ » الجنه إما مصدر أى به جنون أو مفرد الجن أى حل به من الجن من يتكلم على لسانه لأنه يدعى ما لا يقبله العقل السليم و يقول ما لا يقوله إلا مصاب فى عقله فتربصوا و انتظروا به إلى حين ما لعله يفيق من حاله جنونه أو يموت فنستريح منه.

و هذه حجج مختلقه ألقاها ملأ قومه إلى عامتهم أو ذكر كلا منها بعضهم و هى و إن كانت حججا جدليه مدخوله لكنهم كانوا ينتفعون بها حينما يلقونها إلى الناس فيصرفون وجوههم عنه و يغرونهم عليه و يمدون فى ضلالهم.

قوله تعالى:« قالَ رَبِّ انْصُرْنِی بِما كَذَّبُونِ »سؤال منه للنصر و الباء فى قوله:

« بِما كَذَّبُونِ »للبدليه و المعنى انصرني بدل تكذيبهم لى أو للآله و عليه فالمعنى انصرنى بالذى كذبونى فيه و هو العذاب فإنهم قالوا: «فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ» :هود-٣٢،و يؤيده قول نوح: «رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيّاراً» :نوح ٢٦،و فصل الآيه لكونها فى معنى جواب السؤال.

قوله تعالى:« فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا »إلى آخر الآيه.

متفرع على سؤال النصر،و معنى صنع الفلك بأعينه صنعه بمرأى منه و هو كنايه عن كونه تحت مراقبته تعالى و محافظته،و معنى كون الصنع بوحيه كونه بتعليمه الغيبى حالا بعد حال.

و قوله:« فَإِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ »المراد بالأمر-كما قيل-حكمه الفصل بينه و بين قومه و قضاؤه فيهم بالغرق،و السياق يشهد على كون فوران التنور بالماء أماره نزول العذاب عليهم و هو أعنى فوران الماء من التنور و هو محل النار من عجيب الأمر فى نفسه.

و قوله:« فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ »القراءه الدائره« مِنْ كُلٍّ »بالتنوين و القطع عن الإضافه،و التقدير من كل نوع من الحيوان،و السلوك فيها الإدخال فى الفلك و الظاهر أن« مِنْ »لابتداء الغايه و المعنى فأدخل فى الفلك زوجين اثنين:ذكر و أنثى من كل نوع من الحيوان.

و قوله:« وَ أَهْلَكَ إِلاّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ »معطوف على قوله:« زَوْجَيْنِ »

و ما قيل:إن عطف« أَهْلَكَ »على« زَوْجَيْنِ »يفسد المعنى المراد لرجوع التقدير حينئذ إلى قولنا:و اسلك فيها من كل نوع أهلك فالأولى تقدير« فَاسْلُكْ »ثانيا قبل « أَهْلَكَ »و عطفه على « فَاسْلُكْ »يدفعه أن« مِنْ كُلٍّ »فى موضع الحال من« زَوْجَيْنِ » فهو متأخر عنه رتبه كما قدمنا تقديره فلا يعود ثانيا على المعطوف.

و المراد بالأهل خاصته،و الظاهر أنهم أهل بيته و المؤمنون به فقد ذكرهم فى سوره هود مع الأهل و لم يذكر هاهنا إلا الأهل فقط.

و المراد بمن سبق عليه القول منهم امرأته الكافره على ما فهم نوح(ع)و هى و ابنه الذى أبى ركوب السفينه و غرق حينما آوى إلى جبل فى الحقيقه،و سبق القول هو القضاء المحتوم بالغرق.

و قوله:« وَ لاٰ تُخٰاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ »النهى عن مخاطبته تعالى كنايه عن النهى الشديد عن الشفاعه لهم،بدليل تعليق المخاطبه بالذين ظلموا و تعليل النهى بقوله:« إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ »فكأنه قيل:أنهاك عن أصل تكليمى فيهم فضلا أن تشفع لهم فقد شملهم غضبى شمولا لا يدفعه دافع.

قوله تعالى:« فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ »إلى آخر الآيتين علمه أن يحمد الله بعد الاستواء على الفلك على تنجيته تعالى من القوم الظالمين و هذا بيان بعد بيان لكونهم هالكين مغرقين حتما،و أن يسأله أن ينجيه من الطوفان و ينزله على الأرض إنزالا مباركا ذا خير كثير ثابت فإنه خير المنزلين.

و فى أمره(ع)أن يحمده و يصفه بالجميل دليل على أنه من عباده المخلصين فإنه تعالى منزه عما يصفه غيرهم كما قال: «سُبْحٰانَ اللّٰهِ عَمّٰا يَصِفُونَ إِلاّٰ عِبٰادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِينَ» :الصافات:۱۶۰.

و قد اكتفى سبحانه فى القصه بإخباره عن حكمه بغرقهم و أنهم مغرقون حتما و لم يذكر خبر غرقهم إيماء إلى أنهم آل بهم الأمر إلى أن لا خبر عنهم بعد ذلك، و إعظاما للقدره و تهويلا للسخطه و تحقيرا لهم و استهانه بأمرهم،فالسكوت فى هذه القصه عن هلاكهم أبلغ من قوله فى القصه الآتيه:« وَ جَعَلْنٰاهُمْ أَحٰادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لاٰ يُؤْمِنُونَ »من وجوه.

قوله تعالى:« إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ وَ إِنْ كُنّٰا لَمُبْتَلِينَ »خطاب فى آخر القصه للنبى

ص و بيان أن هذه الدعوه مع ما جرى معها كانت ابتلاء أى امتحانا و اختبارا إليها.

قوله تعالى:« ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ »إلى آخر الآيه الثانيه. القرن أهل عصر واحد، و قوله:« أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ »تفسير لإرسال الرسول من قبيل تفسير الفعل بنتيجته كقوله تعالى: «تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاّ تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا» :حم السجده:۳۰.

قوله تعالى:« قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَهِ وَ أَتْرَفْناهُمْ فِي الْحَياهِ الدُّنْيا »هؤلاء أشرافهم المتوغلون فى الدنيا المخلدون إلى الأرض يغرون بقولهم هذا عامتهم على رسولهم.

و قد وصفهم الله بصفات ثلاث و هى:الكفر بالله بعباده غيره،و التكذيب بلقاء الآخره-أى بلقاء الحياه الآخره بقرينه مقابلتها لقوله:« فِي الْحَياهِ الدُّنْيا »-، و لكفرهم بالمبدإ و المعاد انقطعوا عما وراء الدنيا فانكبوا عليها ثم لما أترفوا فى الحياه الدنيا و تمكنوا من زخارفها و زيناتها الملذه اجتذبتهم الدنيا إلى نفسها فاتبعوا الهوى و نسوا كل حق و حقيقه،و لذلك تفوهوا تاره بنفى التوحيد و الرساله و تاره بإنكار المعاد و تاره رد الدعوه بإضرارها دنياهم و حريتهم فى اتباع هواهم.

فتاره قالوا لعوامهم مشيرين إلى رسولهم إشاره المستحقر المستهين بأمره:« ما هذا إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمّا تَشْرَبُونَ »يريدون به تكذيبه فى دعوته و دعواه الرساله على ما مر من تقرير حجتهم فى قصه نوح السابقه.

و فى استدلالهم على بشريته و مساواته سائر الناس بأكله و شربه مثل الناس و ذلك من خاصه مطلق الحيوان دليل على أنهم ما كانوا يرون للإنسان إلا كمال الحيوان و لا فضيله إلا فى الأكل و الشرب و لا سعاده إلا فى التمكن من التوسع و الاسترسال من اللذائذ الحيوانيه كما قال تعالى: «أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ» :الأعراف:۱۷۹،و قال: «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ» :سوره محمد:۱۲.

و تاره قالوا:« وَ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ »و هو فى معنى قولهم فى القصه السابقه:« يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ »يريدون به أن فى اتباعه و إطاعته فيما يأمركم به مع كونه بشرا مثلكم من غير فضل له عليكم خسرانكم و بطلان سعادتكم فى

الحیاه إذ لا حیاه إلا الحیاه الدنیا و لا سعاده فیها إلا الحریه فی التمتع من لذائذها،و فی طاعه من لا فضل له علیکم رقیتکم و زوال حریتکم و هو الخسران.

و تاره قالوا:« أَ یَعِدُکُمْ أَنَّکُمْ إِذٰا مِتُّمْ وَ کُنْتُمْ تُرٰاباً وَ عِظٰاماً أَنَّکُمْ مُخْرَجُونَ »أی مبعوثون من قبورکم للحساب و الجزاء « هَیْهٰاتَ هَیْهٰاتَ لِمٰا تُوعَدُونَ »و هیهات کلمه استبعاد و فی تکراره مبالغه فی الاستبعاد « إِنْ هِیَ إِلاّٰ حَیٰاتُنَا الدُّنْیٰا نَمُوتُ وَ نَحْیٰا »أی یموت قوم منا فی الدنیا و یحیا آخرون فیها لا نزال کذلک« وَ مٰا نَحْنُ بِمَبْعُوثِینَ »للحیاه فی دار أخری وراء الدنیا.

و یمکن أن یحمل قولهم:« نَمُوتُ وَ نَحْیٰا »علی التناسخ و هو خروج الروح بالموت من بدن و تعلقها ببدن آخر إنسانی أو غیر إنسانی فإن التناسخ مذهب شائع عند الوثنیین و ربما عبروا عنه بالولاده بعد الولاده لکنه لا یلائم سیاق الآیات کثیر ملائمه.

و تاره قالوا:« إِنْ هُوَ إِلاّٰ رَجُلٌ افْتَریٰ عَلَی اللّٰهِ کَذِباً وَ مٰا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِینَ » یریدون به تکذیب دعواه الرساله مع ما احتوت علیه دعوته و قد أنکروا التوحید و المعاد قبل ذلک.

و مرادهم بقولهم:« نَحْنُ »أنفسهم و عامتهم أشرکوا أنفسهم عامتهم لئلا یتهمهم العامه فیما یأمرونهم به من الکفر بالرسول،و یمکن أن یکون المراد به أنفسهم خاصه دون العامه و إنما أخبروا بعدم إیمانهم لیقتدوا بهم فیه.

و قد نشأت هذه الأقاویل من اجتماع الصفات التی وصفهم الله بها فی أول الآیات و هی إنکار التوحید و النبوه و المعاد و الإتراف فی الحیاه الدنیا.

و اعلم أن فی قوله فی صدر الآیات:« وَ قٰالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ کَذَّبُوا بِلِقٰاءِ الْآخِرَهِ وَ أَتْرَفْنٰاهُمْ »قدم قوله:« مِنْ قَوْمِهِ »علی« اَلَّذِینَ کَفَرُوا »بخلاف ما فی القصه السابقه من قوله:« فَقٰالَ الْمَلَأُ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ »لأنه لو وقع بعد« اَلَّذِینَ کَفَرُوا »اختل به ترتیب الجمل المتوالیه« کَفَرُوا »« وَ کَذَّبُوا »« وَ أَتْرَفْنٰاهُمْ »و لو وقع بعد الجمیع طال الفصل.

قوله تعالی:« قٰالَ رَبِّ انْصُرْنِی بِمٰا کَذَّبُونِ »تقدم تفسیره فی القصه السابقه.

قوله تعالی:« قٰالَ عَمّٰا قَلِیلٍ لَیُصْبِحُنَّ نٰادِمِینَ »استجابه لدعوه الرسول و صیرورتهم نادمین کنایه عن حلول عذاب الاستئصال بهم،و قوله:« عَمّٰا قَلِیلٍ »عن

بمعنى بعد و« عَمّا لتأكيد القله و ضمير الجمع للقوم،و الكلام مؤكد بلام القسم و نون التأكيد،و المعنى:أقسم لتأخذنهم الندامه بعد قليل من الزمان بمشاهده حلول العذاب.

قوله تعالى:« فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنٰاهُمْ غُثٰاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظّٰالِمِينَ »،الباء فى« بِالْحَقِّ »للمصاحبه و هو متعلق بقوله:« فَأَخَذَتْهُمُ »أى أخذتهم الصيحه أخذا مصاحبا للحق،أو للسببيه،و الحق وصف أقيم مقام موصوفه المحذوف و التقدير فأخذتهم الصيحه بسبب الأمر الحق أو القضاء الحق كما قال: «فَإِذٰا جٰاءَ أَمْرُ اللّٰهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ»، :المؤمن:٧٨.

و الغثاء بضم الغين و ربما شددت الثاء:ما يحمله السيل من يابس النبات و الورق و العيدان الباليه،و قوله:« فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظّٰالِمِينَ »إبعاد و لعن لهم أو دعاء عليهم.

و المعنى:فأنجزنا للرسول ما وعدناه من عذابهم فأخذتهم الصيحه السماويه و هى العذاب فأهلكناهم و جعلناهم كغثاء السيل فليبعد القوم الظالمون بعدا.

و لم يصرح باسم هؤلاء القوم الذين أنشأهم بعد قوم نوح ثم أهلكهم و لا باسم رسولهم،و ليس من البعيد أن يكونوا هم ثمود قوم صالح(ع)فقد ذكر الله سبحانه فى قصتهم فى مواضع من كلامه أنهم كانوا بعد قوم نوح و قد أهلكوا بالصيحه.

قوله تعالى:« ثُمَّ أَنْشَأْنٰا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ مٰا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهٰا وَ مٰا يَسْتَأْخِرُونَ »تقدم توضيح مضمون الآيتين كرارا.

قوله تعالى:« ثُمَّ أَرْسَلْنٰا رُسُلَنٰا تَتْرٰا كُلَّ مٰا جٰاءَ أُمَّةً رَسُولُهٰا كَذَّبُوهُ »،إلى آخر الآيه يقال:جاءوا تترى أى فرادى يتبع بعضهم بعضا، و منه التواتر و هو تتابع الشىء وترا و فرادى،و عن الأصمعى:واترت الخبر أتبعت بعضه بعضا و بين الخبرين هنيهه انتهى.

و الكلام من تتمه قوله:« ثُمَّ أَنْشَأْنٰا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً »و« ثُمَّ »للتراخى بحسب الذكر دون الزمان،و القصه إجمال منتزع من قصص الرسل و أممهم بين أمه نوح و الأمه الناشئه بعدها و بين أمه موسى.

يقول تعالى:ثم أنشأنا بعد تلك الأمه الهالكه بالصيحه بعد أمه نوح قرونا و أمما آخرين و أرسلنا إليهم رسلنا متتابعين يتبع بعضهم بعضا كلما جاء أمه رسولها المبعوث

ص :٣٣

منها إليها كذبوه فأتبعنا بعضهم أى بعض هذه الأمم بعضا أى بالعذاب و جعلناهم أحاديث أى صيرناهم قصصا و أخبارا بعد ما كانوا أعيانا ذوات آثار فليبعد قوم لا يؤمنون.

و الآيات تدل على أنه كان من سنه الله إنشاء قرن بعد قرن و هدايتهم إلى الحق بإرسال رسول بعد رسول و هى سنه الابتلاء و الامتحان،و من سنه القرون تكذيب الرسول بعد الرسول ثم من سنه الله ثانيا-و هى سنه المجازاه-تعذيب المكذبين و إتباع بعضهم بعضا.

و قوله:« وَ جَعَلْنٰاهُمْ أَحٰادِيثَ »أبلغ كلمه تفصح عن القهر الإلهى الذى يغشى أعداء الحق و المكذبين لدعوته حيث يمحو العين و يعفو الأثر و لا يبقى إلا الخبر.

قوله تعالى:« ثُمَّ أَرْسَلْنٰا مُوسىٰ وَ أَخٰاهُ هٰارُونَ بِآيٰاتِنٰا وَ سُلْطٰانٍ مُبِينٍ »الآيات هى العصا و اليد البيضاء و سائر الآيات التى أراها موسى فرعون و قومه،و السلطان المبين الحجه الواضحه، و تفسير بعضهم السلطان بالعصا غير سديد.

قوله تعالى:« إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كٰانُوا قَوْماً عٰالِينَ »قيل:إنما ذكر ملأ فرعون و اكتفى بهم عن ذكر قومه لأنهم الأشراف المتبوعون و سائر القوم أتباع يتبعونهم.

و المراد بكونهم عالين أنهم كانوا يعلون على غيرهم فيستعبدونهم كما علوا على بنى إسرائيل و استعبدوهم فالعلو فى الأرض كنايه عن التطاول على أهلها و قهرهم على الطاعه.

قوله تعالى:« فَقٰالُوا أَ نُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنٰا وَ قَوْمُهُمٰا لَنٰا عٰابِدُونَ »المراد بكونهما بشرين مثلهم نفى أن يكون لهما فضل عليهم،و بكون قومهما لهم عابدين فضلهم عليهما كما فضلوا على قومهما فإذا كان الفضل لهم عليهما كان من الواجب أن يعبداهم كما عبدهم قومهما لا أن يؤمنوا بهما كما قال فرعون لموسى:« لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ » ثم ختم تعالى القصه بذكر هلاكهم فقال:« فَكَذَّبُوهُمٰا فَكٰانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ » ثم قال:« وَ لَقَدْ آتَيْنٰا مُوسَى الْكِتٰابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ »و المراد بهم بنو إسرائيل لأن التوراه إنما نزلت بعد هلاك فرعون و ملئه.

قوله تعالى:« وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَهً وَ آوَيْنٰاهُمٰا إِلىٰ رَبْوَهٍ ذٰاتِ قَرٰارٍ وَ مَعِينٍ »

تقدم أن الآیه هی ولاده عیسی(ع)الخارقه للعاده و إذ کانت أمرا قائما به و بأمه معا عدا جمیعا آیه واحده.

و الإیواء من الأوی و أصله الرجوع ثم استعمل فی رجوع الإنسان إلی مسکنه و مقره،و آواه إلی مکان کذا أی جعله مسکنا له و الربوه المکان المرتفع المستوی الواسع،و المعین الماء الجاری.

و المعنی:و جعلنا عیسی بن مریم و أمه مریم آیه داله علی ربوبیتنا و أسکناهما فی مکان مرتفع مستو وسیع فیه قرار و ماء جار.

قوله تعالی:« یٰا أَیُّهَا الرُّسُلُ کُلُوا مِنَ الطَّیِّبٰاتِ وَ اعْمَلُوا صٰالِحاً إِنِّی بِمٰا تَعْمَلُونَ عَلِیمٌ »خطاب لعامه الرسل بأکل الطیبات و کان المراد بالأکل منها الارتزاق بها بالتصرف فیها سواء کان بأکل أو غیره و هو استعمال شائع.

و السیاق یشهد بأن فی قوله:« کُلُوا مِنَ الطَّیِّبٰاتِ »امتنانا منه تعالی علیهم، ففی قوله عقیبه:« وَ اعْمَلُوا صٰالِحاً »أمر بمقابله المنه بصالح العمل و هو شکر للنعمه و فی تعلیله بقوله:« إِنِّی بِمٰا تَعْمَلُونَ عَلِیمٌ »تحذیر لهم من مخالفه أمره و بعث إلی ملازمه التقوی.

قوله تعالی:« إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُکُمْ أُمَّهً وٰاحِدَهً وَ أَنَا رَبُّکُمْ فَاتَّقُونِ »تقدم تفسیر نظیره الآیه فی سوره الأنبیاء.

قوله تعالی:« فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَیْنَهُمْ زُبُراً کُلُّ حِزْبٍ بِمٰا لَدَیْهِمْ فَرِحُونَ »فی المجمع، أن التقطع و التقطیع بمعنی واحد،و الزبر بضمتین جمع زبور و هو الکتاب،و الکلام متفرع علی ما تقدمه،و المعنی أن الله أرسل إلیهم رسله تتری و الجمیع أمه واحده لهم رب واحد دعاهم إلی تقواه لکنهم لم یأتمروا بأمره و قطعوا أمرهم بینهم قطعا و جعلوه کتبا اختص بکل کتاب حزب و کل حزب بما لدیهم فرحون.

و فی قراءه ابن عامر« زُبُراً »بفتح الباء و هو جمع زبره و هی الفرقه،و المعنی و تفرقوا فی أمرهم جماعات و أحزابا کل حزب بما لدیهم فرحون،و هی أرجح.

قوله تعالی:« فَذَرْهُمْ فِی غَمْرَتِهِمْ حَتّٰی حِینٍ »قال فی المفردات،: الغمره معظم الماء الساتره لمقرها و جعل مثلا للجهاله التی یغمر صاحبها،انتهی.و فی الآیه تهدید

بالعذاب،و قد تقدمت إشاره إلى أن من سنته تعالى المجازاه بالعذاب بعد تكذيب الرساله،و فى تنكير« حِينٍ »إشاره إلى إتيان العذاب الموعود بغته.

(بحث روائى)

فى نهج البلاغه،: يا أيها الناس إن الله قد أعاذكم من أن يجور عليكم-و لم يعذكم من أن يبتليكم و قد قال جل من قائل:« إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ وَ إِنْ كُنّٰا لَمُبْتَلِينَ ».

و فى تفسير القمى،فى روايه أبى الجارود عن أبى جعفر(ع): فى قوله:« فَجَعَلْنٰاهُمْ غُثٰاءً »الغثاء اليابس الهامد من نبات الأرض.

و فيه،": فى قوله تعالى:« إِلىٰ رَبْوَةٍ ذٰاتِ قَرٰارٍ وَ مَعِينٍ »قال:الربوه الحيره و ذات قرار و معين الكوفه.

و فى المجمع،: « وَ آوَيْنٰاهُمٰا إِلىٰ رَبْوَةٍ ذٰاتِ قَرٰارٍ وَ مَعِينٍ »قيل:حيره الكوفه و سوادها،و القرار مسجد الكوفه،و المعين الفرات: عن أبى جعفر و أبى عبد الله (ع) أقول:

و روى فى الدر المنثور،عن ابن عساكر عن أبى أمامه عن النبى ص: أن الربوه هى دمشق الشام ،

و روى أيضا عن ابن عساكر و غيره عن مره البهزى عنه (ص): أنها الرمله ،و الروايات جميعا لا تخلو من الضعف.

و فى المجمع،:« يٰا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبٰاتِ »روى عن النبى ص: أن الله طيب لا يقبل إلا طيبا-و أنه أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال:« يٰا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبٰاتِ »و قال:« يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبٰاتِ مٰا رَزَقْنٰاكُمْ ».

أقول:و رواه فى الدر المنثور،عن أحمد و مسلم و الترمذى و غيرهم عن أبى هريره عنه(ص) .

و فى تفسير القمى،": فى قوله تعالى:« أُمَّةً وٰاحِدَةً »قال على مذهب واحد.

و فيه،": فى قوله:« كُلُّ حِزْبٍ بِمٰا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ »قال:كل من اختار لنفسه دينا فهو فرح به.

[سوره المؤمنون (۲۳): الآيات ۵۵ الی ۷۷]

اشاره

أَ يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَ بَنِينَ (۵۵) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي اَلْخَيْرَاتِ بَلْ لاَ يَشْعُرُونَ (۵۶) إِنَّ اَلَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ
(۵۷) وَ اَلَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (۵۸) وَ اَلَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ (۵۹) وَ اَلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى
رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (۶۰) أُولٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي اَلْخَيْرَاتِ وَ هُمْ لَهَا سَابِقُونَ (۶۱) وَ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَ لَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ
وَ هُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (۶۲) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هٰذَا وَ لَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (۶۳) حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ
بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (۶۴) لاَ تَجْأَرُوا اَلْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لاَ تُنْصَرُونَ (۶۵) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ
تَنْكِصُونَ (۶۶) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ (۶۷) أَ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا اَلْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ اَلْأَوَّلِينَ (۶۸) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا
رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (۶۹) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (۷۰) وَ لَوِ اتَّبَعَ اَلْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ
لَفَسَدَتِ اَلسَّمَاوَاتُ وَ اَلْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (۷۱) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ
وَ هُوَ خَيْرُ اَلرَّازِقِينَ (۷۲) وَ إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۷۳) وَ إِنَّ اَلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ اَلصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (۷۴) وَ لَوْ
رَحِمْنَاهُمْ وَ كَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (۷۵) وَ لَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَ مَا يَتَضَرَّعُونَ
(۷۶) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (۷۷)

ص: ۳۷

بيان

الآيات متصله بقوله السابق:« فَذَرْهُمْ فِی غَمْرَتِهِمْ حَتّٰی حِینٍ »فإنه لما عقب قصص الرسل باختلاف الناس فی أمر الدین و تحزبهم أحزابا کل حزب بما لدیهم فرحون أوعدهم بعذاب مؤجل لا- مناص لهم عنه و لا مخلص منه فلیتیهوا فی غمرتهم ما شاءوا فسیغشاهم العذاب و لا محاله.

فنبههم فی هذه الآیات أن توهمهم أن ما مدهم الله به من مال و بنین مسارعه لهم فی الخیرات خطأ منهم و جهل بحقیقه الحال،و لو کان ذلک من الخیر لم یأخذ العذاب مترفیهم بل المسارعه فی الخیرات هو ما وفق الله المؤمنین له من الأعمال الصالحه و ما یترتب علیها من جزیل الأجر و عظیم الثواب فی الدنیا و الآخره فهم یسارعون إلیها فیسارع لهم فیها.

فالعذاب مدرکهم لا محاله و الحجه تامه علیهم و لا عذر لهم یعتذرون به کعدم تدبر القول أو کون الدعوه بدعا لا سابقه له أو عدم معرفه الرسول أو کونه مجنونا مختل القول أو سؤاله منهم خرجا بل هم أهل عناد و لجاج لا یؤمنون بالحق حتی یأتیهم عذاب لا مرد له.

قوله تعالی:« أَ یَحْسَبُونَ أَنَّمٰا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مٰالٍ وَ بَنِینَ نُسٰارِعُ لَهُمْ فِی الْخَیْرٰاتِ

ص:٣٨

بَلْ لاٰ يَشْعُرُونَ

»« نُمِدُّهُمْ »-بضم النون-من الإمـداد و المـد و الإمـداد بمعنى واحد و هو تتميم نقص الشـىء و حفظه من أن ينقطع أو ينفد،قال الراغب:و أكـثر مـا يسـتعمل الإمـداد فى المحبـوب و المـد فى المكروه،فقـوله« نُمِدُّهُمْ »من الإمـداد المسـتعمل فى المكروه و المسارعه لهم فى الخيرات إفاضه الخيرات بسرعه لكرامتهم عليه فيكون الخيرات على ظنهم هى المال و البنون سورع لهم فيها.

و المعنى:أ يظن هؤلاء أن مـا نعطيهم فى مـده المهله من مـال و بنين خيرات نسـارع لهم فيهـا لرضانـا عنهم أو حبنـا لأعمالهم أو كرامتهم علينا؟.

لا-بـل لا-يشـعرون أى إن الأمـر على خلاف مـا يظنون و هم فى جهل بحقيقه الأمر و هو أن ذلك إملاء منا و اسـتدراج و إنما نمدهم فى طغيانهم يعمهون كما قال تعالى:

«سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاٰ يَعْلَمُونَ وَ أُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ» :الأعراف:١٨٣.

قوله تعالى« إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَهِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ »إلى آخر الآيات الخمس، يبين تعالى فى هذه الآيات الخمس بمعونه ما تقدم أن الذى يظن هؤلاء الكفار أن المال و البنين خيرات نسارع لهم فيها خطأ منهم فليست هى من الخيرات فى شىء بل استدراج و إملاء و إنما الخيرات التى يسارع فيها هى ما عند المؤمنين بالله و رسله و اليوم الآخر الصالحين فى أعمالهم.

فأفصح تعالى عن وصفهم فقال:« إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَهِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ »،قال الراغب: الإشفاق عنايه مختلطه بخوف لأن المشفق يحب المشفق عليه و يخاف ما يلحقه، قال تعالى:« وَ هُمْ مِنَ السّٰاعَهِ مُشْفِقُونَ »فإذا عدى بمن فمعنى الخوف فيه أظهر، و إذا عدى بفى فمعنى العنايه فيه أظهر،قال:« إِنّٰا كُنّٰا قَبْلُ فِى أَهْلِنٰا مُشْفِقِينَ »« مُشْفِقُونَ مِنْهٰا »انتهى.

و الآيه تصـفهم بأنهم اتخذوا الله سـبحانه ربا يملكهم و يدبر أمرهم،و لازم ذلك أن يكون النجاه و الهلاك دائرين مدار رضاه و سخطه يخشونه فى أمر يحبونه و هو نجـاتهم و سـعادتهم فهم مشـفقون من خشيته و هـذا هو الـذى يبعثهم إلى الإيمـان بآيـاته و عبادته،و قد ظهر بما مر من المعنى أن الجمع فى الآيه بين الخشيه و الإشفاق ليس تكرارا مستدركا.

ثم قال:« وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيٰاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ »و هى كل ما يدل عليه تعالى بوجه

و من ذلک رسله الحاملون لرسالته و ما أیدوا به من کتاب و غیره و ما جاءوا به من شریعه لأن إشفاقهم من خشیه الله یبعثهم إلی تحصیل رضاه و یحملهم علی إجابته إلی ما یدعوهم إلیه و ائتمارهم لما یأمرهم به من طریق الوحی و الرساله.

ثم قال:« وَ الَّذِینَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لاٰ یُشْرِکُونَ »و الإیمان بآیاته هو الذی دعاهم إلی نفی الشرکاء فی العباده فإن الإیمان بها إیمان بالشریعه التی شرعت عبادته تعالی و الحجج التی دلت علی توحده فی ربوبیته و ألوهیته.

علی أن جمیع الرسل و الأنبیاء(ع)إنما جاءوا من قبله و إرسال الرسل لهدایه الناس إلی الحق الذی فیه سعادتهم من شئون الربوبیه،و لو کان له شریک لأرسل رسولا،

و من لطیف کلام علی علیه أفضل السلام قوله: لو کان لربک شریک لأتتک رسله.

ثم قال «وَ الَّذِینَ یُؤْتُونَ مٰا آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَهٌ أَنَّهُمْ إِلیٰ رَبِّهِمْ رٰاجِعُونَ » الوجل الخوف،و قوله:« یُؤْتُونَ مٰا آتَوْا »أی یعطون ما أعطوا من المال بالإنفاق فی سبیل الله و قیل:المراد بإیتاء ما آتوا إتیانهم بکل عمل صالح،و قوله:« وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَهٌ » حال من فاعل« یُؤْتُونَ ».

و المعنی و الذین ینفقون ما أنفقوا أو یأتون بالأعمال الصالحه و الحال أن قلوبهم خائفه من أنهم سیرجعون إلی ربهم أی إن الباعث لهم علی الإنفاق فی سبیل الله أو علی صالح العمل ذکرهم رجوعهم المحتوم إلی ربهم علی وجل منه.

و فی الآیه دلاله علی إیمانهم بالیوم الآخر و إتیانهم بصالح العمل و عند ذلک تعینت صفاتهم أنهم الذین یؤمنون بالله وحده لا شریک له و برسله و بالیوم الآخر و یعملون الصالحات.

ثم قال:« أُولٰئِکَ یُسٰارِعُونَ فِی الْخَیْرٰاتِ وَ هُمْ لَهٰا سٰابِقُونَ »الظاهر أن اللام فی « لَهٰا »بمعنی«إلی»و« لَهٰا »متعلق بسابقون،و المعنی أولئک الذین وصفناهم هم یسارعون فی الخیرات من الأعمال و هم سابقون إلیها أی یتسابقون فیها لأن ذلک لازم کون کل منهم مریدا للسبق إلیها.

فقد بین فی الآیات أن الخیرات هی الأعمال الصالحه المبتنیه علی الاعتقاد الحق الذی عند هؤلاء المؤمنین و هم یسارعون فیها و لیست الخیرات ما عند أولئک الکفار

و هم يعدونها بحسبانهم مسارعه من الله سبحانه لهم فى الخيرات.

قال فى التفسير الكبير:و فيه يعنى قوله:« أُولٰئِكَ يُسٰارِعُونَ فِي الْخَيْرٰاتِ » وجهان:

أحدهما:أن المراد يرغبون فى الطاعات أشد الرغبه فيبادرونها لئلا تفوت عن وقتها و لكيلا تفوتهم دون الاحترام.

و الثانى:أنهم يتعجلون فى الدنيا أنواع النفع و وجوه الإكرام كما قال:« فَآتٰاهُمُ اللّٰهُ ثَوٰابَ الدُّنْيٰا وَ حُسْنَ ثَوٰابِ الْآخِرَةِ »« وَ آتَيْنٰاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيٰا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصّٰالِحِينَ »لأنهم إذا سورع لهم بها فقد سارعوا فى نيلها و تعجلوها و هذا الوجه أحسن طباقا للآيه المتقدمه لأن فيه إثبات ما نفى عن الكفار للمؤمنين.انتهى.

أقول:إن الذى نفى عن الكفار فى الآيه المتقدمه هو مسارعه الله للكفار فى الخيرات و الذى أثبت للمؤمنين فى هذه الآيه هو مسارعه المؤمنين فى الخيرات،و الذى وجهه فى هذا الوجه أن مسارعتهم فى الخيرات مسارعه من الله سبحانه بوجه فيبقى عليه أن يبين الوجه فى وضع مسارعتهم فى الآيه موضع مسارعته تعالى و تبديلها منها، و وجهه بعضهم بأن تغيير الأسلوب للإيماء إلى كمال استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم،و هو كما ترى.

و الظاهر أن هذا التبديل إنما هو فى قوله فى الآيه المتقدمه:« نُسٰارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرٰاتِ »و المراد بيان أنهم يحسبون أن ما نمدهم به من مال و بنين خيرات يتسارعون إليها لكرامتهم و هم كافرون لكن لما كان ذلك بإعطاء من الله تعالى لا بقدرتهم عليها من أنفسهم نسبت المسارعه إليه تعالى ثم نفيت بالاستفهام الإنكارى،و أثبت ما يقابله على الأصل للمؤمنين.

فمحصل هذا النفى و الإثبات أن المال و البنين ليست خيرات يتسارعون إليها و لا هم مسارعون إلى الخيرات بل الأعمال الصالحه و آثارها الحسنه هى الخيرات و المؤمنون هم المسارعون إلى الخيرات.

قوله تعالى:« وَ لاٰ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاّٰ وُسْعَهٰا وَ لَدَيْنٰا كِتٰابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ »الذى يعطيه السياق أن فى الآيه ترغيبا و تحضيضا على ما ذكره من صفات المؤمنين و دفعا لما ربما ينصرف الناس بتوهمه عن التلبس بكرامتها من وجهين أحدهما

أن التلبس بها أمر سهل فی وسع النفوس و لیس بذاک الصعب الشاق الذی یستوعره المترفون،و الثانی أن الله لا یضیع عملهم الصالح و لا ینسی أجرهم الجزیل.

فقوله:« وَ لاٰ نُکَلِّفُ نَفْساً إِلاّٰ وُسْعَهٰا »نفی للتکلیف الحرجی الخارج عن وسع النفوس أما فی الاعتقاد فإنه تعالی نصب حججا ظاهره و آیات باهره تدل علی ما یرید الإیمان به من حقائق المعارف و جهز الإنسان بما من شأنه أن یدرکها و یصدق بها و هو العقل ثم راعی حال العقول فی اختلافها من جهه قوه الإدراک و ضعفه فأراد من کل ما یناسب مقدار تحمله و طوقه فلم یرد من العامه ما یریده من الخاصه و لم یسأل الأبرار عما سأل عنه المقربین و لا ساق المستضعفین بما ساق به المخلصین.

و أما فی العمل فإنما ندب الإنسان منه إلی ما فیه خیره فی حیاته الفردیه و الاجتماعیه الدنیویه و سعادته فی حیاته الأخرویه،و من المعلوم أن خیر کل نوع من الأنواع و منها الإنسان إنما یکون فیما یتم به حیاته و ینتفع به فی عیشته و هو مجهز بما یقوی علی إتیانه و عمله،و ما هذا شأنه لا یکون حرجیا خارجا عن الوسع و الطاقه.

فلا تکلیف حرجیا فی دین الله بمعنی الحکم الحرجی فی تشریعه مبنیا علی مصلحه حرجیه،و بذلک امتن الله سبحانه علی عباده،و طیب نفوسهم و رغبهم إلی ما وصفه من حال المؤمنین.

و الآیه« وَ لاٰ نُکَلِّفُ نَفْساً إِلاّٰ وُسْعَهٰا »تدل علی ذلک و زیاده فإنها تدل علی نفی التکلیف المبنی علی الحرج فی أصل تشریعه کتشریع الرهبانیه و التقرب بذبح الأولاد مثلا،و نفی التکلیف الذی هو فی نفسه غیر حرجی لکن اتفق أن صار بعض مصادیقه حرجیا لخصوصیه فی المورد کالقیام فی الصلاه للمریض الذی لا یستطیعه فالجمیع منفی بالآیه و إن کان الامتنان و الترغیب المذکوران یتمان بنفی القسم الأول.

و الدلیل علیه فی الآیه تعلق نفی التکلیف بقوله:« نَفْساً »و هو نکره فی سیاق النفی یفید العموم،و علیه فأی نفس مفروضه فی أی حادثه لا تکلف إلا وسعها و لا یتعلق بها حکم حرجی سواء کان حرجیا من أصله أو صار حرجیا فی خصوص المورد.

و قد ظهر أن فی الآیه إمضاء لدرجات الاعتقاد بحسب مراتب العقول و رفعا للحرج سواء کان فی أصل الحکم أو طارئا علیه.

و قوله:« وَ لَدَیْنٰا کِتٰابٌ یَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لاٰ یُظْلَمُونَ »ترغیب لهم بتطییب

نفوسهم بأن عملهم لا يضيع و أجرهم لا يتخلف و المراد بنطق الكتاب إعرابه عما أثبت فيه إعرابا لا لبس فيه و ذلك لأن أعمالهم مثبته فی کتاب لا ينطق إلا بما هو حق فهو مصون عن الزياده و النقيصه و التحريف،و الحساب مبنى على ما أثبت فيه كما يشير إليه قوله:« يَنْطِقُ »و الجزاء مبنى على ما يستنتج من الحساب كما يشير إليه قوله:

« وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ »فهم فی أمن من الظلم بنسيان أجرهم أو بترک إعطائه أو بنقصه أو تغييره كما أنهم فی أمن من أن لا يحفظ أعمالهم أو تنسى بعد الحفظ أو تتغير بوجه من وجوه التغير.

قال الرازی فی التفسير الكبير،فإن قيل:هؤلاء الذين يعرض عليهم ذلک الكتاب إما أن يكونوا محيلين الكذب على الله تعالى أو مجوزين ذلک عليه فإن أحالوه عليه فإنهم يصدقونه فی كل ما يقول سواء وجد الكتاب أو لم يوجد،و إن جوزوه عليه لم يثقوا بذلک الكتاب لتجويزهم أنه سبحانه كتب فيه خلاف ما حصل فعلى التقديرين لا فائده فی ذلک الكتاب.

قلنا:يفعل الله ما يشاء،و على أنه لا يبعد أن يكون ذلک مصلحه للمكلفين من الملائكه.انتهى.

أقول:و الذی أجاب به مبنی على مسلكه من نفی الغرض عن فعله تعالى و تجويز الإراده الجزافيه تعالى عن ذلک،و الإشكال مطرد فی سائر شئون يوم القيامه التی أخبر الله سبحانه بها كالحشر و الجمع و إشهاد الشهود و نشر الكتب و الدواوين و الصراط و الميزان و الحساب.

و الجواب عن ذلک كله:أنه تعالى مثل لنا ما يجری على الإنسان يوم القيامه فی صوره القضاء و الحكم الفصل،و لا غنى للقضاء بما أنه قضاء عن الاستناد إلى الحجج و البينات كالكتب و الشهود و الأمارات و الجمع بين المتخاصمين و لا يتم دون ذلک البته.

نعم لو أغمضنا النظر عن ذلک كان ظهور أعمال الإنسان له فی مراحل رجوعه إلى الله سبحانه بإذنه،فافهمه.

قوله تعالى:« بَلْ قُلُوبُهُمْ فِی غَمْرَةٍ مِنْ هٰذٰا وَ لَهُمْ أَعْمٰالٌ مِنْ دُونِ ذٰلِکَ هُمْ لَهٰا عٰامِلُونَ »المناسب لسياق الآيات أن يكون« هٰذٰا »إشاره إلى ما وصفته الآيات السابقه من حال المؤمنين و مسارعتهم فی الخيرات،و يمكن أن يكون إشاره إلى القرآن كما يؤيده

قوله بعد:« قَدْ كٰانَتْ آيٰاتِي تُتْلىٰ عَلَيْكُمْ و الغمره الغفله الشديده أو الجهل الشديد الذى غمرهم،و قوله:« وَ لَهُمْ أَعْمٰالٌ مِنْ دُونِ ذٰلِكَ »إلخ،أى من غير ما وصفناه من حال المؤمنين و هو كنايه عن أن لهم شاغلا يشغلهم عن هذه الخيرات و الأعمال الصالحه و هو الأعمال الرديئه الخبيثه التى هم لها عاملون.

و المعنى:بل الكفار فى غفله شديده أو جهل شديد عن هذا الذى وصفنا به المؤمنين و لهم أعمال رديئه خبيثه من دون ذلك هم لها عاملون فى شاغلتهم و مانعتهم.

قوله تعالى:« حَتّٰى إِذٰا أَخَذْنٰا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذٰابِ إِذٰا هُمْ يَجْأَرُونَ الجؤار بضم الجيم-صوت الوحش كالظباء و نحوها عند الفزع كنى به عن رفعهم الصوت بالاستغاثه و التضرع،و قيل:المراد به ضجتهم و جزعهم و الآيات التاليه تؤيد المعنى الأول.

و إنما جعل مترفيهم متعلق العذاب لأن الكلام فيمن ذكره قبلا بقوله:« أَ يَحْسَبُونَ أَنَّمٰا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مٰالٍ وَ بَنِينَ »و هم الرؤساء المتنعمون منهم و غيرهم تابعون لهم.

قوله تعالى: « لاٰ تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنّٰا لاٰ تُنْصَرُونَ »العدول عن سياق الغيبه إلى الخطاب لتشديد التوبيخ و التقريع و لقطع طمعهم فى النجاه بسبب الاستغاثه و أى رجاء و أمل لهم فيها فإن أخبار الوسائط أنهم لا ينصرون لدعاء أو شفاعه لا يقطع طمعهم فى النصر كما يقطعه أخبار من إليه النصر نفسه.

قوله تعالى:« قَدْ كٰانَتْ آيٰاتِي تُتْلىٰ عَلَيْكُمْ »-إلى قوله -تَهْجُرُونَ » النكوص :

الرجوع القهقرى،و السامر من السمر و هو التحديث بالليل،قيل:السامر كالحاضر يطلق على المفرد و الجمع،و قرئ«سمرا»-بضم السين و تشديد الميم جمع سامر و هو أرجح،و قرئ أيضا«سمارا»-بالضم و التشديد-،و الهجر :الهذيان.

و الفصل فى قوله:« قَدْ كٰانَتْ آيٰاتِي »إلخ،لكونه فى مقام التعليل،و المعنى:

إنكم منا لا تنصرون لأنه قد كانت آياتى تتلى و تقرأ عليكم فكنتم تعرضون عنها و ترجعون إلى أعقابكم القهقرى مستكبرين بنكوصكم تحدثون فى أمره فى الليل تهجرون و تهذون، و قيل:ضمير« بِهِ »عائد إلى البيت أو الحرم و هو كما ترى.

قوله تعالى:« أَ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جٰاءَهُمْ مٰا لَمْ يَأْتِ آبٰاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ »شروع فى قطع أعذارهم فى الإعراض عن القرآن النازل لهدايتهم و عدم استجابتهم للدعوه الحقه التى قام بها النبى ص.

فقوله:« أَ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ »الاستفهام فيه للإنكار و اللام فى« اَلْقَوْلَ »للعهد و المراد به القرآن المتلو عليهم،و الكلام متفرع على ما تقدمه من كونهم فى غفله منه و شغل يشغلهم عنه،و المعنى:هل إذا كانوا على تلك الحال لم يدبروا هذا القول المتلو عليهم حتى يعلموا أنه حق من عند الله فيؤمنوا به.

و قوله:« أَمْ جٰاءَهُمْ مٰا لَمْ يَأْتِ آبٰاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ »« أَمْ »فيه و فيما بعده منقطعه فى معنى الإضراب،و المعنى:بل أ جاءهم شىء لم يأت آباءهم الأولين فيكون بدعا ينكر و يحترز منه.

و كون الشىء بدعا محدثا لا يعرفه السابقون و إن لم يستلزم كونه باطلا غير حق على نحو الكليه لكن الرساله الإلهيه لما كانت لغرض الهدايه لو صحت وجبت فى حق الجميع فلو لم يأت الأولين كان ذلك حجه قاطعه على بطلانها.

قوله تعالى:« أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ »المراد بمعرفه الرسول معرفته بنسبه و حسبه و بالجمله بسجاياه الروحيه و ملكاته النفسيه من اكتسابيه و موروثه حتى يتبين به أنه صادق فيما يقول مؤمن بما يدعو إليه مؤيد من عند الله و قد عرفوا من النبى ص سوابق حاله قبل البعثه،و قد كان يتيما فاقدا للأبوين لم يقرأ و لم يكتب و لم يأخذ أدبا من مؤدب و لا تربيه من مرب ثم لم يجدوا عنده ما يستقبحه عقل أو يستنكره طبع أو يستهجنه رأى و لا طمعا فى ملك أو حرصا على مال أو ولعا بجاه، و هو على ما هو سنين من عمره فإذا هو ينادى للفلاح و السعاده و يندب إلى حقائق و معارف تبهر العقول و يدعو إلى شريعه تحير الألباب و يتلو كتابا.

فهم قد عرفوا رسولهم(ص)بنعوته الخاصه المعجزه لغيره،و لو لم يكونوا يعرفونه لكان لهم عذرا فى إعراضهم عن دينه و استنكافهم عن الإيمان به لأن معنى عدم معرفته كذلك وجدانه على غير بعض هذه النعوت أو عدم إحرازه فيه،و من المعلوم أن إلقاء الزمام إلى من هذا شأنه مما لا يجوزه العقل.

قوله تعالى:« أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جٰاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كٰارِهُونَ » و هذا عذر آخر لهم تشبثوا به إذ قالوا: «يٰا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ» :الحجر:۶ ذكره و رده بلازم قوله:« بَلْ جٰاءَهُمْ بِالْحَقِّ ».

فمدلول قوله:« بَلْ جٰاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كٰارِهُونَ »إضراب عن جمله

محذوفه و التقدير إنهم كاذبون فی قولهم.« بِهِ جِنَّةٌ »و اعتذارهم عن عدم إيمانهم به بذلک بل إنما كرهوا الإيمان به لأنه جاء بالحق و أكثرهم للحق كارهون.

و لازمه رد قولهم بحجه يلوح إليها هذا الإضراب،و هی أن قولهم:« بِهِ جِنَّةٌ » لو كان حقا كان كلامه مختل النظم غير مستقيم المعنی مدخولا فيه كما هو مدخول فی عقله،غير رام إلی مرمی صحيح،لكن كلامه ليس كذلک فلا يدعو إلا إلی حق، و لا يأتی إلا بحق،و أين ذلک من كلام مجنون لا يدری ما يريد و لا يشعر بما يقول.

و إنما نسب الكراهه إلی أكثرهم لأن فيهم مستضعفين لا يعبأ بهم أرادوا أو كرهوا.

قوله تعالی:« وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوٰاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمٰاوٰاتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنٰاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ »لما ذكر أن أكثرهم للحق كارهون و إنما يكرهون الحق لمخالفته هواهم فهم يريدون من الحق أی الدعوه الحقه أن يتبع أهواءهم و هذا مما لا يكون البته.

إذ لو اتبع الحق أهواءهم فتركوا و ما يهوونه من الاعتقاد و العمل فعبدوا الأصنام و اتخذوا الأرباب و نفوا الرساله و المعاد و اقترفوا ما أرادوه من الفحشاء و المنكر و الفساد جاز أن يتبعهم الحق فی غير ذلک من الخليقه و النظام الذی يجری فيها بالحق إذ ليس بين الحق و الحق فرق فأعطی كل منهم ما يشتهيه من جريان النظام و فيه فساد السماوات و الأرض و من فيهن و اختلال النظام و انتقاض القوانين الكليه الجاريه فی الكون فمن البين أن الهوی لا يقف علی حد و لا يستقر علی قرار.

و بتقرير آخر أدق و أوفق لما يعطيه القرآن من حقيقه الدين القيم أن الإنسان حقيقه كونيه مرتبطه فی وجودها بالكون العام و له فی نوعيته غايه هی سعادته و قد خط له طريق إلی سعادته و كماله ينالها بطی الطريق المنصوب إليها نظير غيره من الأنواع الموجوده،و قد جهزه الكون العام و خلقته الخاصه به من القوی و الآلات بما يناسب سعادته و الطريق المنصوب إليها و هی الاعتقاد و العمل اللذان ينتهيان به إلی سعادته.

فالطريق التی تنتهی بالإنسان إلی سعادته أعنی الاعتقادات و الأعمال الخاصه المتوسطه بينه و بين سعادته و هی التی تسمی الدين و سنه الحياه متعينه حسب

اقتضاء النظام العام الکونی و النظام الخاص الإنسانی الذی نسمیه الفطره و تابعه لذلک.

و هذا هو الذی یشیر تعالی إلیه بقوله: «فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ حَنِیفاً فِطْرَتَ اللّٰهِ الَّتِی فَطَرَ النّٰاسَ عَلَیْهٰا لاٰ تَبْدِیلَ لِخَلْقِ اللّٰهِ ذٰلِکَ الدِّینُ الْقَیِّمُ» :سوره الروم:۳۰.

فسنه الحیاه التی تنتهی بسالکها إلی السعاده الإنسانیه طریقه متعینه یقتضیها النظام بالحق و تکشف عنها تجهیزات وجوده بالحق،و هذا الحق هو القوانین الثابته غیر المتغیره التی تحکم فی النظام الکونی الذی أحد أجزائه النظام الإنسانی و تدبره و تسوقه إلی غایاته و هو الذی قضی به الله سبحانه فکان حتما مقضیا.

فلو اتبع الحق أهواءهم فاقتضی لهم من الشرع ما تجازف به أهواؤهم لم یکن ذلک إلا بتغیر أجزاء الکون عما هی علیه و تبدل العلل و الأسباب غیرها و تغیر الروابط المنتظمه إلی روابط جزافیه مختله متدافعه توافق مقتضیاتها مجازفات أهوائهم،و فی ذلک فساد السماوات و الأرض و من فیهن فی أنفسها و التدبیر الجاری فیها لأن کینونتها و تدبیرها مختلطان غیر متمایزین،و الخلق و الأمر متصلان غیر منفصلین.

و هذا هو الذی یشیر إلیه قوله:« وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوٰاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمٰاوٰاتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِیهِنَّ .

و قوله:« بَلْ أَتَیْنٰاهُمْ بِذِکْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِکْرِهِمْ مُعْرِضُونَ »لا ریب أن المراد بالذکر هو القرآن کما قال: «وَ هٰذٰا ذِکْرٌ مُبٰارَکٌ» :الأنبیاء:۵۰،و قال: «وَ إِنَّهُ لَذِکْرٌ لَکَ وَ لِقَوْمِکَ» :الزخرف:۴۴ إلی غیر ذلک من الآیات،و لعل التعبیر عنه بالذکر بعد قوله:« أَمْ یَقُولُونَ بِهِ جِنَّهٌ »نوع مقابله لقولهم: «یٰا أَیُّهَا الَّذِی نُزِّلَ عَلَیْهِ الذِّکْرُ إِنَّکَ لَمَجْنُونٌ» :الحجر:۶.

و کیف کان فقد سمی ذکرا لأنه یذکرهم بالله أو یذکر لهم دین الله من الاعتقاد الحق و العمل الصالح،و الثانی أوفق لصدر الآیه بما تقدم من معناه،و إنما أضیف إلیهم لأن الدین أعنی الدعوه الحقه مختلفه بالنسبه إلی الناس بالإجمال و التفصیل و الذی یذکره القرآن آخر مراحل التفصیل لکون شریعته آخر الشرائع.

و المعنی:لم یتبع الحق أهواءهم بل جئناهم بکتاب یذکرهم-أو یذکرون به-دینهم الذی یختص بهم و یتفرع علیه أنهم عن دینهم الخاص بهم معرضون.

و قال کثیر منهم إن إضافه الذکر إلیهم للتشریف نظیر قوله: «وَ إِنَّهُ لَذِکْرٌ

لَکَ وَ لِقَوْمِکَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ» :الزخرف:۴۴،و المعنی:بل أتیناهم بفخرهم و شرفهم الذی کان یجب علیهم أن یقبلوا علیه أکمل إقبال فهم بما فعلوه من النکوص عن فخرهم و شرفهم أنفسهم معرضون.

و فیه أنه لا ریب فی أن القرآن الکریم شرف للنبی ص إذ أنزل علیه و لأهل بیته إذ نزل فی بیتهم،و للعرب إذ نزل بلغتهم و للأمه إذ نزل لهدایتهم غیر أن الإضافه فی الآیه لیست لهذه العنایه بل لعنایه اختصاص هذا الدین بهذه الأمه و هو الأوفق لصدر الآیه بالمعنی الذی تقدمت الإشاره إلیه.

قوله تعالی:« أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرٰاجُ رَبِّکَ خَیْرٌ وَ هُوَ خَیْرُ الرّٰازِقِینَ »،قال فی مجمع البیان:أصل الخراج و الخرج واحد و هو الغله التی یخرج علی سبیل الوظیفه انتهی.

و هذا رابع الأعذار التی ذکرت فی هذه الآیات و ردت و وبخوا علیها و قد ذکره الله بقوله:« أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً »أی مالا یدفعونه إلیک علی سبیل الرسم و الوظیفه ثم ذکر غنی النبی ص بقوله:« فَخَرٰاجُ رَبِّکَ خَیْرٌ وَ هُوَ خَیْرُ الرّٰازِقِینَ »أی إن الله هو رازقک و لا حاجه لک إلی خرجهم، و قد تکرر الأمر بإعلامهم ذلک فی الآیات «قُلْ لاٰ أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً» :الأنعام:۹۰ الشوری:۲۳.

و قد تمت بما ذکر فی الآیه أربعه من الأعذار المردوده إلیهم و هی مختلفه فأولها « أَ فَلَمْ یَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ »راجع إلی القرآن و الثانی« أَمْ جٰاءَهُمْ مٰا لَمْ یَأْتِ آبٰاءَهُمُ الْأَوَّلِینَ » إلی الدین الذی إلیه الدعوه،و الثالث« أَمْ یَقُولُونَ بِهِ جِنَّهٌ »إلی نفس النبی ص، و الرابع« أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً »إلی سیرته.

قوله تعالی:« وَ إِنَّکَ لَتَدْعُوهُمْ إِلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ وَ إِنَّ الَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ عَنِ الصِّرٰاطِ لَنٰاکِبُونَ » النکب و النکوب العدول عن الطریق و المیل عن الشیء.

قد تقدم فی تفسیر سوره الفاتحه أن الصراط المستقیم هو الطریق الواضح الذی لا یختلف و لا یتخلف فی حکمه و هو إیصاله سالکیه إلی الغایه المقصوده،و هذه صفه الحق فإن الحق واحد لا یختلف أجزاؤه بالتناقض و التدافع و لا یتخلف فی مطلوبه الذی یهدی إلیه فالحق صراط مستقیم،و إذ ذکر أن النبی ص یهدی إلی الحق کان لازمه هذا الذی ذکره أنه یهدی إلی صراط مستقیم.

ثم إن الذين كفروا لما كانوا كارهين للحق كما ذكره فهم عادلون عن الصراط أى الصراط المستقيم مائلون إلى غيره.

و إنما أورد من أوصافهم عدم إيمانهم بالآخره و اقتصر عليه لأن دين الحق مبنى على أساس أن للإنسان حياه خالده لا تبطل بالموت و له فيها سعاده يجب أن تقتنى بالاعتقاد الحق و العمل الصالح و شقاوه يجب أن تجتنب و هؤلاء لنفيهم الحياه الآخره يعدلون عن الحق و الصراط المستقيم.

و بتقرير آخر:دين الحق مجموع تكاليف اعتقاديه و عمليه و التكليف لا يتم إلا بحساب و جزاء،و قد عين لذلك يوم القيامه،و إذ لا يؤمن هؤلاء بالآخره لغا الدين عندهم فلا يرون من الحياه إلا الحياه الدنيا الماديه و لا يبقى من السعاده عندهم إلا نيل اللذائذ الماديه و هو التمتع بالبطن فما دونه،و لازم ذلك أن يكون المتبع عندهم الهوى وافق الحق أو خالفه.

فمحصل الآيتين أنهم ليسوا بمؤمنين بك لأنك تدعو إلى صراط مستقيم و هم لا هم لهم إلا العدول و الميل عنه.

قوله تعالى:« وَ لَوْ رَحِمْنٰاهُمْ وَ كَشَفْنٰا مٰا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ »إلى قوله« وَ مٰا يَتَضَرَّعُونَ » اللجاج التمادى و العناد فى تعاطى الفعل المزجور عنه،و العمه التردد فى الأمر من التحير، ذكرهما الراغب،و فى المجمع،: الاستكانه الخضوع و هو استفعل من الكون،و المعنى ما طلبوا الكون على صفه الخضوع.انتهى.

و قوله:« وَ لَوْ رَحِمْنٰاهُمْ »بيان و تأييد لنكوبهم عن الصراط بأنا لو رحمناهم و كشفنا ما بهم من ضر لم يرجعوا بمقابله ذلك الشكر بل أصروا على تمردهم عن الحق و تمادوا يترددون فى طغيانهم فلا ينفعهم رحمه بكشف الضر كما لا ينفعهم تخويف بعذاب و نقمه فإنا قد أخذناهم بالعذاب فما خضعوا لربهم و ما يتضرعون إليه فهؤلاء لا ينفعهم و لا يركبهم صراط الحق لا رحمه بكشف الضر و لا نقمه و تخويف بالأخذ بالعذاب.

و المراد بالعذاب العذاب الخفيف الذى لا ينقطع به الإنسان عن عامه الأسباب بقرينه ما فى الآيه التاليه فلا يرد أن الرجوع إلى الله تعالى عند الاضطرار و الانقطاع

عن الأسباب من غريزيات الإنسان كما تكرر ذكره فى القرآن الكريم فكيف يمكن أن يأخذهم العذاب ثم لا يستكينوا و لا يتضرعوا؟.

و قوله فى الآيه الأولى:« مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ »و فى الثانيه:« وَ لَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ » يدل على أن الكلام ناظر إلى عذاب قد وقع و لما يرتفع حين نزول الآيات،و من المحتمل أنه الجدب الذى ابتلى به أهل مكه و قد ورد ذكر منه فى الروايات.

قوله تعالى:« حَتّٰى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ » أى هم على حالهم هذه لا ينفع فيهم رحمه و لا عذاب حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد و هو الموت بما يستتبعه من عذاب الآخره-على ما يعطيه سياق الآيات و خاصه الآيات الآتيه-فيفاجئوهم الإبلاس و اليأس من كل خير.

و قد ختم هذا الفصل من الكلام أعنى قوله:« أَ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ »إلخ بنظير ما ختم به الفصل السابق أعنى قوله:« أَ يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَ بَنِينَ »إلى آخر الآيات و هو ذكر عذاب الآخره،و سيعود إليه ثانيا.

(بحث روائى)

فى تفسير القمى،": فى قوله تعالى:« إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَهِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ »-إلى قوله- يُؤْتُونَ مَا آتَوْا »قال من العباده و الطاعه.

و فى الدر المنثور،أخرج الفاريابى و أحمد و عبد بن حميد و الترمذى و ابن ماجه و ابن أبى الدنيا فى نعت الخائفين و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى فى شعب الإيمان عن عائشه قالت: قلت:يا رسول الله قول الله:« وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَهٌ »أ هو الرجل يزنى و يسرق و يشرب الخمر- و هو مع ذلك يخاف الله؟قال:لا و لكن الرجل يصوم و يتصدق و يصلى-و هو مع ذلك يخاف الله أن لا يتقبل منه.

و فى المجمع،:فى قوله:« وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَهٌ »قال أبو عبد الله(ع): معناه خائفه أن لا يقبل منهم، و فى روايه أخرى:أتى و هو خائف راج .

و فى الدر المنثور،أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن قتاده":

« حَتّٰی إِذٰا أَخَذْنٰا مُتْرَفِیهِمْ بِالْعَذٰابِ »قال ذکر لنا أنها نزلت فی الذین قتل الله یوم بدر).

أقول:و روی مثله عن النسائی عن ابن عباس و لفظه قال:هم أهل بدر، و سیاق الآیات لا ینطبق علی مضمون الروایتین.

و فیه،أخرج النسائی و ابن جریر و ابن أبی حاتم و الطبرانی و الحاکم و صححه و ابن مردویه و البیهقی فی الدلائل عن ابن عباس قال": جاء أبو سفیان إلی النبی ص فقال:یا محمد أنشدک الله و الرحم فقد أکلنا العلهز-یعنی الوبر بالدم فأنزل الله:« وَ لَقَدْ أَخَذْنٰاهُمْ بِالْعَذٰابِ-فَمَا اسْتَکٰانُوا لِرَبِّهِمْ وَ مٰا یَتَضَرَّعُونَ ».

أقول:و الروایات فی هذا المعنی مختلفه و ما أوردناه أعدلها و هی تشیر إلی جدب وقع بمکه و حوالیها بدعوه النبی ص، و ظاهر أکثرها أنه کان بعد الهجره، و لا یوافق ذلک الاعتبار.

و فی تفسیر القمی،":فی قوله تعالی:« وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوٰاءَهُمْ »قال:الحق رسول الله ص و أمیر المؤمنین(ع).

أقول:هو من البطن بالمعنی الذی تقدم فی بحث المحکم و المتشابه و نظیره ما أورده":فی قوله« وَ إِنَّکَ لَتَدْعُوهُمْ إِلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ »قال إلی ولایه أمیر المؤمنین (ع)و کذا ما أورده":فی قوله:« عَنِ الصِّرٰاطِ لَنٰاکِبُونَ »قال:عن الإمام لحادون.

و فیه،فی روایه أبی الجارود عن أبی جعفر(ع): فی قوله:« أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً- فَخَرٰاجُ رَبِّکَ خَیْرٌ وَ هُوَ خَیْرُ الرّٰازِقِینَ »یقول:أم تسألهم أجرا فأجر ربک خیر.

و فی الکافی،بإسناده عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا جعفر(ع)عن قول الله عز و جل:« فَمَا اسْتَکٰانُوا لِرَبِّهِمْ وَ مٰا یَتَضَرَّعُونَ »فقال:الاستکانه هی الخضوع، و التضرع رفع الیدین و التضرع بهما.

و فی المجمع،و روی عن مقاتل بن حیان عن الأصبغ بن نباته عن أمیر المؤمنین (ع)قال:قال النبی ص: رفع الأیدی من الاستکانه.قلت:و ما الاستکانه؟ قال:أ ما تقرأ هذه الآیه:« فَمَا اسْتَکٰانُوا لِرَبِّهِمْ وَ مٰا یَتَضَرَّعُونَ »؟: أورده الثعلبی و الواحدی فی تفسیریهما .

و فیه،قال أبو عبد الله(ع): الاستکانه الدعاء،و التضرع رفع الیدین فی الصلاه.

و فی الدر المنثور،أخرج العسکری فی المواعظ عن علی بن أبی طالب: فی قوله:

«فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَ مٰا يَتَضَرَّعُونَ »أى لم يتواضعوا فى الدعاء و لم يخضعوا-و لو خضعوا لله لاستجاب لهم.

و فى المجمع،: فى قوله تعالى:« حَتّٰى إِذٰا فَتَحْنٰا عَلَيْهِمْ بٰاباً ذٰا عَذٰابٍ شَدِيدٍ »قال أبو جعفر(ع)هو فى الرجعه.

[سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٧٨ الى ٩٨]

اشاره

وَ هُوَ اَلَّذِى أَنْشَأَ لَكُمُ اَلسَّمْعَ وَ اَلْأَبْصٰارَ وَ اَلْأَفْئِدَهَ قَلِيلاً مٰا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَ هُوَ اَلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى اَلْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَ هُوَ اَلَّذِى يُحْيِى وَ يُمِيتُ وَ لَهُ اِخْتِلاٰفُ اَللَّيْلِ وَ اَلنَّهٰارِ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قٰالُوا مِثْلَ مٰا قٰالَ اَلْأَوَّلُونَ (٨١) قٰالُوا أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ كُنّٰا تُرٰاباً وَ عِظٰاماً أَ إِنّٰا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنٰا نَحْنُ وَ آبٰاؤُنٰا هٰذٰا مِنْ قَبْلُ إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ أَسٰاطِيرُ اَلْأَوَّلِينَ (٨٣) قُلْ لِمَنِ اَلْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهٰا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨۴) سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ أَ فَلاٰ تَذَكَّرُونَ (٨۵) قُلْ مَنْ رَبُّ اَلسَّمٰاوٰاتِ اَلسَّبْعِ وَ رَبُّ اَلْعَرْشِ اَلْعَظِيمِ (٨۶) سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ أَ فَلاٰ تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لاٰ يُجٰارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ فَأَنّٰى تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنٰاهُمْ بِالْحَقِّ وَ إِنَّهُمْ لَكٰاذِبُونَ (٩٠) مَا اِتَّخَذَ اَللّٰهُ مِنْ وَلَدٍ وَ مٰا كٰانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمٰا خَلَقَ وَ لَعَلاٰ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ سُبْحٰانَ اَللّٰهِ عَمّٰا يَصِفُونَ (٩١) عٰالِمِ اَلْغَيْبِ وَ اَلشَّهٰادَهِ فَتَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ (٩٢) قُلْ رَبِّ إِمّٰا تُرِيَنِّى مٰا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلاٰ تَجْعَلْنِى فِى اَلْقَوْمِ اَلظّٰالِمِينَ (٩۴) وَ إِنّٰا عَلىٰ أَنْ نُرِيَكَ مٰا نَعِدُهُمْ لَقٰادِرُونَ (٩۵) اِدْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ اَلسَّيِّئَهَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمٰا يَصِفُونَ (٩۶) وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزٰاتِ اَلشَّيٰاطِينِ (٩٧) وَ أَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨)

ص: ۵٢

بیان

لما أوعدهم بعذاب شدید لا مرد له و لا مخلص منه،و رد علیهم کل عذر یمکنهم أن یعتذروا به،و بین أن السبب الوحید لکفرهم بالله و الیوم الآخر هو اتباع الهوی و کراهه اتباع الحق،تمم البیان بإقامه الحجه علی توحده فی الربوبیه و علی رجوع الخلق إلیه بذکر آیات بینه لا سبیل للإنکار إلیها.

و عقب ذلک بأمر النبی ص أن یستعیذ به من أن یشمله العذاب الذی أوعدوا به،و أن یعوذ به من همزات الشیطان و أن یحضروه کما فعلوا بهم.

قوله تعالی: وَ هُوَ الَّذِی أَنْشَأَ لَکُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَهَ قَلِیلاً ما تَشْکُرُونَ » افتتح سبحانه من نعمه التی أنعمها علیهم بذکر إنشاء السمع و البصر و هما نعمتان خص بهما جنس الحیوان خلقتا فیه إنشاء و إبداعا لا عن مثال سابق إذ لا توجدان فی الأنواع البسیطه التی قبل الحیوان کالنبات و الجماد و العناصر.

و بحصول هذین الحسین یقف الوجود المجهز بهما موقفا جدیدا و یتسع مجال فعالیته بالنسبه إلی ما هو محروم منهما اتساعا لا یتقدر بقدر فیدرک خیره و شره و نافعه و ضاره و یعطی معهما الحرکه الإرادیه إلی ما یریده و عما یکرهه،و یستقر فی عالم حدیث طری فیه مجالی الجمال و اللذه و العزه و الغلبه و المحبه مما لا خبر عنه فیما قبله.

و إنما اقتصر من الحواس بالسمع و البصر-قیل-لأن الاستدلال یتوقف علیهما و یتم بهما.

ثم ذکر سبحانه الفؤاد و المراد به المبدأ الذی یعقل من الإنسان و هو نعمه خاصه بالإنسان من بین سائر الحیوان و مرحله حصول الفؤاد مرحله وجودیه جدیده هی أرفع درجه و أعلی منزله و أوسع مجالا من عالم الحیوان الذی هو عالم الحواس فیتسع به أولا شعاع عمل الحواس مما کان علیه فی عامه الحیوان بما لا یتقدر بقدر فإذا الإنسان یدرک بهما ما غاب و ما حضر و ما مضی و ما غبر من أخبار الأشیاء و آثارها و أوصافها بعلاج و غیر علاج.

ثم یرقی بفؤاده أی بتعقله إلی ما فوق المحسوسات و الجزئیات فیتعقل الکلیات فیحصل القوانین الکلیه،و یغور متفکرا فی العلوم النظریه و المعارف الحقیقیه،و ینفذ بسلطان التدبر فی أقطار السماوات و الأرض.

ففی ذلک کله من عجیب التدبیر الإلهی بإنشاء السمع و الأبصار و الأفئده ما لا یسع الإنسان أن یستوفی شکره.

و قوله:« قَلِیلاً مٰا تَشْکُرُونَ »فیه بعض العتاب و معناه تشکرون شکرا قلیلا فقوله:« قَلِیلاً »وصف للمفعول المطلق قائم مقامه.

قوله تعالی:« وَ هُوَ الَّذِی ذَرَأَکُمْ فِی الْأَرْضِ وَ إِلَیْهِ تُحْشَرُونَ »قال الراغب:

الذرأ إظهار الله تعالی ما أبداه یقال:ذرأ الله الخلق أی أوجد أشخاصهم.و قال:

الحشر إخراج الجماعه عن مقرهم و إزعاجهم عنه إلی الحرب و نحوها.انتهی.

فالمعنی:أنه لما جعلکم ذوی حس و عقل أظهر وجودکم فی الأرض متعلقین بها ثم یجمعکم و یرجعکم إلی لقائه.

قوله تعالی:« وَ هُوَ الَّذِی یُحْیِی وَ یُمِیتُ وَ لَهُ اخْتِلاٰفُ اللَّیْلِ وَ النَّهٰارِ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ » معنی الآیه ظاهر،و قوله:« وَ هُوَ الَّذِی یُحْیِی وَ یُمِیتُ »مترتب بحسب المعنی علی الجمله التی قبله أی لما جعلکم ذوی علم و أظهر وجودکم فی الأرض إلی حین حتی تحشروا إلیه لزمت ذلک سنه الإحیاء و الإماته إذ العلم متوقف علی الحیاه و الحشر متوقف علی الموت.

و قوله:« وَ لَهُ اخْتِلاٰفُ اللَّیْلِ وَ النَّهٰارِ »مترتب علی ما قبله فإن الحیاه ثم الموت لا تتم إلا بمرور الزمان و ورود اللیل بعد النهار و النهار بعد اللیل حتی ینقضی العمر و یحل الأجل المکتوب،هذا لو أرید باختلاف اللیل و النهار و ورود الواحد منها بعد الواحد،و لو أرید به اختلافهما فی الطول و القصر کانت فیه إشاره إلی إیجاد فصول

السنه الأربعه المتفرعه على طول الليل و النهار و قصرهما و بـذلك يتم أمر إرزاق الحيوان و تدبير معاشـها كما قال: «وَ قَدَّرَ فِيهٰا أَقْوٰاتَهٰا فِي أَرْبَعَةِ أَيّٰامٍ سَوٰاءً لِلسّٰائِلِينَ» :حم السجده:۱۰.

فمضـامين الآيـات الثلاث مترتبه مسـتتبعه بعضـها بعضا فإنشاء السـمع و البصـر و الفؤاد و هو الحس و العقل للإنسان يسـتتبع حياه متعلقه بالمـاده و سـكونا فى الأرض إلى حين،ثم الرجوع إلى الله،و هو يسـتتبع حياه و موتا،و ذلك يسـتتبع عمرا متقضـيا بانقضاء الزمان و رزقا يرتزق به.

فالآيات الثلاث تتضمن إشاره إلى دور كامل من تدبير أمر الإنسان من حين يخلق إلى أن يرجع إلى ربه، و الله سبحانه هو مالك خلقه فهو مالك تـدبير أمره لأن هـذا التـدبير تـدبير تكوينى لا يفارق الخلق و الإيجاد و لا ينحاز عنه،و هو نظام الفعل و الانفعال الجـارى بين الأشـياء بمـا بينهـا من الروابـط المختلفه المجعوله بالتكوين فالله سـبحانه هو ربهم المـدبر لأمرهم و إليه يحشـرون،و قوله:« أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ »توبيخ لهم و حث على التنبه فالإيمان.

قوله تعالى:« بَلْ قٰالُوا مِثْلَ مٰا قٰالَ الْأَوَّلُونَ »إضراب عن نفى سابق يدل عليه الاستفهام المتقدم أى لم يعقلوا بل قالوا كذا و كذا.

و فى تشبيه قولهم بقول الأولين إشاره إلى أن تقليـد الآباء منعهم عن اتباع الحق و أوقعهم فيما لا يبقى معه للـدين جـدوى و هو نفى المعاد،و الإخلاص إلى الأرض و الانغمار فى الماديات سنه جاريه فيهم فى آخراهم و أولاهم.

قوله تعالى:« قٰالُوا أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ كُنّٰا تُرٰاباً وَ عِظٰاماً أَ إِنّٰا لَمَبْعُوثُونَ »بيان لقوله:

« قٰالُوا »فى الآيه السابقه و الكلام مبنى على الاستبعاد.

قوله تعالى:« لَقَدْ وُعِدْنٰا نَحْنُ وَ آبٰاؤُنٰا هٰذٰا مِنْ قَبْلُ إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ أَسٰاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » الأساطير الأباطيل و الأحاديث الخرافيه و هى جمع أسـطوره كأكاذيب جمع أكـذوبه و أعاجيب جمع أعجوبه و إطلاق الأساطير و هو جمع على البعث و هو مفرد بعنايه أنه مجموع عدات كل واحد منها أسـطوره كالإحياء و الجمع و الحشر و الحساب و الجنه و النار و غيرها،و الإشاره بهذا إلى حديث البعث و قوله: مِنْ قَبْلُ ،متعلق بقوله:« وُعِدْنٰا » على ما يعطيه سياق الجمله.

ص :۵۵

و المعنی:أن وعد البعث وعد قدیم لیس بحدیث نقسم لقد وعدناه من قبل نحن و آباؤنا لیس البعث الموعود إلا أحادیث خرافیه وضعها و نظمها الأناسی الأولون فی صوره إحیاء الأموات و حساب الأعمال و الجنه و النار و الثواب و العقاب.

و الدلیل علی کونها أساطیر أن الأنبیاء من قدیم الدهر لا یزالون یعدوننا و یخوفوننا بقیام الساعه و لو کان حقا غیر خرافی لوقع.

و من هنا یظهر أولا أن قولهم:« مِنْ قَبْلُ »لتمهید الحجه علی قولهم بعده« إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ أَسٰاطِیرُ الْأَوَّلِینَ ».

و ثانیا:أن الکلام مسوق للترقی فالآیه السابقه:« أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ کُنّٰا تُرٰاباً وَ عِظٰاماً أَ إِنّٰا لَمَبْعُوثُونَ »مبنیه علی الاستبعاد و هذه الآیه متضمنه للإنکار مبنیا علی حجه واهیه.

قوله تعالی:« قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِیهٰا إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ »لما ذکر استبعادهم للبعث ثم إنکارهم له شرع فی الاحتجاج علی إمکانه من طریق الملک و الربوبیه و السلطنه،و وجه الکلام إلی الوثنیین المنکرین للبعث و هم معترفون به تعالی بمعنی أنه الموجد للعالم و رب الأرباب و الآلهه المعبودون دونه من خلقه،و لذا أخذ وجوده تعالی مسلما فی ضمن الحجه.

فقوله:« قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِیهٰا »أمر للنبی ص أن یسألهم عن مالک الأرض و من فیها من أولی العقل من هو؟و معلوم أن السؤال إنما هو عن الملک الحقیقی الذی هو قیام وجود شیء بشیء بحیث لا یستقل الشیء المملوک عن مالکه بأی وجه فرض دون الملک الاعتباری الذی وضعناه معاشر المجتمعین لمصلحه الاجتماع و هو یقبل الصحه و الفساد و یقع موردا للبیع و الشری،و ذلک لأن الکلام مسوق لإثبات صحه جمیع التصرفات التکوینیه و ملاکها الملک التکوینی الحقیقی دون التشریعی الاعتباری.

قوله تعالی:« سَیَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ أَ فَلاٰ تَذَکَّرُونَ »إخبار عن جوابهم و هو أن الأرض و من فیها مملوکه لله،و لا مناص لهم عن الاعتراف بکونها لله سبحانه فإن هذا النوع من الملک لا یقوم إلا بالعله الموجده لمعلولها حیث یقوم وجود المعلول بها قیاما لا یستقل عنها بوجه من الوجوه،و العله الموجده للأرض و من فیها هو الله سبحانه وحده لا شریک له حتی باعتراف الوثنیین.

و قوله:« قُلْ أَ فَلاٰ تَذَکَّرُونَ »أمر بعد تسجیل الجواب أن یوبخهم علی عدم

تـذکرهم بالحجه الداله علی إمکان البعث،و المعنی قل لهم فإذا کان الله سـبحانه مالک الأرض و من فیها لم لا تتذکرون أن له-لمکان مالکیته-أن یتصرف فی أهلها بالإحیاء بعد الإماته.

قـوله تعـالی:« قُـلْ مَنْ رَبُّ السَّمـٰاوٰاتِ السَّبْعِ وَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِیمِ »أمره ثانیـا أن یسـألهم عن رب السـماوات السـبع و رب العرش العظیم من هو؟.

و المراد بـالعرش هو المقـام الـذی یجتمع فیه أزمه الأـمور و یصـدر عنه کـل تـدبیر، و تکرار لفـظ الرب فی قوله:« وَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِیمِ »للإشاره إلی أهمیه أمره و رفعه محله کما وصـفه الله بالعظمه،و قـد تقـدم البحث عنه فی تفسـیر سوره الأعراف فی الجزء الثامن من الکتاب.

ذکروا أن قولنا:لمن السـماوات السـبع و قولنا:من رب السـماوات السـبع بمعنی واحـد کما یقال:لمن الـدار و من رب الـدار فقوله تعالی:« مَنْ رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ السَّبْعِ ؟ سؤال عن مالکها،و لذا حکی الجواب عنهم بقوله:« سَـیَقُولُونَ لِلّٰهِ »علی المعنی و لو أنه أجیب عنه فقیل:« الله »کما فی القراءه الأخری کان جوابا علی اللفظ.

و فیه أن الـذی ثبت فی اللغه أن رب الشـیء هو مـالکه المـدبر لأـمره بالتصـرف فیه فیکون الربوبیه أخص من الملـک،و لو کـان الرب مرادفا للمالک لم یسـتقم ترتب الجواب علی السؤال فی الآیتین السابقتین« قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِیهٰا »-إلی قوله- سَیَقُولُونَ لِلّٰهِ »إذ کـان معنی السؤال:من رب الأـرض و من فیهـا،و من المعلوم أنهم کـانوا قـائلین بربوبیه آلهتهم من دون الله للأرض و من فیهـا فکان جوابهم إثبات الربوبیه لآلهتهم من غیر أن یکونوا ملزمین بتصـدیق ذلک لله سـبحانه و هـذا بخلاف السؤال عن مالک الأرض و من فیها فإن الجواب عنه تصدیقه لله لأنهم کانوا یرون الإیجاد لله و الملک لازم الإیجاد فکانوا ملزمین بالاعتراف به.

ثم علی تقـدیر کون الرب أخص من المالک یمکن أن یتوهم توجه الإشـکال إلی ترتب الجواب علی السؤال فی الآیه المبحوث عنها« قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ السَّبْعِ -إلی قوله- سَیَقُولُونَ لِلّٰهِ »فإن جل الوثنیین من الصابئین و غیرهم یرون للسماوات و ما فیها من الشمس و القمر و غیرهما آلهه دون الله فلو أجابوا عن السؤال عن رب السماوات

أجابوا بإثبات الربوبيه لآلهتهم دون الله فلا يستقيم قوله:« سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ »إذ لا ملزم يلزمهم على الاعتراف به.

و الذى يحسم أصل الإشكال أن البحث العميق عن معتقدات القوم يعطى أنهم لم يكونوا يبنون آراءهم فى أمر الآلهه على أصل أو أصول منظمه مسلمه عند الجميع فأمثال الصابئين و البرهمائيين و البوذيين كانوا يقسمون أمور العالم إلى أنواع و أقسام كأمر السماء و الأرض و أنواع الحيوان و النبات و البر و البحر و غير ذلك و يثبتون لكل منها إلها دون الله يعبدونه من دون الله و يعدونه شفيعا مقربا ثم يتخذون له صنما يمثله.

و أما عامتهم من الهمجيين كأعراب الجاهليه و القاطنين فى أطراف المعموره فلم يكن معتقداتهم فى ذلك مبنيه على قواعد مضبوطه و ربما كانوا يرون للمعموره من الأرض و سكانها آلهه دون الله لها أصنام و ربما رأوا نفس الأصنام المصنوعه آلهه،و أما السماوات و السماويات و كذا البحار فكانوا يرونها مربوبه لله سبحانه و الله ربها كما يلوح إليه قوله تعالى حكايه عن فرعون: «يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلىٰ إِلٰهِ مُوسىٰ» :المؤمن:۳۷،فإن ظاهره أنه كان يرى أن الذى يدعو إليه موسى-و هو الله تعالى-إله السماء و بالجمله السماوات و ما فيهن و من فيهن من الملائكه عندهم مربوبون لله سبحانه ثم الملائكه أرباب لما دون السماوات.

و أما الصابئون و من يحذو حذوهم فإنهم-كما سمعت-يرون للسماوات و ما فيهن من النجوم و الكواكب آلهه و أربابا من دون الله و هم الملائكه و الجن و هم يرون الملائكه و الجن موجودات مجرده عن الماده طاهره عن لوث الطبيعه،و حينما يعدونهم ساكنين فى السماوات فإنما يريدون باطن هذا العالم و هو العالم السماوى العلوى الذى فيه تتقدر الأمور و منه ينزل القضاء و به تستمد الأسباب الطبيعيه،و هو بما فيه من الملائكه و غيرهم مربوب لله سبحانه و إن كان من فيه آلهه للعالم الحسى و أربابا لمن فيه و الله رب الأرباب.

إذا تمهدت هذه المقدمه فنقول:إن كان وجه الكلام فى الآيه الكريمه إلى مشركى العرب كما هو الظاهر،كان السؤال عن رب السماوات السبع و الجواب عنه باعترافهم أنه الله فى محله كما عرفت.

و إن كان وجه الكلام إلى غيرهم ممن يرى للسماء إلها دون الله كان المراد بالسماء العالم السماوى بسكنته من الملائكه و الجن دون السماوات الماديه،و يؤيده مقارنته بالسؤال عن رب العرش العظيم فإن العرش مقام صدور الأحكام المتعلقه بمطلق الخلق الذى منهم أربابهم و آلهتهم،و من المعلوم أن لا رب لمقام هذا شأنه إلا الله إذ لا يفوقه شيء دونه.

و هذا العالم العلوى هو عندهم عالم الأرباب و الآلهه لا رب له إلا الله سبحانه فالسؤال عن ربه و الجواب عنه باعترافهم أنه الله فى محله كما أشير إليه.

فمعنى الآيه-و الله أعلم-قل:من رب السماوات السبع التى منها تنزل أقدار الأمور و أقضيتها و رب العرش العظيم الذى منه يصدر الأحكام لعامه ما فى العالم من الملائكه فمن دونهم؟فإنهم و ما يملكونهم باعتقادكم مملوكه لله و هو الذى ملكهم ما ملكوه.

قوله تعالى:« سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ أَ فَلاٰ تَتَّقُونَ »حكايه لجوابهم بالاعتراف بأن السماوات السبع و العرش العظيم لله سبحانه.

و المعنى:سيجيبونک بأنها لله قل لهم تبكيتا و توبيخا:فإذا كان السماوات السبع منها ينزل الأمر و العرش العظيم منه يصدر الأمر لله سبحانه فلم لا تتقون سخطه إذ تنكرون البعث و تعدونه من أساطير الأولين و تسخرون من أنبيائه الذين وعدوكم به؟ فإن له تعالى أن يصدر الأمر ببعث الأموات و إنشاء النشأه الآخره للإنسان و ينزل الأمر به من السماء.

و من لطيف تعبير الآيه التعبير بقوله:« لِلّٰهِ »فإن الحجه تتم بالملك و إن لم يعترفوا بالربوبيه.

قوله تعالى:« قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لاٰ يُجٰارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الملكوت هو الملك بمعنى السلطنه و الحكم،و يفيد مبالغه فى معناه و الفرق بين الملك بالفتح و الكسر و بين المالك أن المالك هو الذى يملك المال و الملك يملك المالك و ماله،فله ملك فى طول ملك و له التصرف بالحكم فى المال و مالكه.

و قد فسر تعالى ملكوته بقوله: «إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ

فَيَكُونُ فَسُبْحانَ الَّذِی بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَیْءٍ» :يس-۸۳فملكوت كل شیء هو كونه عن أمره تعالی بكلمه كن و بعباره أخری وجوده عن إيجاده تعالی.

فكون ملكوت كل شیء بيده كنايه استعاريه عن اختصاص إيجاد كل ما يصدق عليه الشیء به تعالی كما قال: «اللّهُ خالِقُ كُلِّ شَیْءٍ» :الزمر:۶۲،فملكه تعالی محيط بكل شیء و نفوذ أمره و مضی حكمه ثابت علی كل شیء.

و لما كان من الممكن أن يتوهم أن عموم الملك و نفوذ الأمر لا ينافی إخلال بعض ما أوجده من الأسباب و العلل بأمره فيفعل ببعض خلقه ما لا يريده أو يمنعه عما يريده تمم قوله:« بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَیْءٍ »بقوله:« وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لا يُجارُ عَلَيْهِ »و هو فی الحقيقه توضيح لاختصاص الملك بأنه بتمام معنی الكلمه فليس لشیء شیء من الملك فی عرض ملكه و لو بالمنع و الإخلال و الاعتراض فله الملك و له الحكم.

و قوله:« وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لا يُجارُ عَلَيْهِ »من الجوار ،و هو فی أصله قرب المسكن ثم جعلوا للجوار حقا و هو حمايه الجار لجاره عمن يقصده بسوء لكرامه الجار علی الجار بقرب الدار و اشتق منه الأفعال يقال:استجاره فأجاره أی سأله الحمايه فحماه أی منع عنه من يقصده بسوء.

و هذا جار فی جميع أفعاله تعالی فما من شیء يخصه الله بعطيه حدوثا أو بقاء إلا و هو يحفظه علی ما يريد و بمقدار ما يريد من غير أن يمنعه مانع إذ منع المانع-لو فرض-إنما هو بإذن منه و مشيه فليس منعا له تعالی بل منعا منه و تحديدا لفعل منه بفعل آخر،و ما من سبب من الأسباب يفعل فعلا إلا و له تعالی أن يتصرف فيه بما لا يريده لأنه تعالی هو الذی ملكه الفعل بمشيته فله أن يمنعه منه أو من بعضه.

فالمراد بقوله:« وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لا يُجارُ عَلَيْهِ »أنه يمنع السوء عمن قصد به و لا يمنعه شیء إذا أراد شيئا بسوء عما أراد.

و معنی الآيه قل لهؤلاء المنكرين للبعث:من الذی يختص به إيجاد كل شیء بما له من الخواص و الآثار و هو يحمی من استجار به و لا يحمی عنه شیء إذا أراد شيئا بسوء؟إن كنتم تعلمون.

قوله تعالی:« سَيَقُولُونَ لِلّهِ قُلْ فَأَنّی تُسْحَرُونَ »قيل:إن المراد بالسحر أن يخيل الشیء للإنسان علی خلاف ما هو عليه فهو من الاستعاره أو الكنايه.

و المعنى:سيجيبونک أن الملكوت لله قل لهم تبكيتا و توبيخا:فإلى متى يخيل لكم الحق باطلا فإذا كان الملك المطلق لله سبحانه فله أن يوجد النشأه الآخره و يعيد الأموات للحساب و الجزاء بأمر يأمره و هو قوله:« كُنْ ».

و اعلم أن الاحتجاجات الثلاثه كما تثبت إمكان البعث كذلك تثبت توحده تعالى فى الربوبيه فإن الملك الحقيقى لا يتخلف عن جواز التصرفات،و المالك المتصرف هو الرب.

قوله تعالى:« بَلْ أَتَيْنٰاهُمْ بِالْحَقِّ وَ إِنَّهُمْ لَكٰاذِبُونَ »إضراب عن النفى المفهوم من الحجج التى أقيمت فى الآيات السابقه،و المعنى فإذا كانت الحجج المبنيه تدل على البعث و هم معترفون بصحتها فليس ما وعدهم رسلنا باطلا بل جئناهم بلسان الرسل بالحق و إنهم لكاذبون فى دعواهم كذبهم و نفيهم للبعث.

قوله تعالى:« مَا اتَّخَذَ اللّٰهُ مِنْ وَلَدٍ وَ مٰا كٰانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمٰا خَلَقَ وَ لَعَلاٰ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ »إلخ،القول بالولد كان شائعا بين الوثنيين يعدون الملائكه أو بعضهم و بعض الجن و بعض القديسين من البشر أولادا لله سبحانه و تبعهم النصارى فى قولهم:المسيح ابن الله،و هذا النوع من الولاده و البنوه مبنى على اشتمال الابن على شىء من حقيقه اللاهوت و جوهره و انفصاله منه بنوع من الاشتقاق فيكون المسمى بالابن إلها مولودا من إله.

و أما البنوه الادعائيه بالتبنى و هو أخذ ولد الغير ابنا لتشريف أو لغرض آخر فلا يوجب اشتمال الابن على شىء من حقيقه الأب كقول اليهود نحن أبناء الله و أحباؤه، و ليس الولد بهذا المعنى مرادا لأن الكلام مسوق لنفى تعدد الآلهه،و لا يستلزم هذا النوع من البنوه ألوهيه و إن كان التسمى و التسميه بها ممنوعا.

فالمراد باتخاذ الولد إيجاد شىء بنحو التبعض و الاشتقاق يكون مشتملا بنحو على شىء من حقيقه الموجد لا تسميه شىء موجود ابنا و ولدا لغرض من الأغراض كما ذكره بعضهم.

و الولد-كما عرفت- أخص مصداقا عندهم من الإله فإن بعض آلهتهم ليس بولد عندهم فقوله:« مَا اتَّخَذَ اللّٰهُ مِنْ وَلَدٍ وَ مٰا كٰانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ »ترق من نفى الأخص إلى نفى الأعم و لفظه« مِنْ »فى الجملتين زائده للتأكيد.

و قوله:« إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمٰا خَلَقَ »حجه على نفى التعدد ببيان محذوره إذ لا يتصور تعدد الآلهه إلا ببينونتها بوجه من الوجوه بحيث لا تتحد فى معنى ألوهيتها و ربوبيتها،و معنى ربوبيه الإله فى شطر من الكون و نوع من أنواعه تفويض التدبير فيه إليه بحيث يستقل فى أمره من غير أن يحتاج فيه إلى شىء غير نفسه حتى إلى من فوض إليه الأمر،و من البين أيضا أن المتباينين لا يترشح منهما إلا أمران متباينان.

و لازم ذلك أن يستقل كل من الآلهه بما يرجع إليه من نوع التدبير و تنقطع رابطه الاتحاد و الاتصال بين أنواع التدابير الجاريه فى العالم كالنظام الجارى فى العالم الإنسانى عن الأنظمه الجاريه فى أنواع الحيوان و النبات و البر و البحر و السهل و الجبل و الأرض و السماء و غيرها و كل منها عن كل منها،و فيه فساد السماوات و الأرض و ما فيهن، و وحده النظام الكونى و التئام أجزائه و اتصال التدبير الجارى فيه يكذبه.

و هذا هو المراد بقوله:« إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمٰا خَلَقَ »أى انفصل بعض الآلهه عن بعض بما يترشح منه من التدبير.

و قوله:« وَ لَعَلاٰ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ »محذور آخر لازم لتعدد الآلهه تتألف منه حجه أخرى على النفى،بيانه أن التدابير الجاريه فى الكون مختلفه منها التدابير العرضيه كالتدبيرين الجاريين فى البر و البحر و التدبيرين الجاريين فى الماء و النار،و منها التدابير الطوليه التى تنقسم إلى تدبير عام كلى حاكم و تدبير خاص جزئى محكوم كتدبير العالم الأرضى و تدبير النبات الذى فيه،و كتدبير العالم السماوى و تدبير كوكب من الكواكب التى فى السماء،و كتدبير العالم المادى برمته و تدبير نوع من الأنواع الماديه.

فبعض التدبير و هو التدبير العام الكلى يعلو بعضا بمعنى أنه بحيث لو انقطع عنه ما دونه بطل ما دونه لتقومه بما فوقه،كما أنه لو لم يكن هناك عالم أرضى أو التدبير الذى يجرى فيه بالعموم لم يكن عالم إنسانى و لا التدبير الذى يجرى فيه بالخصوص.

و لازم ذلك أن يكون الإله الذى يرجع إليه نوع عال من التدبير عاليا بالنسبه إلى الإله الذى فوض إليه من التدبير ما هو دونه و أخص منه و أخس و استعلاء الإله على الإله محال.

لا لأن الاستعلاء المذكور يستلزم كون الإله مغلوبا لغيره أو ناقصا فى قدرته

محتاجا فی تمامه إلی غیره أو محدودا و المحدودیه تفضی إلی الترکیب،و کل ذلک من لوازم الإمکان المنافی لوجوب وجود الإله فیلزم الخلف-کما قرره المفسرون-فإن الوثنیین لا یرون لآلهتهم من دون الله وجوب الوجود بل هی عندهم موجودات ممکنه عالیه فوض إلیهم تدبیر أمر ما دونها،و هی مربوبه لله سبحانه و أرباب لما دونها و الله سبحانه رب الأرباب و إله الآلهه و هو الواجب الوجود بالذات وحده.

بل استحاله الاستعلاء إنما هو لاستلزامه بطلان استقلال المستعلی علیه فی تدبیره و تأثیره إذ لا یجامع توقف التدبیر علی الغیر و الحاجه إلیه الاستقلال فیکون السافل منها مستمدا فی تأثیره محتاجا فیه إلی العالی فیکون سببا من الأسباب التی یتوسل بها إلی تدبیر ما دونه لا إلها مستقلا بالتأثیر دونه فیکون ما فرض إلها غیر إله بل سببا یدبر به الأمر هذا خلف.

هذا ما یعطیه التدبر فی الآیه،و للمفسرین فی تقریر حجه الآیه مسالک مختلفه یبتنی جمیعها علی استلزام تعدد الآلهه أمورا تستلزم إمکانها و تنافی کونها واجبه الوجود فیلزم الخلف،و القوم لا یقولون فی شیء من آلهتهم من دون الله بوجوب الوجود، و قد أفرط بعضهم فقرر الآیه بوجوه مؤلفه من مقدمات لا إشاره فی الآیه إلی جلها و لا إیهام،و فرط آخرون فصرحوا بأن الملازمه المذکوره فی الآیه عادیه لا عقلیه، و الدلیل إقناعی لا قطعی.

ثم لا یشتبهن علیک أمر قوله:« لَذَهَبَ کُلُّ إِلٰهٍ بِمٰا خَلَقَ »حیث نسب الخلقه إلیها و قد تقدم أنهم قائلون بإله التدبیر دون الإیجاد و ذلک لأن بعض الخلق من التدبیر فإن خلق جزئی من الجزئیات مما یتم بوجوده النظام الکلی من التدبیر بالنسبه إلی النظام الجاری فالخلق بمعنی الفعل و التدبیر مختلطان و قد نسب الخلق إلی أعمالنا کما فی قوله:

«وَ اللّٰهُ خَلَقَکُمْ وَ مٰا تَعْمَلُونَ» :الصافات:۹۶،و قوله: «وَ جَعَلَ لَکُمْ مِنَ الْفُلْکِ وَ الْأَنْعٰامِ مٰا تَرْکَبُونَ» :الزخرف:۱۲.

فالقوم یرون أن کلا من الآلهه خالق لما دونه أی فاعل له کما یفعل الواحد منا أفعاله،و أما إعطاء الوجود للأشیاء فمما یختص بالله سبحانه وحده لا یرتاب فیه موحد و لا وثنی إلا بعض من لم یفرق بین الفعل و الإیجاد من المتکلمین.

و قد ختم الآیه بالتنزیه بقوله:« سُبْحٰانَ اللّٰهِ عَمّٰا یَصِفُونَ ».

قوله تعالى:« عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ »صفه لاسم الجلاله فى قوله:« سُبْحَانَ اللّهِ عَمَّا يَصِفُونَ »و تأخيرها للدلاله على علمه بتنزهه عن وصفهم إياه بالشركه-على ما يعطيه السياق-فيكون فى معنى قوله: «قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِى السَّمَاوَاتِ وَ لاَ فِى الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ» :يونس:١٨.

و يرجع فى الحقيقه إلى الاحتجاج على نفى الشركاء بشهادته تعالى أنه لا يعلم لنفسه شريكا كما أن قوله: «شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاّ هُوَ» :آل عمران:١٨ احتجاج بالشهاده على نفى أصل الوجود.

و قيل:إنه برهان آخر راجع إلى إثبات العلو أو لزوم الجهل الذى هو نقص و ضد العلو لأن المتعددين لا سبيل لهما إلى أن يعلم كل واحد حقيقه الآخر كعلم ذلك الآخر بنفسه بالضروره و هو نوع جهل و قصور.انتهى.

و فيه أن ذلك كسائر ما قرروه من البراهين ينفى تعدد الإله الواجب الوجود بالذات،و الوثنيون لا يلتزمون فى آلهتهم من دون الله بذلك.على أن بعض مقدمات ما قرر من الدليل ممنوع.

و قوله:« فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ »تفريع على جميع ما تقدم من الحجج على نفى الشركاء.

قوله تعالى:« قُلْ رَبِّ إِمّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ رَبِّ فَلاَ تَجْعَلْنِى فِى الْقَوْمِ الظّالِمِينَ » لما فرغ من نقل ما تفوهوا به من الشرك بالله و إنكار البعث و الاستهزاء بالرسل و أقام الحجج على إثبات حقيتها رجع إلى ما تقدم من تهديدهم بالعذاب فأمر نبيه ص أن يسأله أن ينجيه من العذاب الذى أوعدهم به إن أراه ذلك العذاب.

فقوله:« قُلْ رَبِّ إِمّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ »أمر بالدعاء و الاستغاثه،و تكرار « رَبِّ »لتأكيد التضرع و ما فى قوله:« إِمّا تُرِيَنِّى »زائده و هى المصححه لدخول نون التأكيد على الشرط و أصله:إن ترنى.و فى قوله:« مَا يُوعَدُونَ »دلاله على أن بعض ما تقدم فى السوره من الإيعاد بالعذاب إيعاد بعذاب دنيوى. و ما فى قوله:« رَبِّ فَلاَ تَجْعَلْنِى فِى الْقَوْمِ الظّالِمِينَ »من الكون فيهم كنايه عن شمول عذابهم له.

قوله تعالى: « وَ إِنّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ »تطييب لنفس النبى ص

بقدره ربه على أن يكشف عنه بإراءته ما يعدهم من العذاب،و لعل المراد به ما عذبهم الله به يوم بدر و قد أراه الله ذلك و أراه المؤمنين و شفى به غليل صدورهم.

قوله تعالى:« اِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمٰا يَصِفُونَ »أی ادفع السيئه التی تتوجه إليك منهم بالحسنه و اختر للدفع من الحسنات أحسنها،و هو دفع السيئه بالحسنه التی هی أحسن مثل أنه لو أساءوا إليك بالإيذاء أحسن إليهم بغايه ما استطعت من الإحسان ثم ببعض الإحسان فی الجمله و لو لم يسعك ذلك فبالصفح عنهم.

و قوله:« نَحْنُ أَعْلَمُ بِمٰا يَصِفُونَ »نوع تسليه للنبی ص أن لا يسوءونه ما يلقاه و لا يحزنه ما يشاهد من تجريهم على ربهم فإنه أعلم بما يصفون.

قوله تعالى:« وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزٰاتِ الشَّيٰاطِينِ وَ أَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ »،قال فی مجمع البيان،: الهمزه شده الدفع،و منه الهمزه للحرف الذی يخرج من أقصى الحلق باعتماد شديد و دفع،و همزه الشيطان دفعه بالإغواء إلى المعاصی انتهى.

و فی تفسير القمی،عنه(ع): أنه ما يقع فی قلبك من وسوسه الشياطين.

و فی الآيتين أمره(ص)أن يستعيذ بربه من إغواء الشياطين و من أن يحضروه، و فيه إيهام إلى أن ما ابتلی به المشركون من الشرك و التكذيب من همزات الشياطين و إحاطتهم بهم بالحضور.

[سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٩٩ الى ١١٨]

اشاره

حَتّٰى إِذٰا جٰاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قٰالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صٰالِحاً فِيمٰا تَرَكْتُ كَلاّٰ إِنَّهٰا كَلِمَةٌ هُوَ قٰائِلُهٰا وَ مِنْ وَرٰائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذٰا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاٰ أَنْسٰابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لاٰ يَتَسٰاءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوٰازِينُهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَ مَنْ خَفَّتْ مَوٰازِينُهُ فَأُولٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خٰالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النّٰارُ وَ هُمْ فِيهٰا كٰالِحُونَ (١٠٤) أَ لَمْ تَكُنْ آيٰاتِي تُتْلىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهٰا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قٰالُوا رَبَّنٰا غَلَبَتْ عَلَيْنٰا شِقْوَتُنٰا وَ كُنّٰا قَوْماً ضٰالِّينَ (١٠٦) رَبَّنٰا أَخْرِجْنٰا مِنْهٰا فَإِنْ عُدْنٰا فَإِنّٰا ظٰالِمُونَ (١٠٧) قٰالَ اخْسَؤُا فِيهٰا وَ لاٰ تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كٰانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبٰادِي يَقُولُونَ رَبَّنٰا آمَنّٰا فَاغْفِرْ لَنٰا وَ ارْحَمْنٰا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرّٰاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتّٰى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمٰا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفٰائِزُونَ (١١١) قٰالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قٰالُوا لَبِثْنٰا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعٰادِّينَ (١١٣) قٰالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاّٰ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّمٰا خَلَقْنٰاكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنٰا لاٰ تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعٰالَى اللّٰهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَ مَنْ يَدْعُ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ لاٰ بُرْهٰانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمٰا حِسٰابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاٰ يُفْلِحُ الْكٰافِرُونَ (١١٧) وَ قُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَ ارْحَمْ وَ أَنْتَ خَيْرُ الرّٰاحِمِينَ (١١٨)

بیان

الآیـات تفصـل القول فی عـذاب الآخره التی أوعـدهم الله بها فی طی الآیات السابقه و هو من یوم الموت إلی یوم البعث ثم إلی الأبد،و تذکر أن الحیاه الدنیا التی غرتهم

ص :۶۶

و صرفتهم عن الآخره قلیله لو کانوا یعلمون.ثم تختم السوره بأمره(ص)أن تسأله ما حکاه عن عباده المؤمنین الفائزین فی الآخره« رَبِّ اغْفِرْ وَ ارْحَمْ وَ أَنْتَ خَیْرُ الرّٰاحِمِینَ » و قد افتتحت السوره بأنهم مفلحون وارثون للجنه.

قوله تعالی:« حَتّٰی إِذٰا جٰاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قٰالَ رَبِّ ارْجِعُونِ »« حَتّٰی »متعلق بما تقدم من وصفهم له تعالی بما هو منزه منه و شرکهم به،و الآیات المتخلله اعتراض فی الکلام أی لا یزالون یشرکون به و یصفونه بما هو منزه منه و هم مغترون بما نمدهم به من مال و بنین حتی إذا جاء أحدهم الموت.

و قوله: « قٰالَ رَبِّ ارْجِعُونِ »الظاهر أن الخطاب للملائکه المتصدین لقبض روحه و« رَبِّ »استغاثه معترضه بحذف حرف النداء و المعنی قال-و هو یستغیث بربه-ارجعون.

و قیل:إن الخطاب للرب تعالی و الجمع للتعظیم کقول امرأه فرعون له علی ما حکاه الله:« قُرَّتُ عَیْنٍ لِی وَ لَکَ لاٰ تَقْتُلُوهُ ».

و قیل:هو من جمع الفعل و یفید تعدد الخطاب،و المعنی رب ارجعنی ارجعنی ارجعنی کما قیل فی قوله:

قفا نبک من ذکری حبیب و منزل

بسقط اللوی بین الدخول فحومل

أی قف قف نبک.

و فی الوجهین أن الجمع للتعظیم إن صح ثبوته فی اللغه العربیه فهو شاذ لا یحمل علیه کلامه تعالی،و أشذ منه جمع الفعل بالمعنی الذی ذکر.

قوله تعالی:« لَعَلِّی أَعْمَلُ صٰالِحاً فِیمٰا تَرَکْتُ کَلاّٰ إِنَّهٰا کَلِمَهٌ هُوَ قٰائِلُهٰا »«لعل» للترجی و هو رجاء تعلقوا به بمعاینه العذاب المشرف علیهم کما ربما ذکروا الرجوع بوعد العمل الصالح کقولهم: «فَارْجِعْنٰا نَعْمَلْ صٰالِحاً :السجده:۱۲،و ربما ذکروه بلفظ التمنی کقولهم: «یٰا لَیْتَنٰا نُرَدُّ وَ لاٰ نُکَذِّبَ بِآیٰاتِ رَبِّنٰا» :الأنعام:۲۷.

و قوله:« أَعْمَلُ صٰالِحاً فِیمٰا تَرَکْتُ »أی أعمل عملا صالحا فیما ترکت من المال بإنفاقه فی البر و الإحسان و کل ما فیه رضا الله سبحانه.

و قیل:المراد بما ترکت الدنیا التی ترکها بالموت و العمل الصالح أعم من العبادات المالیه و غیرها من صلاه و صوم و حج و نحوها،و هو حسن غیر أن الأول هو الأظهر.

و قوله:« كَلاّ إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها »أى لا يرجع إلى الدنيا إن هذه الكلمه « اِرْجِعُونِ لَعَلِّى أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ »كلمه هو قائلها أى لا أثر لها إلا أنها كلمه هو قائلها،فهو كنايه عن عدم إجابه مسألته.

قوله تعالى:« وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ »البرزخ هو الحاجز بين الشيئين كما فى قوله: «بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ» :الرحمن:٢٠،و المراد بكونه وراءهم كونه أمامهم محيطا بهم و سمى وراءهم بعنايه أنه يطلبهم كما أن مستقبل الزمان أمام الإنسان و يقال:وراءك يوم كذا بعنايه أن الزمان يطلب الإنسان ليمر عليه و هذا معنى قول بعضهم:إن فى وراء«معنى الإحاطه،قال تعالى: «وَ كانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً» :الكهف:٧٩.

و المراد بهذا البرزخ عالم القبر و هو عالم المثال الذى يعيش فيه الإنسان بعد موته إلى قيام الساعه على ما يعطيه السياق و تدل عليه آيات أخر و تكاثرت فيه الروايات من طرق الشيعه عن النبى ص و أئمه أهل البيت(ع)و كذا من طرق أهل السنه، و قد تقدم البحث عنه فى الجزء الأول من الكتاب.

و قيل:المراد بالآيه أن بينهم و بين الدنيا حاجزا يمنعهم من الرجوع إليها إلى يوم القيامه و معلوم أن لا رجوع بعد القيامه ففيه تأكيد لعدم رجوعهم و إياس لهم من الرجوع إليها من أصله.

و فيه أن ظاهر السياق الدلاله على استقرار الحاجز بين الدنيا و بين يوم يبعثون لا بينهم و بين الرجوع إلى الدنيا،و لو كان المراد أن الموت حاجز بينهم و بين الرجوع إلى الدنيا لغا التقييد بقوله:« إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ »لا لدلالته من طريق المفهوم على رجوعهم بعد البعث إلى الدنيا و لا رجوع بعد البعث بل للغويه أصل التقييد و إن فرض أنهم كانوا يعلمون من الخارج أو من آيات سابقه أن لا رجوع بعد القيامه.

على أن قولهم:إنه تأكيد لعدم الرجوع بإياسهم من الرجوع مطلقا مع قولهم بأن عدم الرجوع بعد القيامه معلوم من خارج كالمتهافتين بل يرجع المعنى إلى تأكيد نفى الرجوع مطلقا المفهوم من« كَلاّ »بنفى الرجوع الموقت المحدود بقوله:« إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ »فافهمه.

قوله تعالى:« فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ المراد به

النفخه الثانیه التی تحیا فیها الأموات دون النفخه الأولی التی تموت فیها الأحیاء کما قاله بعضهم لکون ما یترتب علیها من انتفاء الأنساب و التساؤل و ثقل المیزان و خفته إلی غیر ذلک من آثار النفخه الثانیه.

و قوله:« فَلاٰ أَنْسٰابَ بَیْنَهُمْ »نفی لآثار الأنساب بنفی أصلها فإن الذی یستوجب حفظ الأنساب و اعتبارها هی الحوائج الدنیویه التی تدعو الإنسان إلی الحیاه الاجتماعیه التی تبتنی علی تکون البیت،و المجتمع المنزلی یستعقب التعارف و التعاطف و أقسام التعاون و التعاضد و سائر الأسباب التی تدوم بها العیشه الدنیویه و یوم القیامه ظرف جزاء الأعمال و سقوط الأسباب التی منها الأعمال فلا موطن فیه للأسباب الدنیویه التی منها الأنساب بلوازمها و خواصها و آثارها.

و قوله:« وَ لاٰ یَتَسٰاءَلُونَ »ذکر لأظهر آثار الأنساب،و هو التساؤل بین المنتسبین بسؤال بعضهم عن حال بعض،للإعانه و الاستعانه فی الحوائج لجلب المنافع و دفع المضار.

و لا ینافی الآیه ما وقع فی مواضع أخر من قوله تعالی: «وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلیٰ بَعْضٍ یَتَسٰاءَلُونَ» :الصافات:۲۷،فإنه حکایه تساؤل أهل الجنه بعد دخولها و تساؤل أهل النار بعد دخولها و هذه الآیه تنفی التساؤل فی ظرف الحساب و القضاء.

قوله تعالی:« فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوٰازِینُهُ فَأُولٰئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »إلی آخر الآیتین.

الموازین جمع المیزان أو جمع الموزون و هو العمل الذی یوزن یومئذ،و قد تقدم الکلام فی معنی المیزان و ثقله و خفته فی تفسیر سوره الأعراف.

قوله تعالی:« تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النّٰارُ وَ هُمْ فِیهٰا کٰالِحُونَ »قال فی المجمع:،اللفح و النفح بمعنی إلا أن اللفح أشد تأثیرا و أعظم من النفح،و هو ضرب من السموم للوجه و النفح ضرب الریح الوجه،و الکلوح تقلص الشفتین عن الأسنان حتی تبدو الأسنان.انتهی.

و المعنی:یصیب وجوههم لهب النار حتی تتقلص شفاههم و تنکشف عن أسنانهم کالرءوس المشویه.

قوله تعالی:« أَ لَمْ تَکُنْ آیٰاتِی تُتْلیٰ عَلَیْکُمْ »إلخ أی یقال لهم:أ لم تکن آیاتی تتلی علیکم فکنتم بها تکذبون.

قوله تعالی:« قٰالُوا رَبَّنٰا غَلَبَتْ عَلَيْنٰا شِقْوَتُنٰا وَ كُنّٰا قَوْماً ضٰالِّينَ » الشقوه و الشقاوه و الشقاء خلاف السعاده و سعاده الشیء ما یختص به من الخیر،و شقاوته فقد ذلک و إن شئت فقل:ما یختص به من الشر.

و قوله:« غَلَبَتْ عَلَيْنٰا شِقْوَتُنٰا »أی قهرنا و استولت علینا شقوتنا،و فی إضافه الشقوه إلی أنفسهم تلویح إلی أن لهم صنعا فی شقوتهم من جهه اکتسابهم ذلک بسوء اختیارهم،و الدلیل علیه قولهم بعد:« رَبَّنٰا أَخْرِجْنٰا مِنْهٰا فَإِنْ عُدْنٰا فَإِنّٰا ظٰالِمُونَ »إذ هو وعد منهم بالحسنات و لو لم یکن لها ارتباط باکتسابهم الاختیاری لم یکن للوعد معنی لکون حالهم بعد الخروج مساویه لما قبل الخروج.

و قد عدوا أنفسهم مغلوبه للشقوه فقد أخذوها ساذجه فی ذواتها صالحه للحقوق السعاده و الشقاوه غیر أن الشقوه غلبت فأشغلت المحل و کانت الشقوه شقوه أنفسهم أی شقوه لازمه لسوء اختیارهم و سیئات أعمالهم لأنهم فرضوا أنفسهم خالیه عن السعاده و الشقوه لذاتها فانتساب الشقوه إلی أنفسهم و ارتباطها بها إنما هی من جهه سوء اختیارهم و سیئات أعمالهم.

و بالجمله هو اعتراف منهم بتمام الحجه و لحوق الشقوه علی ما یشهد به وقوع الآیه بعد قوله:« أَ لَمْ تَكُنْ آيٰاتِي تُتْلىٰ عَلَيْكُمْ »إلخ.

ثم عقبوا قولهم:« غَلَبَتْ عَلَيْنٰا شِقْوَتُنٰا »بقولهم:« وَ كُنّٰا قَوْماً ضٰالِّينَ » تأکیدا لاعترافهم،و إنما اعترفوا بالذنب لیتوسلوا به إلی التخلص من العذاب و الرجوع إلی الدنیا لکسب السعاده فقد شاهدوا فی الدنیا أن اعتراف العاصی المتمرد بذنبه و ظلمه توبه منه مطهره له تنجیه من تبعه الذنب و هم یعلمون أن الیوم یوم جزاء لا یوم عمل و التوبه و الاعتراف بالذنب من الأعمال لکن ذلک من قبیل ظهور الملکات کما أنهم یکذبون یومئذ و ینکرون أشیاء مع ظهور الحق و معاینته لاستقرار ملکه الکذب و الإنکار فی نفوسهم،قال تعالی: «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللّٰهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمٰا يَحْلِفُونَ لَكُمْ» :المجادله:۱۸ و قال: «ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مٰا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ قٰالُوا ضَلُّوا عَنّٰا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً» :المؤمن:۷۴.

قوله تعالی:« رَبَّنٰا أَخْرِجْنٰا مِنْهٰا فَإِنْ عُدْنٰا فَإِنّٰا ظٰالِمُونَ »سؤال منهم للرجوع إلی الدنیا علی ما تدل علیه آیات أخر فهو من قبیل طلب المسبب بطلب سببه،

و مرادهم أن يعملوا صالحا بعد ما تابوا بالاعتراف المذكور فيكونوا بذلك ممن تاب و عمل صالحا.

قوله تعالى:« قَالَ اخْسَؤُا فِيهَا وَ لاَ تُكَلِّمُونِ »قال الراغب: خسأت الكلب فخسأ أى زجرته مستهينا به فانزجر و ذلك إذا قلت له:اخسأ انتهى.ففى الكلام استعاره بالكنايه،و المراد زجرهم بالتباعد و قطع الكلام.

قوله تعالى:« إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ »هؤلاء هم المؤمنون فى الدنيا و كان إيمانهم توبه و رجوعا إلى الله كما سماه الله فى كلامه توبه،و كان سؤالهم شمول الرحمه-و هى الرحمه الخاصه بالمؤمنين البته-سؤالا منهم أن يوفقهم للسعاده فيعملوا صالحا فيدخلوا الجنه،و قد توسلوا إليه باسمه خير الراحمين.

فكان ما قاله المؤمنون فى الدنيا معناه التوبه و سؤال الفوز بالسعاده و ذلك عين ما قاله هؤلاء مما معناه التوبه و سؤال الفوز بالسعاده و إنما الفرق بينهما من حيث الموقف.

قوله تعالى:« فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ » ضمائر الخطاب للكفار و ضمائر الغيبه للمؤمنين،و السياق يشهد أن المراد من« ذِكْرِي » قول المؤمنين:« رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا »إلخ،و هو معنى قول الكفار فى النار.

و قوله:« حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي »أى أنسى اشتغالكم بسخريه المؤمنين و الضحك منهم ذكرى،ففى نسبه الإنساء إلى المؤمنين دون سخريتهم إشاره إلى أنه لم يكن للمؤمنين عندهم شأن من الشئون إلا أن يتخذوهم سخريا.

قوله تعالى:« إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ »المراد باليوم يوم الجزاء،و متعلق الصبر معلوم من السياق محذوف للإيجاز أى صبروا على ذكرى مع سخريتكم منهم لأجله،و قوله:« أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ »مسوق للحصر أى هم الفائزون دونكم.

و هذه الآيات الأربع« قَالَ اخْسَؤُا »-إلى قوله-« هُمُ الْفَائِزُونَ »إياس قطعى للكفار من الفوز بسبب ما تعلقوا به من الاعتراف بالذنب و سؤال الرجوع إلى الدنيا و محصلها أن اقنطوا مما تطلبونه بهذا القول و هو الاعتراف و السؤال فإنه عمل إنما كان ينفع فى دار العمل و هى الدنيا،و قد كان المؤمنون من عبادى يتخذونه وسيله إلى

الفوز و كنتم تسخرون و تضحكون منهم حتى تركتموه و بدلتموه من سخريتهم حتى إذا كان اليوم و هو يوم جزاء لا يوم عمل فازوا بجزاء ما عملوا يوم العمل و بقيتم صفر الأكف تريدون أن تتوسلوا بالعمل اليوم و هو يوم الجزاء دون العمل.

قوله تعالى:« قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ »مما يسأل الله الناس عنه يوم القيامه مده لبثهم فى الأرض و قد ذكر فى مواضع من كلامه و المراد به السؤال عن مده لبثهم فى القبور كما يدل عليه قوله تعالى: «وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ» :الروم:۵۵،و قوله: «كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ» :الأحقاف:۳۵،و غيرهما من الآيات،فلا محل لقول بعضهم:إن المراد به المكث فى الدنيا،و احتمال بعضهم أنه مجموع اللبث فى الدنيا و البرزخ.

قوله تعالى:« قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِّينَ »ظاهر السياق أن المراد باليوم هو الواحد من أيام الدنيا و قد استقلوا اللبث فى الأرض حينما قايسوه بالبقاء الأبدى الذى يلوح لهم يوم القيامه و يعاينونه.

و يؤيده ما وقع فى موضع آخر من تقديرهم ذلك بالساعه،و فى موضع آخر بعشيه أو ضحاها.

و قوله:« فَسْئَلِ الْعَادِّينَ »أى نحن لا نحسن إحصاءها فاسأل الذين يعدونه و فسر بالملائكه العادين للأيام و ليس ببعيد.

قوله تعالى: قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ »القائل هو الله سبحانه،و فى الكلام تصديق لهم فى استقلالهم المكث فى القبور و فيه توطئه لما يلحق به من قوله:« لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ »بما فيه من التمنى.

و المعنى:قال الله:الأمر كما قلتم فما مكثتم إلا قليلا فليتكم كنتم تعلمون فى الدنيا أنكم لا تلبثون فى قبوركم إلا قليلا ثم تبعثون حتى لا تنكروا البعث و لم تبتلوا بهذا العذاب الخالد،و التمنى فى كلامه تعالى كالترجى راجع إلى المخاطب أو المقام.

و جعل بعضهم« لَوْ »فى الآيه شرطيه و الجمله شرطا محذوف الجزاء و تكلف فى تصحيح الكلام بما لا يرتضيه الذوق السليم و هو بعيد عن السياق كما هو ظاهر و أبعد منه جعل«لو»وصليه مع أن«لو»الوصليه لا تجىء بغير واو العطف.

قوله تعالى:« أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً -إلى قوله- رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ -

بعد ما بين ما سيستقبلهم من أحوال الموت ثم اللبث فى البرزخ ثم البعث بما فيه من الحساب و الجزاء وبخهم على حسبانهم أنهم لا يبعثون فإن فيه جرأه على الله بنسبه العبث إليه ثم أشار إلى برهان العبث.

فقوله:« أَ فَحَسِبْتُمْ »إلخ،معناه فإذا كان الأمر على ما أخبرناكم من تحسركم عند معاينه الموت ثم اللبث فى القبور ثم البعث فالحساب و الجزاء فهل تظنون أنما خلقناكم عبثا تحيون و تموتون من غير غايه باقيه فى خلقكم و أنكم إلينا لا ترجعون؟.

و قوله:« فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ »إشاره إلى برهان يثبت البعث و يدفع قولهم بالنفى،فى صوره التنزيه،فإنه تعالى وصف نفسه فى كلمه التنزيه بالأوصاف الأربعه:أنه ملك و أنه حق و أنه لا إله إلا هو و أنه رب العرش الكريم.

فله أن يحكم بما شاء من بدء و عود و حياه و موت و رزق نافذا حكمه ماضيا أمره لملكه،و ما يصدر عنه من حكم فإنه لا يكون إلا حقا فإنه حق و لا يصدر عن الحق بما هو حق إلا حق دون أن يكون عبثا باطلا ثم لما أمكن أن يتصور أن معه مصدر حكم آخر يحكم بما يبطل به حكمه وصفه بأنه لا إله-أى لا معبود-إلا هو،و الإله معبود لربوبيته فإذا لا إله غيره فهو رب العرش-الكريم عرش العالم-الذى هو مجتمع أزمه الأمور و منه يصدر الأحكام و الأوامر الجاريه فيه.

فتلخص أنه هو الذى يصدر عنه كل حكم و يوجد منه كل شىء و لا يحكم إلا بحق و لا يفعل إلا حقا فللأشياء رجوع إليه و بقاء به و إلا لكانت عبثا باطله و لا عبث فى الخلق و لا باطل فى الصنع.

و الدليل على اتصافه بالأوصاف الأربعه كونه تعالى هو الله الموجود لذاته الموجد لغيره.

قوله تعالى:« وَ مَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ »،المراد من دعاء إله آخر مع الله دعاؤه مع وجوده تعالى لا دعاؤه تعالى و دعاء إله آخر معا فإن المشركين جلهم أو كلهم لا يدعون الله تعالى و إنما يدعون ما أثبتوه من الشركاء،و يمكن أن يكون المراد بالدعاء الإثبات فإن إثبات إله آخر لا ينفك عن دعائه.

ص :٧٣

و قوله:« لَا بُرْهٰانَ لَهُ بِهِ »قید توضیحی لإله آخر إذ لا إله آخر یکون به برهان بل البرهان قائم علی نفی الإله الآخر مطلقا.

و قوله:« فَإِنَّمٰا حِسٰابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ »کلمه تهدید و فیه قصر حسابه بکونه عند ربه لا یداخله أحد فیما اقتضاه حسابه من جزاء-و هو النار کما صرحت به الآیات السابقه-فإنه یصیبه لا محاله،و مرجعه إلی نفی الشفعاء و الإیاس من أسباب النجاه و تممه بقوله:« إِنَّهُ لاٰ یُفْلِحُ الْکٰافِرُونَ ».

قوله تعالی:« وَ قُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَ ارْحَمْ وَ أَنْتَ خَیْرُ الرّٰاحِمِینَ »خاتمه السوره و قد أمر فیها النبی ص أن یقول ما حکاه عن عباده المؤمنین أنهم یقولونه فی الدنیا و أن جزاء ذلک هو الفوز یوم القیامه:« إِنَّهُ کٰانَ فَرِیقٌ مِنْ عِبٰادِی یَقُولُونَ »إلخ،الآیتان ۱۰۹ و ۱۱۱ من السوره.

و بذلک یختتم الکلام بما افتتح به فی أول السوره:« قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ »و قد تقدم الکلام فی معنی الآیه.

(بحث روائی)

فی الکافی،بإسناده عن أبی بصیر عن أبی عبد الله(ع): من منع قیراطا من الزکاه فلیس بمؤمن و لا مسلم،و هو قوله تعالی:« رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّی أَعْمَلُ صٰالِحاً فِیمٰا تَرَکْتُ .

أقول:و روی هذا المعنی بطرق أخر غیرها عنه(ع)و عن النبی ص و المراد به انطباق الآیه علی مانع الزکاه لا نزولها فیه.

و فی تفسیر القمی،: قوله عز و جل:« وَ مِنْ وَرٰائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلیٰ یَوْمِ یُبْعَثُونَ »قال:

البرزخ هو أمر بین أمرین-و هو الثواب و العقاب بین الدنیا و الآخره، و هو قول الصادق (ع): و الله ما أخاف علیکم إلا البرزخ-و أما إذا صار الأمر إلینا فنحن أولی بکم.:

أقول:و روی الذیل فی الکافی،بإسناده عن عمر بن یزید عنه(ع) .

و فیه،قال علی بن الحسین(ع): إن القبر إما روضه من ریاض الجنه-أو حفره من حفر النار.

و فی الکافی،بإسناده عن أبی ولاد الحناط عن أبی عبد الله(ع)قال: قلت له:جعلت فداک یروون-أن أرواح المؤمنین فی حواصل طیور خضر حول العرش.

فقال:لا.المؤمن أکرم علی الله-من أن یجعل روحه فی حوصله طیر-لکن فی أبدان کأبدانهم

و فیه،بإسناده عن أبی بصیر قال أبو عبد الله(ع): إن أرواح المؤمنین لفی شجره من الجنه-یأکلون من طعامها و یشربون من شرابها و یقولون:ربنا أقم الساعه لنا،و أنجز لنا ما وعدتنا-و ألحق آخرنا بأولنا.

و فیه،بإسناده أیضا عن أبی بصیر عن أبی عبد الله(ع)قال: إن الأرواح فی صفه الأجساد فی شجره فی الجنه-تتعارف و تتساءل-فإذا قدمت الروح علی الأرواح تقول:دعوها فإنها قد أقبلت من هول عظیم-ثم یسألونها ما فعل فلان؟و ما فعل فلان؟فإن قالت لهم:ترکته حیا ارتجوه،و إن قالت لهم:قد هلک،قالوا:قد هوی قد هوی.

أقول:أخبار البرزخ و تفاصیل ما یجری علی المؤمنین و غیرهم فیه کثیره متواتره،و قد مر شطر منها فی أبحاث متفرقه مما تقدم.

فی مجمع البیان،و قال النبی ص: کل حسب و نسب منقطع یوم القیامه إلا حسبی و نسبی.

أقول:کأن الروایه من طریق الجماعه،

و قد رواها فی الدر المنثور،عن عده من أصحاب الجوامع عن المسور بن مخرمه عن النبی ص و لفظها: أن الأنساب تنقطع یوم القیامه غیر نسبی و سببی و صهری ،

و عن عده منهم عن عمر بن الخطاب عنه(ص)و لفظها: کل سبب و نسب منقطع یوم القیامه إلا سببی و نسبی

و عن ابن عساکر عن ابن عمر عنه(ص)و لفظها: کل نسب و صهر ینقطع یوم القیامه إلا نسبی و صهری.

و فی المناقب،فی حدیث طاووس عن زین العابدین(ع): خلق الله الجنه لمن أطاع و أحسن و لو کان عبدا حبشیا،و خلق النار لمن عصاه و لو کان ولدا قرشیا-أ ما سمعت قول الله تعالی:« فَإِذٰا نُفِخَ فِی الصُّورِ فَلاٰ أَنْسٰابَ بَیْنَهُمْ یَوْمَئِذٍ وَ لاٰ یَتَسٰاءَلُونَ »و الله لا ینفعک غدا إلا تقدمه تقدمها من عمل صالح.

أقول:سیاق الآیه کالآبی عن التخصیص و لعل من آثار نسبه(ص)أن یوفق ذریته من صالح العمل بما ینتفع به یوم القیامه.

و فی تفسیر القمی،":و قوله عز و جل:« تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النّٰارُ »قال:تلهب علیهم فتحرقهم« وَ هُمْ فِیهٰا کٰالِحُونَ »أی مفتوحی الفم متربدی الوجوه.

و فی التوحید،بإسناده عن أبی بصیر عن أبی عبد الله(ع): فی قول الله عز و جل:

« رَبَّنٰا غَلَبَتْ عَلَیْنٰا شِقْوَتُنٰا »قال:بأعمالهم شقوا.

و فی العلل،بإسناده عن مسعده بن زیاد قال:قال رجل لجعفر بن محمد(ع):

یا أبا عبد الله إنا خلقنا للعجب.قال:و ما ذلک لله أنت؟قال:خلقنا للفناء.قال:

مه یا ابن أخ خلقنا للبقاء-و کیف تفنی جنه لا تبید و نار لا تخمد؟و لکن إنما نتحول من دار إلی دار.

و فی تفسیر القمی،":قوله تعالی:« قٰالَ کَمْ لَبِثْتُمْ -إلی قوله- فَسْئَلِ الْعٰادِّینَ » قال:سل الملائکه الذین یعدون علینا الأیام،و یکتبون ساعاتنا و أعمالنا التی اکتسبنا فیها.

و فی الدر المنثور،:أخرج ابن أبی حاتم عن أیفع بن عبد الکلاعی قال:قال رسول الله ص: إن الله إذا أدخل أهل الجنه الجنه و أهل النار النار-قال لأهل الجنه کم لبثتم فی الأرض عدد سنین؟قالوا لبثنا یوما أو بعض یوم.قال:لنعم ما اتجرتم فی یوم أو بعض یوم-رحمتی و رضوانی و جنتی اسکنوا فیها خالدین مخلدین.

ثم یقول:یا أهل النار کم لبثتم فی الأرض عدد سنین؟قالوا:لبثنا یوما أو بعض یوم-فیقول:بئس ما اتجرتم فی یوم أو بعض یوم-ناری و سخطی امکثوا فیها خالدین.

أقول:و فی انطباق معنی الحدیث علی الآیه بما لها من السیاق و بما تشهد به الآیات النظائر خفاء،و قد تقدم البحث عن مدلول الآیه مستمدا من الشواهد.

(۲۴)سوره النور مدنیه و هی أربع و ستون آیه(۶۴)

[سوره النور (۲۴): الآیات ۱ الی ۱۰]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ

سُورَهٌ أَنْزَلْنٰاهٰا وَ فَرَضْنٰاهٰا وَ أَنْزَلْنٰا فِیهٰا آیٰاتٍ بَیِّنٰاتٍ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ (۱) اَلزّٰانِیَهُ وَ اَلزّٰانِی فَاجْلِدُوا کُلَّ وٰاحِدٍ مِنْهُمٰا مِائَهَ جَلْدَهٍ وَ لاٰ
تَأْخُذْکُمْ بِهِمٰا رَأْفَهٌ فِی دِینِ اَللّٰهِ إِنْ کُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ اَلْیَوْمِ اَلْآخِرِ وَ لْیَشْهَدْ عَذٰابَهُمٰا طٰائِفَهٌ مِنَ اَلْمُؤْمِنِینَ (۲) اَلزّٰانِی لاٰ یَنْکِحُ إِلاّٰ
زٰانِیَهً أَوْ مُشْرِکَهً وَ اَلزّٰانِیَهُ لاٰ یَنْکِحُهٰا إِلاّٰ زٰانٍ أَوْ مُشْرِکٌ وَ حُرِّمَ ذٰلِکَ عَلَی اَلْمُؤْمِنِینَ (۳) وَ اَلَّذِینَ یَرْمُونَ اَلْمُحْصَنٰاتِ ثُمَّ لَمْ یَأْتُوا
بِأَرْبَعَهِ شُهَدٰاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمٰانِینَ جَلْدَهً وَ لاٰ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهٰادَهً أَبَداً وَ أُولٰئِکَ هُمُ اَلْفٰاسِقُونَ (۴) إِلاَّ اَلَّذِینَ تٰابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِکَ وَ
أَصْلَحُوا فَإِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۵) وَ اَلَّذِینَ یَرْمُونَ أَزْوٰاجَهُمْ وَ لَمْ یَکُنْ لَهُمْ شُهَدٰاءُ إِلاّٰ أَنْفُسُهُمْ فَشَهٰادَهُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهٰادٰاتٍ بِاللّٰهِ
إِنَّهُ لَمِنَ اَلصّٰادِقِینَ (۶) وَ اَلْخٰامِسَهُ أَنَّ لَعْنَتَ اَللّٰهِ عَلَیْهِ إِنْ کٰانَ مِنَ اَلْکٰاذِبِینَ (۷) وَ یَدْرَؤُا عَنْهَا اَلْعَذٰابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهٰادٰاتٍ بِاللّٰهِ
إِنَّهُ لَمِنَ اَلْکٰاذِبِینَ (۸) وَ اَلْخٰامِسَهَ أَنَّ غَضَبَ اَللّٰهِ عَلَیْهٰا إِنْ کٰانَ مِنَ اَلصّٰادِقِینَ (۹) وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اَللّٰهِ عَلَیْکُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اَللّٰهَ تَوّٰابٌ
حَکِیمٌ (۱۰)

بیان

غرض السوره ما ینبئ عنه مفتتحها« سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَ فَرَضْناها وَ أَنْزَلْنا فِیها آیاتٍ بَیِّناتٍ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ »فهی تذکره نبذه من الأحکام المفروضه المشرعه ثم جمله من المعارف الإلهیه تناسبها و یتذکر بها المؤمنون.

و هی سوره مدنیه بلا خلاف و سیاق آیاتها یشهد بذلک و من غرر الآیات فیها آیه النور.

قوله تعالی:« سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَ فَرَضْناها وَ أَنْزَلْنا فِیها آیاتٍ بَیِّناتٍ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ » السوره طائفه من الکلام یجمعها غرض واحد سیقت لأجله و لذا اعتبرت تاره نفس الآیات بما لها من المعانی فقیل:« فَرَضْناها »، و تاره ظرفا لبعض الآیات ظرفیه المجموع للبعض فقیل:« أَنْزَلْنا فِیها آیاتٍ بَیِّناتٍ »و هی مما وضعه القرآن و سمی به طائفه خاصه من آیاته و تکرر استعمالها فی کلامه تعالی،و کأنه مأخوذ من سور البلد و هو الحائط الذی یحیط به سمیت به سوره القرآن لإحاطتها بما فیها من الآیات أو بالغرض الذی سیقت له.

و قال الراغب: الفرض قطع الشیء الصلب و التأثیر فیه کفرض الحدید و فرض الزند و القوس.قال:و الفرض کالإیجاب لکن الإیجاب یقال اعتبارا بوقوعه و ثباته، و الفرض بقطع الحکم فیه،قال تعالی:« سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَ فَرَضْناها »أی أوجبنا العمل بها علیک.قال:و کل موضع ورد«فرض الله علیه»ففی الإیجاب الذی أدخله الله فیه،و ما ورد«فرض الله له»فهو فی أن لا یحظره علی نفسه نحو« ما کانَ عَلَی النَّبِیِّ» مِنْ حَرَجٍ فِیما فَرَضَ اللّهُ لَهُ ».انتهی.

فقوله:« سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَ فَرَضْناها »أی هذه سوره أنزلناها و أوجبنا العمل بما فیها من الأحکام فالعمل بالحکم الإیجابی هو الإتیان به و بالحکم التحریمی الانتهاء عنه.

و قوله:« وَ أَنْزَلْنا فِیها آیاتٍ بَیِّناتٍ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ »المراد بها-بشهاده السیاق-آیه النور و ما یتلوها من الآیات المبینه لحقیقه الإیمان و الکفر و التوحید و الشرک المذکره لهذه المعارف الإلهیه.

قوله تعالی:« اَلزّانِیَةُ وَ الزّانِی فَاجْلِدُوا کُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ »الآیه، الزنا

المواقعه من غير عقد أو شبهه عقد أو ملك يمين،و الجلد هو الضرب بالسوط و الرأفه التحنن و التعطف و قيل:هی رحمه فی توجع،و الطائفه فی الأصل هی الجماعه كانوا یطوفون بالارتحال من مكان إلی مكان قیل:و ربما تطلق علی الاثنین و علی الواحد.

و قوله:« اَلزّٰانِیَهُ وَ الزّٰانِی »إلخ،أی المرأه و الرجل اللذان تحقق منهما الزنا فاضربوا كل واحد منهما مائه سوط،و هو حد الزنا بنص الآیه غیر أنها مخصصه بصور:

منها أن یكونا محصنین ذوی زوج أو یكون أحدهما محصنا فالرجم و منها أن یكونا غیر حرین أو أحدهما رقا فنصف الحد.

قیل:و قدمت الزانیه فی الذكر علی الزانی لأن الزنا منهن أشنع و لكون الشهوه فیهن أقوی و أكثر،و الخطاب فی الأمر بالجلد متوجه إلی عامه المسلمین فیقوم بمن قام بأمرهم من ذوی الولایه من النبی و الإمام و من ینوب منابه.

و قوله:« وَ لاٰ تَأْخُذْكُمْ بِهِمٰا رَأْفَهٌ فِی دِینِ اللّٰهِ »إلخ،النهی عن الرأفه من قبیل النهی عن المسبب بالنهی عن سببه إذ الرأفه بمن یستحق نوعا من العذاب توجب التساهل فی إذاقته ما یستحقه من العذاب بالتخفیف فیه و ربما أدی إلی تركه،و لذا قیده بقوله:

« فِی دِینِ اللّٰهِ »أی حال كون الرأفه أی المساهله من جهتها فی دین الله و شریعته.

و قیل:المراد بدین الله حكم الله كما فی قوله تعالی: «مٰا كٰانَ لِیَأْخُذَ أَخٰاهُ فِی دِینِ الْمَلِكِ» :یوسف:۷۶ أی فی حكمه أی لا تأخذكم بهما رأفه فی إنفاذ حكم الله و إقامه حده.

و قوله:« إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ »أی إن كنتم كذا و كذا فلا تأخذكم بهما رأفه و لا تساهلوا فی أمرهما و فیه تأكید للنهی.

و قوله:« وَ لْیَشْهَدْ عَذٰابَهُمٰا طٰائِفَهٌ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ »أی و لیحضر و لینظر إلی ذلك جماعه منهم لیعتبروا بذلك فلا یقتربوا الفاحشه.

قوله تعالی:« اَلزّٰانِی لاٰ یَنْكِحُ إِلاّٰ زٰانِیَهً أَوْ مُشْرِكَهً وَ الزّٰانِیَهُ لاٰ یَنْكِحُهٰا إِلاّٰ زٰانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَ حُرِّمَ ذٰلِكَ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ »ظاهر الآیه و خاصه بالنظر إلی سیاق ذیلها المرتبط بصدرها أن الذی تشمل علیه حكم تشریعی تحریمی و إن كان صدرها واردا فی صوره الخبر فإن المراد النهی تأكیدا للطلب و هو شائع.

و المحصل من معناها بتفسیر من السنه من طرق أئمه أهل البیت(ع)أن

الزانى إذا اشتهر منه الزنا و أقيم عليه الحد و لم تتبين منه التوبه يحرم عليه نكاح غير الزانيه و المشركه،و الزانيه إذا اشتهر منها الزنا و أقيم عليها الحد و لم يتبين منها التوبه يحرم أن ينكحها إلا زان أو مشرك.

فالآيه محكمه باقيه على إحكامها من غير نسخ و لا تأويل،و تقييدها بإقامه الحد و تبين التوبه مما يمكن أن يستفاد من السياق فإن وقوع الحكم بتحريم النكاح بعد الأمر بإقامه الحد يلوح إلى أن المراد به الزانى و الزانيه المجلودان،و كذا إطلاق الزانى و الزانيه على من ابتلى بذلك ثم تاب توبه نصوحا و تبين منه ذلك،بعيد من دأب القرآن و أدبه.

و للمفسرين فى معنى الآيه تشاجرات طويله و أقوال شتى:

منها:أن الكلام مسوق للإخبار عما من شأن مرتكبى هذه الفاحشه أن يقصدوه و ذلك أن من خبثت فطرته لا يميل إلا إلى من يشابهه فى الخباثه و يجانسه فى الفساد و الزانى لا يميل إلا إلى الزانيه المشاركه لها فى الفحشاء و من هو أفسد منها و هى المشركه،و الزانيه كذلك لا تميل إلا إلى مثلها و هو الزانى و من هو أفسد منه و هو المشرك فالحكم وارد مورد الأعم الأغلب كما قيل فى قوله تعالى: «الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَ الْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ» :الآيه:۲۶ من السوره.

و منها:أن المراد بالآيه التقبيح،و المعنى:أن اللائق بحال الزانى أن لا ينكح إلا زانيه أو من هى دونها و هى المشركه و اللائق بحال الزانيه أن لا ينكحها إلا زان أو من هو دونه و هو المشرك،و المراد بالنكاح العقد،و قوله:« وَ حُرِّمَ ذٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ »معطوف على أول الآيه،و المراد و حرم الزنا على المؤمنين.

و فيه و فى سابقه مخالفتهما لسياق الآيه و خاصه اتصال ذيلها بصدرها كما تقدمت الإشاره إليه.

و منها:أن الآيه منسوخه بقوله تعالى:« وَ أَنْكِحُوا الْأَيٰامىٰ مِنْكُمْ وَ الصّٰالِحِينَ مِنْ عِبٰادِكُمْ وَ إِمٰائِكُمْ ».

و فيه أن النسبه بين الآيتين نسبه العموم و الخصوص و العام الوارد بعد الخاص لا ينسخه خلافا لمن قال به نعم ربما أمكن أن يستفاد النسخ من قوله تعالى: «وَ لاٰ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكٰاتِ حَتّٰى يُؤْمِنَّ وَ لَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَ لَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَ لاٰ تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتّٰى يُؤْمِنُوا وَ لَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولٰئِكَ

يَدْعُونَ إِلَى النّارِ وَ اللّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّهِ وَ الْمَغْفِرَهِ بِإِذْنِهِ» :البقره:۲۲۱،بدعوى أن الآيه و إن كانت من العموم بعد الخصوص لكن لسانها آب عن التخصيص فتكون ناسخه بالنسبه إلى جواز النكاح بين المؤمن و المؤمنه و المشرك و المشركه،و قد ادعى بعضهم أن نكاح الكافر للمسلمه كان جائزا إلى سنه ست من الهجره ثم نزل التحريم فلعل الآيه التى نحن فيها نزلت قبل ذلك،و نزلت آيه التحريم بعدها و فى الآيه أقوال أخر تركنا إيرادها لظهور فسادها.

قوله تعالى:« وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَهِ شُهَداءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمانِينَ جَلْدَهً »إلخ الرمى معروف ثم أستعير لنسبه أمر غير مرضى إلى الإنسان كالزنا و السرقه و هو القذف،و السياق يشهد أن المراد به نسبه الزنا إلى المرأه المحصنه العفيفه،و المراد بالإتيان بأربعه شهداء و هم شهود الزنا إقامه الشهاده لإثبات ما قذف به،و قد أمر الله تعالى بإقامه الحد عليهم إن لم يقيموا الشهاده،و حكم بفسقهم و عدم قبول شهادتهم أبدا.

و المعنى:و الذين يقذفون المحصنات من النساء بالزنا ثم لم يقيموا أربعه من الشهود على صدقهم فى قذفهم فاجلدوهم ثمانين جلده على قذفهم و هم فاسقون لا تقبلوا شهادتهم على شىء أبدا.

و الآيه كما ترى مطلقه تشمل من القاذف الذكر و الأنثى و الحر و العبد،و بذلك تفسرها روايات أئمه أهل البيت(ع).

قوله تعالى:« إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » الاستثناء راجع إلى الجمله الأخيره و هى قوله:« وَ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ »لكنها لما كانت تفيد معنى التعليل بالنسبه إلى قوله:« وَ لا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَهً أَبَداً »-على ما يعطيه السياق- كان لازم ما تفيده من ارتفاع الحكم بالفسق ارتفاع الحكم بعدم قبول الشهاده أبدا،و لازم ذلك رجوع الاستثناء بحسب المعنى إلى الجملتين معا.

و المعنى:إلا الذين تابوا من بعد ذلك و أصلحوا أعمالهم فإن الله غفور رحيم يغفر ذنبهم و يرحمهم فيرتفع عنهم الحكم بالفسق و الحكم بعدم قبول شهادتهم أبدا.

و ذكر بعضهم:أن الاستثناء راجع إلى الجمله الأخيره فحسب فلو تاب القاذف

و أصلح بعد إقامه الحد عليه غفر له ذنبه لكن لا تقبل شهادته أبدا خلافا لمن قال برجوع الاستثناء إلى الجملتين معا.

و الظاهر أن خلافهم هذا مبنى على المسأله الأصوليه المعنونه بأن الاستثناء الواقع بعد الجمل المتعدده هل يتعلق بالجميع أو بالجمله الأخيره و الحق فى المسأله أن الاستثناء فى نفسه صالح للأمرين جميعا و تعين أحدهما منوط بما تقتضيه قرائن الكلام،و الذى يعطيه السياق فى الآيه التى نحن فيها تعلق الاستثناء بالجمله الأخيره غير أن إفادتها للتعليل تستلزم تقيد الجمله السابقه أيضا بمعناه كالأخيره على ما تقدم.

قوله تعالى:« وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوٰاجَهُمْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدٰاءُ إِلاّٰ أَنْفُسُهُمْ -إلى قوله- مِنَ الْكٰاذِبِينَ »أى لم يكن لهم شهداء يشهدون ما شهدوا فيتحملوا الشهاده ثم يؤدوها إلا أنفسهم، و قوله:« فَشَهٰادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهٰادٰاتٍ بِاللّٰهِ »أى شهاده أحدهم يعنى القاذف و هو واحد أربع شهادات متعلقه بالله إنه لمن الصادقين فيما يخبر به من القذف.

و معنى الآيتين:و الذين يقذفون أزواجهم و لم يكن لهم أربعه من الشهداء يشهدون ما شهدوا-و من طبع الأمر ذلك على تقدير صدقهم إذ لو ذهبوا يطلبون الشهداء ليحضروهم على الواقعه فيشهدوهم عليها فات الغرض بتفرقهما-فالشهاده التى يجب على أحدهم أن يقيمها هى أن يشهد أربع شهادات أى يقول مره بعد مره:

«أشهد الله على صدقى فيما أقذفه به»أربع مرات و خامستها أن يشهد و يقول:لعنه الله على إن كنت من الكاذبين.

قوله تعالى:« وَ يَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذٰابَ أَنْ تَشْهَدَ »إلى آخر الآيتين، الدرء الدفع و المراد بالعذاب حد الزنا،و المعنى أن المرأه إن شهدت خمس شهادات بإزاء شهادات الرجل دفع ذلك عنه حد الزنا،و شهاداتها أن تشهد أربع مرات تقول فيها:أشهد بالله إنه لمن الكاذبين ثم تشهد خامسه فتقول:لعنه الله على إن كان من الصادقين،و هذا هو اللعان الذى ينفصل به الزوجان.

قوله تعالى:« وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللّٰهَ تَوّٰابٌ حَكِيمٌ »جواب لو لا محذوف يدل عليه ما أخذ فى شرطه من القيود إذ معناه لو لا فضل الله و رحمته و توبته

و حكمته لحل بكم ما دفعته عنكم هذه الصفات و الأفعال فالتقدير على ما يعطيه ما فى الشرط من القيود لو لا ما أنعم الله عليكم من نعمه الدين و توبته لمذنبيكم و تشريعه الشرائع لنظم أمور حياتكم لزمتكم الشقوه،و أهلكتكم المعصيه و الخطيئه،و اختل نظام حياتكم بالجهاله.و الله أعلم.

(بحث روائى)

فى الكافى،بإسناده عن محمد بن سالم عن أبى جعفر(ع)فى حديث قال: و سوره النور أنزلت بعد سوره النساء،و تصديق ذلك أن الله عز و جل أنزل عليه فى سوره النساء« وَ اللاّتِي يَأْتِينَ الْفاحِشَةَ مِنْ نِسائِكُمْ-فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ-فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ-حَتّى يَتَوَفّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً »و السبيل الذى قال الله عز و جل« سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَ فَرَضْناها-وَ أَنْزَلْنا فِيها آياتٍ بَيِّناتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ الزّانِيَةُ وَ الزّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ-وَ لا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللّهِ-إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ-وَ لْيَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ».

و فى تفسير القمى،و فى روايه أبى الجارود عن أبى جعفر(ع): فى قوله:« وَ لْيَشْهَدْ عَذابَهُما »يقول:ضربهما« طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »يجمع لهما الناس إذا جلدوا.

و فى التهذيب،بإسناده عن غياث بن إبراهيم عن جعفر عن أبيه عن أمير المؤمنين (ع): فى قول الله عز و جل:« وَ لا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللّهِ »قال:فى إقامه الحدود،و فى قوله تعالى:« وَ لْيَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »قال:الطائفه واحد.

و فى الكافى،بإسناده عن محمد بن سالم عن أبى جعفر(ع)فى حديث قال:

و أنزل بالمدينه« اَلزّانِي لا يَنْكِحُ إِلاّ زانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً-وَ الزّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إِلاّ زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ-وَ حُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ »فلم يسم الله الزانى مؤمنا و لا الزانيه مؤمنه،و قال رسول الله ص ليس يمترى فيه أهل العلم-أنه قال لا يزنى الزانى حين يزنى و هو مؤمن،و لا يسرق السارق حين يسرق و هو مؤمن-فإنه إذا فعل ذلك خلع عنه الإيمان كخلع القميص.

و فيه،بإسناده عن زراره قال: سألت أبا عبد الله(ع)عن قول الله عز و جل:

« اَلزّٰانِی لاٰ یَنْکِحُ إِلاّٰ زٰانِیَةً أَوْ مُشْرِکَةً »قال:هن نساء مشهورات و رجال مشهورون بالزنا-شهروا به،و عرفوا به-و الناس الیوم بذلک المنزل-فمن أقیم علیه حد الزنا أو متهم بالزنا-لم ینبغ لأحد أن یناکحه حتی یعرف منه التوبه:

أقول:و رواه أیضا بإسناده عن أبی الصباح عنه(ع)مثله

،

و بإسناده عن محمد بن سالم عن أبی جعفر(ع)و لفظه: هم رجال و نساء-کانوا علی عهد رسول الله ص مشهورین بالزنا-فنهی الله عن أولئک الرجال و النساء،و الناس الیوم علی تلک المنزله-من شهر شیئا من ذلک أقیم علیه الحد-فلا تزوجوه حتی تعرفوا توبته.

و فیه،بإسناده عن حکم بن حکیم عن أبی عبد الله(ع): فی الآیه قال:إنما ذلک فی الجهر ثم قال:لو أن إنسانا زنی ثم تاب تزوج حیث شاء.

و فی الدر المنثور،أخرج أحمد و عبد بن حمید و النسائی و الحاکم و صححه و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردویه و البیهقی فی سننه و أبو داود فی ناسخه عن عبد الله بن عمر قال": کانت امرأه یقال لها:أم مهزول،و کانت تسافح الرجل و تشرط أن تنفق علیه-فأراد رجل من أصحاب النبی ص أن یزوجها-فأنزل الله:

« اَلزّٰانِیَةُ لاٰ یَنْکِحُهٰا إِلاّٰ زٰانٍ أَوْ مُشْرِکٌ ».

أقول:و روی ما یقرب منه عن عده من أصحاب الجوامع عن مجاهد.

و فیه،أخرج ابن أبی حاتم عن مقاتل قال": لما قدم المهاجرون المدینه-قدموها و هم بجهد إلا قلیل منهم،و المدینه غالیه السعر شدیده الجهد،و فی السوق زوان متعالنات من أهل الکتاب،و أما الأنصار منهن أمیه ولیده عبد الله بن أبی-و نسیکه بنت أمیه لرجل من الأنصار-فی بغایا من ولائد الأنصار-قد رفعت کل امرأه منهن- علامه علی بابها لیعرف أنها زانیه-و کن من أخصب أهل المدینه و أکثره خیرا.

فرغب أناس من مهاجری المسلمین فیما یکتسبن-للذی هم فیه من الجهد-فأشار بعضهم علی بعض لو تزوجنا بعض هؤلاء الزوانی-فنصیب من بعض أطعماتهن-فقال بعضهم:نستأمر رسول الله ص فأتوه فقالوا:یا رسول الله قد شق علینا الجهد و لا نجد ما نأکل،و فی السوق بغایا نساء أهل الکتاب و ولائدهن-و ولائد الأنصار یکتسبن لأنفسهن-فیصلح لنا أن نتزوج منهن فنصیب من فضول ما یکتسبن-فإذا وجدنا عنهن

غنى تركناهن-فأنزل الله:« اَلزّانِی لاٰ یَنْکِحُ »الآیه«فحرم على المؤمنين-أن يتزوجوا الزوانى المسافحات العالنات زناهن.

أقول:و الروايتان إنما تذكران سبب نزول قوله:« اَلزّانِیَهُ لاٰ یَنْکِحُهٰا إِلاّٰ زٰانٍ أَوْ مُشْرِکٌ »دون قوله:« اَلزّانِی لاٰ یَنْکِحُ إِلاّٰ زٰانِیَهً أَوْ مُشْرِکَهً .» و فى المجمع،":فى قوله تعالى:« إِلاَّ الَّذِینَ تٰابُوا -اختلف فى هذا الاستثناء إلى ما ذا يرجع على قولين:أحدهما أنه يرجع إلى الفسق خاصه دون قوله:« وَ لاٰ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهٰادَهً أَبَداً »-إلى أن قال-

و الآخر أن الاستثناء يرجع إلى الأمرين-فإذا تاب قبلت شهادته حد أم لم يحد- عن ابن عباس-إلى أن قال-و قول أبى جعفر و أبى عبد الله (ع).

و فى الدر المنثور،أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر عن سعيد بن المسيب قال: شهد على المغيره بن شعبه ثلاثه بالزنا و نكل زياد-فحد عمر الثلاثه،و قال لهم:توبوا تقبل شهادتكم-فتاب رجلان و لم يتب أبو بكره فكان لا تقبل شهادته، و كان أبو بكره أخا زياد لأمه-فلما كان من أمر زياد ما كان-حلف أبو بكره أن لا يكلمه أبدا فلم يكلمه حتى مات.

و فى التهذيب،بإسناده عن الحلبى عن أبى عبد الله(ع)قال: إذا قذف العبد الحر جلد ثمانين.و قال:هذا من حقوق الناس.

و فى تفسير القمى، فى قوله تعالى:« وَ الَّذِینَ یَرْمُونَ أَزْوٰاجَهُمْ -إلى قوله -إِنْ کٰانَ مِنَ الصّٰادِقِینَ »فإنها نزلت فى اللعان فكان سبب ذلك-أنه لما رجع رسول الله ص من غزوه تبوك-جاء إليه عويمر بن ساعده العجلانى و كان من الأنصار-و قال:يا رسول الله-إن امرأتى زنى بها شريك بن السمحاء-و هى منه حامل فأعرض عنه رسول الله ص-فأعاد عليه القول فأعرض عنه-حتى فعل ذلك أربع مرات.

فدخل رسول الله ص منزله فنزلت عليه آيه اللعان-فخرج رسول الله ص و صلى بالناس العصر،و قال لعويمر:ائتنى بأهلك فقد أنزل الله عز و جل فيكما قرآنا- فجاء إليها و قال لها:رسول الله يدعوك-و كانت فى شرف من قومها فجاء معها جماعه- فلما دخلت المسجد قال رسول الله ص لعويمر:تقدم إلى المنبر و التعنا-فقال:كيف

أصنع؟فقال:تقدم و قل:أشهد بالله إنی لمن الصادقین فیما رمیتها به-فتقدم و قالها، فقال رسول الله ص:أعدها-فأعادها حتی فعل ذلک أربع مرات فقال له فی الخامسه:علیک لعنه الله إن کنت من الکاذبین فیما رمیتها به-فقال فی الخامسه-إن لعنه الله علیه إن کان من الکاذبین فیما رماها به.ثم قال رسول الله ص:إن اللعنه موجبه إن کنت کاذبا.

ثم قال له:تنح فتنحی ثم قال لزوجته:تشهدین کما شهد،و إلا أقمت علیک حد الله-فنظرت فی وجوه قومها فقالت:لا أسود هذه الوجوه فی هذه العشیه-فتقدمت إلی المنبر و قالت:أشهد بالله أن عویمر بن ساعده من الکاذبین فیما رمانی،فقال لها رسول الله ص:أعیدیها-فأعادتها حتی أعادتها أربع مرات،فقال لها رسول الله ص:العنی نفسک فی الخامسه إن کان من الصادقین-فیما رماک به،فقالت فی الخامسه-إن غضب الله علیها إن کان من الصادقین فیما رماها به،فقال رسول الله ص:ویلک إنها موجبه إن کنت کاذبه.

ثم قال رسول الله ص لزوجها:اذهب فلا تحل لک أبدا.قال:یا رسول الله فمالی الذی أعطیتها.قال:إن کنت کاذبا فهو أبعد لک منه،و إن کنت صادقا فهو لها بما استحللت من فرجها. الحدیث.

و فی المجمع،فی روایه عکرمه عن ابن عباس: قال سعد بن عباده لو أتیت لکاع و قد یفخذها رجل-لم یکن لی أن أهیجه حتی آتی بأربعه شهداء-فوالله ما کنت لآتی بأربعه شهداء-حتی یفرغ من حاجته و یذهب،و إن قلت ما رأیت إن فی ظهری لثمانین جلده.

فقال النبی ص:یا معشر الأنصار ما تسمعون إلی ما قال سیدکم؟فقالوا:لا تلمه فإنه رجل غیور-ما تزوج امرأه قط إلا بکرا،و لا طلق امرأه له فاجترأ رجل منا أن یتزوجها،فقال سعد بن عباده:یا رسول الله بأبی أنت و أمی-و الله إنی لأعرف أنها من الله و أنها حق-و لکن عجبت من ذلک لما أخبرتک،فقال:فإن الله یأبی إلا ذلک،فقال:صدق الله و رسوله.

فلم یلبثوا إلا یسیرا حتی جاء ابن عم له یقال له:هلال بن أمیه من حدیقه له- قد رأی رجلا مع امرأته-فلما أصبح غدا إلی رسول الله ص فقال: إنی جئت أهلی

عشاء فوجدت معها رجلا-رأيته بعينى و سمعته بأذنى،فكره رسول الله ص حتى رئى الكراهه فى وجهه-فقال هلال:إنى لأرى الكراهه فى وجهك-و الله يعلم إنى لصادق، و إنى لأرجو أن يجعل الله فرجا-فهم رسول الله ص بضربه.

قال:و اجتمعت الأنصار و قالوا:ابتلينا بما قال سعد أ يجلد هلال و يبطل شهادته؟فنزل الوحى و أمسكوا عن الكلام-حين عرفوا أن الوحى قد نزل-فأنزل الله تعالى:« وَ اَلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوٰاجَهُمْ »الآيات.

فقال(ص):أبشر يا هلال فإن الله تعالى قد جعل فرجا-فقال:قد كنت أرجو ذلك من الله تعالى،فقال(ص):أرسلوا إليها فجاءت فلاعن بينهما-فلما انقضى اللعان فرق بينهما و قضى أن الولد لها-و لا يدعى لأب و لا يرمى ولدها.

ثم قال رسول الله ص:إن جاءت به كذا و كذا فهو لزوجها-و إن جاءت به كذا و كذا فهو للذى قيل فيه.:

أقول:و رواه فى الدر المنثور،عن عده من أرباب الجوامع عن ابن عباس .

[سوره النور (۲۴): الآيات ۱۱ الى ۲۶]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِينَ جٰاؤُ بِالْإِفْكِ عُصْبَهٌ مِنْكُمْ لاٰ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ اِمْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اِكْتَسَبَ مِنَ اَلْإِثْمِ وَ اَلَّذِى تَوَلّٰى كِبْرَهُ
مِنْهُمْ لَهُ عَذٰابٌ عَظِيمٌ (۱۱) لَوْ لاٰ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ اَلْمُؤْمِنُونَ وَ اَلْمُؤْمِنٰاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَ قٰالُوا هٰذٰا إِفْكٌ مُبِينٌ (۱۲) لَوْ لاٰ جٰاؤُ عَلَيْهِ
بِأَرْبَعَهِ شُهَدٰاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدٰاءِ فَأُولٰئِكَ عِنْدَ اَللّٰهِ هُمُ اَلْكٰاذِبُونَ (۱۳) وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اَللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِى اَلدُّنْيٰا وَ اَلْآخِرَهِ
لَمَسَّكُمْ فِيمٰا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذٰابٌ عَظِيمٌ (۱۴) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْوٰاهِكُمْ مٰا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَ هُوَ عِنْدَ
اَللّٰهِ عَظِيمٌ (۱۵) وَ لَوْ لاٰ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مٰا يَكُونُ لَنٰا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهٰذٰا سُبْحٰانَكَ هٰذٰا بُهْتٰانٌ عَظِيمٌ (۱۶) يَعِظُكُمُ اَللّٰهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ
أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۷) وَ يُبَيِّنُ اَللّٰهُ لَكُمُ اَلْآيٰاتِ وَ اَللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۱۸) إِنَّ اَلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ اَلْفٰاحِشَهُ فِى اَلَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ
عَذٰابٌ أَلِيمٌ فِى اَلدُّنْيٰا وَ اَلْآخِرَهِ وَ اَللّٰهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ (۱۹) وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اَللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اَللّٰهَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (۲۰) يٰا
أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّبِعُوا خُطُوٰاتِ اَلشَّيْطٰانِ وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُوٰاتِ اَلشَّيْطٰانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشٰاءِ وَ اَلْمُنْكَرِ وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اَللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ
رَحْمَتُهُ مٰا زَكىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَ لٰكِنَّ اَللّٰهَ يُزَكِّى مَنْ يَشٰاءُ وَ اَللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۲۱) وَ لاٰ يَأْتَلِ أُولُوا اَلْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ اَلسَّعَهِ أَنْ
يُؤْتُوا أُولِى اَلْقُرْبىٰ وَ اَلْمَسٰاكِينَ وَ اَلْمُهٰاجِرِينَ فِى سَبِيلِ اَللّٰهِ وَ لْيَعْفُوا وَ لْيَصْفَحُوا أَ لاٰ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اَللّٰهُ لَكُمْ وَ اَللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ
(۲۲) إِنَّ اَلَّذِينَ يَرْمُونَ اَلْمُحْصَنٰاتِ اَلْغٰافِلاٰتِ اَلْمُؤْمِنٰاتِ لُعِنُوا فِى اَلدُّنْيٰا وَ اَلْآخِرَهِ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ (۲۳) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ
وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۲۴) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اَللّٰهُ دِينَهُمُ اَلْحَقَّ وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اَللّٰهَ هُوَ اَلْحَقُّ اَلْمُبِينُ (۲۵) اَلْخَبِيثٰاتُ
لِلْخَبِيثِينَ وَ اَلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثٰاتِ وَ اَلطَّيِّبٰاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَ اَلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبٰاتِ أُولٰئِكَ مُبَرَّؤُنَ مِمّٰا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَهٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۲۶)

بيان

الآيات تشير إلى حديث الإفک،و قد روى أهل السنه أن المقذوفه فى قصه الإفک هى أم المؤمنين عائشه،و روت الشيعه أنها ماريه القبطيه أم إبراهيم التى أهداها مقوقس ملک مصر إلى النبى ص،و کل من الحديثين لا يخلو عن شىء على ما سيجىء فى البحث الروائى الآتى.

فالأحرى أن نبحث عن متن الآيات فى معزل من الروايتين جميعا غير أن من المسلم أن الإفک المذکور فيها کان راجعا إلى بعض أهل النبى ص إما زوجه و إما أم ولده و ربما لوح إليه قوله تعالى:« وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَ هُوَ عِنْدَ اللّٰهِ عَظِيمٌ » و کذا ما يستفاد من الآيات أن الحديث کان قد شاع بينهم و أفاضوا فيه و سائر ما يومئ إليه من الآيات.

و المستفاد من الآيات أنهم رموا بعض أهل النبى ص بالفحشاء،و کان الرامون عصبه من القوم فشاع الحديث بين الناس يتلقاه هذا من ذاک،و کان بعض المنافقين أو الذين فى قلوبهم مرض يساعدون على إذاعه الحديث حبا منهم أن تشيع الفاحشه فى الذين آمنوا فأنزل الله الآيات و دافع عن نبيه ص.

قوله تعالى:« إِنَّ الَّذِينَ جٰاؤُ بِالْإِفْکِ عُصْبَهٌ مِنْکُمْ »إلخ، الإفک على ما ذکره الراغب الکذب مطلقا و الأصل فى معناه أنه کل مصروف عن وجهه الذى يحق أن يکون عليه کالاعتقاد المصروف عن الحق إلى الباطل-و الفعل المصروف عن الجميل إلى القبيح،و القول المصروف عن الصدق إلى الکذب،و قد استعمل فى کلامه تعالى فى جميع هذه المعانى.

و ذکر أيضا أن العصبه جماعه متعصبه متعاضده،و قيل:إنها عشره إلى أربعين.

و الخطاب فى الآيه و ما يتلوها من الآيات لعامه المؤمنين ممن ظاهره الإيمان أعم من المؤمن بحقيقه الإيمان و المنافق و من فى قلبه مرض،و أما قول بعضهم:إن المخاطب

بالخطابات الأربعه الأول أو الثانى و الثالث و الرابع النبى ص و المقذوفه و المقذوف ففيه تفكيك بين الخطابات الواقعه فى الآيات العشر الأول و هى نيف و عشرون خطابا أكثرها لعامه المؤمنين بلا ريب.

و أسوأ حالا منه قول بعض آخر إن الخطابات الأربعه أو الثلاثه المذكوره لمن ساءه ذلك من المؤمنين فإنه مضافا إلى استلزامه التفكيك بين الخطابات المتواليه مجازفه ظاهره.

و المعنى:إن الذين أتوا بهذا الكذب-و اللام فى الإفك للعهد-جماعه معدوده منكم مرتبط بعضهم ببعض،و فى ذلك إشاره إلى أن هناك تواطؤا منهم على إذاعه هذا الخبر ليطعنوا به فى نزاهه بيت النبى ص و يفضحوه بين الناس.

و هذا هو فائده الخبر فى قوله:« إِنَّ الَّذِينَ جٰاؤُ بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ »لا تسليه النبى ص أو تسليته و تسليه من ساءه هذا الإفك كما ذكره بعضهم فإن السياق لا يساعد عليه.

و قوله:« لاٰ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ »مقتضى كون الخطاب لعامه المؤمنين أن يكون المراد بنفى كونه شرا لهم و إثبات كونه خيرا أن المجتمع الصالح من سعادته أن يتميز فيه أهل الزيغ و الفساد ليكونوا على بصيره من أمرهم و ينهضوا لإصلاح ما فسد من أعضائهم،و خاصه فى مجتمع دينى متصل بالوحى ينزل عليهم الوحى عند وقوع أمثال هذه الوقائع فيعظهم و يذكرهم بما هم فى غفله منه أو مساهله حتى يحتاطوا لدينهم و يتفطنوا لما يهمهم.

و الدليل على ما ذكرنا قوله بعد:« لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ » فإن الإثم هو الأثر السيئ الذى يبقى للإنسان عن اقتراف المعصيه فظاهر الجمله أن أهل الإفك الجائين به يعرفون بإثمه و يتميزون به عندكم فيفتضحون به بدل ما أرادوا أن يفضحوا النبى ص.

و أما قول من قال:إن المراد بكونه خيرا لهم أنهم يثابون بما اتهموهم بالإفك كما أن أهل الإفك يتأثمون به فمبنى على كون الخطاب للمتهمين خاصه و قد عرفت فساده.

و قوله:« وَ الَّذِى تَوَلّٰى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذٰابٌ عَظِيمٌ »فسروا كبره بمعنى معظمه

و الضمير للإفك،و المعنى:و الذى تولى معظم الإفك و أصر على إذاعته بين الناس من هؤلاء الآفكين له عذاب عظيم.

قوله تعالى:« لَوْ لاٰ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنٰاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَ قٰالُوا هٰذٰا إِفْكٌ مُبِينٌ »توبيخ لهم إذ لم يردوا الحديث حينما سمعوه و لم يظنوا بمن رمى به خيرا.

و قوله:« ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنٰاتُ بِأَنْفُسِهِمْ »من وضع الظاهر موضع المضمر، و الأصل«ظننتم بأنفسكم»و الوجه فى تبديل الضمير وصفا الدلاله على عله الحكم فإن صفه الإيمان رادعه بالطبع تردع المتلبس بها عن الفحشاء و المنكر فى القول و الفعل فعلى المتلبس بها أن يظن على المتلبسين بها خيرا،و أن يجتنب القول فيهم بغير علم فإنهم جميعا كنفس واحده فى التلبس بالإيمان و لوازمه و آثاره.

فالمعنى:و لو لا إذ سمعتم الإفك ظننتم بمن رمى به خيرا فإنكم جميعا مؤمنون بعضكم من بعض و المرمى به من أنفسكم و على المؤمن أن يظن بالمؤمن خيرا و لا يصفه بما لا علم له به.

و قوله:« قٰالُوا هٰذٰا إِفْكٌ مُبِينٌ »أى قال المؤمنون و المؤمنات و هم السامعون -أى قلتم-هذا إفك مبين لأن الخبر الذى لا علم لمخبره به و الدعوى التى لا بينه لمدعيها عليها محكوم شرعا بالكذب سواء كان بحسب الواقع صدقا أو كذبا،و الدليل عليه قوله فى الآيه التاليه: « فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدٰاءِ فَأُولٰئِكَ عِنْدَ اللّٰهِ هُمُ الْكٰاذِبُونَ ».

قوله تعالى:« لَوْ لاٰ جٰاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَهِ شُهَدٰاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدٰاءِ فَأُولٰئِكَ عِنْدَ اللّٰهِ هُمُ الْكٰاذِبُونَ »أى لو كانوا صادقين فيما يقولون و يرمون لأقاموا عليه الشهاده و هى فى الزنا بأربعه شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فهم محكومون شرعا بالكذب لأن الدعوى من غير بينه كذب و إفك.

قوله تعالى:« وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِى الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَهِ لَمَسَّكُمْ فِيمٰا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذٰابٌ عَظِيمٌ »إفاضه القوم فى الحديث خوضهم فيه.

و قوله:« وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ »إلخ،عطف على قوله:« لَوْ لاٰ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ »إلخ، و فيه كره ثانيه على المؤمنين،و فى تقييد الفضل و الرحمه بقوله:« فِى الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَهِ » دلاله على كون العذاب المذكور ذيلا هو عذاب الدنيا و الآخره.

ص :٩١

و المعنى:و لو لا فضل الله عليكم و رحمته فى الدنيا و الآخره لوصل إليكم بسبب ما خضتم فيه من الإفك عذاب عظيم فى الدنيا و الآخره.

قوله تعالى:« إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْوٰاهِكُمْ مٰا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ » إلخ،الظرف متعلق بقوله:« أَفَضْتُمْ »و تلقى الإنسان القول أخذه القول الذى ألقاه إليه غيره،و تقييد التلقى بالألسنه للدلاله على أنه كان مجرد انتقال القول من لسان إلى لسان من غير تثبت و تدبر فيه.

و على هذا فقوله:« وَ تَقُولُونَ بِأَفْوٰاهِكُمْ مٰا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ »من قبيل عطف التفسير،و تقييده أيضا بقوله:« بِأَفْوٰاهِكُمْ »للإشاره إلى أن القول لم يكن عن تثبت و تبين قلبى و لم يكن له موطن إلا الأفواه لا يتعداها.

و المعنى:أفضتم و خضتم فيه إذ تأخذونه و تنقلونه لسانا عن لسان و تتلفظون بما لا علم لكم به.

و قوله:« وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَ هُوَ عِنْدَ اللّٰهِ عَظِيمٌ »أى تظنون التلقى بألسنتكم و القول بأفواهكم من غير علم سهلا و هو عند الله عظيم لأنه بهتان و افتراء،على أن الأمر مرتبط بالنبى ص و شيوع إفك هذا شأنه بين الناس يفضحه عندهم و يفسد أمر الدعوه الدينيه.

قوله تعالى:« وَ لَوْ لاٰ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مٰا يَكُونُ لَنٰا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهٰذٰا سُبْحٰانَكَ هٰذٰا بُهْتٰانٌ عَظِيمٌ »عطف بعد عطف على قوله:« لَوْ لاٰ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ »إلخ،و فيه كره ثالثه على المؤمنين بالتوبيخ،و قوله:« سُبْحٰانَكَ »اعتراض بالتنزيه لله سبحانه و هو من أدب القرآن أن ينزه الله بالتسبيح عند تنزيه كل منزه.

و البهتان الافتراء سمى به لأنه يبهت الإنسان المفترى عليه و كونه بهتانا عظيما لأنه افتراء فى عرض و خاصه إذ كان متعلقه بالنبى ص و إنما كان بهتانا لكونه إخبارا من غير علم و دعوى من غير بينه كما تقدم فى قوله:« فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدٰاءِ فَأُولٰئِكَ عِنْدَ اللّٰهِ هُمُ الْكٰاذِبُونَ »و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى:« يَعِظُكُمُ اللّٰهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً »إلى آخر الآيتين موعظه بالنهى عن العود لمثله،و معنى الآيتين ظاهر.

ص :٩٢

قوله تعالی:« إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَهُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا »إلی آخر الآیه إن کانت الآیه نازله فی جمله آیات الإفک و متصله بما تقدمها و موردها الرمی بالزنا بغیر بینه کان مضمونها تهدید الرامین المفیضین فی الإفک لکونه فاحشه و إشاعته فی المؤمنین حبا منهم لشیوع الفاحشه.

فالمراد بالفاحشه مطلق الفحشاء کالزنا و القذف و غیر ذلک.و حب شیوعها و منها القذف فی المؤمنین یستوجب عذابا ألیما لمحبیه فی الدنیا و الآخره.

و علی هذا فلا موجب لحمل العذاب فی الدنیا علی الحد إذ حب شیوع الفحشاء لیس مما یوجب الحد،نعم لو کان اللام فی« اَلْفاحِشَهُ »للعهد و المراد بها القذف و کان حب الشیوع کنایه عن قصه الشیوع بالإفاضه و التلقی بالألسن و النقل أمکن حمل العذاب علی الحد لکن السیاق لا یساعد علیه.

علی أن الرمی بمجرد تحققه مره موجب للحد و لا موجب لتقییده بقصد الشیوع و لا نکته تستدعی ذلک.

و قوله:« وَ اللّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ »تأکید و إعظام لما فیه من سخط الله و غضبه و إن جهله الناس.

قوله تعالی:« وَ لَوْ لا فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ »تکرارا للامتنان و معناه ظاهر.

قوله تعالی:« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ »تقدم تفسیر الآیه فی الآیه ۲۰۸ من سوره البقره فی الجزء الثانی من الکتاب.

قوله تعالی:« وَ لَوْ لا فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً »إلی آخر الآیه.رجوع بعد رجوع إلی الامتنان بالفضل و الرحمه،لا یخلو هذا الاهتمام من تأیید لکون الإفک متعلق بالنبی ص و لیس إلا لکرامته علی الله سبحانه.

و قد صرح فی هذه المره الثالثه بجواب لو لا و هو قوله:« ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً »و هذا مما یدل علیه العقل فإن مفیض الخیر و السعاده هو الله سبحانه،و التعلیم القرآنی أیضا یعطیه کما قال تعالی: «بِيَدِكَ الْخَيْرُ» :آل عمران:۲۶،و قال: «ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَهٍ فَمِنَ اللّهِ» :النساء:۷۹.

و قوله:« وَ لكِنَّ اللّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَ اللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »إضراب عما تقدمه فهو تعالی یزکی من یشاء فالأمر إلی مشیته،و لا یشاء إلا تزکیه من استعد لها و سأله بلسان استعداده

ذلک،و إلیه یشیر قوله:« وَ اللّٰهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ » أی سمیع لسؤال من سأله التزکیه علیم بحال من استعد لها.

قوله تعالی:« وَ لاٰ یَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْکُمْ وَ السَّعَهِ أَنْ یُؤْتُوا أُولِی الْقُرْبیٰ وَ الْمَسٰاکِینَ وَ الْمُهٰاجِرِینَ فِی سَبِیلِ اللّٰهِ »إلخ، الایتلاء التقصیر و الترک و الحلف،و کل من المعانی الثلاثه لا یخلو من مناسبه،و المعنی لا یقصر أولوا الفضل منکم و السعه یعنی الأغنیاء فی إیتاء أولی القرابه و المساکین و المهاجرین فی سبیل الله من مالهم أو لا یترک إیتاءهم أو لا یحلف أن لا یؤتیهم-و لیعفوا عنهم و لیصفحوا-ثم حرضهم بقوله:« أَ لاٰ تُحِبُّونَ أَنْ یَغْفِرَ اللّٰهُ لَکُمْ وَ اللّٰهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ ».

و فی الآیه-علی تقدیر نزولها فی جمله الآیات و اتصالها بها-دلاله علی أن بعض المؤمنین عزم علی أن یقطع ما کان یؤتیه بعض أهل الإفک فنهاه الله عن ذلک و حثه علی إدامه الإیتاء کما سیجیء.

قوله تعالی:« إِنَّ الَّذِینَ یَرْمُونَ الْمُحْصَنٰاتِ الْغٰافِلاٰتِ الْمُؤْمِنٰاتِ لُعِنُوا فِی الدُّنْیٰا وَ الْآخِرَهِ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِیمٌ »أخذ الصفات الثلاث الإحصان و الغفله و الإیمان للدلاله علی عظم المعصیه فإن کلا من الإحصان بمعنی العفه و الغفله و الإیمان سبب تام فی کون الرمی ظلما و الرامی ظالما و المرمیه مظلومه فإذا اجتمعت کان الظلم أعظم ثم أعظم، و جزاؤه اللعن فی الدنیا و الآخره و العذاب العظیم،و الآیه عامه و إن کان سبب نزولها لو نزلت فی جمله آیات الإفک خاصا.

قوله تعالی:« یَوْمَ تَشْهَدُ عَلَیْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَیْدِیهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِمٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ » الظرف متعلق بقوله فی الآیه السابقه:« وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِیمٌ ».

و المراد بقوله:« بِمٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ »کما یقتضیه إطلاقه مطلق الأعمال السیئه-کما قیل-لا خصوص الرمی بأن تشهد ألسنتهم و أیدیهم و أرجلهم علی رمیهم فالمراد بالشهاده شهاده الأعضاء علی السیئات و المعاصی بحسب ما یناسبها فما کان منها من قبیل الأقوال کالقذف و الکذب و الغیبه و نحوها شهدت علیه الألسنه،و ما کان منها من قبیل الأفعال کالسرقه و المشی للنمیمه و السعایه و غیرهما شهدت علیه بقیه الأعضاء،و إذ کان معظم المعاصی من الأفعال للأیدی و الأرجل اختصتا بالذکر.

و بالحقیقه الشاهد علی کل فعل هو العضو الذی صدر منه کما یشیر إلیه قوله تعالی:

«شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصٰارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ» :حم السجده:۲۰، و قوله:« إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤٰادَ كُلُّ أُولٰئِكَ كٰانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً» :إسراء-۳۶، و قوله: «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلىٰ أَفْوٰاهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنٰا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ» :يس:۶۵،و سيأتى الكلام على شهاده الأعضاء يوم القيامه فى بحث مستقل فى تفسير سوره حم السجده إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى:« يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللّٰهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ » المراد بالدين الجزاء كما فى قوله: «مٰالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» :الحمد:۴،و توفيه الشىء بذله تاما كاملا،و المعنى:يوم القيامه يؤتيهم الله جزاءهم الحق إيتاء تاما كاملا و يعلمون أن الله هو الحق المبين».

هذا بالنظر إلى اتصال الآيه بما قبلها و وقوعها فى سياق ما تقدمها،و أما بالنظر إلى استقلالها فى نفسها فمن الممكن أن يراد بالدين ما يرادف المله و هو سنه الحياه،و هو معنى عال يرجع إلى ظهور الحقائق يوم القيامه للإنسان،و يكون أكثر مناسبه لقوله: « وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ».

و الآيه من غرر الآيات القرآنيه تفسر معنى معرفه الله فإن قوله:« وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ »ينبئ أنه تعالى هو الحق لا ستره عليه بوجه من الوجوه و لا على تقدير من التقادير فهو من أبده البديهيات التى لا يتعلق بها جهل لكن البديهى ربما يغفل عنه فالعلم به تعالى هو ارتفاع الغفله عنه الذى ربما يعبر عنه بالعلم،و هذا هو الذى يبدو لهم يوم القيامه فيعلمون أن الله هو الحق المبين.

و إلى مثله يشير قوله تعالى: «لَقَدْ كُنْتَ فِى غَفْلَهٍ مِنْ هٰذٰا فَكَشَفْنٰا عَنْكَ غِطٰاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» :ق:۲۲.

قوله تعالى:« اَلْخَبِيثٰاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَ الْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثٰاتِ وَ الطَّيِّبٰاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَ الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبٰاتِ »إلخ ذيل الآيه« أُولٰئِكَ مُبَرَّؤُنَ مِمّٰا يَقُولُونَ »دليل على أن المراد بالخبيثات و الخبيثين و الطيبات و الطيبين نساء و رجال متلبسون بالخباثه و الطيب فالآيه من تمام آيات الإفك متصله بها مشاركه لها فى سياقها،و هى عامه لا مخصص لها من جهه اللفظ البته.

فالمراد بالطيب الذى يوجب كونهم مبرءين مما يقولون على ما تدل عليه الآيات

السابقه هو المعنى الذى يقتضيه تلبسهم بالإيمان و الإحصان فالمؤمنون و المؤمنات مع الإحصان طيبون و طيبات يختص كل من الفريقين بصاحبه،و هم بحكم الإيمان و الإحصان مصونون مبرءون شرعا من الرمى بغير بينه،محكومون من جهه إيمانهم بأن لهم مغفره كما قال تعالى: «وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ» :الأحقاف:٣١ و لهم رزق كريم، و هو الحياه الطيبه فى الدنيا و الأجر الحسن فى الآخره كما قال: «مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰاةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ» :النحل:٩٧.

و المراد بالخبث فى الخبيثين و الخبيثات و هم غير المؤمنين هو الحال المستقذره التى يوجبها لهم تلبسهم بالكفر و قد خصت خبيثاتهم بخبيثهم و خبيثوهم بخبيثاتهم بمقتضى المجانسه و المسانخه و ليسوا بمبرءين عن التلبس بالفحشاء-نعم هذا ليس حكما بالتلبس-.

فظهر بما تقدم:

أولا:أن الآيه عامه بحسب اللفظ تصف المؤمنين و المؤمنات بالطيب و لا ينافى ذلك اختصاص سبب نزولها و انطباقها عليه.

و ثانيا:أنها تدل على كونهم جميعا محكومين شرعا بالبراءه عما يرمون به ما لم تقم عليه بينه.

و ثالثا:أنهم محكومون بالمغفره و الرزق الكريم كل ذلك حكم ظاهرى لكرامتهم على الله بإيمانهم،و الكفار على خلاف ذلك.

(بحث روائى)

فى الدر المنثور،أخرج عبد الرزاق و أحمد و البخارى و عبد بن حميد و مسلم و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب عن عائشه قالت:

كان رسول الله ص إذا أراد أن يخرج إلى سفر-أقرع بين أزواجه-فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ص معه.قالت عائشه:فأقرع بيننا فى غزوه غزاها فخرج سهمى-فخرجت مع رسول الله ص بعد ما نزل الحجاب- و أنا أحمل فى هودجى و أنزل فيه-فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ص من غزوته تلك و قفل.

فدنونا من المدينه قافلين آذن ليله بالرحيل-فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش-فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى-فإذا عقد لى من جزع ظفار (۱)قد انقطع-فالتمست عقدى و حبسنى ابتغاؤه-و أقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بى فاحتملوا هودجى-فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب،و هم يحسبون أنى فيه، و كانت النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلهن اللحم-إنما تأكل المرأه العلقه (۲)من الطعام-فلم يستنكر القوم خفه الهودج حين رفعوه-و كنت جاريه حديثه السن فبعثوا الجمل فساروا فوجدت عقدى بعد ما استمر الجيش-فجئت منازلهم و ليس بها داع و لا مجيب-فيممت منزلى الذى كنت به-فظننت أنهم سيفقدونى فيرجعون إلى-فبينا أنا جالسه فى منزل غلبتنى عينى فنمت.

و كان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكرانى-من وراء الجيش فأدلج (۳)فأصبح عند منزلى-فرأى سواد إنسان نائم فأتانى فعرفنى حين رآنى-و كان يرانى قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى-فخمرت وجهى بجلبابى-و الله ما كلمنى كلمه واحده و لا سمعت منه كلمه غير استرجاعه-حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها فانطلق يقود بى الراحله حتى أتينا الجيش-بعد أن نزلوا موغرين فى نحر الظهيره-فهلك فى من هلک.

و كان الذى تولى الإفک عبد الله بن أبى بن سلول-فقدمنا المدينه فاشتكيت حين قدمت شهرا-و الناس يفيضون فى قول أصحاب الإفک-لا أشعر بشىء من ذلک،و هو يريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله ص-اللطف الذى كنت أرى منه حين اشتكى-إنما يدخل على فيسلم ثم يقول:كيف تيكم؟ثم ينصرف فذاک الذى يريبنى

۱- ۱) ظفار كقطام بلد باليمن قرب صنعاء،و جزع ظفارى منسوب إليها و الجزع الخرز و هو الذى فيه سواد و بياض.
۲- ۲) العلقه من الطعام ما يمسک به الرمق.
۳- ۳) أدلج القوم:ساروا الليل كله أو فى آخره.

و لا أشعر بالشر-حتى خرجت بعد ما نقهت و خرجت معى أم مسطح-قبل المناصع (۱)و هى متبرزنا و كنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل،و ذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا-و أمرنا أمر العرب الأول فى التبرز قبل الغائط-فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا.

فانطلقت أنا و أم مسطح-فأقبلت أنا و أم مسطح قبل بيتى-قد أشرعنا (۲)من ثيابنا-فعثرت أم مسطح فى مرطها (۳)فقالت:تعس مسطح-فقلت لها:بئس ما قلت أ تسبين رجلا شهد بدرا؟قالت:أى هنتاه (۴)أ و لم تسمعى ما قال؟قلت:و ما قال:

فأخبرتنى بقول أهل الإفك فازددت مرضا على مرضى.

فلما رجعت إلى بيتى دخل على رسول الله ص-فسلم ثم قال:كيف تيكم؟ فقلت:أ تأذن لى أن آتى أبوى؟قالت:و أنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما-قالت:فأذن لى رسول الله ص فجئت لأبوى-فقلت لأمى:يا أمتاه ما يتحدث الناس؟قالت يا بنيه هونى عليك-فوالله لقلما كانت امرأه قط وضيئه عند رجل يحبها-و لها ضرائر إلا أكثرن عليها-فقلت:سبحان الله و لقد تحدث الناس بهذا؟ فبكيت تلك الليله حتى أصبحت-لا يرقأ لى دمع و لا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكى.

و دعا رسول الله ص على بن أبى طالب-و أسامه بن زيد حين استلبث الوحى يستأمرهما فى فراق أهله،فأما أسامه فأشار على رسول الله ص-بالذى يعلم من براءه أهله-و بالذى يعلم لهم فى نفسه من الود فقال:يا رسول الله أهلك و لا نعلم إلا خيرا،و أما على بن أبى طالب فقال:يا رسول الله لم يضيق الله عليك،و النساء سواها كثيره و إن تسأل الجاريه تصدقك،فدعا رسول الله ص بريره فقال:أى بريره هل رأيت شيئا يريبك؟قالت بريره:لا و الذى بعثك بالحق-إن رأيت عليها أمرا أغمضه أكثر من أنها جاريه حديثه السن-تنام عن عجين أهلها فيأتى الداجن فيأكله.

۱- ۱) المناصع:المواضع يتخلى فيها لبول أو حاجه.

۲- ۲) أى رفعنا ثيابنا.

۳- ۳) المرط-بالكسر-كساء واسع يؤتزر به و ربما تلقيه المرأه على رأسها و تتلفع به.

۴- ۴) خطاب للمرأه يقال للرجل يا هناه.

فقام رسول الله ص فاستعذر یومئذ من عبد الله بن أبی-فقال و هو علی المنبر:

یا معشر المسلمین من یعذرنی من رجل-بلغنی أذاه فی أهل بیتی-فوالله ما علمت علی أهلی إلا خیرا،و لقد ذکروا رجلا ما علمت علیه إلا خیرا-و ما کان یدخل علی أهلی إلا معی.

فقام سعد بن معاذ الأنصاری فقال:یا رسول الله أنا أعذرک منه-إن کان من الأوس ضربت عنقه-و إن کان من إخواننا من بنی الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرک،فقام سعد بن عباده و هو سید الخزرج-و کان قبل ذلک رجلا صالحا و لکن احتملته الحمیه فقال لسعد:کذبت لعمر الله ما تقتله و لا تقدر علی قتله،فقام أسید بن حضیر-و هو ابن عم سعد فقال لسعد بن عباده:کذبت لنقتلنه فإنک منافق تجادل عن المنافقین، فتثاور الحیان:الأوس و الخزرج-حتی هموا أن یقتتلوا و رسول الله ص قائم علی المنبر-فلم یزل رسول_ص یخفضهم حتی سکتوا و سکت.

فبکیت یومی ذلک فلا یرقأ لی دمع و لا أکتحل بنوم-فأصبح أبوای عندی و قد بکیت لیلتین و یوما-لا أکتحل بنوم و لا یرقأ لی دمع-و أبوای یظنان أن البکاء فالق کبدی.

فبینما هما جالسان عندی و أنا أبکی-فاستأذنت علی امرأه من الأنصار فأذنت لها فجلست تبکی معی-فبینما نحن علی ذلک دخل علینا رسول الله ص ثم جلس-و لم یجلس عندی منذ قیل فی ما قیل قبلها-و قد لبث شهرا لا یوحی إلیه فی شأنی بشیء،فتشهد حین جلس ثم قال:أما بعد یا عائشه إنه بلغنی عنک کذا و کذا-فإن کنت بریئه فسیبرئک الله،و إن کنت ألممت بذنب فاستغفری الله و توبی إلیه-فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله علیه.

فلما قضی رسول الله ص مقالته قلص (۱)دمعی- حتی ما أحس منه قطره، فقلت لأبی:أجب عنی رسول الله ص.قال:و الله ما أدری ما أقول لرسول الله ص،فقلت لأمی:أجیبی عنی رسول الله ص،قالت:و الله ما أدری ما أقول لرسول الله ص.

۱- ۱) قلص:اجتمع و انقبض.

فقلت و أنا جاريه حديثه السن لا أقرأ كثيرا من القرآن:إنی و الله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث-حتی استقر فی أنفسكم و صدقتم به-فلئن قلت لكم:إنی بريئه و الله يعلم أنی بريئه-لا- تصدقونی،و لئن اعترفت لكم بأمر-و الله يعلم أنی منه بريئه لتصدقنی،و الله لا أجد لی و لكم مثلا إلا قول أبی يوسف:فصبر جميل و الله المستعان علی ما تصفون.

ثم تحولت فاضطجعت علی فراشی-و أنا حينئذ أعلم أنی بريئه و أن الله مبرئی ببراءتی-و لكن و الله ما كنت أظن-أن الله منزل فی شأنی وحيا يتلی،و لشأنی فی نفسی كان أحقر-من أن يتكلم الله فی بأمر يتلی،و لكن كنت أرجو أن يری رسول الله ص رؤيا-يبرئنی الله بها.

قالت:فوالله ما رام رسول الله ص مجلسه-و لا- خرج أحد من أهل البيت حتی أنزل عليه-فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحی-حتی إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق-و هو فی يوم شات من ثقل القول الذی أنزل عليه-فلما سری عن رسول الله ص سری عنه و هو يضحك-فكان أول كلمه تكلم بها أن قال:أبشری يا عائشه أما الله فقد برأك،فقالت أمی:قومی إليه،فقلت:و الله لا أقوم إليه و لا أحمد-إلا الله الذی أنزل براءتی،و أنزل الله:« إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُ بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ » العشر الآيات كلها.

فلما أنزل الله هذا فی براءتی قال أبو بكر،و كان ينفق علی مسطح بن أثاثه لقرابته منه و فقره:و الله لا أنفق علی مسطح شيئا أبدا-بعد الذی قال لعائشه ما قال فأنزل الله:« وَ لاٰ يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَهِ-أَنْ يُؤْتُوا أُولِی الْقُرْبیٰ وَ الْمَسٰاكِينَ -إلی قوله- رَحِيمٌ »قال أبو بكر:و الله إنی أحب أن يغفر الله لی فرجع إلی مسطح النفقه التی كان ينفق عليه،و قال:و الله لا أنزعها منه أبدا.

قالت عائشه:فكان رسول الله ص يسأل-زينب ابنه جحش عن أمری فقال:

يا زينب ما ذا علمت أو رأيت؟فقالت:يا رسول الله أحمی سمعی و بصری ما علمت إلا خيرا،قالت:و هی التی كانت تسامينی من أزواج النبی ص-فعصمها الله بالورع، و طفقت أختها حمنه تحارب لها-فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك:

أقول:و الروایه مرویه بطرق أخری عن عائشه أیضا و عن عمر و ابن عباس و أبی هریره و أبی الیسر الأنصاری و أم رومان أم عائشه و غیرهم و فیها بعض الاختلاف:

و فیها إن الذین جاءوا بالإفک-عبد الله بن أبی بن سلول و مسطح بن أثاثه-و کان بدریا من السابقین الأولین من المهاجرین،و حسان بن ثابت،و حمنه أخت زینب زوج النبی ص.

و فیها أن النبی ص دعاهم بعد ما نزلت آیات الإفک-فحدهم جمیعا غیر أنه حد عبد الله بن أبی حدین-و إنما حده حدین-لأنه من قذف زوج النبی ص کان علیه حدان.

و فی الروایات علی تقاربها فی سرد القصه إشکال من وجوه:

أحدها:أن المسلم من سیاقها أن النبی ص کان فی ریب من أمر عائشه بعد تحقق الإفک کما یدل علیه تغیر حاله بالنسبه إلیها فی المعامله باللطف أیام اشتکائها و بعدها حتی نزلت الآیات،و یدل علیه قولها له حین نزلت الآیات و بشرها به:بحمد الله لا بحمدک،و فی بعض الروایات أنها قالت لأبیها و قد أرسله النبی ص لیبشرها بنزول العذر:بحمد الله لا بحمد صاحبک الذی أرسلک،ترید به النبی ص،و فی الروایه الأخری عنها:أن النبی ص لما وعظها أن تتوب إلی الله إن کان منها شیء و فی الباب امرأه جالسه قالت له عائشه:أ ما تستحی من هذه المرأه أن تذکر شیئا،و من المعلوم أن هذا النوع من الخطاب المبنی علی الإهانه و الإزراء ما کان یصدر عنها لو لا أنها وجدت النبی فی ریب من أمرها.کل ذلک مضافا إلی التصریح به فی روایه عمر ففیها:«فکان فی قلب النبی ص مما قالوا».

و بالجمله دلاله عامه الروایات علی کون النبی ص فی ریب من أمرها إلی نزول العذر مما لا ریب فیه،و هذا مما یجل عنه مقامه(ص)کیف؟و هو سبحانه یقول:

« لَوْ لاٰ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنٰاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَیْراً وَ قٰالُوا هٰذٰا إِفْکٌ مُبِینٌ » فیوبخ المؤمنین و المؤمنات علی إساءتهم الظن و عدم ردهم ما سمعوه من الإفک فمن لوازم الإیمان حسن الظن بالمؤمنین،و النبی ص أحق من یتصف بذلک و یتحرز من سوء الظن الذی من الإثم و له مقام النبوه و العصمه الإلهیه.

علی أنه تعالی ینص فی کلامه علی اتصافه(ص)بذلک إذ یقول:«وَ مِنْهُمُ الَّذِینَ

يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللّٰهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» :التوبه:۶۱.

على أنا نقول:إن تسرب الفحشاء إلى أهل النبى ينفر القلوب عنه فمن الواجب أن يطهر الله سبحانه ساحه أزواج الأنبياء عن لوث الزنا و الفحشاء و إلا لغت الدعوه و تثبت بهذه الحجه العقليه عفتهن واقعا لا ظاهرا فحسب،و النبى ص أعرف بهذه الحجه منا فكيف جاز له أن يرتاب فى أمر أهله برمى من رام أو شيوع من إفك.

و ثانيها:أن الذى تدل عليه الروايات أن حديث الإفك كان جاريا بين الناس منذ بدأ به أصحاب الإفك إلى أن ختم بحدهم أكثر من شهر و قد كان حكم القذف مع عدم قيام الشهاده معلوما و هو جلد القاذف و تبرئه المقذوف شرعا فما معنى توقف النبى ص عن حد أصحاب الإفك هذه المده الطويله و انتظاره الوحى فى أمرها حتى يشيع بين الناس و تتلقاه الألسن و تسير به الركبان و يتسع الخرق على الراتق؟ و ما أتى به الوحى من العذر لا يزيد على ما تعينه آيه القذف من براءه المقذوف حكما شرعيا ظاهريا.

فإن قيل:الذى نزل من العذر براءتها واقعا و طهاره ذيلها فى نفس الأمر و هذا أمر لا تكفى له آيه حد القاذف،و لعل صبره(ص)هذه المده الطويله إنما كان لأجله.

قلت:لا دلاله فى شىء من هذه الآيات الست عشره على ذلك،و إنما تثبت بالحجه العقليه السابقه الداله على طهاره بيوت الأنبياء من لوثه الفحشاء.

أما الآيات العشر الأول التى فيها شائبه الاختصاص فأظهرها فى الدلاله على براءتها قوله تعالى:« لَوْ لاٰ جٰاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدٰاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدٰاءِ فَأُولٰئِكَ عِنْدَ اللّٰهِ هُمُ الْكٰاذِبُونَ »و قد استدل فيها على كذبهم بعدم إتيانهم بالشهداء،و من الواضح أن عدم إقامه الشهاده إنما هو دليل البراءه الظاهريه أعنى الحكم الشرعى بالبراءه دون البراءه الواقعيه لوضوح عدم الملازمه.

و أما الآيات الست الأخيره فقوله:« اَلطَّيِّبٰاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَ الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبٰاتِ إلخ عام من غير مخصص من جهه اللفظ فالذى تثبته من البراءه مشترك فيه بين جميع المقذوفين

من غير قيام بينه من المؤمنين و المؤمنات،و من الواضح أن البراءه المناسبه لهذا المعنى هى البراءه الشرعيه.

و الحق أن لا مناص عن هذا الإشكال إلا بالقول بأن آيه القذف لم تكن نازله قبل حديث الإفك و إنما نزلت بعده،و إنما كان سبب توقفه(ص)خلو الواقعه عن حكم الله بعد فكان ينتظر فى أمر الإفك الحكم السماوى.

و من أوضح الدليل عليه ما فى الروايه من استعذار النبى ص من القاذف فى المسجد و قول سعد بن معاذ ما قال و مجادله سعد بن عباده إياه و اختلاف الأوس و الخزرج بمحضر من النبى ص و فى روايه عمر بعد ما ذكر اختلاف ابن معاذ و ابن عباده:فقال هذا:يا للأوس و قال هذا:يا للخزرج فاضطربوا بالنعال و الحجاره فتلاطموا،الحديث فلو كانت آيه القذف نازله قبل ذلك و حكم الحد معلوما لم يجب سعد بن معاذ النبى ص بأنه يعذره منه بالقتل و لقال هو و سائر الناس:يا رسول الله حكم القذف معلوم و يدك مبسوطه.

و ثالثها:أنها تصرح بكون أصحاب الإفك هم عبد الله بن أبى و مسطحا و حسانا و حمنه ثم تذكر أنه(ص)حد عبد الله بن أبى حدين و كلا من مسطح و حسان و حمنه حدا واحدا،ثم تعلل حدى عبد الله بن أبى بأن من قذف أزواج النبى ص فعليه حدان،و هذا تناقض صريح فإنهم جميعا كانوا قاذفين بلا فرق بينهم.

نعم تذكر الروايات أن عبد الله بن أبى كان هو الذى تولى كبره منهم لكن لم يقل أحد من الأمه إن هذا الوصف يوجب حدين.و لا أن المراد بالعذاب العظيم فى قوله:« اَلَّذِى تَوَلّٰى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذٰابٌ عَظِيمٌ »هو ثبوت حدين.

و فى تفسير القمى،":فى قوله تعالى:« إِنَّ اَلَّذِينَ جٰاؤُ بِالْإِفْكِ عُصْبَهٌ مِنْكُمْ »الآيه فإن العامه روت أنها نزلت فى عائشه-و ما رميت به فى غزوه بنى المصطلق من خزاعه و أما الخاصه فإنهم رووا-أنها نزلت فى ماريه القبطيه و ما رمتها به عائشه.

حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا محمد بن عيسى عن الحسن بن على بن فضال قال:حدثنى عبد الله بن بكير عن زراره قال:سمعت أبا جعفر(ع)يقول: لما هلك إبراهيم بن رسول الله ص حزن عليه حزنا شديدا-فقالت عائشه:ما الذى

يحزنك عليه؟ما هو إلا ابن جريح،فبعث رسول الله ص عليا(ع)و أمره بقتله.

فذهب على(ع)و معه السيف-و كان جريح القبطى فى حائط-فضرب على(ع) باب البستان-فأقبل جريح له ليفتح الباب-فلما رأى عليا(ع)عرف فى وجهه الغضب فأدبر راجعا و لم يفتح باب البستان-فوثب على(ع)على الحائط و نزل إلى البستان و اتبعه-و ولى جريح مدبرا-فلما خشى أن يرهقه (1)صعد فى نخله-و صعد على(ع)فى أثره فلما دنا منه-رمى بنفسه من فوق النخله فبدت عورته-فإذا ليس له ما للرجال و لا له ما للنساء.

فانصرف على(ع)إلى النبى ص فقال له:يا رسول الله إذا بعثتنى فى الأمر أكون كالمسمار المحمى فى الوبر أم أثبت؟قال:لا بل تثبت.قال:و الذى بعثك بالحق-ما له ما للرجال و ما له ما للنساء،فقال:الحمد لله الذى صرف عنا السوء أهل البيت.

و فيه،فى روايه عبيد الله بن موسى عن أحمد بن راشد عن مروان بن مسلم عن عبد الله بن بكير قال: قلت لأبى عبد الله(ع):جعلت فداك كان رسول الله ص أمر بقتل القبطى-و قد علم أنها كذبت عليه أو لم يعلم؟و قد دفع الله عن القبطى القتل بتثبيت على(ع)-فقال:بل كان و الله علم،و لو كان عزيمه من رسول الله ص-ما انصرف على(ع)حتى يقتله،و لكن إنما فعل رسول الله ص لترجع عن ذنبها-فما رجعت و لا اشتد عليها قتل رجل مسلم.

أقول:و هناك روايات أخر تدل على مشاركه غيرها معها فى هذا الرمى، و جريح هذا كان خادما خصيا لماريه أهداه معها مقوقس عظيم مصر لرسول(ص) و أرسله معها ليخدمها.

و هذه الروايات لا تخلو من نظر:

أما أولا:فلأن ما فيها من القصه لا يقبل الانطباق على الآيات و لا سيما قوله:

۱- ۱) أرهقه:أدركه.

« إِنَّ الَّذِينَ جٰاؤُ بِالْإِفْكِ »الآيه و قوله:« لَوْ لاٰ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنٰاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً »الآيه،و قوله:« تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْوٰاهِكُمْ مٰا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ » الآيه،فمحصل الآيات أنه كان هناك جماعه مرتبط بعضهم ببعض يذيعون الحديث ليفضحوا النبى ص،و كان الناس يتداولونه لسانا عن لسان حتى شاع بينهم و مكثوا على ذلك زمانا و هم لا يراعون حرمه النبى ص و كرامته من الله،و أين مضمون هذه الروايات من ذلك.

اللهم إلا أن تكون الروايات قاصره فى شرحها للقصه.

و أما ثانيا:فقد كان مقتضى القصه و ظهور براءتها إجراء الحد و لم يجر،و لا مناص عن هذا الإشكال إلا بالقول بنزول آيه القذف بعد قصه الإفك بزمان.

و الذى ينبغى أن يقال بالنظر إلى إشكال الحد الوارد على الصنفين من الروايات جميعا-كما عرفت-أن آيات الإفك نزلت قبل آيه حد القذف،و لم يشرع بنزول آيات الإفك إلا براءه المقذوف مع عدم قيام الشهاده و تحريم القذف.

و لو كان حد القاذف مشروعا قبل حديث الإفك لم يكن هناك مجوز لتأخيره مده معتدا بها و انتظار الوحى و لا نجا منه قاذف منهم،و لو كان مشروعا مع نزول آيات الإفك لأشير فيها إليه،و لا أقل باتصال الآيات بآيه القذف،و العارف بأساليب الكلام لا يرتاب فى أن قوله:« إِنَّ الَّذِينَ جٰاؤُ بِالْإِفْكِ »الآيات منقطعه عما قبلها.

و لو كان على من قذف أزواج النبى ص حدان لأشير إلى ذلك فى خلال آيات الإفك بما فيها من التشديد و اللعن و التهديد بالعذاب على القاذفين.

و يتأكد الإشكال على تقدير نزول آيه القذف مع نزول آيات الإفك فإن لازمه أن يقع الابتلاء بحكم الحدين فينزل حكم الحد الواحد.

و فى الكافى،عن على بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبى عمير عن بعض أصحابه عن أبى عبد الله(ع)قال: من قال فى مؤمن ما رأته عيناه و سمعته أذناه-فهو من الذين قال الله عز و جل:« إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ -إلى قوله- وَ الْآخِرَهِ »:.

أقول:و رواه القمى فى تفسيره،عن أبيه عن ابن أبى عمير عن هشام عنه(ع)

و الصدوق فی الأمالی،بإسناده عن ابن أبی عمیر عن محمد بن حمران عنه(ع)،و المفید فی الاختصاص،عنه(ع)مرسلا .

و فیه،بإسناده عن إسحاق بن عمار عن أبی عبد الله(ع)قال:قال رسول الله ص: من أذاع فاحشه کان کمبتدئها.

و فی المجمع،":قیل:إن قوله:« وَ لاٰ یَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْکُمْ وَ السَّعَهِ »الآیه، نزلت فی أبی بکر و مسطح بن أثاثه-و کان ابن خاله أبی بکر،و کان من المهاجرین و من جمله البدریین و کان فقیرا،و کان أبو بکر یجری علیه و یقوم بنفقته-فلما خاض فی الإفک قطعها و حلف أن لا ینفعه بنفع أبدا-فلما نزلت الآیه عاد أبو بکر إلی ما کان، و قال:و الله إنی لأحب أن یغفر الله لی،و الله لا أنزعها عنه أبدا":عن ابن عباس و عائشه و ابن زید.

و فیه،"و قیل:نزلت فی جماعه من الصحابه-أقسموا علی أن لا یتصدقوا علی رجل تکلم بشیء من الإفک و لا یواسوهم":عن ابن عباس و غیره.

أقول:و رواه فی الدر المنثور،عن ابن جریر و ابن مردویه عن ابن عباس.

و فی تفسیر القمی،و فی روایه أبی الجارود عن أبی جعفر(ع): فی قوله تعالی:

« وَ لاٰ یَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْکُمْ وَ السَّعَهِ-أَنْ یُؤْتُوا أُولِی الْقُرْبیٰ »و هم قرابه رسول الله ص « وَ الْمَسٰاکِینَ وَ الْمُهٰاجِرِینَ فِی سَبِیلِ اللّٰهِ-وَ لْیَعْفُوا وَ لْیَصْفَحُوا »یقول-یعفو بعضکم عن بعض، و یصفح بعضکم بعضا-فإذا فعلتم کانت رحمه الله لکم،یقول الله عز و جل:« أَ لاٰ تُحِبُّونَ أَنْ یَغْفِرَ اللّٰهُ لَکُمْ وَ اللّٰهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ ».

و فی الکافی،بإسناده عن محمد بن سالم عن أبی جعفر(ع)فی حدیث قال: و نزل بالمدینه« وَ الَّذِینَ یَرْمُونَ الْمُحْصَنٰاتِ ثُمَّ لَمْ یَأْتُوا بِأَرْبَعَهِ شُهَدٰاءَ-فَاجْلِدُوهُمْ ثَمٰانِینَ جَلْدَهً وَ لاٰ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهٰادَهً أَبَداً-وَ أُولٰئِکَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ- إِلاَّ الَّذِینَ تٰابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِکَ وَ أَصْلَحُوا-فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ ».

فبرأه الله ما کان مقیما علی الفریه-من أن یسمی بالإیمان،قال الله عز و جل:

« أَ فَمَنْ کٰانَ مُؤْمِناً کَمَنْ کٰانَ فٰاسِقاً لاٰ یَسْتَوُونَ »و جعله من أولیاء إبلیس قال:« إِلاّٰ

إِبْلِيسَ كٰانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ »و جعله ملعونا فقال:« إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنٰاتِ الْغٰافِلاٰتِ الْمُؤْمِنٰاتِ-لُعِنُوا فِي الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَهِ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ، يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ-بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ ».

و ليست تشهد الجوارح على مؤمن-إنما تشهد على من حقت عليه كلمه العذاب فأما المؤمن فيعطى كتابه بيمينه،قال الله عز و جل:« فَمَنْ أُوتِيَ كِتٰابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولٰئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتٰابَهُمْ وَ لاٰ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً » و فى المجمع،:فى قوله تعالى:« اَلْخَبِيثٰاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَ الْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثٰاتِ-وَ الطَّيِّبٰاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَ الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبٰاتِ »الآيه،قيل فى معناه أقوال-إلى أن قال-الثالث

الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال-و الخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء عن أبى مسلم و الجبائى- و هو المروى عن أبى جعفر و أبى عبد الله(ع).قالا:

هى مثل قوله:« اَلزّٰانِي لاٰ يَنْكِحُ إِلاّٰ زٰانِيَهً أَوْ مُشْرِكَهً »إلا أن أناسا هموا أن يتزوجوا منهن-فنهاهم الله عن ذلك و كره ذلك لهم.

و فى الخصال،عن عبد الله بن عمر و أبى هريره قالا:قال رسول الله ص: إذا طاب قلب المرء طاب جسده،و إذا خبث القلب خبث الجسد.

و فى الإحتجاج،عن الحسن بن على(ع):فى حديث له مع معاويه و أصحابه-و قد نالوا من على(ع): « اَلْخَبِيثٰاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَ الْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثٰاتِ »هم و الله يا معاويه أنت و أصحابك هؤلاء و شيعتك« وَ الطَّيِّبٰاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَ الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبٰاتِ »إلى آخر الآيه، هم على بن أبى طالب و أصحابه و شيعته.

[سوره النور (٢۴): الآيات ٢٧ الى ٣۴]

اشاره

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتّٰى تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَلِّمُوا عَلىٰ أَهْلِهٰا ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهٰا أَحَداً فَلاٰ تَدْخُلُوهٰا حَتّٰى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَ إِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكىٰ لَكُمْ وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَهٍ فِيهٰا مَتٰاعٌ لَكُمْ وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا تُبْدُونَ وَ مٰا تَكْتُمُونَ (٢٩) قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصٰارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذٰلِكَ أَزْكىٰ لَهُمْ إِنَّ اللّٰهَ خَبِيرٌ بِمٰا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَ قُلْ لِلْمُؤْمِنٰاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصٰارِهِنَّ وَ يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَ لاٰ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاّٰ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ لْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلىٰ جُيُوبِهِنَّ وَ لاٰ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاّٰ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبٰائِهِنَّ أَوْ آبٰاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنٰائِهِنَّ أَوْ أَبْنٰاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوٰانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوٰانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوٰاتِهِنَّ أَوْ نِسٰائِهِنَّ أَوْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُنَّ أَوِ التّٰابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَهِ مِنَ الرِّجٰالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلىٰ عَوْرٰاتِ النِّسٰاءِ وَ لاٰ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مٰا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَ تُوبُوا إِلَى اللّٰهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) وَ أَنْكِحُوا الْأَيٰامىٰ مِنْكُمْ وَ الصّٰالِحِينَ مِنْ عِبٰادِكُمْ وَ إِمٰائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرٰاءَ يُغْنِهِمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللّٰهُ وٰاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَ لْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاٰ يَجِدُونَ نِكٰاحاً حَتّٰى يُغْنِيَهُمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتٰابَ مِمّٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُكُمْ فَكٰاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَ آتُوهُمْ مِنْ مٰالِ اللّٰهِ الَّذِي آتٰاكُمْ وَ لاٰ تُكْرِهُوا فَتَيٰاتِكُمْ عَلَى الْبِغٰاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيٰاهِ الدُّنْيٰا وَ مَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللّٰهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرٰاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣) وَ لَقَدْ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكُمْ آيٰاتٍ مُبَيِّنٰاتٍ وَ مَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مَوْعِظَهً لِلْمُتَّقِينَ (٣۴)

(بیان)

أحكام و شرائع متناسبه و مناسبه لما تقدم.

قوله تعالى:« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَلِّمُوا عَلىَ أَهْلِهَا »إلخ، الأنس بالشیء و إليه الألفه و سكون القلب إليه،و الاستيناس طلب ذلك بفعل يؤدى إليه كالاستيناس لدخول بيت بذكر الله و التنحنح و نحو ذلك ليتنبه صاحب البيت أن هناك من يريد الدخول عليه فيستعد لذلك فربما كان فی حال لا يحب أن يراه عليها أحد أو يطلع عليها مطلع.

و منه يظهر أن مصلحه هذا الحكم هو الستر على عورات الناس و التحفظ على كرامه الإيمان فإذا استأنس الداخل عند إراده الدخول على بيت غير بيته فأخبر باستيناسه صاحب البيت بدخوله ثم دخل فسلم عليه فقد أعانه على ستر عورته، و أعطاه الأمن من نفسه.

و يؤدی الاستمرار على هذه السيره الجميله إلى استحكام الأخوه و الألفه و التعاون العام على إظهار الجميل و الستر على القبيح و إليه الإشاره بقوله:« ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ »أی لعلكم بالاستمرار على هذه السيره تتذكرون ما يجب عليكم رعايته و إحياؤه من سنه الأخوه و تألف القلوب التی تحتها كل سعاده اجتماعيه.

و قيل:إن قوله:« لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ »تعليل لمحذوف و التقدير قيل لكم كذا لعلكم تتذكرون مواعظ الله فتعملوا بموجبها،و لا بأس به.

و قيل:إن فی قوله:« حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَلِّمُوا »تقديما و تأخيرا و الأصل حتى تسلموا و تستأنسوا.و هو كما ترى.

قوله تعالى:« فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهٰا أَحَداً فَلاٰ تَدْخُلُوهٰا حَتّٰى يُؤْذَنَ لَكَمْ »...إلخ، أى إن علمتم بعدم وجود أحد فيها-و هو الذى يملك الإذن-فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم من قبل من يملك الإذن،و ليس المراد به أن يتطلع على البيت و ينظر فيه فإن لم ير فيه أحدا كف عن الدخول فإن السياق يشهد على أن المنع فى الحقيقه عن النظر و الاطلاع على عورات الناس.

و هذه الآيه تبين حكم دخول بيت الغير و ليس فيه من يملك الإذن،و الآيه السابقه تبين حكم الدخول و فيه من يملك الإذن و لا يمنع،و أما دخوله و فيه من يملك الإذن و يمنع و لا يأذن فيه فيبين حكمه قوله تعالى:« وَ إِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكىٰ لَكُمْ وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ».

قوله تعالى:« لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهٰا مَتٰاعٌ لَكُمْ » إلخ،ظاهر السياق كون قوله:« فِيهٰا مَتٰاعٌ لَكُمْ »صفه بعد صفه لقوله:« بُيُوتاً » لا جمله مستأنفه معلله لقوله:« لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ »،و الظاهر أن المتاع بمعنى الاستمتاع.

ففيه تجويز الدخول فى بيوت معده لأنواع الاستمتاع و هى غير مسكونه بالطبع كالخانات و الحمامات و الأرحيه و نحوها فإن كونها موضوعه للاستمتاع إذن عام فى دخولها.

و ربما قيل:إن المراد بالمتاع المعنى الاسمى و هو الأثاث و الأشياء الموضوعه للبيع و الشرى كما فى بيوت التجاره و الحوانيت فإنها مأذونه فى دخولها إذنا عاما و لا يخلو من بعد لقصور اللفظ.

قوله تعالى:« قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصٰارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذٰلِكَ أَزْكىٰ لَهُمْ إِنَّ اللّٰهَ خَبِيرٌ بِمٰا يَصْنَعُونَ » الغض إطباق الجفن،على الجفن و الأبصار جمع بصر و هو العضو الناظر،و من هنا يظهر أن« مِنْ »فى« مِنْ أَبْصٰارِهِمْ »لابتداء الغايه لا مزيده و لا للجنس و لا للتبعيض كما قال بكل قائل،و المعنى يأتوا بالغض آخذا من أبصارهم.

فقوله:« قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصٰارِهِمْ »لما كان« يَغُضُّوا »مترتبا على

قوله:« قُلْ »ترتب جواب الشرط عليه دل ذلک على کون القول بمعنى الأمر و المعنى مرهم يغضوا من أبصارهم و التقدير مرهم بالغض إنک إن تأمرهم به يغضوا،و الآيه أمر بغض الأبصار و إن شئت فقل:نهى عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه من الأجنبى و الأجنبيه لمکان الإطلاق.

و قوله:« وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ »أي و مرهم يحفظوا فروجهم،و الفرجه و الفرج الشق بين الشيئين،و کنى به عن السوأه،و على ذلک جرى استعمال القرآن المليء أدبا و خلقا ثم کثر استعماله فيها حتى صار کالنص کما ذکره الراغب.

و المقابله بين قوله:« يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ »و« يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ »يعطى أن المراد بحفظ الفروج سترها عن النظر لا حفظها عن الزنا و اللواطه کما قيل،

و قد ورد فى الروايه عن الصادق(ع): أن کل آيه فى القرآن فى حفظ الفروج فهى من الزنا-إلا هذه الآيه فهى من النظر.

و على هذا يمکن أن تتقيد أولى الجملتين بثانيتهما و يکون مدلول الآيه هو النهى عن النظر إلى الفروج و الأمر بسترها.

ثم أشار إلى وجه المصلحه فى الحکم و حثهم على المراقبه فى جنبه بقوله:« ذٰلِکَ أَزْکىٰ لَهُمْ إِنَّ اللّٰهَ خَبِيرٌ بِمٰا يَصْنَعُونَ ».

قوله تعالى:« وَ قُلْ لِلْمُؤْمِنٰاتِ يَغْضُضْنَ »إلخ،الکلام فى قوله:« وَ قُلْ لِلْمُؤْمِنٰاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَ يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ »نظير ما مر فى قوله:« قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ »فلا يجوز لهن النظر إلى ما لا يجوز النظر إليه و يجب عليهن ستر العوره عن الأجنبى و الأجنبيه.

و أما قوله:« وَ لاٰ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاّٰ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا » فالإبداء الإظهار،و المراد بزينتهن مواضع الزينه لأن نفس ما يتزين به کالقرط و السوار لا يحرم إبداؤها فالمراد بإبداء الزينه إبداء مواضعها من البدن.

و قد استثنى الله سبحانه منها ما ظهر،و قد وردت الروايه أن المراد بما ظهر منها الوجه و الکفان و القدمان کما سيجىء إن شاء الله.

و قوله:« وَ لْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلىٰ جُيُوبِهِنَّ » الخمر بضمتين جمع خمار و هو ما تغطى به المرأه رأسها و ينسدل على صدرها،و الجيوب جمع جيب بالفتح فالسكون و هو معروف و المراد بالجيوب الصدور،و المعنى و ليلقين بأطراف مقانعهن على صدورهن ليسترنها بها.

و قوله:« وَ لاٰ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاّٰ لِبُعُولَتِهِنَّ -إلى قوله- أَوْ بَنِي أَخَوٰاتِهِنَّ » البعوله هم أزواجهن،و الطوائف السبع الأخر محارمهن من جهه النسب و السبب، و أجداد البعوله حكمهم حكم آبائهم و أبناء أبناء البعوله حكمهم حكم الأبناء.

و قوله:« أَوْ نِسٰائِهِنَّ »فى الإضافه إشاره إلى أن المراد بهن المؤمنات من النساء فلا يجوز لهن التجرد لغيرهن من النساء و قد وردت به الروايات عن أئمه أهل البيت (ع).

و قوله:« أَوْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُنَّ »إطلاقه يشمل العبيد و الإماء،و قد وردت به الروايه كما سيأتى إن شاء الله،و هذا من موارد استعمال« مٰا »فى أولى العقل.

و قوله:« أَوِ التّٰابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَهِ مِنَ الرِّجٰالِ » الإربه هى الحاجه،و المراد به الشهوه التى تحوج إلى الازدواج،و« مِنَ الرِّجٰالِ »بيان للتابعين،و المراد بهم كما تفسره الروايات البله المولى عليهم من الرجال و لا شهوه لهم.

و قوله:« أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلىٰ عَوْرٰاتِ النِّسٰاءِ »أى جماعه الأطفال -و اللام للاستغراق-الذين لم يقووا و لم يظهروا-من الظهور بمعنى الغلبه-على أمور يسوء التصريح بها من النساء،و هو-كما قيل-كنايه عن البلوغ.

و قوله:« وَ لاٰ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مٰا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ »ذلك بتصوت أسباب الزينه كالخلخال و العقد و القرط و السوار.

و قوله:« وَ تُوبُوا إِلَى اللّٰهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »المراد بالتوبه-على ما يعطيه السياق-الرجوع إليه تعالى بامتثال أوامره و الانتهاء عن نواهيه و بالجمله اتباع سبيله.

قوله تعالى:« وَ أَنْكِحُوا الْأَيٰامىٰ مِنْكُمْ وَ الصّٰالِحِينَ مِنْ عِبٰادِكُمْ وَ إِمٰائِكُمْ » الإنكاح

التزويج،و الأيامى جمع أيم بفتح الهمزه و كسر الياء المشدده و هو الذكر الذى لا أنثى معه و الأنثى التى لا ذكر معها و قد يقال فى المرأه أيمه،و المراد بالصالحين الصالحون للتزويج لا الصالحون فى الأعمال.

و قوله:« إِنْ يَكُونُوا فُقَرٰاءَ يُغْنِهِمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ وعد جميل بالغنى و سعه الرزق و قد أكده بقوله:« وَ اللّٰهُ وٰاسِعٌ عَلِيمٌ »و الرزق يتبع صلاحيه المرزوق بمشيه من الله سبحانه،و سيوافيك إن شاء الله فى تفسير قوله تعالى: «فَوَ رَبِّ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مٰا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ» :الذاريات:۲۳ كلام فى معنى سعه الرزق.

قوله تعالى:« وَ لْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاٰ يَجِدُونَ نِكٰاحاً حَتّٰى يُغْنِيَهُمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ » الاستعفاف و التعفف قريبا المعنى،و المراد بعدم وجدان النكاح عدم القدره على المهر و النفقه،و معنى الآيه الأمر بالتعفف لمن لا يقدر على النكاح و التحرز عن الوقوع فى الزنا حتى يغنيه الله من فضله.

قوله تعالى:« وَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتٰابَ مِمّٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُكُمْ فَكٰاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً »إلخ المراد بالكتاب المكاتبه،و ابتغاء المكاتبه أن يسأل العبد مولاه أن يكاتبه على إيتائه المولى مالا على أن يعتقه، و فى الآيه أمر للموالى بإجابتهم إن علموا فيهم خيرا و هو كنايه عن إحراز صلاحيتهم لذلك.

و قوله:« وَ آتُوهُمْ مِنْ مٰالِ اللّٰهِ الَّذِى آتٰاكُمْ »إشاره إلى إيتائهم مال المكاتبه من الزكاه المفروضه فسهم من سهام الزكاه لهم،كما قال تعالى: «وَ فِى الرِّقٰابِ» :التوبه:۶۰ أو إسقاط شىء من مال المكاتبه.

و فى هذه الآيه و الآيات السابقه مباحث فقهيه جمه ينبغى أن يراجع فيها كتب الفقه.

قوله تعالى:« وَ لاٰ تُكْرِهُوا فَتَيٰاتِكُمْ عَلَى الْبِغٰاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً الفتيات الإماء و الولائد،و البغاء الزنا و هو مفاعله من البغى،و التحصن التعفف و الازدواج و ابتغاء عرض الحياه الدنيا طلب المال،و المعنى ظاهر.

ص :۱۱۳

و إنما اشترط النهى عن الإكراه بإراده التحصن لأن الإكراه لا يتحقق فى من لا يريد التحصن،ثم وعدهن المغفره على تقدير الإكراه بقوله:« وَ مَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللّٰهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرٰاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ »و معناه ظاهر.

قوله تعالى:« وَ لَقَدْ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكُمْ آيٰاتٍ مُبَيِّنٰاتٍ وَ مَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ »المثل الصفه و من الممكن أن يكون قوله:« وَ لَقَدْ أَنْزَلْنٰا »إلخ، حالا من فاعل قوله:« تُوبُوا »فى الآيه السابقه أو استينافا و المعنى و أقسم لقد أنزلنا إليكم آيات تبين لكم من معارف الدين ما تفلحون به،و صفه من السابقين أخيارهم و أشرارهم يتميز بها لكم ما ينبغى أن تأخذوا به مما ينبغى لكم أن تجتنبوا،و موعظه للمتقين منكم.

(بحث روائى)

فى تفسير القمى،بإسناده عن عبد الرحمن بن أبى عبد الله عن أبى عبد الله(ع):

فى قول الله عز و جل:« لاٰ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ -حَتّٰى تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَلِّمُوا عَلىٰ أَهْلِهٰا »قال:الاستيناس وقع النعل و التسليم.:

أقول:و رواه الصدوق فى معانى الأخبار،عن محمد بن الحسن مرفوعا عن عبد الرحمن عنه(ع) .

و فى المجمع،عن أبى أيوب الأنصارى قال: قلنا:يا رسول الله ما الاستيناس؟ قال يتكلم الرجل بالتسبيحه و التحميده و التكبيره-و يتنحنح على أهل البيت.

و عن سهل بن سعد قال: اطلع رجل فى حجره من حجر رسول الله ص فقال رسول الله ص و معه مدرى (۱)يحك رأسه:لو أعلم أنك تنظر لطعنت به فى عينيك-إنما الاستيذان من النظر.

و روى: أن رجلا قال للنبى ص:أستأذن على أمى؟فقال:نعم.قال

۱- ۱) المشط.

إنها ليس لها خادم غيرى-أ فأستأذن عليها كلما دخلت؟قال:أ تحب أن تراها عريانه؟ قال الرجل:لا،قال:فاستأذن عليها.

و روى: أن رجلا استأذن على رسول الله ص فتنحنح-فقال(ص)لامرأه يقال لها:روضه:قومى إلى هذا فعلميه و قولى له:قل السلام عليكم أ أدخل؟فسمعها الرجل فقالها فقال:ادخل.

أقول:و روى فى الدر المنثور،عن جمع من أصحاب الجوامع الروايه الأولى عن أبى أيوب،و الثانيه عن سهل بن سعد و الرابعه عن عمرو بن سعد الثقفى.

و فى الدر المنثور،أخرج ابن مردويه عن عباده بن الصامت: أن رسول الله ص سئل عن الاستيذان فى البيوت فقال:من دخلت عينه قبل أن يستأذن و يسلم-فقد عصى الله و لا إذن له.

و فى تفسير القمى،":فى قوله تعالى:« فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهٰا أَحَداً-فَلاٰ تَدْخُلُوهٰا حَتّٰى يُؤْذَنَ لَكُمْ »قال:معناه و إن لم تجدوا فيها أحدا يأذن لكم-فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم.

و فيه: فى قوله تعالى:« لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا-بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهٰا مَتٰاعٌ لَكُمْ »قال الصادق(ع):هى الحمامات و الخانات و الأرحيه تدخلها بغير إذن.

و فى الكافى،بإسناده عن أبى عمرو الزبيرى عن أبى عبد الله(ع): فى حديث يذكر فيه ما فرض الله على الجوارح.قال:و فرض على البصر أن لا ينظر إلى ما حرم الله عليه،و أن يعرض عما نهى الله عنه مما لا يحل له-و هو عمله و هو من الإيمان.

فقال تبارك و تعالى:« قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصٰارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ » فنهاهم أن ينظروا إلى عوراتهم-و أن ينظر المرء إلى فرج أخيه-و يحفظ فرجه أن ينظر إليه،و قال:« وَ قُلْ لِلْمُؤْمِنٰاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصٰارِهِنَّ وَ يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ »من أن تنظر إحداهن إلى فرج أختها-و تحفظ فرجها من أن ينظر إليه.

و قال:كل شىء فى القرآن من حفظ الفرج فهو من الزنا-إلا هذه الآيه فهو من النظر.:

أقول:و روی القمی فی تفسیره،ذیل الحدیث عن أبیه عن ابن أبی عمیر عن أبی بصیر عنه(ع)،و روی مثله عن أبی العالیه و ابن زید.

و فی الکافی،بإسناده عن سعد الإسکاف عن أبی جعفر(ع)قال: استقبل شاب من الأنصار امرأه بالمدینه-و کان النساء یتقنعن خلف آذانهن-فنظر إلیها و هی مقبله-فلما جازت نظر إلیها و دخل فی زقاق قد سماه ببنی فلان،و جعل ینظر خلفها،و اعترض وجهه عظم فی الحائط أو زجاجه فشق وجهه-فلما مضت المرأه نظر فإذا الدماء تسیل علی ثوبه و صدره-فقال:و الله لآتین رسول الله ص و لأخبرنه.

قال:فأتاه فلما رآه رسول الله ص قال له:ما هذا؟فأخبره فهبط جبرئیل بهذه الآیه« قُلْ لِلْمُؤْمِنِینَ یَغُضُّوا مِنْ أَبْصٰارِهِمْ وَ یَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ-ذٰلِکَ أَزْکیٰ لَهُمْ إِنَّ اللّٰهَ خَبِیرٌ بِمٰا یَصْنَعُونَ ».:

أقول:و رواه فی الدر المنثور،عن ابن مردویه عن علی بن أبی طالب مثله

، و ظاهر الحدیث أن المراد بالأمر بالغض فی الآیه النهی عن مطلق النظر إلی الأجنبیه،کما أن ظاهر بعض الروایات السابقه أنه نهی عن النظر إلی فرج الغیر خاصه.

و فیه،بإسناده عن مروک بن عبید عن بعض أصحابنا عن أبی عبد الله(ع) قال:قلت له:ما یحل أن یری من المرأه إذا لم یکن محرما؟قال:الوجه و الکفان و القدمان.

أقول:

و رواه فی الخصال،عن بعض أصحابنا عنه(ع)و لفظه: الوجه و الکفین و القدمین.

و فی قرب الإسناد،للحمیری عن علی بن جعفر عن أخیه موسی بن جعفر(ع) قال: سألته عن الرجل ما یصلح له أن ینظر إلیه-من المرأه التی لا تحل له؟قال:الوجه و الکف و موضع السوار.

و فی الکافی،بإسناده عن عباد بن صهیب قال:سمعت أبا عبد الله(ع)یقول:

لا بأس بالنظر إلی رءوس أهل تهامه و الأعراب-و أهل السواد و العلوج-لأنهم إذا نهوا لا ینتهون (۱).

۱- ۱) رعایه التذکیر لاعتبار الأهل و القوم فی مرجع الضمیر،و کان الظاهر أن یقال:لأنهن إذا نهین لا ینتهین.

قال:و المجنونه و المغلوبه على عقلها،و لا بأس بالنظر إلى شعرها و جسدها ما لم يتعمد ذلك.

أقول:كأنه(ع)يريد بقوله:ما لم يتعمد ذلك،الريبه.

و فى الخصال،:و قال النبى ص لأمير المؤمنين(ع): يا على أول نظره لك و الثانيه عليك لا لك أقول:

و روى مثله فى الدر المنثور،عن عده من أصحاب الجوامع عن بريده عنه (ص)و لفظه:قال رسول الله ص لعلى: لا تتبع النظره النظره-فإن لك الأولى و ليست لك الآخره.

و فى جوامع الجامع،عن أم سلمه قالت: كنت عند النبى ص و عنده ميمونه فأقبل ابن أم مكتوم و ذلك بعد أن أمرنا بالحجاب-فقال:احتجبا،فقلنا:يا رسول الله أ ليس أعمى لا يبصرنا؟فقال:أ فعمياوان أنتما؟أ لستما تبصرانه؟:

أقول:و رواه فى الدر المنثور،عن أبى داود و الترمذى و النسائى و البيهقى عنها.

و فى الفقيه،و روى حفص بن البخترى عن أبى عبد الله(ع)قال: لا ينبغى للمرأه أن تنكشف-بين يدى اليهوديه و النصرانيه-فإنهن يصفن ذلك لأزواجهن.

و فى المجمع،: فى قوله تعالى:« أَوْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُنَّ »و قيل:معناه العبيد و الإماء:

و روى ذلك عن أبى عبد الله(ع) .

و فى الكافى،بإسناده عن عبد الرحمن بن أبى عبد الله قال: سألته عن غير أولى الإربه من الرجال.قال:الأحمق المولى عليه الذى لا يأتى النساء.

و فيه،بإسناده عن محمد بن جعفر عن أبيه عن آبائه(ع)قال:قال رسول الله ص: من ترك التزويج مخافه العيله-فقد أساء ظنه بالله عز و جل إن الله يقول« إِنْ يَكُونُوا فُقَرٰاءَ يُغْنِهِمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ ».

أقول:و فى المعانى السابقه روايات كثيره جدا عن أئمه أهل البيت(ع) من أرادها فليراجع كتب الحديث.

و فى الفقيه،روى العلاء عن محمد بن مسلم عن أبى عبد الله(ع): فى قول الله عز

و جل:« فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً »قال:الخير أن يشهد أن لا إله إلا الله-و أن محمدا رسول الله،و يكون بيده عمل يكتسب به أو يكون له حرفه.

أقول:و فی معناه روایات أخر.

و فی الکافی،بإسناده عن العلاء بن فضیل عن أبی عبد الله(ع)قال: فی قوله عز و جل:« فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً-وَ آتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ »قال:

تضع عنه من نجومه التی لم تکن ترید أن تنقصه،و لا تزید فوق ما فی نفسک.فقلت:

کم؟فقال:وضع أبو جعفر(ع)عن مملوک ألفا من سته آلاف.

أقول:و روی فی مجمع البیان،و کذا فی الدر المنثور،عن علی(ع)ربع المال، و المستفاد من ظواهر الأخبار عدم تعین مقدار معین ذی نسبه.

و قد تقدمت فی ذیل قوله وَ فِي الرِّقَابِ» :التوبه:۶۰ الجزء التاسع من الکتاب روایه العیاشی أن المکاتب یؤتی من سهم الرقاب من الزکاه.

و فی تفسیر القمی،":فی قوله تعالی:« وَ لاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً »،قال:کانت العرب و قریش یشترون الإماء-و یضعون علیهن الضریبه الثقیله و یقولون:اذهبن و ازنین و اکتسبن-فنهاهم الله عن ذلک فقال- وَ لاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ »-إلی قوله- غَفُورٌ رَحِيمٌ »أی لا یؤاخذهن الله تعالی بذلک إذا أکرهن علیه.

و فی المجمع،":فی قوله تعالی:« لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »قیل:إن عبد الله بن أبی کانت له ست جوار-یکرههن علی الکسب بالزنا،فلما نزل تحریم الزنا أتین رسول الله ص فشکون إلیه فنزلت الآیه.

أقول:أما أنه کان له من الجواری من یکرههن علی الزنا فقد وردت فیه روایات رواها فی الدر المنثور،کما روی هذه الروایه،و أما کون ذلک بعد نزول تحریم الزنا فیضعفه أن الزنا لم یحرم فی المدینه بل فی مکه قبل الهجره بل کانت حرمته من ضروریات الإسلام منذ ظهرت الدعوه الحقه،و قد تقدم فی تفسیر سوره الأنعام أن حرمه الفواحش و منها الزنا من الأحکام العامه التی لا تختص بشریعه دون شریعه.

[سوره النور (۲۴): الآيات ۳۵ الى ۴۶]

اشاره

اَللّٰهُ نُورُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكٰاةٍ فِيهٰا مِصْبٰاحٌ اَلْمِصْبٰاحُ فِى زُجٰاجَةٍ اَلزُّجٰاجَةُ كَأَنَّهٰا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ
مُبٰارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاٰ شَرْقِيَّةٍ وَ لاٰ غَرْبِيَّةٍ يَكٰادُ زَيْتُهٰا يُضِىءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نٰارٌ نُورٌ عَلىٰ نُورٍ يَهْدِى اَللّٰهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَضْرِبُ اَللّٰهُ
اَلْأَمْثٰالَ لِلنّٰاسِ وَ اَللّٰهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (۳۵) فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اَللّٰهُ أَنْ تُرْفَعَ وَ يُذْكَرَ فِيهَا اِسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهٰا بِالْغُدُوِّ وَ اَلْآصٰالِ (۳۶) رِجٰالٌ
لاٰ تُلْهِيهِمْ تِجٰارَةٌ وَ لاٰ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اَللّٰهِ وَ إِقٰامِ اَلصَّلاٰةِ وَ إِيتٰاءِ اَلزَّكٰاةِ يَخٰافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ اَلْقُلُوبُ وَ اَلْأَبْصٰارُ (۳۷) لِيَجْزِيَهُمُ اَللّٰهُ
أَحْسَنَ مٰا عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ اَللّٰهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشٰاءُ بِغَيْرِ حِسٰابٍ (۳۸) وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمٰالُهُمْ كَسَرٰابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ اَلظَّمْآنُ
مٰاءً حَتّٰى إِذٰا جٰاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَ وَجَدَ اَللّٰهَ عِنْدَهُ فَوَفّٰاهُ حِسٰابَهُ وَ اَللّٰهُ سَرِيعُ اَلْحِسٰابِ (۳۹) أَوْ كَظُلُمٰاتٍ فِى بَحْرٍ لُجِّىٍّ يَغْشٰاهُ مَوْجٌ
مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحٰابٌ ظُلُمٰاتٌ بَعْضُهٰا فَوْقَ بَعْضٍ إِذٰا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرٰاهٰا وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اَللّٰهُ لَهُ نُوراً فَمٰا لَهُ مِنْ نُورٍ
(۴۰) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اَللّٰهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِى اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ اَلطَّيْرُ صَافّٰاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاٰتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ وَ اَللّٰهُ عَلِيمٌ بِمٰا يَفْعَلُونَ
(۴۱) وَ لِلّٰهِ مُلْكُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ إِلَى اَللّٰهِ اَلْمَصِيرُ (۴۲) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اَللّٰهَ يُزْجِى سَحٰاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكٰاماً فَتَرَى
اَلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاٰلِهِ وَ يُنَزِّلُ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مِنْ جِبٰالٍ فِيهٰا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشٰاءُ يَكٰادُ سَنٰا بَرْقِهِ يَذْهَبُ
بِالْأَبْصٰارِ (۴۳) يُقَلِّبُ اَللّٰهُ اَللَّيْلَ وَ اَلنَّهٰارَ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِى اَلْأَبْصٰارِ (۴۴) وَ اَللّٰهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مٰاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلىٰ
بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلىٰ رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اَللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ إِنَّ اَللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (۴۵) لَقَدْ أَنْزَلْنٰا
آيٰاتٍ مُبَيِّنٰاتٍ وَ اَللّٰهُ يَهْدِى مَنْ يَشٰاءُ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۴۶)

ص: ۱۱۹

(بيان)

تتضـمن الآيـات مقـايسه بين المؤمنين بحقيقه الإيمان و الكفار،تميز المؤمنين منهم بأن المؤمنين مهـديون بأعمالهم الصالحه إلى نـور مـن ربهـم يفيـدهم معرفه الله سـبحانه و يسـلك بهم إلى أحسن الجزاء و الفضـل من الله تعـالى يـوم ينكشـف عن قلـوبهم و أبصارهم الغطاء، و الكفار لا تسـلك بهم أعمالهم إلا إلى سـراب لا حقيقه له،و هم فى ظلمات بعضها فوق بعض و لم يجعل الله لهم نورا فما لهم من نور.

و قـد بين سـبحانه هـذه الحقيقه بأن له تعالى نورا عاما تسـتنير به السـماوات و الأرض فتظهر به فى الوجود بعـد ما لم تكن ظاهره فيه،فمن البين أن ظهور شـىء بشـىء يستدعى كون المظهر ظاهرا بنفسه و الظاهر بذاته المظهر لغيره هو النور فهو تعالى نور يظهر السماوات و الأرض بإشراقه عليها كما أن الأنوار الحسيه تظهر الأجسام

ص :۱۲۰

الكثيفه للحس بإشراقها عليها غير أن ظهور الأشياء بالنور الإلهى عين وجودها و ظهور الأجسام الكثيفه بالأنوار الحسيه غير أصل وجودها.

و نورا خاصا يستنير به المؤمنون و يهتدون إليه بأعمالهم الصالحه و هو نور المعرفه الذى سيستنير به قلوبهم و أبصارهم يوم تتقلب فيه القلوب و الأبصار فيهتدون به إلى سعادتهم الخالده فيشاهدون فيه شهود عيان ما كان فى غيب عنهم فى الدنيا، و مثل تعالى هذا النور بمصباح فى زجاجه فى مشكاه يشتعل من زيت فى نهايه الصفاء فتتلألأ الزجاجه كأنها كوكب درى فتزيد نورا على نور،و المصباح موضوع فى بيوت العباده التى يسبح الله فيها رجال من المؤمنين لا تلهيهم عن ذكر ربهم و عبادته تجاره و لا بيع.

فهذه صفه ما أكرم الله به المؤمنين من نور معرفته المتعقب للسعاده الخالده، و حرمه على الكافرين و تركهم فى ظلمات لا يبصرون،فخص من اشتغل بربه و أعرض عن عرض الحياه الدنيا بنور من عنده،و الله يفعل ما يشاء له الملك و إليه المصير يحكم بما أراد ينزل الودق و البرد من سحاب واحد،و يقلب الليل و النهار،و يجعل من الحيوان من يمشى على بطنه و من يمشى على رجلين و من يمشى على أربع و قد خلق الكل من ماء.

و الآيات غير فاقده للاتصال بما قبلها لما أن بيان الأحكام و الشرائع فيما تقدم انتهى إلى مثل قوله:« وَ لَقَدْ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكُمْ آيٰاتٍ مُبَيِّنٰاتٍ وَ مَثَلاً مِنَ اَلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ »و البيان إظهار لحقائق المعارف فهو تنوير إلهى.

على أن الآيات قرآن و قد سمى سبحانه القرآن فى مواضع من كلامه نورا كقوله:

«وَ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً» :النساء:۱۷۴.

قوله تعالى:« اَللّٰهُ نُورُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ »إلى آخر الآيه. المشكاه على ما ذكره الراغب و غيره:كوه غير نافذه و هى ما يتخذ فى جدار البيت من الكو لوضع بعض الأثاث كالمصباح و غيره عليه و هو غير الفانوس.

و الدرى :من الكواكب العظيم الكثير النور،و هو معدود فى السماء،و الإيقاد :

الإشعال،و الزيت :الدهن المتخذ من الزيتون.

ص :۱۲۱

و قوله:« اَللّٰهُ نُورُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ »النور معروف و هو الذی یظهر به الأجسام الکثیفه لأبصارنا فالأشیاء ظاهره به و هو ظاهر مکشوف لنا بنفس ذاته فهو الظاهر بذاته المظهر لغیره من المحسوسات للبصر.هذا أول ما وضع علیه لفظ النور ثم عمم لکل ما ینکشف به شیء من المحسوسات علی نحو الاستعاره أو الحقیقه الثانیه فعد کل من الحواس نورا أو ذا نور یظهر به محسوساته کالسمع و الشم و الذوق و اللمس.

ثم عمم لغیر المحسوس فعد العقل نورا یظهر به المعقولات کل ذلک بتحلیل معنی النور المبصر إلی الظاهر بذاته المظهر لغیره.

و إذ کان وجود الشیء هو الذی یظهر به نفسه لغیره من الأشیاء کان مصداقا تاما للنور،ثم لما کانت الأشیاء الممکنه الوجود إنما هی موجوده بإیجاد الله تعالی کان هو المصداق الأتم للنور فهناک وجود و نور یتصف به الأشیاء و هو وجودها و نورها المستعار المأخوذ منه تعالی و وجود و نور قائم بذاته یوجد و یستنیر به الأشیاء.

فهو سبحانه نور یظهر به السماوات و الأرض،و هذا هو المراد بقوله:« اَللّٰهُ نُورُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ »حیث أضیف النور إلی السماوات و الأرض ثم حمل علی اسم الجلاله، و علی هذا ینبغی أن یحمل قول من قال:إن المعنی الله منور السماوات و الأرض، و عمده الغرض منه أن لیس المراد بالنور النور المستعار القائم بها و هو الوجود الذی یحمل علیها تعالی الله عن ذلک و تقدس.

و من ذلک یستفاد أنه تعالی غیر مجهول لشیء من الأشیاء إذ ظهور کل شیء لنفسه أو لغیره إنما هو عن إظهاره تعالی فهو الظاهر بذاته له قبله،و إلی هذه الحقیقه یشیر قوله تعالی بعد آیتین:« أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ یُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الطَّیْرُ صَافّٰاتٍ کُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاٰتَهُ وَ تَسْبِیحَهُ »إذ لا معنی للتسبیح و العلم به و بالصلاه مع الجهل بمن یصلون له و یسبحونه فهو نظیر قوله: «وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّٰ یُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لٰکِنْ لاٰ تَفْقَهُونَ تَسْبِیحَهُمْ» :إسراء:۴۴،و سیوافیک البحث عنه إن شاء الله.

فقد تحصل أن المراد بالنور فی قوله:« اَللّٰهُ نُورُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ »نوره تعالی من حیث یشرق منه النور العام الذی یستنیر به کل شیء و هو مساو لوجود کل شیء و ظهوره فی نفسه و لغیره و هی الرحمه العامه.

ص :۱۲۲

و قوله:« مَثَلُ نُورِهِ »يصف تعالى نوره،و إضافه النور إلى الضمير الراجع إليه تعالى-و ظاهره الإضافه اللاميه-دليل على أن المراد ليس هو وصف النور الذى هو الله بل النور المستعار الذى يفيضه،و ليس هو النور العام المستعار الذى يظهر به كل شىء و هو الوجود الذى يستفيضه منه الأشياء و تتصف،به و الدليل عليه قوله بعد تتميم المثل: « يَهْدِى اللّٰهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشٰاءُ »إذ لو كان هو النور العام لم يختص به شىء دون شىء بل هو نوره الخاص بالمؤمنين بحقيقه الإيمان على ما يفيده الكلام.

و قد نسب تعالى فى سائر كلامه إلى نفسه نورا كما فى قوله: «يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللّٰهِ بِأَفْوٰاهِهِمْ وَ اللّٰهُ مُتِمُّ نُورِهِ» :الصف:٨،و قوله: «أَ وَ مَنْ كٰانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً يَمْشِى بِهِ فِى النّٰاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِى الظُّلُمٰاتِ لَيْسَ بِخٰارِجٍ مِنْهٰا» :الأنعام:١٢٢ و قوله: «يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ» :الحديد:٢٨، و قوله: «أَ فَمَنْ شَرَحَ اللّٰهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ فَهُوَ عَلىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ» :الزمر:٢٢،و هذا هو النور الذى يجعله الله لعباده المؤمنين يستضيئون به فى طريقهم إلى ربهم و هو نور الإيمان و المعرفه.

و ليس المراد به القرآن كما قاله بعضهم فإن الآيه تصف حال عامه المؤمنين قبل نزول القرآن و بعده.على أن هذا النور وصف لهم يتصفون به كما يشير إليه قوله:

«لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ» :الحديد:١٩ و قوله: «يَقُولُونَ رَبَّنٰا أَتْمِمْ لَنٰا نُورَنٰا» :التحريم:

٨،و القرآن ليس وصفا لهم و إن لوحظ باعتبار ما يكشف عنه من المعارف رجع إلى ما قلناه.

و قوله:« كَمِشْكٰاةٍ فِيهٰا مِصْبٰاحٌ الْمِصْبٰاحُ فِى زُجٰاجَةٍ »المشبه به مجموع ما ذكر من قوله مشكاه فيها مصباح المصباح«إلخ»لا مجرد المشكاه و إلا فسد المعنى،و هذا كثير فى تمثيلات القرآن.

و قوله:« اَلزُّجٰاجَةُ كَأَنَّهٰا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ »تشبيه الزجاجه بالكوكب الدرى من جهه ازدياد لمعان نور المصباح و شروقه بتركيب الزجاجه على المصباح فتزيد الشعله بذلك سكونا من غير اضطراب بتموج الأهويه و ضرب الرياح فهى كالكوكب الدرى فى تلألؤ نورها و ثبات شروقها.

و قوله:« يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبٰارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاٰ شَرْقِيَّةٍ وَ لاٰ غَرْبِيَّةٍ يَكٰادُ زَيْتُهٰا يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نٰارٌ »خبر بعد خبر للمصباح أى المصباح يشتعل آخذا اشتعاله من شجره مباركه زيتونه أى إنه يشتعل من دهن زيت مأخوذ منها،و المراد بكون الشجره لا شرقيه و لا غربيه أنها ليست نابته فى الجانب الشرقى و لا فى الجانب الغربى حتى تقع الشمس عليها فى أحد طرفى النهار و يفىء الظل عليها فى الطرف الآخر فلا تنضج ثمرتها فلا يصفو الدهن المأخوذ منها فلا تجود الإضاءه بل هى ضاحيه تأخذ من الشمس حظها طول النهار فيجود دهنها لكمال نضج ثمرتها.

و الدليل على هذا المعنى قوله:« يَكٰادُ زَيْتُهٰا يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نٰارٌ »فإن ظاهر السياق أن المراد به صفاء الدهن و كمال استعداده للاشتعال و أن ذلك متفرع على الوصفين:لا شرقيه و لا غربيه.

و أما قول بعضهم:إن المراد بقوله:« لاٰ شَرْقِيَّةٍ وَ لاٰ غَرْبِيَّةٍ »أنها ليست من شجر الدنيا حتى تنبت إما فى شرق أو فى غرب،و كذا قول آخرين:إن المراد أنها ليست من شجر شرق المعموره و لا من شجر غربها بل من شجر الشام الواقع بين الشرق و الغرب و زيته أفضل الزيت فغير مفهوم من السياق.

و قوله:« نُورٌ عَلىٰ نُورٍ »خبر لمبتدإ محذوف و هو ضمير راجع إلى نور الزجاجه المفهوم من السياق،و المعنى نور الزجاجه المذكور نور عظيم على نور كذلك أى فى كمال التلمع.

و المراد من كون النور على النور قيل:هو تضاعف النور لا تعدده فليس المراد به أنه نور معين أو غير معين فوق نور آخر مثله،و لا أنه مجموع نورين اثنين فقط بل أنه نور متضاعف من غير تحديد لتضاعفه و هذا التعبير شائع فى الكلام.

و هذا معنى لا يخلو من جوده و إن كان إراده التعدد أيضا لا تخلو من لطف و دقه فإن للنور الشارق من المصباح نسبه إليه بالأصاله و الحقيقه و نسبه إلى الزجاجه التى عليه بالاستعاره و المجاز،و يتغاير النور بتغاير النسبتين و يتعدد بتعددهما و إن لم يكن بحسب الحقيقه إلا للمصباح و الزجاجه صفر الكف منه فللزجاجه بالنظر إلى تعدد النسب نور غير نور المصباح و هو قائم به و مستمد منه.

و هذا الاعتبار جار بعينه فى الممثل له فإن نور الإيمان و المعرفه نور مستعار مشرق على قلوب المؤمنين مقتبس من نوره تعالى قائم به مستمد منه.

فقد تحصل أن الممثل له هو نور الله المشرق على قلوب المؤمنين و المثل هو المشبه به النور المشرق من زجاجه على مصباح موقد من زيت جيد صاف و هو موضوع فى مشكاه فإن نور المصباح المشرق من الزجاجه و المشكاه تجمعه و تعكسه على المستنيرين به يشرق عليهم فى نهايه القوه و الجوده.

فأخذ المشكاه للدلاله على اجتماع النور فى بطن المشكاه و انعكاسه إلى جو البيت، و اعتبار كون الدهن من شجره زيتونه لا شرقيه و لا غربيه للدلاله على صفاء الدهن و جودته المؤثر فى صفاء النور المشرق عن اشتعاله و جوده الضياء على ما يدل عليه كون زيته يكاد يضيء و لو لم تمسسه نار،و اعتبار كون النور على النور للدلاله على تضاعف النور أو كون الزجاجه مستمده من نور المصباح فى إنارتها.

و قوله:« يَهْدِي اللّٰهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشٰاءُ »استئناف يعلل به اختصاص المؤمنين بنور الإيمان و المعرفه و حرمان غيرهم،فمن المعلوم من السياق أن المراد بقوله:« مَنْ يَشٰاءُ » القوم الذين ذكرهم بقوله بعد:« رِجٰالٌ لاٰ تُلْهِيهِمْ تِجٰارَةٌ وَ لاٰ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللّٰهِ »إلخ، فالمراد بمن يشاء المؤمنون بوصف كمال إيمانهم.

و المعنى:أن الله إنما هدى المتلبسين بكمال الإيمان إلى نوره دون المتلبسين بالكفر -الذين سيذكرهم بعد-لمجرد مشيته،و ليس المعنى أن الله يهدى بعض الأفراد إلى نوره دون بعض بمشيته ذلك حتى يحتاج فى تتميمه إلى القول بأنه إنما يشاء الهدايه إذا استعد المحل إلى الهدايه بحسن السريره،و السيره و ذلك مما يختص به أهل الإيمان دون أهل الكفر فافهمه.

و الدليل على ذلك ما سيأتى من قوله:« وَ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ »إلى آخر الآيات بالبيان الآتى إن شاء الله.

و قوله:« وَ يَضْرِبُ اللّٰهُ الْأَمْثٰالَ لِلنّٰاسِ وَ اللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »إشاره إلى أن المثل المضروب تحته طور من العلم،و إنما اختير المثل لكونه أسهل الطرق لتبيين الحقائق و الدقائق و يشترك فيه العالم و العامى فيأخذ منه كل ما قسم له،قال تعالى:

«وَ تِلْکَ الْأَمْثٰالُ نَضْرِبُهٰا لِلنّٰاسِ وَ مٰا یَعْقِلُهٰا إِلاَّ الْعٰالِمُونَ» :العنکبوت:۴۳.

قوله تعالی:« فِی بُیُوتٍ أَذِنَ اللّٰهُ أَنْ تُرْفَعَ وَ یُذْکَرَ فِیهَا اسْمُهُ » الإذن فی الشیء هو إعلام ارتفاع المانع عن فعله، و المراد بالرفع رفع القدر و المنزله و هو التعظیم،و إذ کانت العظمه و العلو لله تعالی لا یشارکه فی ذلک غیره إلا أن ینتسب إلیه،و بمقدار ما ینتسب إلیه فالإذن منه تعالی فی أن ترفع هذه البیوت إنما هو لانتساب ما منها إلیه.

و بذلک یظهر أن السبب لرفعها هو ما عطف علیه من ذکر اسمه فیها،و السیاق یدل علی الاستمرار أو التهیؤ له فیعود المعنی إلی مثل قولنا:«أن یذکر فیها اسمه فیرتفع قدرها بذلک».

و قوله:« فِی بُیُوتٍ »متعلق بقوله فی الآیه السابقه:« کَمِشْکٰاهٍ »أو قوله:

« یَهْدِی اللّٰهُ »إلخ،و المال واحد،و من المتیقن من هذه البیوت المساجد فإنها معده لذکر اسمه فیها ممحضه لذلک،و قد قال تعالی: «وَ مَسٰاجِدُ یُذْکَرُ فِیهَا اسْمُ اللّٰهِ کَثِیراً» :

الحج:۴۰.

قوله تعالی:« یُسَبِّحُ لَهُ فِیهٰا بِالْغُدُوِّ وَ الْآصٰالِ رِجٰالٌ »إلی آخر الآیه.تسبیحه تعالی تنزیهه عن کل ما لا یلیق بساحه قدسه،و الغدو جمع غداه و هو الصبح و الآصال جمع أصیل و هو العصر،و الإلهاء صرف الإنسان عما یعنیه و یهمه،و التجاره علی ما قاله الراغب:التصرف فی رأس المال طلبا للربح.قال:و لیس فی کلامهم تاء بعدها جیم غیر هذا اللفظ.و البیع علی ما قال:إعطاء المثمن و أخذ الثمن،و قلب الشیء علی ما ذکره صرف الشیء من وجه إلی وجه،و التقلیب مبالغه فیه و التقلب قبوله فتقلب القلوب و الأبصار تحول منها من وجه من الإدراک إلی وجه آخر.

و قوله:« یُسَبِّحُ لَهُ فِیهٰا بِالْغُدُوِّ وَ الْآصٰالِ »صفه لبیوت أو استئناف لبیان قوله:

« وَ یُذْکَرَ فِیهَا اسْمُهُ »،و کون التسبیح بالغدو و الآصال کنایه عن استمرارهم فیه لا أن التسبیح مقصور فی الوقتین لا یسبح له فی غیرهما.

و الاکتفاء بالتسبیح من غیر ذکر التحمید معه لأنه تعالی معلوم بجمیع صفاته الکمالیه لا ستره علیه إذ المفروض أنه نور و النور هو الظاهر بذاته المظهر لغیره و إنما یحتاج خلوص المعرفه إلی نفی النقائص عنه و تنزیهه عما لا یلیق به فإذا تم التسبیح لم

یبق معه غیره و تمت المعرفه ثم إذا تمت المعرفه وقع الثناء و الحمد و بالجمله التوصیف بصفات الکمال موقعه بعد حصول المعرفه کما قال تعالی: «سُبْحانَ اللّهِ عَمّا یَصِفُونَ إِلاّ عِبادَ اللّهِ الْمُخْلَصِینَ» :الصافات:۱۶۰،فنزهه عما یصفونه به إلا ما وصفه به من أخلصهم لنفسه من عباده،و قد تقدم فی تفسیر سوره الحمد کلام فی معنی حمده تعالی.

و ببیان آخر حمده تعالی و هو ثناؤه بصفه الکمال مساوی لحصول نور المعرفه و تسبیحه و هو التنزیه بنفی ما لا یلیق به عنه مقدمه لحصوله،و الآیه فی مقام بیان خصالهم التی تستدعی هدایتهم إلی نوره فلا جرم اقتصر فیها بذکر ما هی المقدمه و هو التسبیح،فافهم ذلک.

و قوله:« رِجالٌ لا تُلْهِیهِمْ تِجارَهٌ وَ لا بَیْعٌ » التجاره إذا قوبلت بالبیع کان المفهوم منها بحسب العرف الاستمرار فی الاکتساب بالبیع و الشراء و البیع هو العمل الاکتسابی الدفعی فالفرق بینهما هو الفرق بین الدفعه و الاستمرار فمعنی نفی البیع بعد نفی التجاره مع کونه منفیا بنفیها الدلاله علی أنهم لا- یلهون عن ربهم فی مکاسبهم دائما و لا فی وقت من الأوقات،و بعباره أخری لا تنسیهم ربهم تجاره مستمره و لا بیع ما من البیوع التی یوقعونها مده تجارتهم.

و قیل:الوجه فی نفی البیع بعد نفی الهاء التجاره أن الربح فی البیع ناجز بالفعل بخلاف التجاره التی هی الحرفه،فعدم الهاء التجاره لا یستلزم عدم الهاء البیع الرابح بالفعل،و لذلک نفی البیع ثانیا بعد نفی الهاء التجاره و لذلک کررت لفظه « لا »لتذکیر النفی و تأکیده،و هو وجه حسن.

و قوله:« عَنْ ذِکْرِ اللّهِ وَ إِقامِ الصَّلاهِ وَ إِیتاءِ الزَّکاهِ » الإقام هو الإقامه بحذف التاء تخفیفا.

و المراد بإقامه الصلاه و إیتاء الزکاه الإتیان بجمیع الأعمال الصالحه التی کلف الله تعالی عباده بإتیانها فی حیاتهم الدنیا،و إقامه الصلاه ممثله لإتیان ما للعبد من وظائف العبودیه مع الله سبحانه،و إیتاء الزکاه ممثل لوظائفه مع الخلق و ذلک لکون کل منها رکنا فی بابه.

و المقابله بین ذکر الله و بین إقام الصلاه و إیتاء الزکاه و هما-و خاصه الصلاه-

من ذكر الله يعطى أن يكون المراد بـذكر الله الـذكر القلبى الذى يقابل النسيان و الغفله و هو ذكر علمى كما أن أمثال الصلاه و الزكاه ذكر عملى.

فالمقابله المذكوره تعطى أن المراد بقوله:« عَنْ ذِكْرِ اللّهِ وَ إِقامِ الصَّلاةِ وَ إِيتاءِ الزَّكاهِ »أنهم لا يشتغلون بشىء عن ذكرهم المستمر بقلوبهم لربهم و ذكرهم الموقت بأعمالهم من الصلاه و الزكاه،و عند ذلك يظهر حسن التقابل بين التجاره و البيع و بين ذكر الله و إقام الصلاه إلخ،لرجوع المعنى إلى أنهم لا يلهيهم مله مستمر و لا موقت عن الذكر المستمر و الموقت،فافهم ذلك.

و قوله:« يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصارُ »هذا هو يوم القيامه، و المراد بالقلوب و الأبصار ما يعم قلوب المؤمنين و الكافرين و أبصارهم لكون القلوب و الأبصار جمعا محلى باللام و هو يفيد العموم.

و أما تقلب القلوب و الأبصار فالآيات الواصفه لشأن يوم القيامه تدل على أنه بظهور حقيقه الأمر و انكشاف الغطاء كما قال تعالى: «فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» :ق:۲۲،و قال: «وَ بَدا لَهُمْ مِنَ اللّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ :الزمر:

۴۷،إلى غير ذلك من الآيات.

فتنصرف القلوب و الأبصار يومئذ عن المشاهده و الرؤيه الدنيويه الشاغله عن الله الساتره للحق و الحقيقه إلى سنخ آخر من المشاهده و الرؤيه و هو الرؤيه بنور الإيمان و المعرفه فيتبصر المؤمن بنور ربه و هو نور الإيمان و المعرفه فينظر إلى كرامه الله، و يعمى الكافر و لا يجد إلا ما يسوؤه قال تعالى: «وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها» :الزمر:۶۹ و قال: «يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ» :الحديد:۱۲،و قال: «وَ مَنْ كانَ فِى هٰذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِى الْآخِرَهِ أَعْمى» :الإسراء:

۷۲،و قال: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَهٌ إِلى رَبِّها ناظِرَهٌ» :القيامه:۲۳ و قال: «كَلاّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ» :المطففين:۱۵.

و قد تبين بما مر:

أولا:وجه اختصاص هذه الصفه أعنى تقلب القلوب و الأبصار من بين أوصاف يوم القيامه بالذكر و ذلك أن الكلام مسوق لبيان ما يتوسل به إلى هدايته تعالى إلى

نوره و هو نور الإيمان و المعرفه الذی يستضاء به يوم القيامه و يبصر به.

و ثانيا:أن المراد بالقلوب و الأبصار النفوس و بصائرها.

و ثالثا:أن توصيف اليوم بقوله:« تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصٰارُ » لبيان سبب الخوف فهم إنما يخافون اليوم لما فيه من تقلب القلوب و الأبصار،و إنما يخافون هذا التقلب لما فی أحد شقيه من الحرمان من نور الله و النظر إلی كرامته و هو الشقاء الدائم و العذاب الخالد و فی الحقيقه يخافون أنفسهم.

قوله تعالی:« لِيَجْزِيَهُمُ اللّٰهُ أَحْسَنَ مٰا عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللّٰهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشٰاءُ بِغَيْرِ حِسٰابٍ »الظاهر أن لام« لِيَجْزِيَهُمُ »للغايه،و الذی ذكره الله فی خلال الكلام هو أعمالهم الصالحه و الأجر الجميل علی كل صالح مما ينص عليه كلامه تعالی فقوله:

إنه يجزيهم أحسن ما عملوا معناه أنه يجزيهم بإزاء عملهم فی كل باب جزاء أحسن عمل فی ذلك الباب،و مرجع ذلك إلی أنه تعالی يزكی أعمالهم فلا يناقش فيها بالمؤاخذه فی جهات توجب نقصها و انحطاط قدرها فيعد الحسن منها أحسن.

و يؤيد هذا المعنی قوله فی ذيل الآيه:« وَ اللّٰهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشٰاءُ بِغَيْرِ حِسٰابٍ » فإن ظاهره عدم المداقه فی حساب الحسنات بالإغماض عن جهات نقصها فيلحق الحسن بالأحسن.

و قوله:« وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ » الفضل العطاء،و هذا نص فی أنه تعالی يعطيهم من فضله ما ليس بإزاء أعمالهم الصالحه،و أوضح منه قوله تعالی فی موضع آخر: «لَهُمْ مٰا يَشٰاؤُنَ فِيهٰا وَ لَدَيْنٰا مَزِيدٌ» :ق:۳۵،حيث إن ظاهره أن هذا المزيد الموعود أمر وراء ما تتعلق به مشيتهم.

و قد دل كلامه سبحانه أن أجرهم أن لهم ما يشاءون قال تعالی: «أُولٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَهُمْ مٰا يَشٰاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِكَ جَزٰاءُ الْمُحْسِنِينَ» :الزمر:۳۴،و قال: «أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِی وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كٰانَتْ لَهُمْ جَزٰاءً وَ مَصِيراً لَهُمْ فِيهٰا مٰا يَشٰاؤُنَ خٰالِدِينَ» :الفرقان:

۱۶،و قال: «لَهُمْ فِيهٰا مٰا يَشٰاؤُنَ كَذٰلِكَ يَجْزِی اللّٰهُ الْمُتَّقِينَ» :النحل:۳۱.

فهذا المزید الذی هو وراء جزاء الأعمال أمر أعلی و أعظم من أن تتعلق به مشیه الإنسان أو یوصل إلیه سعیه،و هذا أعجب ما یعده القرآن المؤمنین و یبشرهم به فأجد التدبر فیه.

و قوله:« وَ اللّٰهُ یَرْزُقُ مَنْ یَشٰاءُ بِغَیْرِ حِسٰابٍ »استئناف مآله تعلیل الجملتین السابقتین بالمشیه نظیر قوله فیما تقدم:« یَهْدِی اللّٰهُ لِنُورِهِ مَنْ یَشٰاءُ »علی ما مر بیانه.

و محصله أنهم عملوا صالحا و کان لهم من الأجر ما یعادل عملهم کما هو ظاهر قوله: «وَ تُوَفّٰی کُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ» :النحل:۱۱۱،و ما فی معناه من الآیات لکنه تعالی یجزیهم لکل عمل من أعمالهم جزاء أحسن عمل یؤتی به فی بابه من غیر أن یداق فی الحساب فهذه موهبه ثم یرزقهم أمرا هو أعلی و أرفع من أن تتعلق به مشیتهم و هذه أیضا موهبه و رزق بغیر حساب،و الرزق من الله موهبه محضه من غیر أن یملک المرزوقون منه شیئا أو یستحقوه علیه تعالی فله تعالی أن یخص منه ما یشاء لمن یشاء.

غیر أنه تعالی وعدهم الرزق و أقسم علی إنجازه فی قوله: «فَوَ رَبِّ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ» :الذاریات:۲۳،فملکهم الاستحقاق لأصله و هو الذی یجزیهم به علی قدر أعمالهم و أما الزائد علیه فلم یملکهم ذلک فله أن یختص به من یشاء فلا یعلل ذلک إلا بمشیه و للکلام تتمه ستوافیک إن شاء الله فی بحث مستقل.

قوله تعالی:« وَ الَّذِینَ کَفَرُوا أَعْمٰالُهُمْ کَسَرٰابٍ بِقِیعَهٍ یَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مٰاءً »إلی آخر الآیه. السراب هو ما یلمع فی المفازه کالماء و لا حقیقه له،و القیع و القاع هو المستوی من الأرض و مفرداهما القیعه و القاعه کالتینه و التمره،و الظمآن هو العطشان.

لما ذکر سبحانه المؤمنین و وصفهم بأنهم ذاکرون له فی بیوت معظمه لا تلهیهم عنه تجاره و لا بیع،و أن الله الذی هو نور السماوات و الأرض یهدیهم بذلک إلی نوره فیکرمهم بنور معرفته قابل ذلک بذکر الذین کفروا فوصف أعمالهم تاره بأنها لا حقیقه لها کسراب بقیعه فلا غایه لها تنتهی إلیها،و تاره بأنها کظلمات بعضها فوق بعض لا نور معها و هی حاجزه عن النور،و هذه الآیه هی التی تتضمن الوصف الأول.

فقوله:« وَ الَّذِینَ کَفَرُوا أَعْمٰالُهُمْ کَسَرٰابٍ بِقِیعَهٍ یَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مٰاءً حَتّٰی إِذٰا جٰاءَهُ لَمْ یَجِدْهُ شَیْئاً »شبه أعمالهم-و هی التی یأتون بها من قرابین و أذکار و غیرهما من

عباداتهم يتقربون بها إلى آلهتهم-بسراب بقيعه يحسبه الإنسان ماء و لا حقيقه له يترتب عليها ما يترتب على الماء من رفع العطش و غير ذلك.

و إنما قيل:يحسبه الظمآن ماء مع أن السراب يتراءى ماء لكل راء لأن المطلوب بيان سيره إليه و لا يسير إليه إلا الظمآن يدفعه إليه ما به من ظمإ،و لذلك رتب عليه قوله:« حَتّٰى إِذٰا جٰاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً »،كأنه قيل:كسراب بقيعه يتخيله الظمآن ماء فيسير إليه و يقبل نحوه ليرتوى و يرفع عطشه به،و لا يزال يسير حتى إذا جاءه لم يجده شيئا.

و التعبير بقوله:« جٰاءَهُ »دون أن يقال:بلغه أو وصل إليه أو انتهى إليه و نحوها للإيماء إلى أن هناك من يريد مجيئه و ينتظره انتظارا و هو الله سبحانه،و لذلك أردفه بقوله:« وَ وَجَدَ اللّٰهَ عِنْدَهُ فَوَفّٰاهُ حِسٰابَهُ »فأفاد أن هؤلاء يريدون بأعمالهم الظفر بأمر تبعثهم نحوه فطرتهم و جبلتهم و هو السعاده التى يريدها كل إنسان بفطرته و جبلته لكن أعمالهم لا توصلهم إليه،و لا أن الآلهه التى يبتغون بأعمالهم جزاء حسنا منهم لهم حقيقه بل الذى ينتهى إليه أعمالهم و يحيط هو بها و يجزيهم هو الله سبحانه فيوفيهم حسابهم،و توفيه الحساب كنايه عن الجزاء بما يستوجبه حساب الأعمال و إيصال ما يستحقه صاحب الأعمال.

ففى الآيه تشبيه أعمالهم بالسراب،و تشبيههم بالظمآن الذى يريد الماء و عنده عذب الماء لكنه يعرض عنه و لا يصغى إلى مولاه الذى ينصحه و يدعوه إلى شربه بل يحسب السراب ماء فيسير إليه و يقبل نحوه،و تشبيه مصيرهم إلى الله سبحانه بحلول الآجال و عند ذلك تمام الأعمال بالظمآن السائر إلى السراب إذا جاءه و عنده مولاه الذى كان ينصحه و يدعوه إلى شرب الماء.

فهؤلاء قوم ألهوا عن ذكر ربهم و الأعمال الصالحه الهاديه إلى نوره و فيه سعادتهم و حسبوا أن سعادتهم عند غيره من الآلهه الذين يدعونهم و الأعمال المقربه إليهم و فيها سعادتهم فأكبوا على تلك الأعمال السرابيه و استوفوا ما يمكنهم أن يأتوا بها مده أعمارهم حتى حلت آجالهم و شارفوا الدار الآخره فلم يجدوا شيئا مما يؤملونه من أعمالهم و لا أثرا من ألوهيه آلهتهم فوفاهم الله حسابهم و الله سريع الحساب.

ص :۱۳۱

و قوله:« وَ اللّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ »إنما هو لإحاطه علمه بالقليل و الكثير و الحقير و الخطير و الدقيق و الجليل و المتقدم و المتأخر على حد سواء.

و اعلم أن الآيه و إن كان ظاهرها بيان حال الكفار من أهل الملل و خاصه المشركين من الوثنيين لكن البيان جار فی غيرهم من منكری الصانع فإن الإنسان كائنا من كان يری لنفسه سعاده فی الحياه و لا يرتاب أن الوسيله إلى نيلها أعماله التی يأتی بها فإن كان ممن يقول بالصانع و يراه المؤثر فی سعادته بوجه من الوجوه توسل بأعماله إلى تحصيل رضاه و الفوز بالسعاده التی يقدرها له،و إن كان ممن ينكره و ينهی التأثير إلى غيره توسل بأعماله إلى توجيه ما يقول به من المؤثر كالدهر و الطبيعه و الماده نحو سعاده حياته الدنيا التی لا يقول بما وراءها.

فهؤلاء يرون المؤثر الذی بيده سعاده حياتهم غيره تعالى و لا مؤثر غيره و يرون مساعيهم الدنيويه موصله لهم إلى سعادتهم و ليست إلا سرابا لا حقيقه له و لا يزالون يسعون حتی إذا تم ما قدر لهم من الأعمال بحلول ما سمی لهم من الآجال لم يجدوا عندها شيئا و عاينوا أن ما كانوا يتمنون منها لم يكن إلا طائف خيال أو حلم نائم،و عند ذلك يوفيهم الله حسابهم و الله سريع الحساب.

قوله تعالى:« أَوْ كَظُلُماتٍ فِی بَحْرٍ لُجِّیٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ »تشبيه ثان لأعمالهم يظهر به أنها حجب متراكمه على قلوبهم تحجبهم عن نور المعرفه،و قد تكرر فی كلامه تعالى أنهم فی الظلمات كقوله: «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ» :البقره:۲۵۷،و قوله: «كَمَنْ مَثَلُهُ فِی الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها» :الأنعام:۱۲۲،و قوله: «كَلاّ بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ كَلاّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ» :المطففين:۱۵.

و قوله:« أَوْ كَظُلُماتٍ فِی بَحْرٍ لُجِّیٍّ »معطوف على« كَسَرابٍ »فی الآيه السابقه، و البحر اللجی هو البحر المتردد أمواجه منسوب إلى لجه البحر و هی تردد أمواجه، و المعنى:أعمالهم كظلمات كائنه فی بحر لجی.

و قوله:« يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ »صفه البحر جیء بها لتقرير الظلمات المفروضه فيه فصفته أنه يغشاه و يحيط به موج كائن من فوقه موج آخر

كائن من فوقه سحاب يحجبنه جميعا من الاستضاءه بأضواء الشمس و القمر و النجوم.

و قوله:« ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ »تقرير لبيان أن المراد بالظلمات المفروضه الظلمات المتراكمه بعضها على بعض دون المتفرقه،و قد أكد ذلك بقوله:« إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا »فإن أقرب ما يشاهده الإنسان منه هو نفسه و هو أقدر على رؤيه يده منه على سائر أعضائه لأنه يقربها تجاه باصرته كيفما أراد فإذا أخرج يده و لم يكد يراها كانت الظلمه بالغه.

فهؤلاء و هم سائرون إلى الله و صائرون إليه من جهه أعمالهم كراكب بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب فى ظلمات متراكمه كأشد ما يكون و لا نور هناك يستضىء به فيهتدى إلى ساحل النجاه.

و قوله:« وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ »نفى للنور عنهم بأن الله لم يجعله لهم،كيف لا؟و جاعل النور هو الله الذى هو نور كل شىء،فإذا لم يجعل لشىء نورا لم يكن له نورا إذ لا جاعل غيره تعالى.

قوله تعالى:« أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الطَّيْرُ صَافَّاتٍ » إلى آخر الآيه،لما ذكر سبحانه أنه نور تستنير به السماوات و الأرض و أنه يختص بمزيد نوره المؤمنين من عباده و الذين كفروا لا نصيب لهم من ذلك شرع يحتج على ذلك بما فى هذه الآيه و الآيات الأربع التاليه لها.

فكونه تعالى نور السماوات و الأرض يدل عليه أن ما فى السماوات و الأرض موجود بوجود ليس من عنده و لا من عند شىء مما فيهما لكونه مثله فى الفاقه،فوجود ما فيهما من موجود من الله الذى ينتهى إليه الحاجات.

فوجود كل شىء مما فيهما كما يظهر به نفس الوجود يدل على من يظهره بما أفاض عليه من الوجود فهو نور يستنير به الشىء و يدل على منوره بما أشرق عليه من النور و أن هناك نورا يستنير به كل شىء فكل شىء مما فيهما يدل على أن وراءه شيئا منزها من الظلمه التى غشيته،و الفاقه التى لزمته،و النقص الذى لا ينفك عنه،و هذا هو تسبيح ما فى السماوات و الأرض له سبحانه،و لازمه نفى الاستقلال عن كل من سواه و سلب أى إله و رب يدبر الأمر دونه تعالى.

و إلى ذلك يشير قوله:« أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِى السَّماوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الطَّيْرُ صَافّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاٰتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ »و به يحتج تعالى على كونه نور السماوات و الأرض لأن النور هو ما يظهر به الشىء المستنير ثم يدل بظهوره على مظهره،و هو تعالى يظهر و يوجد بإظهاره و إيجاده الأشياء ثم يدل على ظهوره و وجوده.

و تزيد الآيه بالإشاره إلى لطائف يكمل بها البيان:

منها:اختصاصها من فى السماوات و الأرض و الطير صافات و هم العقلاء و بعض ذوات الروح بالذكر مع عموم التسبيح لغيرهم لقوله:« وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ».

و لعل ذلك من باب اختيار أمور من أعاجيب الخلقه للذكر فإن ظهور الموجود العاقل الذى يدل عليه لفظ« مَنْ فِى السَّماوٰاتِ وَ الْأَرْضِ »من عجيب أمر الخلقه الذى يدهش لب ذى اللب،كما أن صفيف الطير الصافات فى الجو من أعجب ما يرى من أعمال الحيوان ذى الشعور و أبدعه.

و يظهر من بعضهم أن المراد بقوله:« مَنْ فِى السَّماوٰاتِ »إلخ،جميع الأشياء و إنما عبر بلفظ أولى العقل لكون التسبيح المنسوب إليها من شئون أولى العقل أو للتنبيه على قوه تلك الدلاله و وضوح تلك الإشاره تنزيلا للسان الحال منزله المقال.

و فيه أنه لا يلائم إسناد العلم إليها فى قوله بعد:« كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاٰتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ ».

و منها:تصدير الكلام بقوله:« أَ لَمْ تَرَ »و فيه دلاله على ظهور تسبيحهم و وضوح دلالتهم على التنزيه بحيث لا يرتاب فيه ذو ريب فكثيرا ما يعبر عن العلم الجازم بالرؤيه كما فى قوله تعالى: «أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ» :إبراهيم:۱۹،و الخطاب فيه عام لكل ذى عقل و إن كان خاصا بحسب اللفظ.

و من الممكن أن يكون خطابا خاصا بالنبى ص و قد كان أراه الله تسبيح من فى السماوات و الأرض و الطير صافات فيما أراه من ملكوت السماوات و الأرض و ليس ببدع منه(ص)و قد أرى الناس تسبيح الحصاه فى كفه كما وردت به الأخبار المعتبره.

و منها:أن الآيه تعمم العلم لكل ما ذكر فى السماوات و الأرض و الطير،و قد تقدم بعض البحث عنه فى تفسير قوله: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لٰكِنْ لاٰ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ» :الإسراء:۴۴،و ستجىء تتمه الكلام فيه فى تفسير سوره حم السجده إن شاء الله.

و قول بعضهم:إن الضمير فى قوله:« قَدْ عَلِمَ »راجع إليه تعالى،يدفعه عدم ملائمته للسياق و خاصه لقوله بعده: « وَ اللّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ »و نظيره قول آخرين:إن إسناد العلم إلى مجموع ما تقدم من المجاز بتنزيل غير العالم منزله العالم لقوه دلالته على تسبيحه و تنزيهه.

و منها:تخصيصها التسبيح بالذكر مع أن الأشياء تشير إلى صفات كماله تعالى و هو التحميد كما تسبحه على ما يدل عليه البرهان و يؤيده قوله:« وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ »و لعل الوجه فيه كون الآيات مسوقه للتوحيد و نفى الشركاء و ذلك بالتنزيه أمس فإن من يدعو من دون الله إلها آخر أو يركن إلى غيره نوعا من الركون إنما يكفر بإثبات خصوصيه وجود ذلك الشيء للإله تعالى فنفيه إنما يتأتى بالتنزيه دون التحميد فافهمه.

و أما قوله:« كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ »فصلاته دعاؤه و الدعاء توجيه من الداعى للمدعو إلى حاجته ففيه دلاله على حاجه عند الداعى المدعو فى غنى عنها فهو أقرب إلى الدلاله على التنزيه منه على الثناء و التحميد.

و منها:أن الآيه تنسب التسبيح و العلم به إلى من فى السماوات و الأرض فيعم المؤمن و الكافر،و يظهر بذلك أن هناك نورين:نور عام يعم الأشياء و المؤمن و الكافر فيه سواء،و إلى ذلك تشير آيات كآيه الذر: «وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَهِ إِنّا كُنّا عَنْ هذا غافِلِينَ» :الأعراف:۱۷۲،و قوله:

«فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» :ق:۲۲ إلى غير ذلك، و نور خاص و هو الذى تذكره الآيات و يختص بأوليائه من المؤمنين.

فالنور الذى ينور تعالى به خلقه كالرحمه التى يرحمهم بها قسمان:عام و خاص و قد قال تعالى: «وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ» :الأعراف:۱۵۶،و قوله: «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ» :الجاثيه:۳۰،و قد جمع بينهما فى قوله: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً» :الحديد:۲۸،و ما ذكر فيه من النور هو النور على نور بحذاء الثانى من كفلى الرحمه.

و قوله:« وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ بِمٰا يَفْعَلُونَ »و من فعلهم تسبيحهم له سبحانه،و هذا التسبيح و إن كان فى بعض المراحل هو نفس وجودهم لكن صدق اسم التسبيح يجوز أن يعد فعلا لهم بهذه العنايه.

و فى ذكر علمه تعالى بما يفعلون عقيب ذكر تسبيحهم ترغيب للمؤمنين و شكر لهم بأن ربهم يعلم ذلك منهم و سيجزيهم جزاء حسنا،و إيذان بتمام الحجه على الكافرين،فإن من مراتب علمه تعالى كتب الأعمال و الكتاب المبين التى تثبت فيها أعمالهم فيثبت فيها تسبيحهم بوجودهم ثم إنكارهم بألسنتهم.

قوله تعالى:« وَ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَى اللّٰهِ الْمَصِيرُ »سياق الآيه و قد وقعت بين قوله:« أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ يُسَبِّحُ لَهُ »إلخ،و هو احتجاج على شمول نوره العام لكل شىء،و بين قوله:« أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ يُزْجِي »إلخ،و ما يتعقبه و هو احتجاج على اختصاص النور الخاص، يعطى أنها كالمتوسط بين القبيلين أعنى بين الأمرين يحتج بها على كليهما،فملكه تعالى لكل شىء و كونه مصيرا لها هو دليل على تعميمه نوره العام و تخصيصه نوره الخاص يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

فقوله:« وَ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ »يخص الملك و يقصره فيه تعالى فله أن يفعل ما يشاء و يحكم بما يريد لا يسأل عما يفعل و هم يسألون،و لازم قصر الملك فيه كونه هو المصير لكل شىء،و إذ كان لا مليك إلا هو و إليه مرجع كل شىء و مصيره فله أن يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

و من هنا يظهر أن المراد-و الله أعلم-بقوله:« وَ إِلَى اللّٰهِ الْمَصِيرُ »مرجعيته تعالى فى الأمور دون المعاد نظير قوله: «أَلاٰ إِلَى اللّٰهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ» :الشورى:۵۳.

قوله تعالى:« أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ يُزْجِي سَحٰاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكٰاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاٰلِهِ »إلى آخر الآيه. الإزجاء هو الدفع،و الركام المتراكم بعضه على بعض،و الودق هو المطر،و الخلال جمع الخلل و هو الفرجه بين الشيئين.

و الخطاب للنبى ص بعنوان أنه سامع فيشمل كل سامع،و المعنى:أ لم تر أنت و كل من يرى أن الله يدفع بالرياح سحابا متفرقا ثم يؤلف بينه ثم يجعله متراكما بعضه على بعض فترى المطر يخرج من خلله و فرجه فينزل على الأرض.

و قوله:« وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّمٰاءِ مِنْ جِبٰالٍ فِيهٰا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشٰاءُ يَكٰادُ سَنٰا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصٰارِ » السماء جهه العلو،و قوله:« مِنْ جِبٰالٍ فِيهٰا » بيان للسماء،و الجبال جمع جبل و هو معروف،و قوله:« مِنْ بَرَدٍ »بيان للجبال، و البرد قطعات الجمد النازل من السماء،و كونه جبالا فيها كنايه عن كثرته و تراكمه، و السنا بالقصر الضوء.

و الكلام معطوف على قوله:« يُزْجِي »،و المعنى:أ لم تر أن الله ينزل من السماء من البرد المتراكم فيها كالجبال فيصيب به من يشاء فيفسد المزارع و البساتين و ربما قتل النفوس و المواشي و يصرفه عمن يشاء فلا يتضررون به يقرب ضوء برقه من أن يذهب بالأبصار.

و الآيه-على ما يعطيه السياق-مسوقه لتعليل ما تقدم من اختصاصه المؤمنين بنوره،و المعنى:أن الأمر في ذلك إلى مشيته تعالى كما ترى أنه إذا شاء نزل من السماء مطرا فيه منافع الناس لنفوسهم و مواشيهم و مزارعهم و بساتينهم،و إذا شاء نزل بردا فيصيب به من يشاء و يصرفه عمن يشاء.

قوله تعالى:« يُقَلِّبُ اللّٰهُ اللَّيْلَ وَ النَّهٰارَ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصٰارِ »بيان آخر لرجوع الأمر إلى مشيته تعالى فقط.و تقليب الليل و النهار تصريفهما بتبديل أحدهما من الآخر،و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى:« وَ اللّٰهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مٰاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلىٰ بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلىٰ رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلىٰ أَرْبَعٍ »بيان آخر لرجوع الأمر إلى مشيته تعالى محضا حيث يخلق كل دابه من ماء ثم تختلف حالهم في المشي فمنهم من يمشي على بطنه كالحيات و الديدان،و منهم من يمشي على رجلين كالأناسي و الطيور و منهم من يمشي على أربع كالبهائم و السباع،و اقتصر سبحانه على هذه الأنواع الثلاثه-و فيهم غير ذلك-إيجازا لحصول الغرض بهذا المقدار.

و قوله:« يَخْلُقُ اللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ »تعليل لما تقدم من اختلاف الدواب،مع وحده الماده التي خلقت منها يبين أن الأمر إلى مشيه الله محضا فله أن يعمم فيضا من فيوضه

على جميع خلقه كالنور العام،و الرحمه العامه و له أن يختص بفيض من فيوضه بعضا من خلقه دون بعض كالنور الخاص و الرحمه الخاصه.

و قوله:« إِنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »تعليل لقوله:« يَخْلُقُ اللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ » فإن إطلاق القدره على كل شيء يستوجب أن لا يتوقف شيء من الأشياء فى كينونته على أمر وراء مشيته و إلا كانت قدرته عليه مشروطه بحصول ذلك الأمر و هذا خلف.

و هذا باب من التوحيد دقيق سيتضح بعض الاتضاح إن شاء الله بما فى البحث الآتى.

بحث فلسفى [فى معنى عليته تعالى للأشياء]

إنا لا نشك فى أن ما نجده من الموجودات الممكنه معلوله منتهيه إلى الواجب تعالى و أن كثيرا منها-و خاصه فى الماديات- تتوقف فى وجودها على شروط لا تحقق لها بدونها كالإنسان الذى هو ابن فإن لوجوده توقفا على وجود الوالدين و على شرائط أخرى كثيره زمانيه و مكانيه،و إذ كان من الضرورى كون كل مما يتوقف عليه جزء من علته التامه كان الواجب تعالى على هذا جزء علته التامه لا عله تامه وحدها.

نعم هو بالنسبه إلى مجموع العالم عله تامه إذ لا يتوقف على شيء غيره و كذا الصادر الأول الذى تتبعه بقيه أجزاء المجموع،و أما سائر أجزاء العالم فإنه تعالى جزء علته التامه ضروره توقفه على ما هو قبله من العلل و ما هو معه من الشرائط و المعدات.

هذا إذا اعتبرنا كل واحد من الأجزاء بحياله ثم نسبنا وحده إلى الواجب تعالى.

و هاهنا نظر آخر أدق و هو أن الارتباط الوجودى الذى لا سبيل إلى إنكاره بين كل شيء و بين علله الممكنه و شروطه و معداته يقضى بنوع من الاتحاد و الاتصال بينها فالواحد من الأجزاء ليس مطلقا منفصلا بل هو فى وجوده المتعين مقيد بجميع ما يرتبط به متصل الهويه بغيرها.

فالإنسان الابن الذى كنا نعتبره فى المثال المتقدم بالنظر السابق موجودا مستقلا مطلقا فنجده متوقفا على علل و شروط كثيره و الواجب تعالى أحدها يعود بحسب هذه النظره هويه مقيده بجميع ما كان يعتبر توقفه عليه من العلل و الشرائط غير الواجب

تعالی فحقیقه زید مثلا هو الإنسان ابن فلان و فلانه المتولد فی زمان کذا و مکان کذا المتقدم علیه کذا و کذا المقارن لوجوده کذا و کذا من الممکنات.

فهذه هو حقیقه زید مثلا- و من الضروری أن ما حقیقته ذلک لا تتوقف علی شیء غیر الواجب فالواجب هو علته التامه التی لا توقف له علی غیره،و لا- حاجه له إلی غیر مشیته،و قدرته تعالی بالنسبه إلیه مطلقه غیر مشروطه و لا مقیده،و هو قوله تعالی:« یَخْلُقُ اللّٰهُ مٰا یَشٰاءُ إِنَّ اللّٰهَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ .

قوله تعالی:« لَقَدْ أَنْزَلْنٰا آیٰاتٍ مُبَیِّنٰاتٍ وَ اللّٰهُ یَهْدِی مَنْ یَشٰاءُ إِلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ » یرید آیه النور و ما یتلوها المبینه لصفه نوره تعالی و الصراط المستقیم سبیله التی لا سبیل للغضب و الضلال إلی من اهتدی إلیها کما قال: «اهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِیمَ صِرٰاطَ الَّذِینَ أَنْعَمْتَ عَلَیْهِمْ غَیْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَیْهِمْ وَ لاَ الضّٰالِّینَ» :الحمد:۷،و قد تقدم الکلام فیه فی تفسیر سوره الحمد.

و تذییل الآیه بقوله:« وَ اللّٰهُ یَهْدِی مَنْ یَشٰاءُ إِلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ »هو الموجب لعدم تقیید قوله:« لَقَدْ أَنْزَلْنٰا آیٰاتٍ مُبَیِّنٰاتٍ »بلفظه إلیکم بخلاف قوله قبل آیات:

« لَقَدْ أَنْزَلْنٰا إِلَیْکُمْ آیٰاتٍ مُبَیِّنٰاتٍ وَ مَثَلاً مِنَ الَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِکُمْ وَ مَوْعِظَهً لِلْمُتَّقِینَ ».

إذ لو قیل:لقد أنزلنا إلیکم آیات مبینات و الله یهدی.تبادر إلی الذهن أن البیان اللفظی هدایه إلی الصراط المستقیم و أن المخاطبین عامه مهدیون إلی الصراط المستقیم و فیهم المنافق و الذین فی قلوبهم مرض و الله العالم.

(بحث روائی)

فی التوحید،بإسناده عن العباس بن هلال قال: سألت الرضا(ع)عن قول الله عز و جل:« اَللّٰهُ نُورُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ »فقال:هاد لأهل السماوات و هاد لأهل الأرض.

و فی روایه البرقی: هدی من فی السماوات و هدی من فی الأرض.

أقول إذا کان المراد بالهدایه الهدایه الخاصه و هی الهدایه إلی السعاده الدینیه

کان من التفسیر بمرتبه من المعنی،و إن کان المراد بها الهدایه العامه و هی إیصال کل شیء إلی کماله انطبق علی ما تقدم.

و فی الکافی،بإسناده عن إسحاق بن جریر قال: سألتنی امرأه أن أدخلها علی أبی عبد الله(ع)-فاستأذنت لها فأذن لها-فدخلت و معها مولاه لها فقالت له:یا أبا عبد الله- قول الله:« زَیْتُونَهٍ لاٰ شَرْقِیَّهٍ وَ لاٰ غَرْبِیَّهٍ »ما عنی بهذا؟فقال لها:أیتها المرأه إن الله لم یضرب الأمثال للشجر-إنما ضرب الأمثال لبنی آدم.

و فی تفسیر القمی،بإسناده عن طلحه بن زید عن جعفر بن محمد عن أبیه(ع):

فی هذه الآیه« اَللّٰهُ نُورُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ »قال:بدأ بنور نفسه« مَثَلُ نُورِهِ »مثل هداه فی قلب المؤمن« کَمِشْکٰاهٍ فِیهٰا مِصْبٰاحٌ »و المصباح جوف المؤمن و القندیل قلبه، و المصباح النور الذی جعله الله فی قلبه.

« یُوقَدُ مِنْ شَجَرَهٍ مُبٰارَکَهٍ »قال:الشجره المؤمن« زَیْتُونَهٍ لاٰ شَرْقِیَّهٍ وَ لاٰ غَرْبِیَّهٍ » قال:علی سواد الجبل لا غربیه أی لا شرق لها،و لا شرقیه أی لا غرب لها-إذا طلعت الشمس طلعت علیها و إذا غربت غربت علیها« یَکٰادُ زَیْتُهٰا یُضِیءُ »یکاد النور الذی فی قلبه یضیء و إن لم یتکلم.

« نُورٌ عَلیٰ نُورٍ »فریضه علی فریضه،و سنه علی سنه« یَهْدِی اللّٰهُ لِنُورِهِ مَنْ یَشٰاءُ »یهدی الله لفرائضه و سننه من یشاء« وَ یَضْرِبُ اللّٰهُ الْأَمْثٰالَ لِلنّٰاسِ »فهذا مثل ضربه الله للمؤمن.

ثم قال:فالمؤمن یتقلب فی خمسه من النور:مدخله نور،و مخرجه نور،و علمه نور،و کلامه نور،و مصیره یوم القیامه إلی الجنه نور.قلت لجعفر(ع):إنهم یقولون:مثل نور الرب.قال:سبحان الله لیس لله مثل،قال الله:« فَلاٰ تَضْرِبُوا لِلّٰهِ الْأَمْثٰالَ ».

أقول:الحدیث یؤید ما تقدم فی تفسیر الآیه،و قد اکتفی(ع)فی تفسیر بعض فقرات الآیه بذکر بعض المصادیق کالذی ذکره فی ذیل قوله:« یَکٰادُ زَیْتُهٰا یُضِیءُ »و قوله:« نُورٌ عَلیٰ نُورٍ ».

و أما قوله:«سبحان الله لیس لله مثل فإنما ینفی به أن یکون المثل مثلا للنور

الذی هو اسمه تعالی المحمول علیه فکونه مثلا له تعالی یؤدی إلی الحلول أو الانقلاب تعالی عن ذلک بل هو مثل لنوره المفاض علی السماوات و الأرض،و أما الضمیر فی قوله:

« مَثَلُ نُورِهِ »فلا ضیر فی رجوعه إلیه تعالی مع الاحتفاظ علی المعنی الصحیح.

و فی التوحید،و قد روی عن الصادق(ع): أنه سئل عن قول الله عز و جل:

« اَللّٰهُ نُورُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ-مَثَلُ نُورِهِ کَمِشْکٰاةٍ فِیهٰا مِصْبٰاحٌ »فقال:هو مثل ضربه الله لنا-فالنبی و الأئمه(ص)من دلالات الله-و آیاته التی یهتدی بها إلی التوحید و مصالح الدین-و شرائع الإسلام و السنن و الفرائض،و لا قوه إلا بالله العلی العظیم.

أقول:الروایه من قبیل الإشاره إلی بعض المصادیق و هو من أفضل المصادیق و هو النبی ص و الطاهرون من أهل بیته(ع)و إلا فالآیه تعم بظاهرها غیرهم من الأنبیاء(ع)و الأوصیاء و الأولیاء.

نعم لیست الآیه بعامه لجمیع المؤمنین لأخذها فی وصفهم صفات لا تعم الجمیع کقوله:« رِجٰالٌ لاٰ تُلْهِیهِمْ تِجٰارَهٌ وَ لاٰ بَیْعٌ عَنْ ذِکْرِ اللّٰهِ »إلخ.

و قد وردت عده من الأخبار من طرق الشیعه فی تطبیق مفردات الآیه علی النبی ص و أهل بیته(ع)و هی من التطبیق دون التفسیر،و من الدلیل علی ذلک اختلافها فی نحو التطبیق

کروایه الکلینی فی روضه الکافی،بإسناده عن جابر عن أبی جعفر(ع)و فیها: أن المشکاه قلب محمد ص،و المصباح النور الذی فیه العلم، و الزجاجه علی أو قلبه،و الشجره المبارکه الزیتونه التی لا شرقیه و لا غربیه-إبراهیم (ع)ما کان یهودیا و لا نصرانیا،و قوله:« یَکٰادُ زَیْتُهٰا یُضِیءُ »إلخ،یکاد أولادهم أن یتکلموا بالنبوه و إن لم ینزل علیهم ملک.

و ما رواه فی التوحید،بإسناده إلی عیسی بن راشد عن الباقر(ع)و فیه: أن المشکاه نور العلم فی صدر النبی ص،و الزجاجه صدر علی« یَکٰادُ زَیْتُهٰا یُضِیءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نٰارٌ »یکاد العالم من آل محمد یتکلم بالعلم قبل أن یسأل« نُورٌ عَلیٰ نُورٍ »إمام مؤید بنور العلم و الحکمه فی إثر الإمام من آل محمد.

و ما فی الکافی،بإسناده عن صالح بن سهل الهمدانی عن الصادق(ع)و فیه: أن المشکاه فاطمه(ع)،و المصباح الحسن(ع)،و الزجاجه الحسین(ع)،

و الشجره المبارکه إبراهیم(ع)،و لاٰ شَرْقِیَّهٍ وَ لاٰ غَرْبِیَّهٍ ما کان یهودیا و لا نصرانیا، و نُورٌ عَلیٰ نُورٍ إمام بعد إمام،و یَهْدِی اللّٰهُ لِنُورِهِ مَنْ یَشٰاءُ -یهدی الله للأئمه(ع) من یشاء

و فی الدر المنثور،أخرج ابن مردویه عن أبی هریره عن النبی ص: فی قوله:

« زَیْتُونَهٍ لاٰ شَرْقِیَّهٍ وَ لاٰ غَرْبِیَّهٍ »قال:قلب إبراهیم لا یهودی و لا نصرانی). أقول:و هو من قبیل ذکر بعض المصادیق،و قد ورد مثله من طرق الشیعه عن بعض أئمه أهل البیت(ع)کما تقدم.

و فیه،أخرج ابن مردویه عن أنس بن مالک و بریده قالا: قرأ رسول الله ص هذه الآیه« فِی بُیُوتٍ أَذِنَ اللّٰهُ أَنْ تُرْفَعَ »فقام إلیه رجل فقال:أی بیوت هذه یا رسول الله؟قال:بیوت الأنبیاء.فقام إلیه أبو بکر فقال:یا رسول الله هذا البیت منها لبیت علی و فاطمه؟قال:نعم من أفاضلها.:

أقول:و رواه فی المجمع،عنه(ص)مرسلا

،و روی هذا المعنی القمی فی تفسیره بإسناده

عن جابر عن أبی جعفر(ع)و لفظه:قال: هی بیوت الأنبیاء و بیت علی (ع)منها. و هو علی أی حال من قبیل ذکر بعض المصادیق علی ما تقدم.

و فی نهج البلاغه،:من کلام له (ع)عند تلاوته« رِجٰالٌ لاٰ تُلْهِیهِمْ تِجٰارَهٌ وَ لاٰ بَیْعٌ عَنْ ذِکْرِ اللّٰهِ »و إن للذکر لأهلا أخذوه من الدنیا بدلا-فلم یشغلهم تجاره و لا بیع عنه یقطعون به أیام الحیاه،و یهتفون بالزواجر عن محارم الله فی أسماع الغافلین،و یأمرون بالقسط و یأتمرون به-و ینهون عن المنکر و ینتهون عنه.

کأنما قطعوا الدنیا إلی الآخره-و هم فیها فشاهدوا ما وراء ذلک-فکأنما اطلعوا غیوب أهل البرزخ فی طول الإقامه فیه،و حققت القیامه علیهم عذابها-فکشفوا غطاء ذلک لأهل الدنیا-حتی کأنهم یرون ما لا یری الناس-و یسمعون ما لا یسمعون.

و فی المجمع،:فی قوله تعالی:« رِجٰالٌ لاٰ تُلْهِیهِمْ تِجٰارَهٌ وَ لاٰ بَیْعٌ »:و

روی عن أبی جعفر و أبی عبد الله(ع): أنهم قوم إذا حضرت الصلاه-ترکوا التجاره و انطلقوا إلی الصلاه-و هم أعظم أجرا ممن لم یتجر.

ص:۱۴۲

أقول:أی لم یتجر و اشتغل بذکر الله کما فی روایات أخر.

و فی الدر المنثور،عن ابن مردویه و غیره عن أبی هریره و أبی سعید الخدری عن النبی ص: فی قوله تعالی:« رِجٰالٌ لاٰ تُلْهِیهِمْ تِجٰارَهٌ وَ لاٰ بَیْعٌ عَنْ ذِکْرِ اللّٰهِ »قال:هم الذین یضربون فی الأرض یبتغون من فضل الله.

أقول:کأن الروایه غیر تامه و تمامها فیما روی عن ابن عباس قال:کانوا رجالا یبتغون من فضل الله یشترون و یبیعون فإذا سمعوا النداء بالصلاه ألقوا ما بأیدیهم و قاموا إلی المسجد فصلوا.

و فی المجمع،: فی قوله تعالی:« وَ اللّٰهُ سَرِیعُ الْحِسٰابِ »و سئل أمیر المؤمنین(ع):

کیف یحاسبهم فی حاله واحده؟فقال:کما یرزقهم فی حاله واحده.

و فی روضه الکافی،بإسناده عن مسعده بن صدقه عن أبی عبد الله عن أبیه عن أمیر المؤمنین(ع)قال:قال رسول الله ص: إن الله عز و جل جعل السحاب غرابیل المطر-هی تذیب البرد حتی یصیر ماء لکی لا یضر شیئا یصیبه،و الذی ترون فیه من البرد و الصواعق-نقمه من الله عز و جل یصیب بها من یشاء من عباده.

و فی تفسیر القمی،:فی قوله تعالی:« فَمِنْهُمْ مَنْ یَمْشِی عَلیٰ بَطْنِهِ-وَ مِنْهُمْ مَنْ یَمْشِی عَلیٰ رِجْلَیْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ یَمْشِی عَلیٰ أَرْبَعٍ »قال:علی رجلین الناس،و علی بطنه الحیات، و علی أربع البهائم،و

قال أبو عبد الله(ع): و منهم من یمشی علی أکثر من ذلک.

[سوره النور (۲۴): الآیات ۴۷ الی ۵۷]

اشاره

وَ یَقُولُونَ آمَنّٰا بِاللّٰهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنٰا ثُمَّ یَتَوَلّٰی فَرِیقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِکَ وَ مٰا أُولٰئِکَ بِالْمُؤْمِنِینَ (۴۷) وَ إِذٰا دُعُوا إِلَی اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ لِیَحْکُمَ بَیْنَهُمْ إِذٰا فَرِیقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (۴۸) وَ إِنْ یَکُنْ لَهُمُ الْحَقُّ یَأْتُوا إِلَیْهِ مُذْعِنِینَ (۴۹) أَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتٰابُوا أَمْ یَخٰافُونَ أَنْ یَحِیفَ اللّٰهُ عَلَیْهِمْ وَ رَسُولُهُ بَلْ أُولٰئِکَ هُمُ الظّٰالِمُونَ (۵۰) إِنَّمٰا کٰانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِینَ إِذٰا دُعُوا إِلَی اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ لِیَحْکُمَ بَیْنَهُمْ أَنْ یَقُولُوا سَمِعْنٰا وَ أَطَعْنٰا وَ أُولٰئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۵۱) وَ مَنْ یُطِعِ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ یَخْشَ اللّٰهَ وَ یَتَّقْهِ فَأُولٰئِکَ هُمُ الْفٰائِزُونَ (۵۲) وَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَیْمٰانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَیَخْرُجُنَّ قُلْ لاٰ تُقْسِمُوا طٰاعَهٌ مَعْرُوفَهٌ إِنَّ اللّٰهَ خَبِیرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ (۵۳) قُلْ أَطِیعُوا اللّٰهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمٰا عَلَیْهِ مٰا حُمِّلَ وَ عَلَیْکُمْ مٰا حُمِّلْتُمْ وَ إِنْ تُطِیعُوهُ تَهْتَدُوا وَ مٰا عَلَی الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاٰغُ الْمُبِینُ (۵۴) وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ لَیَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِی الْأَرْضِ کَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَیُمَکِّنَنَّ لَهُمْ دِینَهُمُ الَّذِی ارْتَضیٰ لَهُمْ وَ لَیُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً یَعْبُدُونَنِی لاٰ یُشْرِکُونَ بِی شَیْئاً وَ مَنْ کَفَرَ بَعْدَ ذٰلِکَ فَأُولٰئِکَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ (۵۵) وَ أَقِیمُوا الصَّلاٰهَ وَ آتُوا الزَّکٰاهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ (۵۶) لاٰ تَحْسَبَنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا مُعْجِزِینَ فِی الْأَرْضِ وَ مَأْوٰاهُمُ النّٰارُ وَ لَبِئْسَ الْمَصِیرُ (۵۷)

(بیان)

تتضمن الآیات افتراض طاعه الرسول ص و أنها لا تفارق طاعه الله تعالی، و وجوب الرجوع إلی حکمه و قضائه و أن الإعراض عنه آیه النفاق،و تختتم بوعد جمیل للصالحین من المؤمنین و إیعاد للکافرین.

ص :۱۴۴

قوله تعالی:« وَ يَقُولُونَ آمَنّا بِاللّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنا ثُمَّ يَتَوَلّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِکَ »إلخ،بيان حال بعض المنافقين حيث أظهروا الإيمان و الطاعه أولا ثم تولوا ثانيا فالإيمان بالله هو العقد على توحيده و ما شرع من الدين،و الإيمان بالرسول هو العقد على كونه رسولا مبعوثا من عند ربه أمره أمره و نهيه نهيه و حكمه حكمه من غير أن يكون له من الأمر شیء،و طاعه الله هی تطبيق العمل بما شرعه،و طاعه الرسول الايتمار و الانتهاء عند أمره و نهيه و قبول ما حكم به و قضی عليه.

فالإيمان بالله و طاعته موردهما نفس الدين و التشرع به،و الإيمان بالرسول و طاعته موردهما ما أخبر به الرسول من الدين بما أنه يخبر به و ما حكم به و قضی عليه فی المنازعات و الانقياد له فی ذلک كله.

فبين الإيمانين و الطاعتين فرق ما من حيث سعه المورد و ضيقه،و يشير إلى ذلک ما فی العباره من نوع من التفصيل حيث قيل:« آمَنّا بِاللّهِ وَ بِالرَّسُولِ »فأشير إلى تعدد الإيمان و الطاعه و لم يقل:آمنا بالله و الرسول بحذف الباء،و الإيمانان مع ذلک متلازمان لا ينفک أحدهما عن الآخر،قال تعالى: «وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللّهِ وَ رُسُلِهِ» :النساء:۱۵۰.

فقوله:« وَ يَقُولُونَ آمَنّا بِاللّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنا »أی عقدنا القلوب على دين الله و تشرعنا به و على أن الرسول لا يخبر إلا بالحق و لا يحكم إلا بالحق.

و قوله:« ثُمَّ يَتَوَلّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِکَ »أی ثم يعرض طائفه من هؤلاء القائلين:« آمَنّا بِاللّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنا »عن مقتضى قولهم من بعد ما قالوا ذلک.

و قوله:« وَ ما أُولٰئِکَ بِالْمُؤْمِنِينَ أی ليس أولئک القائلون بالمؤمنين،و المشار إليه باسم الإشاره القائلون جميعا لا خصوص الفريق المتولين على ما يعطيه السياق لأن الكلام مسوق لذم الجميع.

قوله تعالى:« وَ إِذا دُعُوا إِلَى اللّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ » يشهد سياق الآيه أن الآيات إنما نزلت فی بعض من المنافقين دعوا إلى حكم النبی ص فی منازعه وقعت بينه و بين غيره فأبى الرجوع إلى النبی ص و فی ذلک نزلت الآيات.

و النبى ص إنما كان يحكم بينهم بحكم الله على ما أراه الله كما قال تعالى: «إِنّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّٰاسِ بِمٰا أَرٰاكَ اللّٰهُ :النساء:۱۰۵.فللحكم نسبه إليه بالمباشره و نسبه إلى الله سبحانه من حيث كان الحكم فى ضوء شريعته و بنصبه النبى ص للحكم و القضاء.

و بذلك يظهر أن المراد بالدعوه إلى الله ليحكم بينهم هى الدعوه إلى المتابعه لما يقتضيه شرعه تعالى فى مورد النزاع،و بالدعوه إلى رسوله ليحكم بينهم هى الدعوه إلى متابعه ما يقضى عليه بالمباشره،و أن الظاهر أن ضمير« لِيَحْكُمَ »للرسول،و إنما أفرد الفاعل و لم يثن إشاره إلى أن حكم الرسول حكمه تعالى.

و الآيه بالنسبه إلى الآيه السابقه كالخاص بالنسبه إلى العام فهى تقص إعراضا معينا منهم و الإعراض المذكور فى الآيه السابقه منهم إعراض مطلق.

قوله تعالى:« وَ إِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ » الإذعان الانقياد، و ظاهر السياق و خاصه قوله:« يَأْتُوا إِلَيْهِ »أن المراد بالحق حكم الرسول بدعوى أنه حق لا ينفك عنه،و المعنى و إن يكن الحق الذى هو حكم الرسول لهم لا عليهم يأتوا إلى حكمه منقادين فليسوا بمعرضين عنه إلا لكونه عليهم لا لهم،و لازم ذلك أنهم يتبعون الهوى و لا يريدون اتباع الحق.

قوله تعالى:« أَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتٰابُوا أَمْ يَخٰافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ »إلى آخر الآيه. الحيف الجور.

و ظاهر سياق الآيات أن المراد بمرض القلوب ضعف الإيمان كما فى قوله تعالى:

«فَلاٰ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ» :الأحزاب:۳۲،و قوله: «لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنٰافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ» :الأحزاب:

۶۰،و غير ذلك من الآيات.

و أما كون المراد بمرض القلوب النفاق كما فسر به فيدفعه قوله فى صدر الآيات:

« وَ مٰا أُولٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ »فإنه حكم بنفاقهم،و لا معنى مع إثبات النفاق للاستفهام عن النفاق ثم الإضراب عنه بقوله:« بَلْ أُولٰئِكَ هُمُ الظّٰالِمُونَ ».

و قوله:« أَمِ ارْتٰابُوا »ظاهر إطلاق الارتياب و هو الشك أن يكون المراد هو

شکهم فی دینهم بعد الإیمان دون الشک فی صلاحیه النبی ص للحکم أو عدله و نحو ذلک لکونها بحسب الطبع محتاجه إلی بیان بنصب قرینه.

و قوله:« أَمْ یَخٰافُونَ أَنْ یَحِیفَ اللّٰهُ عَلَیْهِمْ وَ رَسُولُهُ »أی أم یعرضون عن ذلک لأنهم یخافون أن یجور الله علیهم و رسوله لکون الشریعه الإلهیه التی یتبعها حکم النبی ص مبنیه علی الجور و إماته الحقوق الحقه،أو لکون النبی ص لا یراعی الحق فی قضائه.

و قوله:« بَلْ أُولٰئِکَ هُمُ الظّٰالِمُونَ »إضراب عن التردید السابق بشقوقه الثلاثه و ذلک أن سبب إعراضهم لو کان مرض قلوبهم أو ارتیابهم لم یأتوا إلیه مذعنین علی تقدیر کون الحق لهم بل کانوا یعرضون کان الحق لهم أو علیهم،و أما الخوف من أن یحیف الله علیهم و رسوله فلا موجب له فالله بریء من الحیف و رسوله فلیس إعراضهم عن إجابه الدعوه إلی حکم الله و رسوله إلا لکونهم حق علیهم أنهم ظالمون.

و الظاهر أن المراد بالظلم التعدی عن طور الإیمان مع الإقرار به قولا کما قال آنفا:« وَ مٰا أُولٰئِکَ بِالْمُؤْمِنِینَ »أو خصوص التعدی إلی الحقوق غیر المالیه،و لو کان المراد مطلق الظلم لم یصح الإضراب عن الشقوق الثلاثه السابقه إلیه لأنها من مطلق الظلم و یدل علیه أیضا الآیه التالیه.

و قد بان بما تقدم أن التردید فی أسباب الإعراض علی تقدیر عدم النفاق بین الأمور الثلاثه حاصر و الأقسام متغایره فإن محصل المعنی أنهم منافقون غیر مؤمنین إذ لو لم یکونوا کذلک کان إعراضهم إما لضعف إیمانهم و إما لزواله بالارتیاب و إما للخوف من غیر سبب یوجبه فإن الخوف من الرجوع إلی حکم الحاکم إنما یکون إذا احتمل حیفه فی حکمه و میله عن الحق إلی الباطل و لا یحتمل ذلک فی حکم الله و رسوله.

و قد طال البحث فی کلامهم عما فی الآیه من التردید و الإضراب و لعل فیما ذکرناه کفایه،و من أراد أزید من ذلک فلیراجع المطولات.

قوله تعالی:« إِنَّمٰا کٰانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِینَ إِذٰا دُعُوا إِلَی اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ لِیَحْکُمَ بَیْنَهُمْ أَنْ یَقُولُوا سَمِعْنٰا وَ أَطَعْنٰا »إلی آخر الآیه سیاق قوله:« إِنَّمٰا کٰانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِینَ »و قد أخذ فیه« کٰانَ »و وصف الإیمان فی« اَلْمُؤْمِنِینَ »یدل علی أن ذلک من مقتضیات طبیعه

الإیمـان فإن مقتضـی الإیمان بالله و رسوله و عقـد القلب علی اتباع ما حکم به الله و رسوله التلبیه للـدعوه إلی حکم الله و رسوله دون الرد.

و علی هـذا فـالمراد بقوله:« إِذا دُعُوا إِلَی اللّهِ وَ رَسُولِهِ لِیَحْکُمَ بَیْنَهُمْ »دعوه بعض النـاس ممن ینـازعهم کـدعوه بعض المتنـازعین المتخاصمین الآخر إلی التحاکم إلی الله و رسوله لیحکم بینهم،و یدل علیه تصدیر الجمله بلفظه« إِذا »و لو کان المراد به دعوه الله و رسوله بمعنی إیجـاب رجوع المؤمنین فی منازعـاتهم إلی حکم الله و رسوله کـان ذلـک حکما مؤبـدا لا حاجه فیه إلی التقیید بالزمان.

و بـذلک یظهر ضـعف مـا قیـل:إن فاعل« دُعُوا »المحـذوف هو الله و رسوله، و المعنی:إذا دعاهم الله و رسوله.نعم مرجع الـدعوه بآخره إلی دعوه الله و رسوله.

و کیف کـان تقصـر الآـیه قول المؤمنین علی تقـدیر الـدعوه إلی حکم الله و رسوله فی قولهم:سـمعنا و أطعنا و هو سـمع و طاعه للـدعوه الإلهیه سواء فرض الـداعی هو أحد المتنازعین للآخر أو فرض الداعی هو الله و رسوله أو کان المراد هو السـمع و الطاعه لحکم الله و رسوله و إن کان بعیدا.

و انحصار قول المؤمنین عنـد الـدعوه فی« سَـمِعْنا وَ أَطَعْنا »یوجب کون الرد للدعوه لیس من قول المؤمنین فیکون تعدیا عن طور الإیمان،کما یفیده قوله:

« بَلْ أُولئِکَ هُمُ الظّالِمُونَ »علی ما تقدم،فتکون الآیه فی مقام التعلیل للإضراب فی ذیل الآیه السابقه.

و قد ختمت الآیه بقوله:« وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »و فیه قصر الفلاح فیهم لا قصرهم فی الفلاح.

قوله تعـالی:« وَ مَنْ یُطِعِ اللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ یَخْشَ اللّهَ وَ یَتَّقْهِ فَأُولـئِکَ هُمُ الْفائِزُونَ » ورود الآیه فی سـیاق الآیات السابقه و انضـمامها إلی سابقتهـا یعطی أنهـا فی مقـام التعلیل -کالکبری الکلیه-للآیه السابقه حیث حکمت بفلاح من أجاب الـدعوه إلی حکم الله و رسوله بالسمع و الطاعه بقید الإیمان کأنه قیل:إنما أفلح من أجاب إلی حکم الله و رسوله و هو مؤمن لأنه مطیع لله و لرسوله و هو مؤمن حقا فی باطنه خشیه الله و فی

ظاهره تقواه و من يطع الله و رسوله فيما قضى عليه و يخش الله و يتقه فأولئك هم الفائزون، و الفوز هو الفلاح.

و تشمل الآيه الداعى إلى حكم الله و رسوله من المتنازعين كما يشمل المدعو منهما إذا أجاب بالسمع و الطاعه ففيها زياده على تعليل حكم الآيه السابقه تعميم الوعد الحسن للداعى و المدعو جميعا.

قوله تعالى:« وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ »إلى آخر الآيه الجهد الطاقه،و التقدير فى قوله:« أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ »أقسموا بالله مبلغ جهدهم فى أيمانهم و المراد أقسموا بأغلظ أيمانهم.

و الظاهر أن المراد بقوله:« لَيَخْرُجُنَّ »الخروج إلى الجهاد على ما وقع فى عده من الآيات كقوله: «وَ لَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَ قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِينَ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلاّ خَبالاً» :التوبه:۴۷.

و قوله:« قُلْ لا تُقْسِمُوا »نهى عن الإقسام،و قوله:« طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ خبر لمبتدإ محذوف هو الضمير الراجع إلى الخروج و الجمله فى مقام التعليل للنهى عن الإقسام و لذا جىء بالفصل،و قوله:« إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ »من تمام التعليل.

و معنى الآيه:و أقسموا بالله بأغلظ أيمانهم لئن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد ليخرجن قل لهم:لا تقسموا فالخروج إلى الجهاد طاعه معروفه من الدين-و هو واجب لا حاجه إلى إيجابه بيمين مغلظ-و إن تكونوا تقسمون لأجل أن ترضوا الله و رسوله بذلك فالله خبير بما تعملون لا يغره إغلاظكم فى الإيمان.

و قيل:المراد بالخروج خروجهم من ديارهم و أموالهم لو حكم الرسول بذلك، و قوله:« طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ »مبتدأ لخبر محذوف،و التقدير:طاعه معروفه للنبى خير من إقسامكم،و معنى الآيه:و أقسموا بالله بأغلظ الأيمان لئن أمرتهم و حكمت عليهم فى منازعاتهم بالخروج من ديارهم و أموالهم ليخرجن منها قل لهم:لا تقسموا لأن طاعه حسنه منكم للنبى خير من إقسامكم بالله و الله خبير بما تعملون.

و فيه أن هذا المعنى و إن كان يؤكد اتصال الآيه بما قبلها بخلاف المعنى السابق لكنه لا يلائم التصريح السابق بردهم الدعوه إلى الله و رسوله ليحكم بينهم لأنهم إذ كانوا

تولوا و أعرضوا عن حكم الله و رسوله لم يكن يسعهم أن يقسموا للنبى ص لئن أمرهم فى حكمه بالخروج من ديارهم و أموالهم ليخرجن و هو ظاهر،اللهم إلا أن يكون المقسمون فريقا آخر منهم غير الرادين للدعوه المعرضين عن الحكم،و حينئذ كان حمل « لَيَخْرُجُنَّ »على هذا المعنى لا دليل يدل عليه.

قوله تعالى:« قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ »إلى آخر الآيه،أمر بطاعه الله فيما أنزل من الدين،و أمر بطاعه الرسول فيما يأتيهم به من ربهم و يأمرهم به فى أمر دينهم و دنياهم،و تصدير الكلام بقوله:« قُلْ »إشاره إلى أن الطاعه جميعا لله،و قد أكده بقوله:« وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ » دون أن يقول:و أطيعونى لأن طاعه الرسول بما هو طاعه الرسول طاعه المرسل، و بذلك تتم الحجه.

و لذلك عقب الكلام:

أولا بقوله:« فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ »أى فإن تتولوا و تعرضوا عن طاعه الرسول لم يضر ذلك الرسول فإنما عليه ما حمل من التكليف و لا يمسكم منه شىء و عليكم ما حملتم من التكليف و لا يمسه منه شىء فإن الطاعه جميعا لله سبحانه.

و ثانيا بقوله:« وَ إِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا »أى و إن كان لكل منكم و منه ما حمل لكن إن تطيعوا الرسول تهتدوا لأن ما يجىء به إليكم و ما يأمركم به من الله و بأمره و الطاعه لله و فيه الهدايه.

و ثالثا بقوله وَ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ و هو بمنزله التعليل لما تقدمه أى إن ما حمله الرسول من التكليف هو التبليغ فحسب فلا بأس عليه إن خالفتم ما بلغ و إذ كان رسولا لم يحتمل إلا التبليغ فطاعته طاعه من أرسله و فى طاعه من أرسله و هو الله سبحانه اهتداؤكم.

قوله تعالى وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ إلى آخر الآيه.

ظاهر وقوع الآیه موقعها أنها نزلت فی ذیل الآیات السابقه من السوره و هی مدنیه و لم تنزل بمکه قبل الهجره علی ما یؤید سیاقها و خاصه ذیلها.

فالآیه علی هذا وعد جمیل للذین آمنوا و عملوا الصالحات أن الله تعالی سیجعل لهم مجتمعا صالحا یخص بهم فیستخلفهم فی الأرض و یمکن لهم دینهم و یبدلهم من بعد خوفهم أمنا لا یخافون کید منافق و لا صد کافر یعبدونه لا یشرکون به شیئا.

فقوله وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ من فیه تبعیضیه لا بیانیه و الخطاب لعامه المسلمین و فیهم المنافق و المؤمن و فی المؤمنین منهم من یعمل الصالحات و من لا یعمل الصالحات و الوعد خاص بالذین آمنوا منهم و عملوا الصالحات محضا.

و قوله لَیَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِی الْأَرْضِ کَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ إن کان المراد بالاستخلاف إعطاء الخلافه الإلهیه کما ورد فی آدم و داود و سلیمان(ع)قال تعالی إِنِّی جٰاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِیفَةً :البقره-۳۰ و قال یٰا دٰاوُدُ إِنّٰا جَعَلْنٰاکَ خَلِیفَةً فِی الْأَرْضِ :-ص-۲۶ و قال وَ وَرِثَ سُلَیْمٰانُ دٰاوُدَ :النمل-۱۶ فالمراد بالذین من قبلهم خلفاء الله من أنبیائه و أولیائه و لا یخلو من بعد کما سیأتی.

و إن کان المراد به إیراث الأرض و تسلیط قوم علیها بعد قوم کما قال إِنَّ الْأَرْضَ لِلّٰهِ یُورِثُهٰا مَنْ یَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ الْعٰاقِبَةُ لِلْمُتَّقِینَ :الأعراف-۱۲۸ و قال أَنَّ الْأَرْضَ یَرِثُهٰا عِبٰادِیَ الصّٰالِحُونَ :الأنبیاء-۱۰۵ فالمراد بالذین من قبلهم المؤمنون من أمم الأنبیاء الماضین الذین أهلک الله الکافرین و الفاسقین منهم و نجی الخلص من مؤمنیهم کقوم نوح و هود و صالح و شعیب کما أخبر عن جمعهم فی قوله تعالی وَ قٰالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّکُمْ مِنْ أَرْضِنٰا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِی مِلَّتِنٰا فَأَوْحیٰ إِلَیْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِکَنَّ الظّٰالِمِینَ وَ لَنُسْکِنَنَّکُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذٰلِکَ لِمَنْ خٰافَ مَقٰامِی وَ خٰافَ وَعِیدِ :

إبراهیم-۱۴ فهؤلاء الذین أخلصوا لله فنجاهم فعقدوا مجتمعا صالحا و عاشوا فیه حتی طال علیهم الأمد فقست قلوبهم.

و أما قول من قال إن المراد بالذین استخلفوا من قبلهم بنو إسرائیل لما أهلک الله فرعون و جنوده فأورثهم أرض مصر و الشام و مکنهم فیها کما قال تعالی فیهم

وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّهً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ :القصص-۶.

ففيه أن المجتمع الإسرائيلى المنعقد بعد نجاتهم من فرعون و جنوده لم يصف من الكفر و النفاق و الفسق و لم يخلص للذين آمنوا و عملوا الصالحات و لا-حينا على ما ينص عليه القرآن الكريم فى آيات كثيره و لا وجه لتشبيه استخلاف الذين آمنوا و عملوا الصالحات باستخلافهم و فيهم الكافر و المنافق و الطالح و الصالح.

و لو كان المراد تشبيه أصل استخلافهم بأصل استخلاف الذين من قبلهم و هم بنو إسرائيل كيفما كان لم يحتج إلى إشخاص المجتمع الإسرائيلى للتشبيه به و فى زمن نزول الآيه و قبل ذلک أمم أشد قوه و أكثر جمعا منهم كالروم و الفرس و كلده و غيرهم و قد قال تعالى فى عاد الأولى و ثمود إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ :الأعراف- ۶۹ و قال إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ :الأعراف-۷۴ و قد خاطب بذلک الكفار من هذه الأمه فقال وَ هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ :الأنعام-۱۶۵ و قال هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِى الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ :فاطر-۳۹.

فإن قلت لم لا يجوز أن يكون التشبيه ببنى إسرائيل ثم يؤدى حق هذا المجتمع الصالح بما يعقبه من قوله وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ إلى آخر الوعد قلت نعم و لكن لا موجب حينئذ لاختصاص استخلاف بنى إسرائيل لأن يشبه به و أن يكون المراد بالذين من قبلهم بنى إسرائيل فقط كما تقدم.

و قوله وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضى لَهُمْ تمكين الشىء إقراره فى مكان و هو كنايه عن ثبات الشىء من غير زوال و اضطراب و تزلزل بحيث يؤثر أثره من غير مانع و لا-حاجز فتمكن الدين هو كونه معمولا-به فى المجتمع من غير كفر به و استهانه بأمره و مأخوذا بأصول معارفه من غير اختلاف و تخاصم و قد حكم الله سبحانه فى مواضع من كلامه أن الاختلاف فى الدين من بغى المختلفين كقوله وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ :البقره-۲۱۳.

و المراد بدينهم الذى ارتضى لهم دين الإسلام و أضاف الدين إليهم تشريفا لهم و لكونه من مقتضى فطرتهم.

ص :۱۵۲

و قوله وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً هو كقوله وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ عطف على قوله لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ و أصل المعنى و ليبدلن خوفهم أمنا فنسبه التبديل إليهم إما على المجاز العقلى أو على حذف مضاف يدل عليه قوله مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ و التقدير و ليبدلن خوفهم أو كون أَمْناً بمعنى آمين.

و المراد بالخوف على أى حال ما كان يقاسيه المؤمنون فى صدر الإسلام من الكفار و المنافقين.

و قوله يَعْبُدُونَنِي لاٰ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً الأوفق بالسياق أن يكون حالا من ضمير وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ أى و ليبدلن خوفهم أمنا فى حال يعبدوننى لا يشركون بى شيئا.

و الالتفات فى الكلام من الغيبه إلى التكلم و تأكيد يَعْبُدُونَنِي بقوله لاٰ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً و وقوع النكره شيئا فى سياق النفى الدال على نفى الشرك على الإطلاق كل ذلك يقضى بأن المراد عبادتهم لله عباده خالصه لا يداخلها شرك جلى أو خفى و بالجمله يبدل الله مجتمعهم مجتمعا آمنا لا يعبد فيه إلا الله و لا يتخذ فيه رب غيره.

و قوله وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ ظاهر السياق كون ذٰلِكَ إشاره إلى الموعود و الأنسب على ذلك كون كَفَرَ من الكفران مقابل الشكر و المعنى و من كفر و لم يشكر الله بعد تحقق هذا الوعد بالكفر أو النفاق أو سائر المعاصى الموبقه فأولئك هم الفاسقون الكاملون فى الفسق و هو الخروج عن زى العبوديه.

و قد اشتد الخلاف بين المفسرين فى الآيه.

فقيل إنها وارده فى أصحاب النبى ص و قد أنجز الله وعده لهم باستخلافهم فى الأرض و تمكين دينهم و تبديل خوفهم أمنا بما أعز الإسلام بعد رحله النبى فى أيام الخلفاء الراشدين و المراد باستخلافهم استخلاف الخلفاء الأربعه بعد النبى ص أو الثلاثه الأول منهم و نسبه الاستخلاف إلى جميعهم مع اختصاصه ببعضهم و هم الأربعه أو الثلاثه من قبيل نسبه أمر البعض إلى الكل كقولهم قتل بنو فلان و إنما قتل بعضهم.

و قيل هى عامه لأمه محمد ص و المراد باستخلافهم و تمكين دينهم و تبديل

خوفهم أمنا إيراثهم الأرض كما أورثها الله الأمم الذين كانوا قبلهم أو استخلاف الخلفاء بعد النبى ص على اختلاف التقرير و تمكين الإسلام و انهزام أعداء الدين و قد أنجز الله وعده بما نصر الإسلام و المسلمين بعد الرحله ففتحوا الأمصار و سخروا الأقطار.

و على القولين الآيه من ملاحم القرآن حيث أخبر بأمر قبل أوان تحققه و لم يكن مرجوا ذلك يومئذ.

و قيل إنها فى المهدى الموعود(ع)الذى تواترت الأخبار على أنه سيظهر فيملأ الأرض قسطا و عدلا كما ملئت ظلما و جورا و أن المراد بالذين آمنوا و عملوا الصالحات النبى ص و الأئمه من أهل بيته(ع).

و الذى يعطيه سياق الآيه الكريمه على ما تقدم من البحث بالتحرز عن المسامحات التى ربما يرتكبها المفسرون فى تفسير الآيات هو أن الوعد لبعض الأمه لا لجميعها و لا لأشخاص خاصه منهم و هم الذين آمنوا منهم و عملوا الصالحات فالآيه نص فى ذلك و لا قرينه من لفظ أو عقل يدل على كونهم هم الصحابه أو النبى و أئمه أهل البيت عليهم الصلاه و السلام و لا على أن المراد بالذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات جميع الأمه و إنما صرف الوعد إلى طائفه خاصه منهم تشريفا لهم أو لمزيد العنايه بهم فهذا كله تحكم من غير وجه.

و المراد باستخلافهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم عقد مجتمع مؤمن صالح منهم يرثون الأرض كما ورثها الذين من قبلهم من الأمم الماضين أولى القوه و الشوكه و هذا الاستخلاف قائم بمجتمعهم الصالح من دون أن يختص به أشخاص منهم كما كان كذلك فى الذين من قبلهم و أما إراده الخلافه الإلهيه بمعنى الولايه على المجتمع كما كان لداود و سليمان و يوسف(ع)و هى السلطنه الإلهيه فمن المستبعد أن يعبر عن أنبيائه الكرام بلفظ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ و قد وقعت هذه اللفظه أو ما بمعناها فى أكثر من خمسين موضعا من كلامه تعالى و لم يقصد و لا فى واحد منها الأنبياء الماضون مع كثره ورود ذكرهم فى القرآن نعم ذكرهم الله بلفظ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ أو رُسُلٌ مِنْ قَبْلِى أو نحوها بالإضافه إلى الضمير الراجع إلى النبى ص.

و المراد بتمكين دينهم الذى ارتضى لهم كما مر ثبات الدين على ساقه بحيث لا

يزلزله اختلافهم فى أصوله و لا مساهلتهم فى إجراء أحكامه و العمل بفروعه و خلوص المجتمع من وصمه النفاق فيه.

و المراد من تبديل خوفهم أمنا انبساط الأمن و السلام على مجتمعهم بحيث لا يخافون عدوا فى داخل مجتمعهم أو خارجه متجاهرا أو مستخفيا على دينهم أو دنياهم.

و قول بعضهم إن المراد الخوف من العدو الخارج من مجتمعهم كما كان المسلمون يخافون الكفار و المشركين القاصدين إطفاء نور الله و إبطال الدعوه.

تحكم مدفوع بإطلاق اللفظ من غير قرينه معينه للمدعى على أن الآيه فى مقام الامتنان و أى امتنان على قوم لا عدو يقصدهم من خارج و قد أحاط بمجتمعهم الفساد و عمته البليه لا أمن لهم فى نفس و لا عرض و لا مال الحريه فيه للقدره الحاكمه و السبق فيه للفئه الباغيه.

و المراد بكونهم يعبدون الله لا يشركون به شيئا ما يعطيه حقيقه معنى اللفظ و هو عموم إخلاص العباده و انهدام بنيان كل كرامه إلا كرامه التقوى.

و المتحصل من ذلك كله أن الله سبحانه يعد الذين آمنوا منهم و عملوا الصالحات أن سيجعل لهم مجتمعا صالحا خالصا من وصمه الكفر و النفاق و الفسق يرث الأرض لا يحكم فى عقائد أفراده عامه و لا أعمالهم إلا الدين الحق يعيشون آمنين من غير خوف من عدو داخل أو خارج،أحرارا من كيد الكائدين و ظلم الظالمين و تحكم المتحكمين.

و هذا المجتمع الطيب الطاهر على ما له من صفات الفضيله و القداسه لم يتحقق و لم ينعقد منذ بعث النبى ص إلى يومنا هذا،و إن انطبق فلينطبق على زمن ظهور المهدى(ع)على ما ورد من صفته فى الأخبار المتواتره عن النبى ص و أئمه أهل البيت(ع)لكن على أن يكون الخطاب للمجتمع الصالح لا له(ع)وحده.

فإن قلت:ما معنى الوعد حينئذ للذين آمنوا منهم و عملوا الصالحات و ليس المهدى(ع)أحد المخاطبين حين النزول و لا واحد من أهل زمان ظهوره بينهم؟ قلت:فيه خلط بين الخطابات الفرديه و الاجتماعيه أعنى الخطاب المتوجه إلى أشخاص القوم بما هم أشخاص بأعيانهم و الخطاب المتوجه إليهم بما هم قوم على نعت كذا فالأول لا يتعدى إلى غير أشخاصهم و لا ما تضمنه من وعد أو وعيد أو غير ذلك

یسری إلی غیرهم و الثانی یتعدی إلی کل من اتصف بما ذکر فیه من الوصف و یسری إلیه ما تضمنه من الحکم،و خطاب الآیه من القبیل الثانی علی ما تقدم.

و من هذا القبیل أغلب الخطابات القرآنیه المتوجهه إلی المؤمنین و الکفار، و منه الخطابات الذامه لأهل الکتاب و خاصه الیهود بما فعله أسلافهم و للمشرکین بما صنعه آباؤهم.

و من هذا القبیل خاصه ما ذکر من الوعد فی قوله تعالی: «فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَهِ لِیَسُوؤُا وُجُوهَکُمْ» :الإسراء:۷ فإن الموعودین لم یعیشوا إلی زمن إنجاز هذا الوعد،و نظیره الوعد المذکور فی قول ذی القرنین علی ما حکاه الله: «فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّی جَعَلَهُ دَکّاءَ وَ کانَ وَعْدُ رَبِّی حَقًّا» :الکهف:۹۸،و کذا وعده تعالی الناس بقیام الساعه و انطواء بساط الحیاه الدنیا بنفخ الصور کما قال: «ثَقُلَتْ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا تَأْتِیکُمْ إِلاّ بَغْتَهً» :الأعراف:۱۸۷،فوعد الصالحین من المؤمنین بعنوان أنهم مؤمنون صالحون بوعد لا یدرکه أشخاص زمان النزول بأعیانهم و لما یوجد أشخاص المجتمع الذی یدرک إنجاز الوعد مما لا ضیر فیه البته.

فالحق أن الآیه إن أعطیت حق معناها لم تنطبق إلا علی المجتمع الموعود الذی سینعقد بظهور المهدی(ع)و إن سومح فی تفسیر مفرداتها و جملها و کان المراد باستخلاف الذین آمنوا منهم و عملوا الصالحات استخلاف الأمه بنوع من التغلیب و نحوه،و بتمکین دینهم الذی ارتضاه لهم کونهم معروفین فی الدنیا بالأمه المسلمه و عدهم الإسلام دینا لهم و إن تفرقوا فیه ثلاثا و سبعین فرقه یکفر بعضهم بعضا و یستبیح بعضهم دماء بعض و أعراضهم و أموالهم،و بتبدیل خوفهم أمنا یعبدون الله و لا یشرکون به شیئا عزه الأمه و شوکتها فی الدنیا و انبساطها علی معظم المعموره و ظواهر ما یأتون به من صلاه و صوم و حج و إن ارتحل الأمن من بینهم أنفسهم و ودعهم الحق و الحقیقه،فالوجه أن الموعود بهذا الوعد الأمه،و المراد باستخلافهم ما رزقهم الله من العزه و الشوکه بعد الهجره إلی ما بعد الرحله و لا موجب لقصر ذلک فی زمن الخلفاء الراشدین بل یجری فیما بعد ذلک إلی زمن انحطاط الخلافه الإسلامیه.

و أما تطبیق الآیه علی خلافه الخلفاء الراشدین أو الثلاثه الأول أو خصوص علی

(ع)فلا سبيل إليه البته.

قوله تعالى:« وَ أَقِيمُوا الصَّلاٰةَ وَ آتُوا الزَّكٰاةَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » مناسبه مضمون الآيه لما سيقت لبيانه الآيات السابقه تعطى أنها من تمامها.

فقوله:« وَ أَقِيمُوا الصَّلاٰةَ وَ آتُوا الزَّكٰاةَ أمر فى الحقيقه بطاعته تعالى فيما شرعه لعباده،و تخصيص الصلاه و الزكاه بالذكر لكونهما ركنين فى التكاليف الراجعه إلى الله تعالى و إلى الخلق،و قوله:« وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ »إنفاذ لولايته(ص)فى القضاء و الحكومه.

و قوله:« لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »تعليل للأمر بما فى المأمور به من المصلحه،و المعنى -على ما يعطيه السياق-:أطيعوا الله و أطيعوا الرسول فإن فى هاتين الطاعتين رجاء أن تشملكم الرحمه الإلهيه فينجز لكم وعده أو يجعل لكم إنجازه فإن ارتفاع النفاق من بين المسلمين و عموم الصلاح و الاتفاق على كلمه الحق مفتاح انعقاد مجتمع صالح يدر عليهم بكل خير.

قوله تعالى:« لاٰ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ وَ مَأْوٰاهُمُ النّٰارُ وَ لَبِئْسَ الْمَصِيرُ »من تمام الآيات السابقه،و فيها تأكيد ما مر من وعد الاستخلاف فى الأرض و تمكين الدين و تبديل الخوف أمنا.

يخاطب تعالى نبيه ص بعد الوعد-بخطاب مؤكد-أن لا يظن أن الكفار معجزين لله فى الأرض فيمنعونه بما عندهم من القوه و الشوكه من أن ينجز وعده، و هذا فى الحقيقه بشرى خاصه بالنبى ص بما أكرم به أمته و أن أعداءه سينهزمون و يغلبون و لذلك خصه بالخطاب على طريق الالتفات.

و لكون النهى المذكور فى معنى أن الكفار سينتهون عن معارضه الدين و أهله عطف عليه قوله:« وَ مَأْوٰاهُمُ النّٰارُ »إلخ،كأنه قيل:هم مقهورون فى الدنيا و مسكنهم النار فى الآخره و بئس المصير.

(بحث روائى)

فى المجمع،": فى قوله تعالى:« وَ يَقُولُونَ آمَنّٰا بِاللّٰهِ »الآيات-قيل:نزلت الآيات فى

رجل من المنافقين-كان بينه و بين رجل من اليهود حكومه-فدعاه اليهودى إلى رسول الله ص و دعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف.

و حكى البلخى أنه كانت بين على و عثمان منازعه-فى أرض اشتراها من على فخرجت فيها أحجار-و أراد ردها بالعيب فلم يأخذها-فقال:بينى و بينك رسول الله ص-فقال الحكم بن أبى العاص:إن حاكمته إلى ابن عمه يحكم له فلا تحاكمه إليه فنزلت الآيات":و هو المروى عن أبى جعفر(ع)أو قريب منه:

أقول:و فى تفسير روح المعانى،عن الضحاك":أن النزاع كان بين على و المغيره بن وائل-و ذكر قريبا من القصه.

و فى المجمع،:فى قوله تعالى:« إِنَّمٰا كٰانَ قَوْلَ اَلْمُؤْمِنِينَ »الآيه:و

روى عن أبى جعفر:

أن المعنى بالآيه أمير المؤمنين(ع).

و فى الدر المنثور،:فى قوله تعالى:« فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمٰا عَلَيْهِ مٰا حُمِّلَ-وَ عَلَيْكُمْ مٰا حُمِّلْتُمْ »الآيه:،أخرج ابن جرير و ابن قانع و الطبرانى عن علقمه بن وائل الحضرمى عن سلمه بن يزيد الجهنى قال: قلت:يا رسول الله أ رأيت إن كان علينا أمراء من بعدك يأخذونا بالحق الذى علينا-و يمنعونا الحق الذى جعله الله لنا نقاتلهم و نبغضهم؟فقال النبى ص:عليهم ما حملوا و عليكم ما حملتم.

أقول:و فى معناه بعض روايات أخر مرويه فيه لكن ينبغى أن لا يرتاب فى أن الإسلام بما فيه من روح إحياء الحق و إماته الباطل يأبى عن إجازه ولايه الظلمه المتظاهرين بالظلم و إباحه السكوت و تحمل الضيم و الاضطهاد قبال الطغاه و الفجره لمن يجد إلى إصلاح الأمر سبيلا.و قد اتضح بالأبحاث الاجتماعيه اليوم أن استبداد الولاه برأيهم و اتباعهم لأهوائهم فى تحكماتهم أعظم خطرا و أخبث أثرا من إثاره الفتن و إقامه الحروب فى سبيل إلجائهم إلى الحق و العدل.

و فى المجمع،:فى قوله تعالى:« وَعَدَ اَللّٰهُ اَلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ »الآيه:و اختلف فى الآيه-و

المروى عن أهل البيت(ع) أنها فى المهدى من آل محمد.

قال:و روى العياشى بإسناده عن على بن الحسين(ع): أنه قرأ الآيه و قال:

هم و الله شيعتنا أهل البيت-يفعل ذلك بهم على يدى رجل منا و هو مهدى هذه الأمه،

و هو الذی قال رسول الله ص-لو لم یبق من الدنیا إلا یوم لطول الله ذلک الیوم حتی یأتی رجل من عترتی اسمه اسمی-یملأ الأرض عدلا و قسطا کما ملئت ظلما و جورا:

و روی مثل ذلک عن أبی جعفر و أبی عبد الله(ع) .

أقول:و بذلک وردت الأخبار عن أئمه أهل البیت(ع)،و قد تقدم بیان انطباق الآیه علی ذلک.

و قال فی المجمع،بعد نقل الروایه:فعلی هذا یکون المراد بالذین آمنوا و عملوا الصالحات النبی و أهل بیته علیهم الصلاه و السلام انتهی.و قد عرفت أن المراد به عام و الروایه لا تدل علی أزید من ذلک حیث قال(ع):هم و الله شیعتنا أهل البیت یفعل ذلک بهم علی یدی رجل منا الحدیث.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن أبی حاتم و ابن مردویه عن البراء": فی قوله:« وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ »الآیه-قال:فینا نزلت و نحن فی خوف شدید.

أقول:ظاهره أن المراد بالذین آمنوا الصحابه و قد عرفت أن الآیه لا دلاله فیها علیه بوجه بل الدلاله علی خلافه.

و فیه،أخرج ابن المنذر و الطبرانی فی الأوسط و الحاکم و صححه و ابن مردویه و البیهقی فی الدلائل و الضیاء فی المختاره عن أبی بن کعب قال": لما قدم رسول الله ص و أصحابه المدینه و آوتهم الأنصار-رمتهم العرب عن قوس واحده-فکانوا لا یبیتون إلا فی السلاح و لا یصبحون إلا فیه-فقالوا:أ ترون أنا نعیش حتی نبیت آمنین مطمئنین-لا نخاف إلا الله فنزلت:« وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ »الآیه.

أقول:هو لا یدل علی أزید من سبب النزول و أما أن المراد بالذین آمنوا من هم؟و أن الله متی أنجز أو ینجز هذا الوعد؟فلا تعرض له به.

و نظیرته روایته الأخری:

لما نزلت علی النبی ص« وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ »الآیه-قال:بشر هذه الأمه بالسناء و الرفعه و الدین و النصر و التمکین فی الأرض-فمن عمل منکم عمل الآخره للدنیا-لم یکن له فی الآخره من نصیب.

فإن تبشیر الأمه بالاستخلاف لا یستلزم کون المراد بالذین آمنوا فی الآیه جمیع الأمه أو خصوص الصحابه أو نفرا معدودا منهم.

و فی نهج البلاغه،:فی کلام له لعمر لما استشاره-لانطلاقه لقتال أهل فارس حین تجمعوا للحرب قال(ع):إن هذا الأمر لم یکن نصره و لا خذلانه بکثره و لا بقله، و هو دین الله الذی أظهره،و جنده الذی أعزه و أیده-حتی بلغ ما بلغ و طلع حیث طلع،و نحن علی موعود من الله تعالی حیث قال عز اسمه:وعد الله الذین آمنوا منکم و عملوا الصالحات-لیستخلفنهم فی الأرض-و لیمکنن لهم دینهم الذی ارتضی لهم- و لیبدلنهم من بعد خوفهم أمنا.

و الله تعالی منجز وعده و ناصر جنده،و مکان القیم فی الإسلام مکان النظام من الخرز-فإن انقطع النظام تفرق و رب متفرق لم یجتمع،و العرب الیوم و إن کانوا قلیلا- فهم کثیرون بالإسلام عزیزون بالاجتماع-فکن قطبا و استدر الرحی بالعرب،و أصلهم دونک نار الحرب-فإنک إن شخصت من هذه الأرض-تنقضت علیک العرب من أطرافها و أقطارها-حتی یکون ما تدع وراءک من العورات-أهم إلیک مما بین یدیک، و کان قد آن للأعاجم أن ینظروا إلیک غدا یقولون:هذا أصل العرب فإذا قطعتموه استرحتم-فیکون ذلک أشد لکلبهم علیک و طمعهم فیک.

فأما ما ذکرت من عددهم-فإنا لم نقاتل فیما مضی بالکثره-و إنما کنا نقاتل بالنصر و المعونه.

أقول:و قد استدل به فی روح المعانی،علی ما ارتضاه من کون المراد بالاستخلاف فی الآیه ظهور الإسلام و ارتفاع قدره فی زمن الخلفاء الراشدین و هو بمعزل عن ذلک بل دلیل علی خلافه،فإن ظاهر کلامه أن الوعد الإلهی لم یتم أمر إنجازه بعد و أنهم یومئذ فی طریقه حیث یقول:و الله منجز وعده،و أن الدین لم یمکن بعد و لا الخوف بدل أمنا و کیف لا؟و هم بین خوفین خوف من تنقض العرب من داخل و خوف من مهاجمه الأعداء من خارج.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن مردویه عن أبی الشعثاء قال": کنت جالسا مع حذیفه و ابن مسعود-فقال حذیفه ذهب النفاق-إنما کان النفاق علی عهد رسول الله ص، و إنما هو الیوم الکفر بعد الإیمان-فضحک ابن مسعود ثم قال:بم تقول؟قال:بهذه الآیه« وَعَدَ اللّهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ »إلی آخر الآیه.

أقول:لیت شعری أین ذهب منافقو عهد النبی ص؟و شواهد الکتاب العزیز و التاریخ تدل علی أنهم ما کانوا بأقل من ثلث أهل المدینه و معظمهم بها أصدقوا الإسلام یوم رحلته(ص)أم تغیرت آراؤهم فی تربصهم الدوائر و تقلیبهم الأمور؟.

[سوره النور (۲۴): الآیات ۵۸ الی ۶۴]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لِیَسْتَأْذِنْکُمُ اَلَّذِینَ مَلَکَتْ أَیْمٰانُکُمْ وَ اَلَّذِینَ لَمْ یَبْلُغُوا اَلْحُلُمَ مِنْکُمْ ثَلاٰثَ مَرّٰاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاٰهِ اَلْفَجْرِ وَ حِینَ تَضَعُونَ ثِیٰابَکُمْ مِنَ اَلظَّهِیرَهِ وَ مِنْ بَعْدِ صَلاٰهِ اَلْعِشٰاءِ ثَلاٰثُ عَوْرٰاتٍ لَکُمْ لَیْسَ عَلَیْکُمْ وَ لاٰ عَلَیْهِمْ جُنٰاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوّٰافُونَ عَلَیْکُمْ بَعْضُکُمْ عَلیٰ بَعْضٍ کَذٰلِکَ یُبَیِّنُ اَللّٰهُ لَکُمُ اَلْآیٰاتِ وَ اَللّٰهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ (۵۸) وَ إِذٰا بَلَغَ اَلْأَطْفٰالُ مِنْکُمُ اَلْحُلُمَ فَلْیَسْتَأْذِنُوا کَمَا اِسْتَأْذَنَ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ کَذٰلِکَ یُبَیِّنُ اَللّٰهُ لَکُمْ آیٰاتِهِ وَ اَللّٰهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ (۵۹) وَ اَلْقَوٰاعِدُ مِنَ اَلنِّسٰاءِ اَللاّٰتِی لاٰ یَرْجُونَ نِکٰاحاً فَلَیْسَ عَلَیْهِنَّ جُنٰاحٌ أَنْ یَضَعْنَ ثِیٰابَهُنَّ غَیْرَ مُتَبَرِّجٰاتٍ بِزِینَهٍ وَ أَنْ یَسْتَعْفِفْنَ خَیْرٌ لَهُنَّ وَ اَللّٰهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ (۶۰) لَیْسَ عَلَی اَلْأَعْمیٰ حَرَجٌ وَ لاٰ عَلَی اَلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لاٰ عَلَی اَلْمَرِیضِ حَرَجٌ وَ لاٰ عَلیٰ أَنْفُسِکُمْ أَنْ تَأْکُلُوا مِنْ بُیُوتِکُمْ أَوْ بُیُوتِ آبٰائِکُمْ أَوْ بُیُوتِ أُمَّهٰاتِکُمْ أَوْ بُیُوتِ إِخْوٰانِکُمْ أَوْ بُیُوتِ أَخَوٰاتِکُمْ أَوْ بُیُوتِ أَعْمٰامِکُمْ أَوْ بُیُوتِ عَمّٰاتِکُمْ أَوْ بُیُوتِ أَخْوٰالِکُمْ أَوْ بُیُوتِ خٰالاٰتِکُمْ أَوْ مٰا مَلَکْتُمْ مَفٰاتِحَهُ أَوْ صَدِیقِکُمْ لَیْسَ عَلَیْکُمْ جُنٰاحٌ أَنْ تَأْکُلُوا جَمِیعاً أَوْ أَشْتٰاتاً فَإِذٰا دَخَلْتُمْ بُیُوتاً فَسَلِّمُوا عَلیٰ أَنْفُسِکُمْ تَحِیَّهً مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ مُبٰارَکَهً طَیِّبَهً کَذٰلِکَ یُبَیِّنُ اَللّٰهُ لَکُمُ اَلْآیٰاتِ لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ (۶۱) إِنَّمَا اَلْمُؤْمِنُونَ اَلَّذِینَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِذٰا کٰانُوا مَعَهُ عَلیٰ أَمْرٍ جٰامِعٍ لَمْ یَذْهَبُوا حَتّٰی یَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ اَلَّذِینَ یَسْتَأْذِنُونَکَ أُولٰئِکَ اَلَّذِینَ یُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ فَإِذَا اِسْتَأْذَنُوکَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَ اِسْتَغْفِرْ لَهُمُ اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۶۲) لاٰ تَجْعَلُوا دُعٰاءَ اَلرَّسُولِ بَیْنَکُمْ کَدُعٰاءِ بَعْضِکُمْ بَعْضاً قَدْ یَعْلَمُ اَللّٰهُ اَلَّذِینَ یَتَسَلَّلُونَ مِنْکُمْ لِوٰاذاً فَلْیَحْذَرِ اَلَّذِینَ یُخٰالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِیبَهُمْ فِتْنَهٌ أَوْ یُصِیبَهُمْ عَذٰابٌ أَلِیمٌ (۶۳) أَلاٰ إِنَّ لِلّٰهِ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ قَدْ یَعْلَمُ مٰا أَنْتُمْ عَلَیْهِ وَ یَوْمَ یُرْجَعُونَ إِلَیْهِ فَیُنَبِّئُهُمْ بِمٰا عَمِلُوا وَ اَللّٰهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ (۶۴)

(بيان)

بقيه الأحكام المذكوره فى السوره و تختتم السوره بآخر الآيات و فيها إشاره إلى أن الله سبحانه إنما يشرع ما يشرع بعلمه و سيظهر و سينكشف لهم حقيقته حين يرجعون إليه.

ص :۱۶۲

قوله تعالى:« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ »إلى آخر الآيه .وضع الثياب خلعها و هو كنايه عن كونهم على حال ربما لا يحبون أن يراهم عليها الأجنبى.و الظهيره وقت الظهر،و العوره السوأه سميت بها لما يلحق الإنسان من انكشافها من العار و كان المراد بها فى الآيه ما ينبغى ستره.

فقوله:« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا »إلخ،تعقيب لقوله سابقا:« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا »إلخ،القاضى بتوقف دخول البيت على الإذن و هو كالاستثناء من عمومه فى العبيد و الأطفال بأنه يكفيهم الاستيذان ثلاث مرات فى اليوم.

و قوله:« لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ »أى مروهم أن يستأذنوكم للدخول، و ظاهر الذين ملكت أيمانكم العبيد دون الإماء و إن كان اللفظ لا يأبى عن العموم بعنايه التغليب،و به وردت الروايه كما سيجىء.

و قوله:« وَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ »يعنى المميزين من الأطفال قبل البلوغ، و الدليل على تقيدهم بالتمييز قوله بعد:« ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ».

و قوله:« ثَلاَثَ مَرَّاتٍ »أى كل يوم بدليل تفصيله بقوله:« مِنْ قَبْلِ صَلاَهِ الْفَجْرِ وَ حِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَهِ -أى وقت الظهر- وَ مِنْ بَعْدِ صَلاَهِ الْعِشَاءِ »،و قد أشار إلى وجه الحكم بقوله:« ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ »أى الأوقات الثلاثه ثلاث عورات لكم لا ينبغى بالطبع أن يطلع عليكم فيها غيركم.

و قوله:« لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَ لاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ »أى لا مانع لكم من أن لا تأمروهم بالاستيذان و لا لهم من أن لا يستأذنوكم فى غير هذه الأوقات،و قد أشار إلى جهه نفى الجناح بقوله:« طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلىٰ بَعْضٍ »أى هم كثير الطوف عليكم بعضكم يطوف على بعض للخدمه فالاستيذان كلما دخل حرج عاده فليكتفوا فيه بالعورات الثلاث.

ثم قال:« كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمُ الْآيَاتِ »أى أحكام دينه التى هى آيات داله عليه « وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ »يعلم أحوالكم و ما تستدعيه من الحكم« حَكِيمٌ »يراعى مصالحكم فى أحكامه.

قوله تعالى:« وَ إِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا »إلخ،بيان أن حكم

الاستیذان ثلاث مرات فی الأطفال مغیی بالبلوغ فإذا بلغ الأطفال منکم الحلم بأن بلغوا فلیستأذنوا کما استأذن الذین من قبلهم و هم البالغون من الرجال و النساء الأحرار« کَذٰلِکَ یُبَیِّنُ اللّٰهُ لَکُمْ آیٰاتِهِ وَ اللّٰهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ ».

قوله تعالی:« وَ الْقَوٰاعِدُ مِنَ النِّسٰاءِ اللاّٰتِی لاٰ یَرْجُونَ نِکٰاحاً »إلی آخر الآیه.

القواعد جمع قاعده و هی المرأه التی قعدت عن النکاح فلا ترجوه لعدم الرغبه فی مباشرتها لکبرها،فقوله:« اَللاّٰتِی لاٰ یَرْجُونَ نِکٰاحاً »وصف توضیحی،و قیل:هی التی یئست من الحیض،و الوصف احترازی.

و فی المجمع:،التبرج إظهار المرأه من محاسنها ما یجب علیها ستره،و أصله الظهور و منه البرج البناء العالی لظهوره.

و الآیه فی معنی الاستثناء من عموم حکم الحجاب،و المعنی:و الکبائر المسنه من النساء فلا بأس علیهن أن لا یحتجبن حال کونهن غیر متبرجات بزینه.

و قوله:« وَ أَنْ یَسْتَعْفِفْنَ خَیْرٌ لَهُنَّ »کنایه عن الاحتجاب أی الاحتجاب خیر لهن من وضع الثیاب،و قوله:« وَ اللّٰهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ »تعلیل لما شرع بالاسمین أی هو تعالی سمیع یسمع ما یسألنه بفطرتهن علیم یعلم ما یحتجن إلیه من الأحکام.

قوله تعالی:« لَیْسَ عَلَی الْأَعْمیٰ حَرَجٌ وَ لاٰ عَلَی الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لاٰ عَلَی الْمَرِیضِ حَرَجٌ وَ لاٰ عَلیٰ أَنْفُسِکُمْ أَنْ تَأْکُلُوا مِنْ بُیُوتِکُمْ -إلی قوله- أَوْ صَدِیقِکُمْ »ظاهر الآیه أن فیها جعل حق للمؤمنین أن یأکلوا من بیوت قراباتهم أو التی اؤتمنوا علیها أو بیوت أصدقائهم فهم مأذونون فی أن یأکلوا منها بمقدار حاجتهم من غیر إسراف و إفساد.

فقوله:« لَیْسَ عَلَی الْأَعْمیٰ حَرَجٌ -إلی قوله- وَ لاٰ عَلیٰ أَنْفُسِکُمْ »فی عطف عَلیٰ أَنْفُسِکُمْ »علی ما تقدمه دلاله علی أن عد المذکورین لیس لاختصاص الحق بهم بل لکونهم أرباب عاهات یشکل علیهم أن یکتسبوا الرزق بعمل أنفسهم أحیانا و إلا فلا فرق بین الأعمی و الأعرج و المریض و غیرهم فی ذلک.

و قوله:« مِنْ بُیُوتِکُمْ أَوْ بُیُوتِ آبٰائِکُمْ »إلخ،فی عد« بُیُوتِکُمْ »مع بیوت الأقرباء و غیرهم إشاره إلی نفی الفرق فی هذا الدین المبنی علی کون المؤمنین بعضهم

أولياء بعض بين بيوتهم أنفسهم و بيوت أقربائهم و ما ملكوا مفاتحه و بيوت أصدقائهم.

على أن« بُيُوتِكُمْ »يشمل بيت الابن و الزوج كما وردت به الروايه،و قوله:

« أَوْ مٰا مَلَكْتُمْ مَفٰاتِحَهُ » المفاتح جمع مفتح و هو المخزن،و المعنى:أو البيت الذى ملكتم أى تسلطتم على مخازنه التى فيها الرزق كما يكون الرجل قيما على بيت أو وكيلا أو سلم إليه مفتاحه.

و قوله:« أَوْ صَدِيقِكُمْ »معطوف على ما تقدمه بتقدير بيت على ما يعلم من سياقه،و التقدير أو بيت صديقكم.

قوله تعالى:« لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتٰاتاً » الأشتات جمع شت و هو مصدر بمعنى التفرق استعمل بمعنى المتفرق مبالغه ثم جمع أو صفه بمعنى المتفرق كالحق،و المعنى لا إثم عليكم أن تأكلوا مجتمعين و بعضكم مع بعض أو متفرقين،و الآيه عامه و إن كان نزولها لسبب خاص كما روى.

و للمفسرين فى هذا الفصل من الآيه و فى الفصل الذى قبلها اختلافات شديده رأينا الصفح عن إيرادها و الغور فى البحث عنها أولى،و ما أوردناه من المعنى فى الفصلين هو الذى يعطيه سياقهما.

قوله تعالى:« فَإِذٰا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ مُبٰارَكَةً طَيِّبَةً »إلخ،لما تقدم ذكر البيوت فرع عليه ذكر أدب الدخول فيها فقال:« فَإِذٰا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً ».

فقوله:« فَسَلِّمُوا عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ »المراد فسلموا على من كان فيها من أهلها و قد بدل من قوله:« عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ »للدلاله على أن بعضهم من بعض فإن الجميع إنسان و قد خلقهم الله من ذكر و أنثى على أنهم مؤمنون و الإيمان يجمعهم و يوحدهم أقوى من الرحم و أى شىء آخر.

و ليس ببعيد أن يكون المراد بقوله: فَسَلِّمُوا عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ »أن يسلم الداخل على أهل البيت و يرد السلام عليه.

و قوله:« تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ مُبٰارَكَةً طَيِّبَةً »أى حال كون السلام تحيه من عند الله شرعها الله و أنزل حكمها ليحيى بها المسلمون و هو مبارك ذو خير كثير باق و طيب

يلائم النفس فإن حقيقه هذه التحيه بسط الأمن و السلامه على المسلم عليه و هو أطيب أمر يشترك فيه المجتمعان.

ثم ختم سبحانه الآيه بقوله:« كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمُ الْآيٰاتِ »و قد مر تفسيره « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »أى تعلموا معالم دينكم فتعملوا بها كما قيل.

قوله تعالى:« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِذٰا كٰانُوا مَعَهُ عَلىٰ أَمْرٍ جٰامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتّٰى يَسْتَأْذِنُوهُ »ذكر قوله« اَلَّذِينَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ »بيانا للمؤمنين على ظهور معناه للدلاله على اتصافهم بحقيقه المعنى أى إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله و رسوله بحقيقه الإيمان و أيقنوا بتوحده تعالى و اطمأنت نفوسهم و تعلقت قلوبهم برسوله.

و لذلك عقبه بقوله:« وَ إِذٰا كٰانُوا مَعَهُ عَلىٰ أَمْرٍ جٰامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتّٰى يَسْتَأْذِنُوهُ » و الأمر الجامع هو الذى يجمع الناس للتدبر فى أطرافه و التشاور و العزم عليه كالحرب و نحوها.

و المعنى:و إذا كانوا مع الرسول بالاجتماع عنده على أمر من الأمور العامه لم يذهبوا و لم ينصرفوا من عند الرسول حتى يستأذنوه للذهاب.

و لذلك أيضا عقبه بقوله:« إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ »و هو بمنزله عكس صدر الآيه للدلاله على الملازمه و عدم الانفكاك.

و قوله:« فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ »تخيير منه تعالى لرسوله فى أن يأذن لمن شاء و لا يأذن لمن لم يشأ.

و قوله:« وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »أمر له بالاستغفار لهم تطييبا لنفوسهم و رحمه بهم.

قوله تعالى:« لاٰ تَجْعَلُوا دُعٰاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعٰاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً »إلى آخر الآيه،دعاء الرسول هو دعوته الناس إلى أمر من الأمور كدعوتهم إلى الإيمان و العمل الصالح،و دعوتهم ليشاورهم فى أمر جامع،و دعوتهم إلى الصلاه جامعه،و أمرهم بشىء فى أمر دنياهم أو أخراهم فكل ذلك دعاء و دعوه منه(ص).

و يشهد بهذا المعنى قوله ذيلا:« قَدْ يَعْلَمُ اللّٰهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوٰاذاً »و ما

يتلوه من تهديد مخالفى أمره(ص)كما لا يخفى.و هو أنسب لسياق الآيه السابقه فإنها تمدح الذين يلبون دعوته و يحضرون عنده و لا يفارقونه حتى يستأذنوه و هذه تذم و تهدد الذين يدعوهم فيتسللون عنه لواذا غير مهتمين بدعائه و لا معتنين.

و من هنا يعلم عدم استقامه ما قيل إن المراد بدعاء النبى ص خطابه فيجب أن يفخم و لا يساوى بينه و بين غيره من الناس فلا يقال له:يا محمد و يا ابن عبد الله،بل:يا رسول الله.

و كذا ما قيل:إن المراد بالدعاء دعاؤه عليهم لو أسخطوه فهو نهى عن التعرض لدعائه عليهم بإسخاطه فإن الله تعالى لا يرد دعاءه هذا،و ذلك لأن ذيل الآيه لا يساعد على شىء من الوجهين.

و قوله:« قَدْ يَعْلَمُ اللّٰهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوٰاذاً »التسلل:الخروج من البين برفق و احتيال من سل السيف من غمده،و-اللواذ:الملاوذه و هو أن يلوذ الإنسان و يلتجئ إلى غيره فيستتر به،و المعنى:أن الله يعلم منكم الذين يخرجون من بين الناس و الحال أنهم يلوذون بغيرهم و يستترون به فينصرفون فلا يهتمون بدعاء الرسول و لا يعتنون به.

و قوله:« فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخٰالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَهٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ »ظاهر سياق الآيه بما تقدم من المعنى أن ضمير« عَنْ أَمْرِهِ »للنبى ص و هو دعاؤه،ففى الآيه تحذير لمخالفى أمر النبى ص و دعوته من أن تصيبهم فتنه و هى البليه أو يصيبهم عذاب أليم.

و قيل:ضمير« عَنْ أَمْرِهِ »راجع إلى الله سبحانه،و الآيه و إن لم يقع فيها أمر منه تعالى لكن نهيه المذكور بقوله:« لاٰ تَجْعَلُوا دُعٰاءَ الرَّسُولِ »إلخ،فى معنى أجيبوا دعاء الرسول،و هو أمر،و أول الوجهين أوجه.

قوله تعالى:« أَلاٰ إِنَّ لِلّٰهِ مٰا فِى السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مٰا أَنْتُمْ عَلَيْهِ »اختتام للسوره ناظر إلى قوله فى مفتتحها:« سُورَهٌ أَنْزَلْنٰاهٰا وَ فَرَضْنٰاهٰا وَ أَنْزَلْنٰا فِيهٰا آيٰاتٍ بَيِّنٰاتٍ »فما فى مختتمها كالتعليل لما فى مفتتحها.

فقوله:« أَلاٰ إِنَّ لِلّٰهِ مٰا فِى السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ »بيان لعموم الملك و أن كل شىء

مملوک لله سبحانه قائم به فهی معلومه له بجمیع خصوصیات وجودها فیعلم ما تحتاج إلیه،و الناس من جمله ما یعلم بحقیقه حاله و ما یحتاج إلیه فالذی یشرعه لهم من الدین مما یحتاجون إلیه فی حیاتهم کما أن ما یرزقهم من المعیشه مما یحتاجون إلیه فی بقائهم.

فقوله:« قَدْ یَعْلَمُ مٰا أَنْتُمْ عَلَیْهِ »-أی من حقیقه الحال المنبئه عن الحاجه- بمنزله النتیجه المترتبه علی الحجه أی ملکه لکم و لکل شیء یستلزم علمه بحالکم و بما تحتاجون إلیه من شرائع الدین فیشرعه لکم و یفرضه علیکم.

و قوله:« وَ یَوْمَ یُرْجَعُونَ إِلَیْهِ فَیُنَبِّئُهُمْ بِمٰا عَمِلُوا وَ اللّٰهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ »معطوف علی قوله:« مٰا أَنْتُمْ عَلَیْهِ »أی و یعلم یوما یرجعون إلیه و هو یوم القیامه فیخبرهم بحقیقه ما عملوا و الله بکل شیء علیم.

و فی هذا الذیل حث علی الطاعه و الانقیاد لما شرعه و فرضه من الأحکام و العمل به من جهه أنه سیخبرهم بحقیقه ما عملوا به کما أن فی الصدر حثا علی القبول من جهه أن الله إنما شرعها لعلمه بحاجتهم إلیها و أنها التی ترفع بها حاجتهم.

(بحث روائی)

فی الدر المنثور،":فی قوله تعالی« یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لِیَسْتَأْذِنْکُمُ »الآیه":،أخرج سعید بن منصور و ابن أبی شیبه و أبو داود و ابن مردویه و البیهقی فی سننه عن ابن عباس قال": آیه لم یؤمن بها أکثر الناس آیه الإذن،و إنی لآمر جاریتی هذه-لجاریه قصیره قائمه علی رأسه-أن تستأذن علی.

و فی تفسیر القمی،":فی الآیه قال:إن الله تبارک و تعالی نهی أن یدخل أحد-فی هذه الثلاثه الأوقات علی أحد-لا أب و لا أخت و لا أم و لا خادم إلا بإذن،و الأوقات بعد طلوع الفجر و نصف النهار-و بعد العشاء الآخره.ثم أطلق بعد هذه الثلاثه الأوقات فقال:« لَیْسَ عَلَیْکُمْ وَ لاٰ عَلَیْهِمْ جُنٰاحٌ بَعْدَهُنَّ »یعنی بعد هذه الثلاثه الأوقات « طَوّٰافُونَ عَلَیْکُمْ بَعْضُکُمْ عَلیٰ بَعْضٍ ».

و فی الکافی،بإسناده عن زراره عن أبی عبد الله(ع): فی قول الله عز و جل:

« مَلَكَتْ أَيْمَانُكَمْ »قـال:هی خاصه فی الرجال دون النساء.قلت:فالنساء یسـتأذن فی هـذه الثلاث ساعات؟قال:لا و لکن یـدخلن و یخرجن« وَ الَّذِینَ لَمْ یَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْکُمْ » قال:من أنفسکم،قال علیکم (۱)استیذان-کاستیذان من قد بلغ فی هذه الثلاث ساعات.

أقـول:و روی فیه روایـات أخری غیرهـا فی کـون المراد بالـذین ملکت أیمـانکم الـذکور دون الإنـاث عن أبی جعفر و أبی عبد الله(ع).

و فی المجمع،":فی الآیه:معنـاه مروا عبیـدکم و إمـاءکم-أن یسـتأذنوا علیکم إذا أرادوا الـدخول-إلی موضع خلواتکم عن ابن عباس-و قیل:

أراد العبید خاصه عن ابن عمر":

و هو المروی عن أبی جعفر و أبی عبد الله(ع) .

أقول:و بهذه الأخبار و بظهور الآیه یضعف

ما رواه الحاکم عن علی(ع)فی الآیه قال: النساء فإن الرجال یستأذنون.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن أبی شـیبه و ابن مردویه عن ابن عمر قال:قال رسول الله ص: لا تغلبنکم الأعراب علی اسم صـلاتکم العشاء-فإنما هی فی کتاب الله العشاء و إنما یعتم بحلاب الإبل.

أقول:

و روی مثله عن عبد الرحمن بن عوف و لفظه:أن رسول الله ص قال: لا یغلبنکم الأعراب علی اسم صلاتکم-قال الله: « وَ مِنْ بَعْدِ صَلاهِ الْعِشاءِ »و إنما العتمه عتمه الإبل.

و فی الکافی،بإسناده عن حریز عن أبی عبد الله(ع): أنه قرأ« أن یضعن من ثیابهن »قال:الجلباب و الخمار إذا کانت المرأه مسنه.

أقول:و فی معناه أخبار أخر.

و فی الـدر المنثور،أخرج ابن جریر و ابن أبی حـاتم عن الضـحاک قال": کان أهل المـدینه قبل أن یبعث النبی ص-لا یخالطهم فی طعامهم أعمی و لا مریض و لا أعرج- لأن الأعمی لا یبصر طیب الطعام،و المریض لا یسـتوفی الطعام کما یستوفی الصحیح، و الأعرج لا یستطیع المزاحمه علی الطعام-فنزلت رخصه فی مؤاکلتهم.

۱- ۱) علیهم ظ.

و فيه،أخرج الثعلبى عن ابن عباس قال": خرج الحارث غازيا مع رسول الله ص-و خلف على أهله خالد بن زيد-فحرج أن يأكل من طعامه و كان مجهودا فنزلت.

و فيه،أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتاده قال": كان هذا الحى من بنى كنانه بن خزيمه-يرى أحدهم أن عليه مخزاه أن يأكل وحده فى الجاهليه- حتى أن كان الرجل يسوق الذود الحفل و هو جائع-حتى يجد من يؤاكله و يشاربه فأنزل الله:« لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتٰاتاً ».

أقول:و فى معنى هذه الروايات روايات أخر.

و فى الكافى،بإسناده عن زراره عن أبى عبد الله(ع): فى قول الله عز و جل:

« أَوْ مٰا مَلَكْتُمْ مَفٰاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ »قال:هؤلاء الذين سمى الله عز و جل فى هذه الآيه- يأكل بغير إذنهم من التمر و المأدوم-و كذلك تطعم المرأه من منزل زوجها بغير إذنه- فأما ما خلا ذلك من الطعام فلا.

و فيه،بإسناده عن أبى حمزه الثمالى عن أبى جعفر(ع)قال:قال رسول الله ص لرجل: أنت و مالك لأبيك،ثم قال أبو جعفر(ع):و ما أحب له أن يأخذ من مال ابنه-إلا ما احتاج إليه مما لا بد له منه-إن الله لا يحب الفساد.

و فيه،بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبى عبد الله(ع)قال: سألته عن رجل لابنه مال فيحتاج الأب قال:يأكل منه فأما الأم فلا تأكل منه إلا قرضا على نفسها.

و فيه،بإسناده عن جميل بن دراج عن أبى عبد الله(ع)قال: للمرأه أن تأكل و أن تصدق-و للصديق أن يأكل من منزل أخيه و يتصدق.

و فيه،بإسناده عن ابن أبى عمير عمن ذكره عن أبى عبد الله(ع): فى قول الله عز و جل:« أَوْ مٰا مَلَكْتُمْ مَفٰاتِحَهُ »قال:الرجل يكون له وكيل يقوم فى ماله- فيأكل بغير إذنه.

و فى المجمع،":فى قوله تعالى:« أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ »،و قيل معناه من بيوت أولادكم-و يدل عليه

قوله(ع) أنت و مالك لأبيك -و

قوله(ع): إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه-و إن ولده من كسبه.

أقول:و فی هذه المعانی روایات کثیره أخری.

و فی المعانی،بإسناده عن أبی الصباح قال: سألت أبا جعفر(ع)عن قول الله عز و جل:« فَإِذٰا دَخَلْتُمْ بُیُوتاً فَسَلِّمُوا عَلیٰ أَنْفُسِکُمْ »الآیه-فقال: هو تسلیم الرجل علی أهل البیت حین یدخل-ثم یردون علیه فهو سلامکم علی أنفسکم.

أقول:و قد تقدمت الإشاره إلی هذا المعنی فی تفسیر الآیه.

و فی تفسیر القمی،":فی قوله تعالی: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِینَ -إلی قوله -حَتّٰی یَسْتَأْذِنُوهُ »فإنها نزلت فی قوم کانوا إذا جمعهم رسول الله ص-لأمر من الأمور فی بعث یبعثه أو حرب قد حضرت-یتفرقون بغیر إذنه فنهاهم الله عز و جل عن ذلک.

و فیه،: فی قوله تعالی:« فَإِذَا اسْتَأْذَنُوکَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ-فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ » قال:نزلت فی حنظله بن أبی عیاش-و ذلک أنه تزوج فی اللیله التی کان فی صبیحتها حرب أحد-فاستأذن رسول الله ص أن یقیم عند أهله-فأنزل الله عز و جل هذه الآیه« فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ »فأقام عند أهله-ثم أصبح و هو جنب فحضر القتال فاستشهد،فقال رسول الله ص:رأیت الملائکه تغسل حنظله-بماء المزن فی صحائف فضه بین السماء و الأرض-فکان یسمی غسیل الملائکه.

و فیه،": فی قوله تعالی:« لاٰ تَجْعَلُوا دُعٰاءَ الرَّسُولِ بَیْنَکُمْ کَدُعٰاءِ بَعْضِکُمْ بَعْضاً »قال:

لا تدعوا رسول الله ص کما یدعو بعضکم بعضا ،

و فی روایه أبی الجارود عن أبی جعفر (ع): فی قوله عز و جل:« لاٰ تَجْعَلُوا دُعٰاءَ الرَّسُولِ بَیْنَکُمْ کَدُعٰاءِ بَعْضِکُمْ بَعْضاً »،یقول:

لا تقولوا:یا محمد و لا یا أبا القاسم-لکن قولوا:یا نبی الله و یا رسول الله:

أقول:و روی مثله عن ابن عباس ،و قد تقدم أن ذیل الآیه لا یلائم هذا المعنی تلک الملائمه.

(۲۵)سوره الفرقان مکیه و هی سبع و سبعون آیه(۷۷)

[سوره الفرقان (۲۵): الآیات ۱ الی ۳]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ

تَبٰارَکَ اَلَّذِی نَزَّلَ اَلْفُرْقٰانَ عَلیٰ عَبْدِهِ لِیَکُونَ لِلْعٰالَمِینَ نَذِیراً (۱) اَلَّذِی لَهُ مُلْکُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ لَمْ یَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ یَکُنْ لَهُ شَرِیکٌ فِی اَلْمُلْکِ وَ خَلَقَ کُلَّ شَیْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِیراً (۲) وَ اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَهً لاٰ یَخْلُقُونَ شَیْئاً وَ هُمْ یُخْلَقُونَ وَ لاٰ یَمْلِکُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً وَ لاٰ یَمْلِکُونَ مَوْتاً وَ لاٰ حَیٰاهً وَ لاٰ نُشُوراً (۳)

(بیان)

غرض السوره بیان أن دعوه النبی ص دعوه حقه عن رساله من جانب الله تعالی و کتاب نازل من عنده و فیها عنایه بالغه بدفع ما أورده الکفار علی کون النبی ص رسولا من جانب الله و کون کتابه نازلا من عنده و رجوع إلیه کره بعد کره.

و قد استتبع ذلک شیئا من الاحتجاج علی التوحید و نفی الشریک و ذکر بعض أوصاف یوم القیامه و ذکر نبذه من نعوت المؤمنین الجمیله،و الکلام فیها جار علی سیاق الإنذار و التخویف دون التبشیر.

و السوره مکیه علی ما یشهد به سیاق عامه آیاتها نعم ربما استثنی منها ثلاث آیات و هی قوله تعالی:« وَ اَلَّذِینَ لاٰ یَدْعُونَ مَعَ اَللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ -إلی قوله- غَفُوراً رَحِیماً ».

و لعل الوجه فيه اشتمالها على تشريع حرمه الزنا لكنك قد عرفت فيما أوردناه من أخبار آيه الخمر من سوره المائده أن الزنا و الخمر كانا معروفين بالتحريم فی الإسلام من أول ظهور الدعوه الإسلاميه.

و من العجيب قول بعضهم:إن السوره مدنيه كلها إلا ثلاث آيات من أولها « تَبٰارَكَ الَّذِی »-إلی قوله نُشُوراً ».

قوله تعالی:« تَبٰارَكَ الَّذِی نَزَّلَ الْفُرْقٰانَ عَلیٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعٰالَمِينَ نَذِيراً » البركه بفتحتين ثبوت الخير فی الشیء كثبوت الماء فی البركه بالكسر فالسكون مأخوذ من برك البعير إذا ألقی صدره علی الأرض و استقر عليها،و منه التبارك بمعنی ثبوت الخير الكثير و فی صيغته دلاله علی المبالغه علی ما قيل،و هو كالمختص به تعالی لم يطلق علی غيره إلا علی سبيل الندره.

و الفرقان هو الفرق سمی به القرآن لنزول آياته متفرقه أو لتمييزه الحق من الباطل و يؤيد هذا المعنی إطلاق الفرقان فی كلامه تعالی علی التوراه أيضا مع نزولها دفعه،قال الراغب فی المفردات:،و الفرقان أبلغ من الفرق لأنه يستعمل فی الفرق بين الحق و الباطل،و تقديره كتقدير رجل قنعان يقنع به فی الحكم،و هو اسم لا مصدر فيما قيل،و الفرق يستعمل فيه و فی غيره.انتهی.

و العالمون جمع عالم و معناه الخلق قال فی الصحاح:، العالم الخلق و الجمع العوالم، و العالمون أصناف الخلق انتهی.و اللفظه و إن كانت شامله لجميع الخلق من الجماد و النبات و الحيوان و الإنسان و الجن و الملك لكن سياق الآيه-و قد جعل فيها الإنذار غايه لتنزيل القرآن-يدل علی كون المراد بها المكلفين من الخلق و هم الثقلان:الإنس و الجن فيما نعلم.

و بذلك يظهر عدم استقامه ما ذكره بعضهم أن الآيه تدل علی عموم رسالته (ص)لجميع ما سوی الله فإن فيه غفله عن وجه التعبير عن الرساله بالإنذار و نظير الآيه قوله تعالی: «وَ اصْطَفٰاكِ عَلیٰ نِسٰاءِ الْعٰالَمِينَ» :آل عمران:۴۲ و قوله: «وَ فَضَّلْنٰاهُمْ عَلَی الْعٰالَمِينَ» :الجاثيه:۱۶.

و النذير بمعنی المنذر علی ما قيل،و الإنذار قريب المعنی من التخويف.

ص :۱۷۳

فقوله تعالی:« تَبارَکَ الَّذِی نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلی عَبْدِهِ »أی ثبت و تحقق خیر کثیر فیمن نزل الفرقان علی عبده محمد ص،و ثبوت الخیر الکثیر العائد إلی الخلق فیه تعالی کنایه عن فیضانه منه علی خلقه حیث نزل علی عبده کتابا فارقا بین الحق و الباطل منقذا للعالمین من الضلال سائقا لهم إلی الهدی.

و الجمع فی الآیه بین نزول القرآن من عنده تعالی و کون النبی ص رسولا منه نذیرا للعالمین مع تسمیه القرآن فرقانا بین الحق و الباطل و توصیف النبی ص بکونه عبدا له نذیرا للعالمین المشعر بکونه مملوکا مأمورا لا یملک من نفسه شیئا کل ذلک تمهید لما سیحکی-عن المشرکین من طعنهم فی القرآن بأنه افتراء علی الله اختلقه النبی ص و أعانه علی ذلک قوم آخرون،و من طعنهم فی النبی ص بأنه یأکل الطعام و یمشی فی الأسواق و سائر ما تفوهوا به-و ما یدفع به مطاعنهم.

فالمحصل أنه کتاب یفرق بحجته الباهره بین الحق و الباطل فلا یکون إلا حقا إذ الباطل لا یفرق بین الحق و الباطل و إنما یشبه الباطل بالحق لیلبس علی الناس، و أن الذی جاء به عبد مطیع لله ینذر به العالمین و یدعوهم إلی الحق فلا یکون إلا علی الحق و لو کان مبطلا لم یدع إلی الحق بل حاد عنه و انحرف علی أن الله سبحانه یشهد فی کلامه المعجز بصدق رسالته و أن الذی جاء به من الکتاب منزل من عنده.

و من هنا یظهر ما فی قول بعضهم:إن المراد بالفرقان مطلق الکتب السماویه المنزله علی الأنبیاء و بعبده عامه الأنبیاء(ع)،و لا یخفی بعده من ظاهر اللفظ.

و قوله تعالی:« لِیَکُونَ لِلْعالَمِینَ نَذِیراً »اللام للتعلیل و تدل علی أن غایه تنزیل الفرقان علی عبده أن یکون منذرا لجمیع العالمین من الإنس و الجن،و الجمع المحلی باللام یفید الاستغراق،و لا یخلو الإتیان بصیغه الجمع المحلی باللام من إشاره إلی أن للجمیع إلها واحدا لا کما یذهب إلیه الوثنیون حیث یتخذ کل قوم إلها غیر ما یتخذه الآخرون.

و الاکتفاء بذکر الإنذار دون التبشیر لأن الکلام فی السوره مسوق سوق الإنذار و التخویف.

قوله تعالی:« اَلَّذِی لَهُ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ »إلی آخر الآیه. الملک بکسر

المیم و فتحها قیام شیء بشیء بحیث یتصرف فیه کیف شاء سواء کان قیام رقبته به کقیام رقبه المال بمالکه بحیث کان له أنواع التصرف فیه أو قیامه به باستیلائه علیه بالتصرف بالأمر و النهی و أنواع الحکم کاستیلاء الملک علی الناس من رعیته و ما فی أیدیهم،و یطلق علی القسم الثانی الملک بضم المیم.

فالملک بکسر المیم أعم من الملک بضمها کما قال الراغب الملک بفتح المیم و کسر اللام-هو المتصرف بالأمر و النهی فی الجمهور،و ذلک یختص بسیاسه الناطقین،و لهذا یقال:ملک الناس و لا یقال:ملک الأشیاء-إلی أن قال- فالملک بالضم-ضبط الشیء المتصرف فیه بالحکم،و الملک -بالکسر-کالجنس للملک فکل ملک-بالضم -ملک بالکسر-و لیس کل ملک-بالکسر-ملکا-بالضم-انتهی.

و ربما یخص الملک بالکسر بما یتعلق بالرقبه،و الملک بالضم بغیره.

فقوله تعالی:« اَلَّذِی لَهُ مُلْکُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ »و اللام للاختصاص-یفید أن السماوات و الأرض مملوکه له غیر مستقله بنفسها فی جهه من جهاتها و لا مستغنیه عن التصرف فیها بالحکم و أن الحکم فیها و إداره رحاها یختص به تعالی فهو الملیک المتصرف بالحکم فیها علی الإطلاق.

و بذلک یظهر ترتب قوله:« وَ لَمْ یَتَّخِذْ وَلَداً »علی ما تقدمه فإن الملک علی الإطلاق لا یدع حاجه إلی اتخاذ الولد إذ اتخاذ الولد لأحد أمرین إما لکون الشخص لا یقوی علی إداره رحی جمیع أموره و لا یملک تدبیرها جمیعا فیتخذ الولد لیستعین به علی بعض حوائجه و الله سبحانه یملک کل شیء و یقوی علی ما أراد،و إما لکون الشخص محدود البقاء لا یملک ما یملک إلا فی أمد محدود فیتخذ الولد لیخلفه فیقوم علی أموره بعده و الله سبحانه یملک کل شیء سرمدا و لا یعتریه فناء و زوال فلا حاجه له إلی اتخاذ الولد البته و فیه رد علی المشرکین و النصاری.

و کذا قوله تعالی بعده:« وَ لَمْ یَکُنْ لَهُ شَرِیکٌ فِی الْمُلْکِ »فإن الحاجه إلی الشریک إنما هی فیما إذا لم یستوعب الملک الأمور کلها و ملکه تعالی عام لجمیع الأشیاء محیط بجمیع جهاتها لا یشذ منه شاذ،و فیه رد علی المشرکین.

و قوله تعالى:« وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً »بيان لرجوع تدبير عامه الأمور إليه تعالى وحده بالخلق و التقدير فهو رب العالمين لا رب سواه.

بيان ذلك أن الخلقه لما كانت بتوسيط الأسباب المتقدمه على الشىء و المقارنه له استلزم ذلك ارتباط وجودات الأشياء بعضها ببعض فيتقدر وجود كل شىء و آثار وجوده حسب ما تقدره العلل و العوامل المتقدمه عليه و المقارنه له فالحوادث الجاريه فى العالم على النظام المشهود مختلطه بالخلقه تابعه للعلل و العوامل المتقدمه و المقارنه و إذ لا خالق غير الله سبحانه فلا مدبر للأمر غيره فلا رب يملك الأشياء و يدبر أمرها غيره.

فكونه تعالى له ملك السماوات و الأرض حاكما متصرفا فيها على الإطلاق يستلزم قيام الخلقه به إذ لو قامت بغيره كان الملك لذلك الغير،و قيام الخلقه به يستلزم قيام التقدير به،لكون التقدير متفرعا على الخلقه،و قيام التقدير به يستلزم قيام التدبير به فله الملك و التدبير فهو الرب عز شأنه.

و ملكه تعالى للسماوات و الأرض و إن استلزم استناد الخلق و التقدير إليه لكن لما كان الوثنيون مع تسليمهم عموم ملكه يرون أن ملكه للجميع و ربوبيته للكل لا ينافى ملك آلهتهم و ربوبيتهم للبعض بتفويضه تعالى ذلك إليهم فكل من الآلهه مليك فى صقع ألوهيته رب لمربوبيته و الله سبحانه ملك الملوك و رب الأرباب و إله الآلهه.

فلذلك لم يكف قوله:« اَلَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ »لإثبات اختصاص الربوبيه به تعالى قبالهم بل احتج إلى الإتيان بقوله:« وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ».

فكأن قائلا يقول:هب أن ملكه للسماوات و الأرض يغنيه عن اتخاذ الولد و الشريك الموجب لسلب ملكه عن بعض الأشياء لكن لم لا يجوز أن يتخذ بعض خلقه شريكا لنفسه بتفويض بعض أمور العالم إليه مع كونه مالكا له و لما فوضه إليه و هذا هو الذى كانت يراه المشركون فقد كانوا يقولون فى تلبيه الحج لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه و ما ملك.

فأجيب عنه بأن الخلق له سبحانه و التقدير يلازمه و إذا اجتمعا لزمهما التدبير فله سبحانه تدبير كل شىء فليس مع ملكه ملك و لا مع ربوبيته ربوبيه.

فقد تحصل أن قوله:« اَلَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ يَكُنْ

لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ

»مسوق لتوحيد الربوبيه و نفى الولد و الشريك من طريق إثبات الملك المطلق،و أن قوله:« وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً »تقرير و بيان لمعنى عموم الملك و أنه ملك متقوم بالخلق و التقدير موجب لتصديه تعالى لكل حكم و تدبير من غير أن يفوض شيئا من الأمر إلى أحد من الخلق.

و فى الآيه و التى قبلها لهم أقوال أخر أغمضنا عن إيرادها لخلوها عن الجدوى.

قوله تعالى:« وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لاٰ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ »إلخ،لما نعت نفسه بأنه خالق كل شيء و مقدره و أن له ملك السماوات و الأرض و هكذا كان يجب أن يكون الإله المعبود،أشار إلى ضلاله المشركين حيث عبدوا أصناما ليست بخالقه شيئا بل هى مخلوقه مصنوعه لهم و لا مالكه شيئا لأنفسهم و لا لغيرهم.

و ضمير« وَ اتَّخَذُوا »للمشركين على ما يفيده السياق و إن لم يسبق لهم ذكر و مثل هذا التعبير يفيد التحقير و الاستهانه.

و قوله:« مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لاٰ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ »يريد به أصنامهم التى صنعوها بأيديهم بنحت أو نحوه،و توصيفها بالآلهه مع تعقيبها بمثل قوله:« لاٰ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ »إشاره إلى أن ليس لها من الألوهيه إلا اسم سموها به من غير أن تتحقق حقيقتها بشيء كما قال تعالى: «إِنْ هِيَ إِلاّٰ أَسْمٰاءٌ سَمَّيْتُمُوهٰا أَنْتُمْ وَ آبٰاؤُكُمْ» :النجم:۲۳.

و وضع النكره فى قوله:« لاٰ يَخْلُقُونَ شَيْئاً »فى سياق النفى مبالغه فى تقريعهم حيث أعرضوا عن الله سبحانه و هو خالق كل شيء و تعلقوا بأصنام لا يخلقون و لا شيئا من الأشياء بل هم أردأ حالا من ذلك حيث إنهم مصنوعون لعبادهم مخلوقون لأوهامهم، و نظير الكلام جار فى قوله:« ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً »و قوله:« مَوْتاً وَ لاٰ حَيٰاةً وَ لاٰ نُشُوراً ».

و قوله:« وَ لاٰ يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً »نفى للملك عنهم و هو ضرورى فى الإله إذ كان عبادهم إنما يعبدونهم ليدفعوا عنهم الضر و يجلبوا إليهم النفع و إذ كانوا لا يملكون ضرا و لا نفعا حتى لأنفسهم لم تكن عبادتهم إلا خبلا و ضلالا.

و بذلک یظهر أن فی وقوع« لِأَنْفُسِهِمْ »فی السیاق زیاده تقریع و الکلام فی معنی الترقی أی لا یملکون لأنفسهم ضرا حتی یدفعوه و لا نفعا حتی یجلبوه فکیف لغیرهم؟ و قد قدم الضر علی النفع لکون دفع الضرر أهم من جلب النفع.

و قوله:« وَ لاٰ یَمْلِکُونَ مَوْتاً وَ لاٰ حَیٰاهً وَ لاٰ نُشُوراً »أی لا یملکون موتا حتی یدفعوه عن عبادهم أو عمن شاءوا و لا حیاه حتی یسلبوها عمن شاءوا أو یفیضوها علی من شاءوا و لا نشورا حتی یبعثوا الناس فیجازوهم علی أعمالهم،و ملک هذه الأمور من لوازم الألوهیه.

(بحث روائی)

فی الکافی،بإسناده عن ابن سنان عمن ذکره قال: سألت أبا عبد الله(ع)عن القرآن و الفرقان-هما شیئان أو شیء واحد؟فقال:القرآن جمله الکتاب و الفرقان المحکم الواجب العمل به

و فی الاختصاص،للمفید:،فی حدیث عبد الله بن سلام لرسول الله ص قال:

فأخبرنی هل أنزل الله علیک کتابا؟قال:نعم،قال:و أی کتاب هو،قال:الفرقان:

قال و لم سماه ربک فرقانا؟قال:لأنه متفرق الآیات و السور أنزل فی غیر الألواح-و غیره من الصحف و التوراه و الإنجیل و الزبور-أنزلت کلها جمله فی الألواح و الأوراق.قال:

صدقت یا محمد.

أقول:کل من الروایتین ناظره إلی واحد من معنیی الفرقان المتقدمین.

[سوره الفرقان (۲۵): الآیات ۴ الی ۲۰]

اشاره

وَ قٰالَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ إِفْکٌ اِفْتَرٰاهُ وَ أَعٰانَهُ عَلَیْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جٰاؤُ ظُلْماً وَ زُوراً (۴) وَ قٰالُوا أَسٰاطِیرُ اَلْأَوَّلِینَ اِکْتَتَبَهٰا فَهِیَ تُمْلیٰ عَلَیْهِ بُکْرَهً وَ أَصِیلاً (۵) قُلْ أَنْزَلَهُ اَلَّذِی یَعْلَمُ اَلسِّرَّ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ إِنَّهُ کٰانَ غَفُوراً رَحِیماً (۶) وَ قٰالُوا مٰا لِهٰذَا اَلرَّسُولِ یَأْکُلُ اَلطَّعٰامَ وَ یَمْشِی فِی اَلْأَسْوٰاقِ لَوْ لاٰ أُنْزِلَ إِلَیْهِ مَلَکٌ فَیَکُونَ مَعَهُ نَذِیراً (۷) أَوْ یُلْقیٰ إِلَیْهِ کَنْزٌ أَوْ تَکُونُ لَهُ جَنَّهٌ یَأْکُلُ مِنْهٰا وَ قٰالَ اَلظّٰالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاّٰ رَجُلاً مَسْحُوراً (۸) اُنْظُرْ کَیْفَ ضَرَبُوا لَکَ اَلْأَمْثٰالَ فَضَلُّوا فَلاٰ یَسْتَطِیعُونَ سَبِیلاً (۹) تَبٰارَکَ اَلَّذِی إِنْ شٰاءَ جَعَلَ لَکَ خَیْراً مِنْ ذٰلِکَ جَنّٰاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ وَ یَجْعَلْ لَکَ قُصُوراً (۱۰) بَلْ کَذَّبُوا بِالسّٰاعَهِ وَ أَعْتَدْنٰا لِمَنْ کَذَّبَ بِالسّٰاعَهِ سَعِیراً (۱۱) إِذٰا رَأَتْهُمْ مِنْ مَکٰانٍ بَعِیدٍ سَمِعُوا لَهٰا تَغَیُّظاً وَ زَفِیراً (۱۲) وَ إِذٰا أُلْقُوا مِنْهٰا مَکٰاناً ضَیِّقاً مُقَرَّنِینَ دَعَوْا هُنٰالِکَ ثُبُوراً (۱۳) لاٰ تَدْعُوا اَلْیَوْمَ ثُبُوراً وٰاحِداً وَ اُدْعُوا ثُبُوراً کَثِیراً (۱۴) قُلْ أَ ذٰلِکَ خَیْرٌ أَمْ جَنَّهُ اَلْخُلْدِ اَلَّتِی وُعِدَ اَلْمُتَّقُونَ کٰانَتْ لَهُمْ جَزٰاءً وَ مَصِیراً (۱۵) لَهُمْ فِیهٰا مٰا یَشٰاؤُنَ خٰالِدِینَ کٰانَ عَلیٰ رَبِّکَ وَعْداً مَسْؤُلاً (۱۶) وَ یَوْمَ یَحْشُرُهُمْ وَ مٰا یَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ فَیَقُولُ أَ أَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبٰادِی هٰؤُلاٰءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا اَلسَّبِیلَ (۱۷) قٰالُوا سُبْحٰانَکَ مٰا کٰانَ یَنْبَغِی لَنٰا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِکَ مِنْ أَوْلِیٰاءَ وَ لٰکِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ

آبٰاءَهُمْ حَتّٰی نَسُوا اَلذِّکْرَ وَ کٰانُوا قَوْماً بُوراً (١٨) فَقَدْ کَذَّبُوکُمْ بِمٰا تَقُولُونَ فَمٰا تَسْتَطِیعُونَ صَرْفاً وَ لاٰ نَصْراً وَ مَنْ یَظْلِمْ مِنْکُمْ نُذِقْهُ عَذٰاباً کَبِیراً (١٩) وَ مٰا أَرْسَلْنٰا قَبْلَکَ مِنَ اَلْمُرْسَلِینَ إِلاّٰ إِنَّهُمْ لَیَأْکُلُونَ اَلطَّعٰامَ وَ یَمْشُونَ فِی اَلْأَسْوٰاقِ وَ جَعَلْنٰا بَعْضَکُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَ تَصْبِرُونَ وَ کٰانَ رَبُّکَ بَصِیراً (٢٠)

ص :١٧٨

(بیان)

تحکی الآیات عن المشرکین ما طعنوا به فی القرآن الکریم فی النبی ص و تجیب عنه.

قوله تعالی:« قٰالَ الَّذِینَ کَفَرُوا إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ إِفْکٌ افْتَرٰاهُ وَ أَعٰانَهُ عَلَیْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ »إلخ فی التعبیر بمثل قوله:« وَ قٰالَ الَّذِینَ کَفَرُوا »من غیر أن یقال:و قالوا، مع تقدم ذکر الکفار فی قوله «وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً »تلویح إلی أن القائلین بهذا القول هم کفار العرب دون مطلق المشرکین.

و المشار إلیه بقولهم:« إِنْ هٰذٰا »القرآن الکریم،و إنما اکتفوا بالإشاره دون أن یذکروه باسمه أو بشیء من أوصافه إزراء به و حطا لقدره.

و الإفک هو الکلام المصروف عن وجهه،و مرادهم بکونه إفکا افتراء کونه کذبا اختلقه النبی ص و نسبه إلی الله سبحانه.

و السیاق لا یخلو من إیماء إلی أن المراد بالقوم الآخرین بعض أهل الکتاب و قد ورد فی بعض الآثار أن القوم الآخرین هم عداس مولی حویطب بن عبد العزی و یسار مولی العلاء بن الحضرمی و جبر مولی عامر کانوا من أهل الکتاب یقرءون التوراه أسلموا و کان النبی ص یتعهدهم فقیل ما قیل.

و قوله:« فَقَدْ جٰاؤُ ظُلْماً وَ زُوراً »قال فی مجمع البیان:،إن جاء و أتی ربما کانا بمعنی فعل فیتعدیان مثله فمعنی الآیه فقد فعلوا ظلما و کذبا،و قیل إن ظلما منصوب بنزع الخافض و التقدیر فقد جاءوا بظلم،و قیل:حال و التقدیر فقد جاءوا ظالمین و هو سخیف.

و فيه،أيضا:و متى قيل:كيف اكتفى بهذا القدر فى جوابهم؟قلنا:لما تقدم التحدى و عجزهم عن الإتيان بمثله اكتفى هاهنا بالتنبيه على ذلك انتهى و الظاهر أن الجواب عن قولهم:« إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ إِفْكٌ افْتَرٰاهُ »إلخ،و قولهم:« أَسٰاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهٰا »إلخ،جميعا هو قوله تعالى:« قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ »إلخ،على ما سنبين و الجمله أعنى قوله:« فَقَدْ جٰاؤُ ظُلْماً وَ زُوراً »رد مطلق لقولهم و هو فى معنى المنع مع السند و سنده الآيات المشتمله على التحدى.

و بالجمله معنى الآيه:و قال الذين كفروا من العرب ليس هذا القرآن إلا كلاما مصروفا عن وجهه-حيث إنه كلام محمد ص و قد نسبه إلى الله-افترى به على الله و أعانه على هذا الكلام قوم آخرون و هم بعض أهل الكتاب فقد فعل هؤلاء الذين كفروا بقولهم هذا ظلما و كذبا.

قوله تعالى:« وَ قٰالُوا أَسٰاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهٰا فَهِيَ تُمْلىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً » الأساطير جمع أسطوره بمعنى الخبر المكتوب و يغلب استعماله فى الأخبار الخرافيه و الاكتتاب هو الكتابه و نسبته إليه(ص)مع كونه أميا لا يكتب إنما هى بنوع من التجوز ككونه مكتوبا باستدعاء منه كما يقول الأمير كتبت إلى فلان كذا و كذا و إنما كتبه كاتبه بأمره،و الدليل على ذلك قوله بعد:« فَهِيَ تُمْلىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً »إذ لو كان هو الكاتب لم يكن معنى للإملاء،و قيل:الاكتتاب بمعنى الاستكتاب.

و الإملاء إلقاء الكلام إلى المخاطب بلفظه ليحفظه و يعيه أو إلى الكاتب ليكتبه و المراد به فى الآيه هو المعنى الأول على ما يعطيه سياق« اِكْتَتَبَهٰا فَهِيَ تُمْلىٰ عَلَيْهِ »إذ ظاهره تحقق الاكتتاب دفعه و الإملاء تدريجا على نحو الاستمرار فهى مكتوبه مجموعه عنده تقرأ عليه وقتا بعد وقت و هو يعيها فيقرأ على الناس ما وعاه و حفظه.

و البكره و الأصيل الغداه و العشى،و هو كنايه عن الوقت بعد الوقت،و قيل المراد أول النهار قبل خروج الناس من منازلهم و آخر النهار بعد دخولهم فى منازلهم و هو كنايه عن أنها تملى عليه خفيه.

و الآيه بمنزله التفسير للآيه السابقه فكأنهم يوضحون قولهم:إنه إفك افتراه و أعانه عليه قوم آخرون بأنهم كتبوا له أساطير الأولين ثم يملونها عليه وقتا بعد وقت

ص :١٨١

بقراءه شیء بعد شیء علیه،و هو یقرؤها علی الناس و ینسبها إلی اللّه سبحانه.

فالآیه بتمامها من کلام الذین کفروا و ربما قیل:إن قوله« اِکْتَتَبَها فَهِیَ تُمْلیٰ عَلَیْهِ »إلی آخر الآیه من کلام اللّه سبحانه لا من تمام کلامهم،و هو استفهام إنکاری لقولهم: أَساطِیرُ الْأَوَّلِینَ و السیاق لا یساعد علیه.

قوله تعالی:« قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِی یَعْلَمُ السِّرَّ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ کٰانَ غَفُوراً رَحِیماً »أمر للنبی ص برد قولهم و تکذیبهم فیما رموا به القرآن أنه إفک مفتری و أنه أساطیر الأولین اکتتبها فهی تملی علیه وقتا بعد وقت.

و توصیفه تعالی بأنه یعلم السر أی خفیات الأمور و بواطنها فی السماوات و الأرض للإیذان بأن هذا الکتاب الذی أنزله منطو علی أسرار مطویه عن عقول البشر،و فیه تعریض بمجازاتهم علی جنایاتهم التی منها رمیهم القرآن بأنه إفک مفتری و أنه من الأساطیر و هو مما یعلمه تعالی.

و قوله:« إِنَّهُ کٰانَ غَفُوراً رَحِیماً »تعلیل لما هو المشاهد من إمهالهم و تأخیر عقوبتهم علی جنایاتهم و تکذیبهم للحق و جرأتهم علی اللّه سبحانه.

و المعنی:قل إن القرآن لیس إفکا مفتری و لا من الأساطیر کما یقولون بل کتاب منزل من عند اللّه سبحانه ضمنه أسرارا خفیه لا تصل إلی کنهها عقولکم و لا تحیط بها أحلامکم،و رمیکم إیاه بالإفک و الأساطیر و تکذیبکم لحقائقه جنایه عظیمه تستحقون بها العقوبه غیر أن اللّه سبحانه أمهلکم و أخر عقوبه جنایتکم لأنه متصف بالمغفره و الرحمه و ذلک یستتبع تأخیر العذاب،هذا ملخص ما ذکروه فی معنی الآیه.

و فیه أن السیاق لا یساعد علیه فإن محصل معنی الآیه علی ما فسروه یرجع إلی رد دعوی الکفار کون القرآن إفکا مفتری و من الأساطیر بدعوی أنه منزل من عند اللّه منطو علی أسرار خفیه لا سبیل لهم إلی الوقوف علیها لا مساغ فی مقام المخاصمه لرد الدعوی بدعوی أخری مثلها أو هی أخفی منها.

علی أن التعلیل بقوله:« إِنَّهُ کٰانَ غَفُوراً رَحِیماً »إنما یناسب انتفاء العقوبه من أصلها دون الإمهال و التأخیر و إنما المناسب للإمهال و التأخیر من الأسماء هو مثل الحلیم و العلیم و الحکیم دون الغفور الرحیم.

و الأوفق لمقام المخاصمه و الدفاع بإبانه الحق و التعليل بالمغفره و الرحمه أن يكون قوله«: إِنَّهُ كٰانَ غَفُوراً رَحِيماً »تعليلا لإنزال الكتاب و قد ذكر قبل ذلك أنه أنزله على عبده ليكون للعالمين نذيرا و هذه هى النبوه،و يكون حينئذ وصفه تعالى بعلم السر فى السماوات و الأرض للإيماء إلى أن فى سرهم ما يستدعى شمول المغفره و الرحمه الإلهيتين لحالهم و هو طلبهم بفطرتهم و جبلتهم للسعاده و العاقبه الحسنى التى ليست حقيقتها إلا السعاده الإنسانيه بشمول المغفره و الرحمه و إن أخطأ كثير منهم فى تطبيقها على التمتع بالحياه الدنيا و زينتها الداثره فيكون حجه برهانيه على حقيه الدعوه النبويه المشتمله عليها القرآن،و بطلان دعوى كونه إفكا من أساطير الأولين.

و تقرير الحجه أن الله سبحانه يعلم السر فى السماوات و الأرض و هو يعلم أن فى سركم المستقر فى سرائركم المجبوله عليه فطرتكم حبا للسعاده و طلبا و انتزاعا للعاقبه الحسنى و حقيقتها فوز الدنيا و الآخره،و كان سبحانه غفورا رحيما و مقتضى ذلك أن يجيبكم إلى ما تسألونه فى سركم و بلسان فطرتكم فيهديكم إلى سبيله التى تضمن لكم السعاده.

و هذا كتاب ينطق عليكم بسبيله فليس إفكا مفترى على الله و لا من قبيل الأساطير بل هو كتاب يتضمن ما تسألونه بفطرتكم و تستدعونه فى سركم فإن استجبتم لداعيه شملتكم المغفره و الرحمه و إن توليتم حرمتم ذلك فهو كتاب منزل من عند الله و لو لم يكن نازلا من عنده كما يخبر عنه لم يهد إلى حقيقه السعاده و لم يدع إلى محض الحق و لاختلفت بياناته فدعاكم تاره إلى ما فيه خيركم و نفعكم و هو الذى يجلب إليكم المغفره و الرحمه، و تاره إلى ما هو شر لكم و ضار و هو الذى يثير عليكم السخط الإلهى و يستوجب لكم العقوبه.

قوله تعالى:« وَ قٰالُوا مٰا لِهٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعٰامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْوٰاقِ لَوْ لاٰ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أَوْ يُلْقىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهٰا »هذه حكايه ما طعنوا به فى الرسول بعد ما حكى طعنهم فى القرآن بقوله:« وَ قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ إِفْكٌ افْتَرٰاهُ »إلخ.

و تعبيرهم عنه(ص)بقولهم:« لِهٰذَا الرَّسُولِ »مع تكذيبهم برسالته مبنى على التهكم و الاستهزاء.

و قولهم:« مَا لِهٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْوٰاقِ »استفهام للتعجيب و الوجه فيه أن الوثنيين يرون أن البشر لا يسوغ له الاتصال بالغيب و هو متعلق الوجود بالماده منغمر فى ظلماتها،و متلوث بقذاراتها،و لذا يتوسلون فى التوجه إلى اللاهوت بالملائكه فيعبدونهم ليشفعوا لهم عند الله و يقربوهم من الله زلفى فالملائكه هم المقربون عند الله المتصلون بالغيب المتعينون للرساله لو كانت هناك رساله،و ليس للبشر شيء من ذلك.

و من هنا يظهر معنى قولهم:« مَا لِهٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْوٰاقِ » و أن المراد أن الرساله لا تجامع أكل الطعام و المشى فى الأسواق لاكتساب المعاش فإنها إتصال غيبي لا يجامع التعلقات الماديه،و ليست إلا من شئون الملائكه و لذا قالوا فى غير موضع على ما حكاه الله تعالى: «لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ لَأَنْزَلَ مَلاٰئِكَةً» :المؤمنون:۲۴ أو ما فى معناه.

و من هنا يظهر أيضا أن قولهم:« لَوْ لاٰ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً »تنزل من المشركين فى الاقتراح أى كيف يكون هذا المدعى للرساله رسولا و هو يأكل الطعام و يمشى فى الأسواق و الرسول لا يكون إلا ملكا منزها عن هذه الخصال الماديه فإن، تنزلنا و سلمنا رسالته و هو بشر فلينزل إليه ملك يكون معه نذيرا ليتصل الإنذار و تبليغ الرساله بالغيب بتوسط الملك.

و كذا قولهم:« أَوْ يُلْقىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ »تنزل عما قبله من الاقتراح أى إن لم ينزل إليه ملك و استقل بالرساله و هو بشر فليلق إليه من السماء كنز حتى يصرف منه فى وجوه حوائجه الماديه و لا يكدح فى الأسواق فى اكتساب ما يعيش به،و نزول الكنز إليه أسهل من نزول الملك إليه ليعينه فى تبليغ الرساله.

و كذا قولهم:« أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهٰا »تنزل عما قبله فى الاقتراح، و المعنى:و إن لم يلق إليه كنز فليكن له جنه يأكل منها و لا يحتج إلى كسب المعاش و هذا أسهل من إلقاء الكنز إليه.

قوله تعالى:« وَ قٰالَ الظّٰالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاّٰ رَجُلاً مَسْحُوراً »المراد بالظالمين هم المقترحون السابقو الذكر-كما قيل-فهو من وضع الظاهر موضع المضمر و وصفهم بالظلم للدلاله على بلوغهم فى الظلم و الاجتراء على الله و رسوله.

و قولهم:« إِنْ تَتَّبِعُونَ »إلخ،خطاب منهم للمؤمنين تعييرا لهم و إغواء عن طريق الحق،و مرادهم بالرجل المسحور النبی ص يريدون أنه مسحور سحره بعض السحره فصار يخيل إليه أنه رسول يأتيه ملك الوحی بالرساله و الكتاب.

قوله تعالی:« اُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ اَلْأَمْثٰالَ فَضَلُّوا فَلاٰ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً » الأمثال الأشباه و ربما قيل:إن المثل هنا بمعنی الوصف علی حد قوله تعالی: «مَثَلُ اَلْجَنَّهِ اَلَّتِی وُعِدَ اَلْمُتَّقُونَ فِيهٰا أَنْهٰارٌ مِنْ مٰاءٍ غَيْرِ آسِنٍ» :سوره محمد:۱۵،و المحصل:انظر كيف وصفوك فضلوا فيك ضلالا لا يرجی معه اهتداؤهم إلی الحق كقولهم إنه يأكل الطعام و يمشی فی الأسواق فلا يصلح للرساله لأن الرسول يجب أن يكون شخصا غيبيا لا تعلق له بالماده و لا أقل من عدم احتياجه إلی الأسباب العاديه فی تحصيل المعاش،و كقولهم:

إنه رجل مسحور.

و قوله:« فَضَلُّوا فَلاٰ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً »أی تفرع علی هذه الأمثال التی ضربوها لك أنهم ضلوا ضلالا لا يستطيعون معه أن يردوا سبيل الحق و لا يرجی لهم معه الاهتداء فإن من أخطأ الطريق ربما أخطأها بانحراف يسير يرجی معه ركوبها ثانيا،و ربما استدبرها فصار كلما أمعن فی مسيره زاد منها بعدا،و من سمی كتاب الله بالأساطير و وصف رسوله بالمسحور و لم يزل يزيد تعنتا و لجاجا و استهزاء بالحق كيف يرجی اهتداؤه و حاله هذه؟.

قوله تعالی:« تَبٰارَكَ اَلَّذِی إِنْ شٰاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذٰلِكَ جَنّٰاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ وَ يَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً »الإشاره فی قوله:« مِنْ ذٰلِكَ »إلی ما اقترحوه من قولهم:« أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّهٌ يَأْكُلُ مِنْهٰا »أو إلی مجموع ما ذكروه من الكنز و الجنه.

و القصور جمع قصر و هو البيت المشيد العالی،و تنكير« قُصُوراً »للدلاله علی التعظيم و التفخيم.

و الآيه بمنزله الجواب عن طعنهم بالنبی ص و اقتراحهم أن ينزل إليه ملك أو يلقی إليه كنز أو يكون له جنه غير أن فيها التفاتا من التكلم إلی الغيبه فلم يقل:

قل إن شاء ربی جعل لی كذا و كذا بل عدل إلی قوله:« تَبٰارَكَ اَلَّذِی إِنْ شٰاءَ جَعَلَ لَكَ »إلخ.

و فیه تلویح إلی أنهم لا یستحقون جوابا و لا یصلحون لأن یخاطبوا لأنهم علی علم بفساد ما اقترحوا به علیه فالنبی ص لم یذکر لهم إلا أنه بشر مثلهم یوحی إلیه،و لم یدع أن له قدره غیبیه و سلطنه إلهیه علی کل ما یرید أو یراد منه،کما قال تعالی بعد ما حکی بعض اقتراحاتهم فی سوره الإسراء ،«قُلْ سُبْحانَ رَبِّی هَلْ کُنْتُ إِلاّ بَشَراً رَسُولاً» :إسراء:۹۳.

فأعرض سبحانه عن مخاطبتهم و عن الجواب عما اقترحوه،و إنما ذکر لنبیه (ص)أن ربه الذی اتخذه رسولا و أنزل علیه الفرقان لیکون للعالمین نذیرا قادر علی أعظم مما یقترحونه فإن شاء جعل له خیرا من ذلک جنات تجری من تحتها الأنهار، و یجعل له قصورا لا یبلغ وصفها واصف و ذلک خیر من أن یکون له جنه یأکل منها أو یلقی إلیه کنز لیصرفه فی حوائجه.

و بهذا المقدار یتحصل جوابهم فیما اقترحوه من الکنز و الجنه،و أما نزول الملک إلیه لیشارکه فی الإنذار و یعینه علی التبلیغ فلم یذکر جواب عنه لظهور بطلانه،و قد أجاب تعالی عنه فی مواضع من کلامه بأجوبه مختلفه کقوله: «وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَکاً لَجَعَلْناهُ رَجُلاً وَ لَلَبَسْنا عَلَیْهِمْ ما یَلْبِسُونَ» :الأنعام:۹،و قوله: «قُلْ لَوْ کانَ فِی الْأَرْضِ مَلائِکَهٌ یَمْشُونَ مُطْمَئِنِّینَ لَنَزَّلْنا عَلَیْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَکاً رَسُولاً» :إسراء:۹۵،و قوله:

«ما نُنَزِّلُ الْمَلائِکَهَ إِلاّ بِالْحَقِّ وَ ما کانُوا إِذاً مُنْظَرِینَ» :الحجر:۸،و قد تقدم تقریر حجه کل من الآیات فی ضمن تفسیرها.

و من هنا یظهر أن المراد بجعل الجنات و القصور له(ص)جعله فی الدنیا علی ما یقتضیه مقام المخاصمه و رد قولهم فإن المحصل من السیاق أنهم یقترحون علیک کیت و کیت و هم یریدون تعجیزک و تبکیتک و إن ربک قادر علی أعظم من ذلک فإن شاء جعل لک خیرا من ذلک جنات تجری من تحتها الأنهار إلخ و هی لا محاله فی الدنیا و إلا لم ینقطع به الخصام.

و بذلک یتبین فساد ما نقل عن بعضهم أن المراد جنات الآخره و قصورها و أفسد منه قول آخرین إن المراد جعل جنات تجری من تحتها الأنهار فی الدنیا و جعل القصور فی الآخره،و ربما استونس لذلک بأن التعبیر فی الجنات بقوله:« إِنْ شاءَ جَعَلَ »و هو

صيغه ماض مفيده للتحقق مناسبه للدنيا و فى القصور بقوله:« يَجْعَلْ »و هو صيغه مستقبل مناسبه للآخره هذا مع أن الفعل الواقع فى حيز الشرط منسلخ عن الزمان، و الاختلاف فى التعبير تفنن فيه و تجديد لصوره الكلام و الله العالم.

قوله تعالى:« بَلْ كَذَّبُوا بِالسّٰاعَهِ وَ أَعْتَدْنٰا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسّٰاعَهِ سَعِيراً »، إضراب عن طعنهم فيه(ص)و اعتراضهم عليه بأكل الطعام و المشى فى الأسواق بما يتضمن معنى التكذيب أى ما كذبوك و ردوا نبوتك لأنك تأكل الطعام و تمشى فى الأسواق فإنما هو كلام منهم صورى بل السبب الأصلى فى إنكارهم نبوتك و طعنهم فيك أنهم كذبوا بالساعه و أنكروا المعاد،و من المعلوم أن لا وقع للنبوه مع إنكار الساعه و لا معنى للدين و الشريعه لو لا المحاسبه و المجازاه.

فالإشاره إلى السبب الأصلى بعد ذكر الاعتراض و الاقتراح و الجواب هاهنا نظير ما وقع فى سوره الإسراء بعد ذكر الاقتراحات ثم الجواب من ذكر السبب الأصلى فى قوله:« قُلْ سُبْحٰانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلاّٰ بَشَراً رَسُولاً وَ مٰا مَنَعَ النّٰاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا(إِذْ جٰاءَهُمُ الْهُدىٰ)إِلاّٰ أَنْ قٰالُوا أَ بَعَثَ اللّٰهُ بَشَراً رَسُولاً .

و ذكر جمع من المفسرين أن قوله:« بَلْ كَذَّبُوا بِالسّٰاعَهِ »حكايه لبعض آخر من أباطيلهم كما حكى بعضا آخر منها متعلقا بالتوحيد و الكتاب و الرساله فى قوله:

« وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَهً »و قوله:« وَ قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ إِفْكٌ »إلخ، و قوله:« وَ قٰالُوا مٰا لِهٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ »إلخ.

ثم تشعبوا فى نكته الإضراب،فذكر بعضهم أن الوجه فيه كون المعاد لا ريب فيه،و قال بعضهم:إن إنكاره أعظم،و قال بعضهم:إنه أعجب إلى غير ذلك.

و الحق أن السياق لا يساعد عليه فإن السياق المتعرض لطعنهم فى الرسول ص و الجواب عنه لم يتم بعد بشهاده قوله بعد:« وَ مٰا أَرْسَلْنٰا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاّٰ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعٰامَ وَ يَمْشُونَ فِى الْأَسْوٰاقِ »إلخ،و ما يتلوه من الآيات فلا معنى لاعتراض حكايه تكذيبهم بالساعه بين الآيات الحاكيه لتكذيبهم بالرسول و المجيبه عنه، و هو ظاهر.

و قوله تعالى:« وَ أَعْتَدْنٰا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسّٰاعَهِ سَعِيراً »وضع الموصول و الصله مكان

الضمير الراجع للدلاله على أن الجزاء بالسعير ثابت فى حق كل من كذب بالساعه هم و غيرهم فيه سواء،و على أن سبب إعتاد السعير عليه فيهم تكذيبهم بالساعه.

و وضع الساعه ثانيا موضع ضميرها ليكون أنص و أصرح فهو المناسب لمقام التهديد،و السعير النار المشتعله الملتهبه.

قوله تعالى:« إِذٰا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكٰانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهٰا تَغَيُّظاً وَ زَفِيراً »فى المفردات،.

الغيظ أشد غضب إلى أن قال و التغيظ هو إظهار الغيظ،و قد يكون ذلك مع صوت مسموع كما قال:« سَمِعُوا لَهٰا تَغَيُّظاً وَ زَفِيراً »انتهى،و فيه أيضا: الزفير تردد النفس حتى تنتفخ الضلوع منه،انتهى.

و الآيه تمثل حال النار بالنسبه إليهم إذا برزوا لها يوم الجزاء أنها تشتد إذا ظهروا لها كالأسد يزأر إذا رأى فريسته.

قوله تعالى:« وَ إِذٰا أُلْقُوا مِنْهٰا مَكٰاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنٰالِكَ ثُبُوراً » « مَكٰاناً »منصوب بتقدير فى،و الثبور الويل و الهلاك.

و التقرين التصفيد بالأغلال و السلاسل و قيل:هو جعلهم مع قرناء الشياطين و هو بعيد من اللفظ.و المعنى و إذا ألقوا يوم الجزاء فى مكان ضيق من النار و هم مصفدون بالأغلال دعوا هنالك ثبورا لا يوصف و هو قولهم:وا ثبوراه.

قوله تعالى:« لاٰ تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وٰاحِداً وَ ادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً »الاستغاثه بالويل و الثبور نوع احتيال للتخلص من الشده و إذ كان اليوم يوم الجزاء فحسب لا ينفع فيه عمل و لا يجدى فيه سبب البته لم ينفعهم الدعاء بالثبور أصلا و لذا قال تعالى:

« لاٰ تَدْعُوا الْيَوْمَ »إلخ،فهو كنايه عن أن الثبور لا ينفعكم اليوم سواء استقللتم منه أو استكثرتم.فهو فى معنى قوله تعالى: «اصْلَوْهٰا فَاصْبِرُوا أَوْ لاٰ تَصْبِرُوا سَوٰاءٌ عَلَيْكُمْ» :

الطور:۱۶،و قوله حكايه عنهم: «سَوٰاءٌ عَلَيْنٰا أَ جَزِعْنٰا أَمْ صَبَرْنٰا مٰا لَنٰا مِنْ مَحِيصٍ» :إبراهيم:۲۱.

و قيل:المراد أن عذابكم طويل مؤبد لا ينقطع بثبور واحد بل يحتاج إلى ثبورات كثيره.و هو بعيد.

قوله تعالى:« قُلْ أَ ذٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّهُ الْخُلْدِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ -إلى قوله-

« مَسْؤُلاً »الإشاره إلى السعير بما له من الوصف،أمر نبيه ص أن يسألهم أيهما أرجح السعير أم جنه الخلد؟و السؤال سؤال فى أمر بديهى لا يتوقف فى جوابه عاقل و هو دائر فى المناظره و المخاصمه يردد الخصم بين أمرين أحدهما بديهى الصحه و الآخر بديهى البطلان فيكلف أن يختار أحدهما:فإن اختار الحق فقد اعترف بما كان ينكره، و إن اختار الباطل افتضح.

و قوله:« أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ »إضافه الجنه إلى الخلد و هو الدوام للدلاله على كونها فى نفسها خالده لا تفنى كما أن قوله بعد:« خالِدِينَ »للدلاله على أن أهلها خالدون فيها لا سبيل للفناء إليهم.

و قوله:« وُعِدَ الْمُتَّقُونَ »تقديره وعدها المتقون لأن وعد يتعدى لمفعولين و المتقون مفعول ثان ناب مناب الفاعل.

و قوله:« كانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَ مَصِيراً »أى جزاء لتقواهم و منقلبا ينقلبون إليه بما هم متقون كما قال تعالى: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَ عُيُونٍ Xإلى أن قالX- وَ ما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ» :الحجر:۴۸ و هو من الأقضيه التى قضاها يوم خلق آدم و أمر الملائكه و إبليس بالسجود له،و يتعين به جزاء المتقين و مصيرهم كما تقدم فى تفسير سوره الحجر.

و قوله:« لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ خالِدِينَ »أى إنهم يملكون فيها بتمليك من الله لهم كل ما تتعلق به مشيتهم،و لا تتعلق مشيتهم إلا بما يحبونه و يشتهونه على خلاف أهل النار كما قال تعالى فيهم: «وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ ما يَشْتَهُونَ» :سبأ:۵۴،و لا يحبون و لا يشتهون إلا ما من شأنه أن يتعلق به الحب واقعا و هو الذى يحبه الله لهم و هو ما يستحقونه من الخير و السعاده مما يستكملون به و لا يستضرون به لا هم و لا غيرهم فافهم ذلك.

و بهذا البيان يظهر أن لهم إطلاق المشيه يعطون ما شاءوا و أرادوا غير أنهم لا يشاءون إلا ما فيه رضا ربهم،و يندفع به ما استشكل على الآيات الناطقه بإطلاق المشيه كهذه الآيه أن لازم إطلاق المشيه أن يجوز لهم أن يريدوا بعض المعاصى و القبائح و الشنائع و اللغو،و أن يريدوا بعض ما يسوء سائر أهل الجنه،و أن يريدوا نجاه بعض المخلدين فى النار،و أن يريدوا مقامات الأنبياء و المخلصين من الأولياء ممن هم فوقهم درجه إلى غير ذلك.

كيف؟و قد قال تعالى: «يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِى فِى عِبَادِى وَ ادْخُلِى جَنَّتِى» :الفجر:۲۷-۳۰ فهم راضون بما رضى به الله و مرضيون لا يريدون إلا ما يرتضيه فلا يريدون معصيه و لا قبيحا و لا شنيعا و لا لغوا و لا كذابا،و لا يريدون ما لا يرتضيه غيرهم من أهل الجنه،و لا يريدون ارتفاع العذاب ممن يريد ربهم عذابه،و لا يشاءون و لا يتمنون مقام من هو أرفع درجه منهم لأن الذى خصهم بها هو ربهم و قد رضوا بما فعل و أحبوا ما أحبه.

و قوله تعالى:« كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلاً »أى كان هذا الوعد الذى وعده المتقون وعدا على ربك يجب عليه أن يفى به،و إنما أوجبه هو تعالى على نفسه حيث قضى بذلك أول يوم، و أخبر عن ذلك بمثل قوله: «وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جَنّاتِ عَدْنٍ -Xإلى أن قالX- هٰذا مٰا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسٰابِ» :-ص:۵۳.

و وجه اتصاف هذا الوعد بكونه مسئولا أن المتقين سألوا ربهم ذلك بلسان حالهم و استعدادهم،أو سألوه ذلك فى دعائم،أو الملائكه سألوا ذلك كما فيما يحكيه الله عنهم: «رَبَّنٰا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنّاتِ عَدْنٍ» Xالخ X:المؤمن:۸ أو جميع هذه الأسئله.

و ذكر الطبرسى«ره»فى الآيه أن قوله:« كٰانَتْ لَهُمْ جَزٰاءً وَ مَصِيراً »حال من ضمير الجنه المقدر فى« وُعِدَ الْمُتَّقُونَ »و أن قوله:« لَهُمْ فِيهٰا مٰا يَشٰاؤُنَ »حال من « اَلْمُتَّقُونَ »و هو أقرب إلى الذهن من قول غيره إن الجملتين استينافان فى موضع التعليل كالجواب لسؤال مقدر.

قوله تعالى:« وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَ مٰا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ »إلى آخر الآيه ضمائر الجمع الأربعه عائده إلى الكفار،و المراد بما يعبدون الملائكه و المعبودون من البشر و الأصنام إن كان« مٰا »أعم من غير أولى العقل،و إلا فالأصنام فقط.

و المشار إليهم المعنيون بقوله:« عِبٰادِى هٰؤُلاٰءِ »الكفار و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى:« قٰالُوا سُبْحٰانَكَ مٰا كٰانَ يَنْبَغِى لَنٰا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيٰاءَ » إلخ،جواب المعبودين عن قوله:« أَ أَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبٰادِى هٰؤُلاٰءِ »إلخ و قد بدءوا بالتسبيح على ما هو من أدب العبوديه فى موارد يذكر فيها شرك أهل الشرك أو ما يوهم ذلك بوجه.

و قوله:« مٰا كٰانَ يَنْبَغِی لَنٰا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيٰاءَ » أی ما صح و ما استقام لنا أن نتجاوزك إلی غيرك فنتخذ من دونك من أولياء و هم الذين عبدونا و اتخذونا أولياء من دونك،و قوله:« وَ لٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آبٰاءَهُمْ حَتّٰی نَسُوا الذِّكْرَ وَ كٰانُوا قَوْماً بُوراً » البور جمع بائر و هو الهالك و قيل:الفاسد.

لما نفی المعبودون المسئولون عن سبب ضلال عبادهم نسبه الإضلال إلی أنفسهم أخذوا فی نسبته إلی الكفار أنفسهم مع بيان السبب الذی أضلهم و هو أنهم كانوا قوما هالكين أو فاسدين و قد متعتهم و آباءهم من أمتعه الحياه الدنيا و نعمها حتی طال عليهم التمتيع امتحانا و ابتلاء فتمتعوا منها و اشتغلوا بها حتی نسوا الذكر الذی جاءت به الرسل فعدلوا عن التوحيد إلی الشرك.

فكونهم قوما هالكين أو فاسدين بسبب انكبابهم علی الدنيا و انهماكهم فی الشهوات هو السبب فی استغراقهم فی التمتع و انصراف هممهم إلی الاشتغال بالأسباب و هو السبب لنسيانهم الذكر و العدول عن التوحيد إلی الشرك.

فتبين بذلك أن قوله:« وَ كٰانُوا قَوْماً بُوراً »من تمام الجواب و أما من جعل الجمله اعتراضا تذييليا مقررا لمضمون ما قبله و استفاد منه أن السبب الأصلی فی ضلالهم أنهم كانوا بحسب ذواتهم أشقياء هالكين،و ليس ذلك إلا بقضاء حتم منه تعالی فی سابق علمه فهو المضل لهم حقيقه،و إنما نسب إلی أنفسهم أدبا.

ففيه أولا:أنه إفساد لمعنی الآيه إذ لا موجب حينئذ لإيراد الاستدراك بقوله:

« وَ لٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آبٰاءَهُمْ حَتّٰی نَسُوا الذِّكْرَ »لكونه فضلا لا حاجه إليه.

و ثانيا:أن نسبه البوار و الشقاء إلی ذوات الأشياء ينافی ما أطبق عليه العقلاء بفطرتهم من تأثير التعليم و التربيه،و الحس و التجربه يؤيدان ذلك و هو يناقض القول بالاختيار و الجبر معا،أما مناقضه القول بالاختيار فظاهر،و أما مناقضه القول بالجبر فلأن الجبری يقصر العليه فی الواجب تعالی و ينفيه عن غيره و يناقضه نسبه الاقتضاء الضروری إلی ذوات الأشياء و ماهياتها.

و ثالثا:أن فيه خلطا فی معنی القضاء من حيث متعلقه فكون القضاء حتما لا يوجب خروج الفعل الذی تعلق به من الاختيار إلی الإجبار فإن القضاء إنما تعلق

بالفعل بحدوده و هو صدوره عن اختيار الفاعل من حيث إنه صادر عن اختياره فتعلقه يوجب تأكد كونه اختياريا لا أنه يزيل عنه وصف الاختيار.

و رابعا:أن قولهم:إن المضل بالحقيقه هو الله و إنما نسبوا الضلال إلى الكفار أنفسهم تأدبا و بمثله صرحوا فى نسبه المعاصى و الأعمال القبيحه الشنيعه و الفجائع الفظيعه إلى فواعلها أنها فى عين أنها من أفعاله تعالى إنما تنسب إلى غيره تأدبا كلام متهافت فإن الأدب-كما تقدم تفصيل القول فيه فى الجزء السادس من الكتاب-هو الهيئه الحسنه التى ينبغى أن يقع عليها فعل ما،و بعباره أخرى ظرافه الفعل،و إذ كان الحق الصريح فى الفعل غير الجميل أنه فعل الله سبحانه و لا يشاركه فى فعله غيره بأى وجه فرض كانت نسبته إلى غيره تعالى نسبه باطله غير حق و كذبا و فريه لا تطابق الواقع فليت شعرى أى أدب جميل فى إماطه حق صريح و إحياء باطل؟و أى ظرافه و لطف فى الكذب و الفريه بإسناد الفعل إلى غير فاعله؟ و الله سبحانه أجل من أن يعظم بباطل أو بالستر على بعض أفعاله أو بالكذب و الفريه بإسناد بعض ما يفعله إلى غيره،و إذ كان جميلا لا يفعل إلا الجميل فما معنى التأدب بنفى بعض أفعاله عنه؟.

قوله تعالى:« فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمٰا تَقُولُونَ فَمٰا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَ لاٰ نَصْراً »إلى آخر الآيه،كلام له تعالى يلقيه إلى المشركين بعد براءه المعبودين منهم،و أما كلام المعبودين فقد تم فى قوله:« وَ كٰانُوا قَوْماً بُوراً ».

و المعنى:فقد كذبكم المعبودون بما تقولون فى حقهم إنهم آلهه من دون الله يصرفون عن عبدتهم السوء و ينصرونهم،و إذ كذبوكم و نفوا عن أنفسهم الألوهيه و الولايه فلا تستطيعون أنتم أيها العبده أن تصرفوا عن أنفسكم العذاب بسبب عبادتهم،و لا تستطيعون نصرا لأنفسكم بسببهم.

و الترديد بين الصرف و النصر كأنه باعتبار استقلال المعبودين فى دفع العذاب عنهم و هو الصرف.و عدم استقلالهم بأن يكونوا جزء السبب و هو النصر.

و قرأ غير عاصم من طريق حفص« يستطيعون »بالياء المثناه من تحت و هى قراءه حسنه ملائمه لمقتضى السياق،و المعنى:فقد كذبكم المعبودون بما تقولون إنهم

آلهه يصرفون عنكم السوء أو ينصرونكم و يتفرع على ذلك أنهم لا يستطيعون لكم صرفا و لا نصرا.

و قوله:« وَ مَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذٰاباً كَبِيراً »المراد بالظلم مطلق الظلم و المعصيه و إن كان مورد الآيات السابقه خصوص الظلم الذى هو الشرک،فقوله:« وَ مَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ »إلخ،من قبيل وضع القانون العام موضع الحكم الخاص،و لو كان المراد به الحكم الخاص بهم لكان من حق الكلام أن يقال:«و نذيقكم بما ظلمتم عذابا كثيرا لأنهم كلهم ظالمون ظلم الشرک.

و النكته فيه الإشاره إلى أن الحكم الإلهى نافذ جار لا مانع منه و لا معقب له كأنه قيل:و إن كذبكم المعبودون و ما استطاعوا صرفا و لا نصرا فالحكم العام الإلهى«من يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا على نفوذه و جريانه لا مانع منه و لا معقب له فأنتم ذائقون العذاب البته.

قوله تعالى:« وَ مٰا أَرْسَلْنٰا قَبْلَکَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاّٰ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعٰامَ وَ يَمْشُونَ فِى الْأَسْوٰاقِ »إلى آخر الآيه.أجاب تعالى عن قولهم:« مٰا لِهٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعٰامَ وَ يَمْشِى فِى الْأَسْوٰاقِ »إلخ،أولا بقوله:« تَبٰارَکَ الَّذِى إِنْ شٰاءَ جَعَلَ لَکَ خَيْراً مِنْ ذٰلِکَ »إلخ،مع ما يلحقه من قوله:« بَلْ كَذَّبُوا بِالسّٰاعَهِ »إلخ،و هذا جواب ثان محصله أن هذا الرسول ليس بأول رسول أرسل إلى الناس بل أرسل الله قبله جما غفيرا من المرسلين و قد كانوا على العاده البشريه الجاريه بين الناس يأكلون الطعام و يمشون فى الأسواق و لم يخلق لهم جنه يأكلون منها و لا ألقى إليهم كنز و لا أنزل معهم ملک، و هذا الرسول إنما هو كأحدهم و لم يأت بأمر بدع حتى يتوقع منه ما لا يتوقع من غيره.

فالآيه فى معنى قوله: «قُلْ مٰا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَ مٰا أَدْرِى مٰا يُفْعَلُ بِى وَ لاٰ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ» :الأحقاف:۹،و قريبه المعنى من قوله: «قُلْ إِنَّمٰا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰ إِلَيَّ» :الكهف:۱۱۰.

فإن قيل:هذا فى الحقيقه دفع للاعتراض عنه(ص)خاصه و توجيهه إلى عامه

الرسل فلهم أن يعترضوا على عامه الرسل كما وجهه سابقوهم و قد حكى الله عنهم ذلك قال: فَقالُوا أَ بَشَرٌ يَهْدُونَنا :التغابن:۶،و قال: «قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُنا» :إبراهيم:١٠،و قال: «ما هٰذا إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمّا تَشْرَبُونَ» :المؤمنون:٣٣.

قلنا:الجواب مطابق للاعتراض فإن قولهم:« ما لِهٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ »إلخ، يعطى الخصوصيه بلا إشكال و أما تعميم الاعتراض لو عمم فيدفعه قوله تعالى:« بَلْ كَذَّبُوا بِالسّاعَهِ »إلخ،و قوله قبل ذلك:« قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِی یَعْلَمُ السِّرَّ »إلخ،على ما تقدم من التقرير.

و من عجيب القول ما عن بعض المفسرين أن الآيه تسليه للنبى ص كأنه قيل:

إن الرسل من قبلك كانوا على الحال التى أنت عليها فلك فيهم أسوه حسنه،و أما كونه جوابا عن تعنتهم فالنظم لا يساعد عليه إذ قد أجيب عنه بقوله:« اُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ »هذا و هو خطأ.

و قوله تعالى:« وَ جَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَهً أَ تَصْبِرُونَ »متمم للجواب السابق بمنزله التعليل لكون الرسل كسائر الناس فى الخواص البشريه من غير أن تتميز حياتهم أو دعوتهم بخواص سماويه تورث القطع بكونهم حاملين للرساله الإلهيه كإنزال ملك عليهم أو إلقاء كنز إليهم أو خلق جنه لهم فكأنه قيل:و السبب فى كون الرسل جارين فى حياتهم على ما يجرى عليه الناس أنا جعلنا بعض الناس لبعض فتنه يمتحنون بها فالرسل فتنه لسائر الناس يمتحنون بهم فيتميز بهم أهل الريب من أهل الإيمان و المتبعون للأهواء الذين لا يصبرون على مر الحق من طلاب الحق الصابرين فى طاعه الله و سلوك سبيله.

و بما مر يتبين أولا:أن المراد بالصبر هو الصبر بأقسامه و هى الصبر على طاعه الله،و الصبر عن معصيته،و الصبر عند المصائب.

و ثانيا:أن قوله:« وَ جَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَهً »من وضع الحكم العام موضع الخاص،و المطلوب الإشاره إلى جعل الرسل-و حالهم هذه الحال-فتنه لسائر الناس.

و قوله تعالى:« وَ كانَ رَبُّكَ بَصِيراً »أى عالما بالصواب فى الأمور فيضع كل أمر

فی الموضع المناسب له و یجری بذلک أتم النظام فهدف النظام الإنسانی کمال کل فرد بقطعه طریق السعاده أو الشقاوه علی حسب ما یستعد له و یستحقه و لازمه بسط نظام الامتحان بینهم و لازمه ارتفاع التمایز بین الرسل و غیرهم.

و فی الجمله التفات من التکلم مع الغیر إلی الغیبه،و النکته فیه نظیره ما فی قوله السابق:« تَبٰارَکَ الَّذِی إِنْ شٰاءَ »إلخ.

(بحث روائی)

فی الدر المنثور،أخرج ابن إسحاق و ابن جریر و ابن المنذر عن ابن عباس: أن عتبه و شیبه ابنی ربیعه و أبا سفیان بن حرب-و النضر بن الحارث و أبا البختری و الأسود بن المطلب-و زمعه بن الأسود و الولید بن المغیره-و أبا جهل بن هشام و عبد الله بن أمیه و أمیه بن خلف-و العاصی بن وائل و نبیه بن الحجاج-اجتمعوا فقال بعضهم لبعض:ابعثوا إلی محمد فکلموه و خاصموه حتی تعذروا منه،فبعثوا إلیه أن أشراف قومک قد اجتمعوا لک لیکلموک.

قال:فجاءهم رسول الله ص فقالوا له:یا محمد إنا بعثنا إلیک لنعذر منک-فإن کنت إنما جئت بهذا الحدیث تطلب به مالا-جمعنا لک من أموالنا،و إن کنت تطلب الشرف فنحن نسودک،و إن کنت تطلب ملکا ملکناک.

فقال رسول الله ص:ما بی مما تقولون-ما جئتکم بما جئتکم به أطلب أموالکم، و لا الشرف فیکم،و لا الملک علیکم-و لکن الله بعثنی إلیکم رسولا،و أنزل علی کتابا، و أمرنی أن أکون لکم بشیرا و نذیرا-فبلغتکم رساله ربی و نصحت لکم-فإن تقبلوا منی ما جئتکم به-فهو حظکم فی الدنیا و الآخره-و إن تردوه علی أصبر لأمر الله-حتی یحکم الله بینی و بینکم.

قالوا:یا محمد فإن کنت غیر قابل منا-شیئا عرضناه علیک فسل لنفسک-و سل ربک أن یبعث معک ملکا-یصدقک بما تقول و یراجعنا عنک-و سله أن یجعل لک جنانا و قصورا من ذهب و فضه-یغنیک عما تبتغی فإنک تقوم بالأسواق-و تلتمس المعاش کما نلتمسه-حتی نعرف فضلک و منزلتک من ربک-إن کنت رسولا کما تزعم.

فقال لهم رسول الله ص:ما أنا بفاعل-ما أنا بالذى يسأل ربه هذا،و ما بعثت إليكم بهذا و لكن الله بعثنى بشيرا و نذيرا.

فأنزل الله فى قولهم ذلک« وَ قالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ »-إلى قوله- وَ جَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَ تَصْبِرُونَ وَ كانَ رَبُّكَ بَصِيراً »أى جعلت بعضكم لبعض بلاء لتصبروا،و لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسولى-فلا تخالفوه لفعلت.

و فيه،أخرج الطبرانى و ابن مردويه من طريق مكحول عن أبى أمامه قال:قال رسول الله ص: من كذب علی متعمدا فليتبوأ مقعدا من بين عينى جهنم.قالوا:يا رسول الله و هل لجهنم من عين؟قال:أ ما سمعتم الله يقول:« إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ » فهل تراهم إلا بعينين؟:

أقول:و رواه أيضا عن رجل من الصحابه ،و فى حجه الخبر خفاء.

و فيه،أخرج ابن أبى حاتم عن يحيى بن أبى أسيد: أن رسول الله ص سئل عن قول الله:« وَ إِذا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ »قال:و الذى نفسى بيده إنهم ليستكرهون فى النار-كما يستكره الوتد فى الحائط.

[سوره الفرقان (۲۵): الآيات ۲۱ الی ۳۱]

اشاره

وَ قالَ اَلَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا اَلْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا لَقَدِ اِسْتَكْبَرُوا فِی أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً (۲۱) يَوْمَ يَرَوْنَ اَلْمَلائِكَةَ لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَ يَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً (۲۲) وَ قَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً (۲۳) أَصْحابُ اَلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِيلاً (۲۴) وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ اَلسَّماءُ بِالْغَمامِ وَ نُزِّلَ اَلْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً (۲۵) اَلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ اَلْحَقُّ لِلرَّحْمنِ وَ كانَ يَوْماً عَلَى اَلْكافِرِينَ عَسِيراً (۲۶) وَ يَوْمَ يَعَضُّ اَلظّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِی اِتَّخَذْتُ مَعَ اَلرَّسُولِ سَبِيلاً (۲۷) يا وَيْلَتى لَيْتَنِی لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً (۲۸) لَقَدْ أَضَلَّنِی عَنِ اَلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِی وَ كانَ اَلشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولاً (۲۹) وَ قالَ اَلرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِی اِتَّخَذُوا هذَا اَلْقُرْآنَ مَهْجُوراً (۳۰) وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ اَلْمُجْرِمِينَ وَ كَفى بِرَبِّكَ هادِياً وَ نَصِيراً (۳۱)

ص: ۱۹۶

(بیان)

تحکی الآیات اعتراضا آخر من المشرکین علی رساله الرسول یردون به علیه محصله أنه لو جاز أن یکون من البشر بما هو بشر رسول تنزل علیه الملائکه بالوحی من الله سبحانه أو یراه تعالی فیکلمه وحیا لکان الرسول و سائر البشر سواء فی هذه الخصیصه فإن کان ما یدعیه من الرساله حقا لکنا أو کان البعض منا یری ما یدعی رؤیته و یجد من نفسه ما یجده.

و هذا الاعتراض مما سبقهم إلیه أمم الأنبیاء الماضین کما حکاه الله: «قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُنا» :إبراهیم:۱۰،و قد مر تقریبه مرارا.

و هذا مع ما تقدم من اعتراضهم بقولهم:« مٰا لِهٰذَا الرَّسُولِ یَأْکُلُ الطَّعٰامَ »إلخ، بمنزله حجه واحده تلزم الخصم بأحد محذورین و محصل تقریره أن الرساله التی یدعیها هذا الرسول إن کانت موهبه سماویه و اتصالا غیبیا لا حظ فیها للبشر بما هو بشر فلینزل إلیه ملک فیکون معه نذیرا أو یلقی إلیه کنز أو یجعل له جنه یأکل منها، و إن کانت خاصه من شأن البشر بما هو بشر أن ینالها یتصف بها فما بالنا لا نجدها فی أنفسنا؟فلو لا أنزل علینا الملائکه أو نری ربنا.

و قد أجاب الله سبحانه عن الشق الأول بما تقدم تقریره،و عن الثانی بأنهم سیرون الملائکه لکن فی نشأه غیر هذه النشأه الدنیویه،و الجواب فی معنی قوله: «مٰا

ص :۱۹۷

نُنَزِّلُ الْمَلاٰئِكَهَ إِلاّ بِالْحَقِّ وَ مٰا كٰانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ» :الحجر:۸ و سيجیء تقريره،و فی الآيات إشاره إلی ما بعد الموت و يوم القيامه.

قوله تعالی:« وَ قٰالَ الَّذِينَ لاٰ يَرْجُونَ لِقٰاءَنٰا لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاٰئِكَهُ أَوْ نَرىٰ رَبَّنٰا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِی أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً »قال فی مجمع البيان:،الرجاء ترقب الخير الذی يقوی فی النفس وقوعه و مثله الطمع و الأمل،و اللقاء المصير إلی الشیء من غير حائل،و العتو الخروج إلی أفحش الظلم.انتهی.

المراد باللقاء الرجوع إلی الله يوم القيامه سمی به لبروزهم إليه تعالی بحيث لا يبقی فی البين حائل جهل أو غفله لظهور العظمه الإلهيه كما قال تعالی:« وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ».

فالمراد بعدم رجائهم اللقاء إنكارهم للمعاد و تكذيبهم بالساعه و لم يعبر عنه بتكذيب الساعه و نحوه كما عبر فی الآيات السابقه لمكان ذكرهم مشاهده الملائكه و رؤيه الرب تعالی و تقدس ففيه إشاره إلی أنهم إنما قالوا ما قالوا و طلبوا إنزال الملائكه أو رؤيه الرب ليأسهم من اللقاء و زعمهم استحاله ذلك فقد ألزموا بما هو مستحيل علی زعمهم.

فقولهم:« لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاٰئِكَهُ أَوْ نَرىٰ رَبَّنٰا »اعتراض منهم علی رساله الرسول أوردوه فی صوره التحضيض كقولهم فی موضع آخر: «لَوْ مٰا تَأْتِينٰا بِالْمَلاٰئِكَهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰادِقِينَ» :الحجر:۷،و تقرير الحجه كما تقدمت الإشاره إليه أنه لو كانت الرساله-و هی نزول الملائكه بالوحی أو تكليمه تعالی البشر بالمشافهه-مما يتيسر للبشر نيله و نحن بشر أمثال هذا المدعی للرساله فما بالنا لا ينزل علينا الملائكه و لا نری ربنا؟فهلا أنزل علينا الملائكه أو نری ربنا.

و يؤيد ما ذكرناه من التقرير إطلاق إنزال الملائكه و رؤيه الرب من غير أن يقولوا:لو لا أنزل علينا الملائكه فيصدقوك أو نری ربنا فيصدقك.علی أنهم ذكروا فی اعتراضهم السابق نزول الملك ليكون معه نذيرا و فيه تصديقه.

و فی التعبير عنه تعالی بلفظ ربنا نوع تهكم منهم فإن المشركين ما كانوا يرونه تعالی ربا لهم بل كان عندهم أن أربابهم ما كانوا يعبدونهم و الله سبحانه رب الأرباب

فكأنهم قالوا للنبى ص:إنک ترى أن الله ربک و قد حن إليک فخصک بالمشافهه و التكليم،و أنه ربنا،فليحن إلينا و ليشافهنا بالرؤيه كما فعل بک.

على أنهم إنما عدلوا عن عباده أرباب الأصنام و هم الملائكه و روحانيات الكواكب و نحوهم إلى عباده الأصنام و التماثيل لتكون محسوسه غير غائبه عن المشاهده عند العباده و التقرب بالقرابين.

و قوله تعالى:« لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً »أى أقسم لقد طلبوا الكبر لأنفسهم بغير حق و طغوا طغيانا عظيما.

قوله تعالى:« يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلاٰئِكَةَ لاٰ بُشْرىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَ يَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً »فى المفردات:،الحجر الممنوع منه بتحريمه قال تعالى:« وَ قٰالُوا هٰذِهِ أَنْعٰامٌ وَ حَرْثٌ حِجْرٌ »« وَ يَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً »كان الرجل إذا لقى من يخاف يقول ذلك فذكر تعالى أن الكفار إذا رأوا الملائكه قالوا ذلک ظنا إن ذلک ينفعهم.انتهى.

و عن الخليل كان الرجل يرى الرجل الذى يخاف منه القتل فى الجاهليه فى الأشهر الحرم فيقول:حجرا محجورا أى حرام عليك التعرض لى فى هذا الشهر فلا يبدؤه بشر و عن أبى عبيده:هى عوذه للعرب يقولها من يخاف آخر فى الحرم أو فى شهر حرام إذا لقيه و بينهما تره.

فقوله:« يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلاٰئِكَةَ لاٰ بُشْرىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ »« يَوْمَ »على ما قيل ظرف لقوله:« لاٰ بُشْرىٰ »و قوله:« يَوْمَئِذٍ »تأكيد له،و المراد بقوله:« لاٰ بُشْرىٰ » نفى للجنس،و المراد بالمجرمين كل متصف بالإجرام غير أن مورد الكلام إجرام الشرک و المجرمون هم الذين لا يرجون اللقاء،و قد تقدم ذكرهم و المعنى:يوم يرى هؤلاء الذين لا يرجون لقاءنا الملائكه لا بشرى-على طريق نفى الجنس-يومئذ للمجرمين و هم منهم.

و قوله:« وَ يَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً »فاعل يقولون هم المشركون أى يقول المشركون يومئذ للملائكه و هم قاصدوهم بالعذاب:حجرا محجورا أى لنكن فى معاذ منكم،و قيل:ضمير الجمع للملائكه،و المعنى:و يقول الملائكه للمشركين حراما محرما عليكم سماع البشرى،أو حراما محرما عليكم أن تدخلوا الجنه أو حراما محرما

عليكم أن تتعوذوا من العذاب إلى شىء فلا معاذ لكم هذا،و المعنى:الأول أقرب إلى السياق.

و الآيه فى موضع الجواب عن قولهم:« لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاٰئِكَةُ »و قد أعرضت عن جواب قولهم:« أَوْ نَرىٰ رَبَّنٰا »فإن الرؤيه التى كانوا يقصدونها بقولهم هى الرؤيه البصريه التى تستلزم التجسم و الماديه تعالى عن ذلك،و أما الرؤيه بعين اليقين و هى الرؤيه القلبيه فلم يكونوا ممن يفقه ذلك و على تقديره ما كانوا يقصدونه.

و أما توضيح الجواب عن أمر إنزال الملائكه و رؤيتهم فقد أخذ أصل الرؤيه مفروغا منه مسلما أن هناك يوما يرون فيه الملائكه غير أنه وضع الإخبار عن وصفهم يوم الرؤيه موضع الإخبار عن أصل رؤيتهم للإشاره إلى أن طلبهم لرؤيه الملائكه ليس يجرى على نفعهم فإنهم لا يرون الملائكه إلا يوم يشافهون عذاب النار و ذلك بعد تبدل النشأه الدنيويه من النشأه الأخرى كما أشار إليه فى موضع آخر بقوله: «مٰا نُنَزِّلُ الْمَلاٰئِكَةَ إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ مٰا كٰانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ» :الحجر:٨،فهم فى مسألتهم هذه يستعجلون بالعذاب و هم يحسبون أنهم يعجزون الله و رسوله بالحجه.

و أما ما هو هذا اليوم الذى أشير إليه بقوله:« يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلاٰئِكَةَ »فقد ذكر المفسرون أنه يوم القيامه لكن الذى يعطيه السياق مع ما ينضم إليه من الآيات الواصفه ليوم الموت و ما بعده كقوله: «وَ لَوْ تَرىٰ إِذِ الظّٰالِمُونَ فِى غَمَرٰاتِ الْمَوْتِ وَ الْمَلاٰئِكَةُ بٰاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذٰابَ الْهُونِ»، XالآيهX:الأنعام:٩٣، و قوله: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفّٰاهُمُ الْمَلاٰئِكَةُ ظٰالِمِى أَنْفُسِهِمْ قٰالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قٰالُوا كُنّٰا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الْأَرْضِ قٰالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّٰهِ وٰاسِعَةً فَتُهٰاجِرُوا فِيهٰا» :النساء:٩٧ إلى غير ذلك من الآيات.

أن المراد به الموت و هو المسمى فى عرف القرآن برزخا فإن فى الآيات دلاله قاطعه على أنهم يرون الملائكه و يشافهونهم بعد الموت قبل يوم القيامه،و المتعين-على ما يقتضيه طبع المخاصمه-فى جواب من يجحد رؤيه الملائكه أن يذكر له أول يوم يراهم بما يسوؤه و هو يوم الموت لا أن يخاصم بذكر رؤيتهم يوم القيامه و قوله لهم:

حجرا محجورا،و قد رآهم قبل ذلك و عذب بأيديهم أمدا بعيدا و هو ظاهر.

فالظاهر أن الآیه و الآیتین التالیتین ناظره إلی حالهم فی البرزخ تصف رؤیتهم للملائکه فیه،و إحباط أعمالهم فیه،و حال أهل الجنه التی فیه.

قوله تعالی:« وَ قَدِمْنا إِلیٰ مٰا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنٰاهُ هَبٰاءً مَنْثُوراً »قال الراغب فی المفردات:، العمل کل فعل یکون من الحیوان بقصد فهو أخص من الفعل لأن الفعل قد ینسب إلی الحیوانات التی یقع منها فعل بغیر قصد و قد ینسب إلی الجمادات، و العمل قلما ینسب إلی ذلک،و لم یستعمل العمل فی الحیوانات إلا فی قولهم:البقر العوامل.انتهی.

و قال: الهباء دقاق التراب و ما انبث فی الهواء فلا یبدو إلا فی أثناء ضوء الشمس فی الکوه.انتهی.و النثر التفریق.

و المعنی:و أقبلنا إلی کل عمل عملوه-و العمل هو الذی یعیش به الإنسان بعد الموت-ففرقناه تفریقا لا ینتفعون به کالهباء المنثور، و الکلام مبنی علی التمثیل مثل به استیلاء القهر الإلهی علی جمیع أعمالهم التی عملوها لسعاده الحیاه و إبطالها بحیث لا یؤثر فی سعاده حیاتهم المؤبده شیئا بتشبیهه بسلطان غلب عدوه فحل داره بعد ما ظهر علیه فخرب الدار و هدم الآثار و أحرق المتاع و الأثاث فأفنی منه کل عین و أثر.

و لا منافاه بین ما تدل علیه الآیه من حبط الأعمال یومئذ و بین ما تدل علیه آیات أخر أن أعمالهم أحبطت حینما عملوها فی الدنیا بکفرهم و إجرامهم فإن معنی الإحباط بعد الموت ظهور الحبط لهم بعد ما کان خفیا فی الدنیا علیهم و قد تقدم کلام مشبع فی معنی الحبط فی الجزء الثانی من الکتاب فراجع.

قوله تعالی:« أَصْحٰابُ الْجَنَّهِ یَوْمَئِذٍ خَیْرٌ مُسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِیلاً »المراد بأصحاب الجنه المتقون فقد تقدم قوله قبل آیات:« قُلْ أَ ذٰلِکَ خَیْرٌ أَمْ جَنَّهُ الْخُلْدِ الَّتِی وُعِدَ الْمُتَّقُونَ »،و المستقر و المقیل اسما مکان من الاستقرار و معناه ظاهر و من القیلوله و هی الاستراحه فی منتصف النهار سواء کان معها نوم أم لا-علی ما قیل-و الجنه لا نوم فیه.

و کلمتا« خَیْرٌ »و« أَحْسَنُ »منسلخان عن معنی التفضیل کما فی قوله تعالی:

«وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَیْهِ» :الروم:۲۷،و قوله: «مٰا عِنْدَ اللّٰهِ خَیْرٌ مِنَ اللَّهْوِ» :الجمعه:۱۱ کذا قیل،و لیس یبعد أن یقال:إن«أفعل»أو ما هو فی معناه کخیر بناء علی ما

رجحنا أنه صفه مشبهه تدل على التفضيل بمادته لا بهيئته فى مثل هذه الموارد غير منسلخ عن معنى التفضيل و العنايه فى ذلك أنهم لما اختاروا الشرک و الاجرام و استحسنوا ذلک و لازمه النار فى الآخره فقد أثبتوا لها خيريه و حسنا فقوبلوا بأن الجنه و ما فيها خير و أحسن حتى على لازم قولهم فعليهم أن يختاروها على النار و أن يختاروا الإيمان على الكفر على أى حال،و قيل:إن التفضيل مبنى على التهكم.

قوله تعالى:« وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمٰاءُ بِالْغَمٰامِ وَ نُزِّلَ الْمَلاٰئِكَةُ تَنْزِيلاً »الظاهر أن الظرف منصوب بفعل مقدر،و المعنى و اذكر يوم كذا و كذا فإنهم يرون الملائكه فيه أيضا و هذا اليوم هو يوم القيامه بدليل قوله بعد:« اَلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمٰنِ »، و قيل فى متعلق الظرف وجوه أخر لا فائده فى نقلها.

و« تَشَقَّقُ »أصله تتشقق من باب التفعل من الشق بمعنى الخرم و التشقق التفتح، و الغمام السحاب سمى به لستره ضوء الشمس مأخوذ من الغم بمعنى الستر.

و الباء فى قوله:« تَشَقَّقُ السَّمٰاءُ بِالْغَمٰامِ »إما للملابسه و المعنى تتفتح السماء متلبسه بالغمام أى متغيمه،و إما بمعنى عن و المعنى تتفتح عن الغمام أى من قبل الغمام أو تشققه.

و كيف كان فظاهر الآيه أن السماء تنشق يوم القيامه بما عليها من الغمام الساتر لها و نزل منها الملائكه الذين هم سكانها فيشاهدونهم فالآيه قريبه المعنى من قوله فى موضع آخر: «وَ انْشَقَّتِ السَّمٰاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وٰاهِيَةٌ وَ الْمَلَكُ عَلىٰ أَرْجٰائِهٰا» :الحاقه:١٧.

و ليس من البعيد أن يكون الكلام كنايه عن انكشاف غمه الجهل و بروز عالم السماء و هو من الغيب و بروز سكانها و هم الملائكه و نزولهم إلى العالم الأرضى موطن الإنسان.

و قيل:المراد أن السماء يشقها الغمام و هو الذى يذكره فى قوله: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّٰ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللّٰهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمٰامِ وَ الْمَلاٰئِكَةُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ إِلَى اللّٰهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» :البقره:٢١٠،و قد مر كلام فى تفسير الآيه.

و التعبير عن الواقعه بالتشقق دون التفتح و ما يماثله للتهويل،و كذا التنوين فى قوله:« تَنْزِيلاً »للدلاله على التفخيم.

قوله تعالى:« اَلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمٰنِ وَ كٰانَ يَوْماً عَلَى الْكٰافِرِينَ عَسِيراً »أى

الملک المطلق یومئذ حق ثابت للرحمن و ذلک لبطلان الأسباب و زوال ما بینها و بین مسبباتها من الروابط المتنوعه،و قد تقدم غیر مره أن المراد بذلک فی یوم القیامه هو ظهور أن الملک و الحکم لله و الأمر إلیه وحده،و أن لا استقلال فی شیء من الأسباب علی خلاف ما کان یتراءی من ظاهر حالها فی نشأه الدنیا قبل قیام الساعه و رجوع کل شیء إلیه تعالی.

و قوله:« وَ کٰانَ یَوْماً عَلَی الْکٰافِرِینَ عَسِیراً »الوجه فیه رکونهم إلی ظواهر الأسباب و إخلادهم إلی الحیاه الأرضیه البائده الداثره و انقطاعهم عن السبب الحقیقی الذی هو مالک الملک بالحقیقه و عن حیاتهم الباقیه المؤبده فیصبحون الیوم و لا ملاذ لهم و لا معاذ.

فعلی هذا یکون الملک مبتدأ و الحق خبره عرف لإفاده الحصر،و یومئذ ظرف لثبوت الخبر للمبتدإ،و فائده التقیید الدلاله علی ظهور حقیقه الأمر یومئذ فإن حقیقه الملک لله سبحانه دائما،و إنما یختلف یوم القیامه مع غیره بزوال الملک الصوری عن الأشیاء فیه و ثبوته لها فی غیره.

و قال بعضهم:الملک بمعنی المالکیه و یومئذ متعلق به و الحق خبر الملک،و قیل:

یومئذ متعلق بمحذوف هو صفه للحق،و قیل:المراد بیومئذ هو یوم الله،و قیل:

یومئذ هو الخبر للملک و الحق صفه للمبتدإ،و هذه أقوال ردیه لا جدوی لها.

قوله تعالی:« وَ یَوْمَ یَعَضُّ الظّٰالِمُ عَلیٰ یَدَیْهِ یَقُولُ یٰا لَیْتَنِی اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِیلاً »قال الراغب فی المفردات:، العض أزم بالأسنان،قال تعالی:« عَضُّوا عَلَیْکُمُ الْأَنٰامِلَ »و« وَ یَوْمَ یَعَضُّ الظّٰالِمُ »و ذلک عباره عن الندم لما جری به عاده الناس أن یفعلوه عند ذلک.انتهی.و لذلک یتمنی عنده ما فات من واجب العمل کما حکی الله تعالی عنهم قولهم:« یٰا وَیْلَتیٰ لَیْتَنِی لَمْ أَتَّخِذْ فُلاٰناً خَلِیلاً ».

و الظاهر أن المراد بالظالم جنسه و هو کل من لم یهتد بهدی الرسول،و کذا المراد بالرسول جنسه و إن انطبق الظالم بحسب المورد علی ظالمی هذه الأمه و الرسول علی محمد ص.

و المعنی:و اذکر یوم یندم الظالم ندما شدیدا قائلا من فرط ندمه یا لیتنی اتخذت مع الرسول سبیلا ما إلی الهدی أی سبیل کانت.

قوله تعالی:« یٰا وَیْلَتیٰ لَیْتَنِی لَمْ أَتَّخِذْ فُلاٰناً خَلِیلاً »تتمه تمنی الظالم النادم علی ظلمه،و فلان کنایه عن العلم المذکر و فلانه عن العلم المؤنث قال الراغب:فلان و فلانه کنایتان عن الإنسان و الفلان و الفلانه-باللام-کنایتان عن الحیوانات.انتهی.

و المعنی:یا ویلتی-یا هلاکی- لیتنی لم أتخذ فلانا-و هو من اتخذه صدیقا یشاوره و یسمع منه و یقلده-خلیلا.

و ذکر بعضهم:أن فلانا فی الآیه کنایه عن الشیطان،و کأنه نظرا إلی ما فی الآیه التالیه من حدیث خذلان الشیطان للإنسان غیر أن السیاق لا یساعد علیه.

و من لطیف التعبیر قوله فی الآیه السابقه:« یٰا لَیْتَنِی اتَّخَذْتُ »إلخ و فی هذه الآیه:« یٰا وَیْلَتیٰ لَیْتَنِی لَمْ أَتَّخِذْ »إلخ فإن فی ذلک تدرجا لطیفا فی النداء و الاستغاثه فحذف المنادی فی الآیه السابقه یلوح إلی أنه یرید أی منج ینجیه مما هو فیه من الشقاء و ذکر الویل بعد ذلک-فی هذه الآیه یدل علی أنه بان له أن لا یخلصه من العذاب شیء قط إلا الهلاک و الفناء،و لذلک نادی الویل.

قوله تعالی:« لَقَدْ أَضَلَّنِی عَنِ الذِّکْرِ بَعْدَ إِذْ جٰاءَنِی وَ کٰانَ الشَّیْطٰانُ لِلْإِنْسٰانِ خَذُولاً »تعلیل للتمنی السابق و المراد بالذکر مطلق ما جاءت به الرسل أو خصوص الکتب السماویه و ینطبق بحسب المورد علی القرآن.

و قوله:« وَ کٰانَ الشَّیْطٰانُ لِلْإِنْسٰانِ خَذُولاً »من کلامه تعالی و یمکن أن یکون تتمه لکلام الظالم ذکره تأسفا و تحسرا.

و الخذلان بضم الخاء ترک من یظن به أن ینصر نصرته،و خذلانه أنه یعد الإنسان أن ینصره علی کل مکروه إن تمسک بالأسباب و نسی ربه فلما تقطعت الأسباب بظهور القهر الإلهی یوم الموت جزئیا و یوم القیامه کلیا خذله و سلمه إلی الشقاء،قال تعالی:

«کَمَثَلِ الشَّیْطٰانِ إِذْ قٰالَ لِلْإِنْسٰانِ اکْفُرْ فَلَمّٰا کَفَرَ قٰالَ إِنِّی بَرِیءٌ مِنْکَ» :الحشر:۱۶ و قال فیما یحکی عن الشیطان یوم القیامه: «مٰا أَنَا بِمُصْرِخِکُمْ وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِیَّ إِنِّی کَفَرْتُ بِمٰا أَشْرَکْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ» :إبراهیم:۲۲.

و فی هذه الآیات الثلاث إشعار بل دلاله علی أن السبب العمده فی ضلال أهل الضلال ولایه أهل الأهواء و أولیاء الشیطان،و المشاهده یؤید ذلک.

قوله تعالى:« وَ قٰالَ الرَّسُولُ يٰا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً » المراد بالرسول محمد ص بقرينه ذكر القرآن،و عبر عنه بالرسول تسجيلا لرسالته و إرغاما لأولئك القادحين فى رسالته و كتابه و الهجر بالفتح فالسكون الترك.

و ظاهر السياق أن قوله:« وَ قٰالَ الرَّسُولُ »إلخ معطوف على« يَعَضُّ الظّٰالِمُ » و القول مما يقوله الرسول يوم القيامه لربه على طريق البث و الشكوى و على هذا فالتعبير بالماضى بعنايه تحقق الوقوع و المراد بالقوم عامه العرب بل عامه الأمه باعتبار كفرتهم و عصاتهم.

و أما كونه استئنافا أو عطفا على قوله:« وَ قٰالَ الَّذِينَ لاٰ يَرْجُونَ لِقٰاءَنٰا »و كون ما وقع بينهما اعتراضا فبعيد من السياق و عليه فلفظه قال على ظاهر معناها و المراد بالقوم هم القادحون فى رسالته الطاعنون فى كتابه.

و نظيره فى الضعف قول بعضهم:إن المهجور من الهجر بمعنى:الهذيان.

و هو ظاهر.

قوله تعالى:« وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَ كَفىٰ بِرَبِّكَ هٰادِياً وَ نَصِيراً »أى كما جعلنا هؤلاء المجرمين عدوا لك كذلك جعلنا لكل نبى عدوا منهم أى هذه من سنتنا الجاريه فى الأنبياء و أممهم فلا يسوأنك ما تلقى من عداوتهم و لا يشقن عليك ذلك،ففيه تسليه للنبى ص.

و معنى:جعل العدو من المجرمين أن الله جازاهم على معاصيهم بالختم على قلوبهم فعاندوا الحق و أبغضوا الداعى إليه و هو النبى فلعداوتهم نسبه إليه تعالى بالمجازاه.

و قوله:« وَ كَفىٰ بِرَبِّكَ هٰادِياً وَ نَصِيراً »معناه-على ما يعطيه السياق- لا يهولنك أمر عنادهم و عداوتهم و لا تخافنهم على اهتداء الناس و نفوذ دينك فيهم و بينهم فحسبك ربك كفى به هاديا يهدى من استحق من الناس الهدايه و استعد له و إن كفر هؤلاء و عتوا فليس اهتداء الناس منوطا باهتدائهم و كفى به نصيرا ينصرك و ينصر دينك الذى بعثك به و إن هجره هؤلاء و لم ينصروك و لا دينك فالجمله مسوقه لإظهار الاستغناء عنهم.

فظهر أن صدر الآيه مسوق لتسلى النبى ص و ذيله للاستغناء عن المجرمين من

قومه،و فی قوله:« وَ كَفىٰ بِرَبِّكَ »حیث أخذ بصفه الربوبیه:مضافه إلی ضمیر الخطاب و لم یقل:و کفی بالله تأیید له.

(بحث روائی)

فی تفسیر البرهان،عن کتاب الجنه و النار بإسناده عن جابر بن یزید الجعفی عن أبی جعفر(ع): فی حدیث یذکر فیه قبض روح الکافر قال:فإذا بلغت الحلقوم ضربت الملائکه وجهه و دبره و قیل:« أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذٰابَ الْهُونِ بِمٰا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّٰهِ غَيْرَ الْحَقِّ-وَ كُنْتُمْ عَنْ آيٰاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ »و ذلک قوله:« يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلاٰئِكَةَ لاٰ بُشْرىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ-وَ يَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً »فیقولون حراما علیکم الجنه محرما.

(۱)

و فی الدر المنثور،أخرج عبد الرزاق و الفاریابی و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن علی بن أبی طالب قال: الهباء ریح الغبار یسطع ثم یذهب فلا یبقی منه شیء-فجعل الله أعمالهم کذلک.

و فیه،أخرج سمویه فی فوائده عن سالم مولی أبی حذیفه قال:قال رسول الله ص: لیجاء یوم القیامه بقوم معهم حسنات مثال جبال تهامه-حتی إذا جیء بهم جعل الله تعالی أعمالهم هباء ثم قذفهم فی النار.

قال سالم:بأبی و أمی یا رسول الله حل لنا هؤلاء القوم،قال:کانوا یصلون و یصومون و یأخذون سنه من اللیل-و لکن کانوا إذا عرض علیهم شیء من الحرام وثبوا علیه-فأدحض الله تعالی أعمالهم

و فی الکافی،بإسناده عن سلیمان بن خالد قال: سألت أبا عبد الله(ع)عن قول الله عز و جل:« وَ قَدِمْنٰا إِلىٰ مٰا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنٰاهُ هَبٰاءً مَنْثُوراً »قال:أما و الله لقد کانت أعمالهم-أشد بیاضا من القباطی-و لکن کانوا إذا عرض لهم حرام لم یدعوه.

۱- ۱) محرمه ظ.

أقول:و هذا المعنى مروى فيه و فى غيره عنه و عن أبيه(ع)بغير واحد من الطرق.

و فى الكافى،أيضا بإسناده عن عبد الأعلى و بإسناد آخر عن سويد بن غفله قال:

قال أمير المؤمنين(ع): فى حديث وضع المؤمن فى قبره.ثم يفسحان يعنى الملكين فى قبره مد بصره-ثم يفتحان له بابا إلى الجنه و يقولان له:نم قرير العين نوم الشاب الناعم فإن الله يقول:« أَصْحٰابُ الْجَنَّهِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِيلاً ».

أقول:و الروايه-كما ترى-تجعل الآيه من آيات البرزخ، و تشير بقوله:

و يقال له:نم«إلخ»إلى نكته التعبير فى الآيه بالمقيل فليتنبه.

و فى الدر المنثور،أخرج أبو نعيم من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: كان عقبه بن أبى معيط لا يقدم من سفر-إلا صنع طعاما فدعا إليه أهل مكه كلهم-و كان يكثر مجالسه النبى ص و يعجبه حديثه-و غلب عليه الشقاء.

فقدم ذات يوم من سفر فصنع طعاما-ثم دعا رسول الله(ع)إلى طعامه فقال:

ما أنا بالذى آكل من طعامك-حتى تشهد أن لا إله إلا الله و أنى رسول الله-فقال:أطعم يا ابن أخى.قال:ما أنا بالذى أفعل حتى تقول،فشهد بذلك و طعم من طعامه.

فبلغ ذلك أبى بن خلف فأتاه فقال-أ صبوت يا عقبه؟-.و كان خليله-فقال:

لا-و الله ما صبوت و لكن دخل على رجل-فأبى أن يطعم من طعامى إلا أن أشهد له- فاستحييت أن يخرج من بيتى قبل أن يطعم-فشهدت له فطعم،فقال:ما أنا بالذى أرضى عنك-حتى تأتيه فتبزق فى وجهه ففعل عقبه-فقال له رسول الله ص:لا ألقاك خارجا من مكه-إلا علوت رأسك بالسيف-فأسر عقبه يوم بدر فقتل صبرا-و لم يقتل من الأسارى يومئذ غيره.

أقول:و قد ورد فى غير واحد من الروايات فى قوله تعالى:« يَقُولُ يٰا لَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً »،أن السبيل هو على(ع)و هو من بطن القرآن أو من قبيل الجرى و ليس من التفسير فى شىء.

[سوره الفرقان (۲۵): الآیات ۳۲ الی ۴۰]

اشاره

وَ قالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لاـ نُزِّلَ عَلَيْهِ اَلْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً (۳۲) وَ لاـ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاّ
جِئْناكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيراً (۳۳) اَلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلىٰ وُجُوهِهِمْ إِلىٰ جَهَنَّمَ أُوْلٰئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَ أَضَلُّ سَبِيلاً (۳۴) وَ لَقَدْ آتَيْنا
مُوسَى اَلْكِتابَ وَ جَعَلْنا مَعَهُ أَخاهُ هارُونَ وَزِيراً (۳۵) فَقُلْنَا اذْهَبا إِلَى اَلْقَوْمِ اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَدَمَّرْناهُمْ تَدْمِيراً (۳۶) وَ قَوْمَ نُوحٍ لَمّا
كَذَّبُوا اَلرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ وَ جَعَلْناهُمْ لِلنّاسِ آيَةً وَ أَعْتَدْنا لِلظّالِمِينَ عَذاباً أَلِيماً (۳۷) وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ أَصْحابَ اَلرَّسِّ وَ قُرُوناً بَيْنَ
ذٰلِكَ كَثِيراً (۳۸) وَ كُلاًّ ضَرَبْنا لَهُ اَلْأَمْثالَ وَ كُلاًّ تَبَّرْنا تَتْبِيراً (۳۹) وَ لَقَدْ أَتَوْا عَلَى اَلْقَرْيَةِ اَلَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ اَلسَّوْءِ أَ فَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَها
بَلْ كانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً (۴۰)

(بیان)

نقل لطعن آخر مما طعنوا به فی القرآن و هو أنه لم ینزل جمله واحده و الجواب عنه.

قوله تعالی:« وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لاـ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً »المراد بهم مشرکو العرب الرادون لدعوه القرآن کما فی قدحهم السابق المحکی بقوله:« وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذا إِلاّ إِفْكٌ افْتَراهُ »إلخ.

ص: ۲۰۸

و قوله« لَوْ لاٰ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وٰاحِدَةً »قد تقدم أن الإنزال و التنزيل إنما يفترقان فی أن الإنزال يفيد الدفعه و التنزيل يفيد التدريج لكن ذكر بعضهم أن التنزيل فی هذه الآيه منسلخ عن معنى التدريج لأدائه إلى التدافع إذ يكون المعنى على تقدير إراده التدريج:لو لا فرق القرآن جمله واحده و التفريق ينافی الجمليه بل المعنى هلا أنزل القرآن عليه دفعه غير مفرق كما أنزل التوراه و الإنجيل و الزبور.

لكن ينبغی أن يعلم أن نزول التوراه مثلا- كما هو الظاهر المستفاد من القرآن كانت دفعه فی كتاب مكتوب فی ألواح و القرآن إنما كان ينزل عليه(ص)بالتلقی من عند الله بتوسط الروح الأمين كما يتلقى السامع الكلام من المتكلم،و الدفعه فی إيتاء كتاب مكتوب و تلقيه تستلزم المعيه بين أوله و آخره لكنه إذا كان بقراءه و سماع لم يناف التدريج بين أجزائه و أبعاضه بل من الضروری أن يؤتاه القارئ و يتلقاه السامع آخذا من أوله إلى آخره شيئا فشيئا.

و هؤلاء إنما كانوا يقترحون نزول القرآن جمله واحده على ما كانوا يشاهدون أو يسمعون من كيفيه نزول الوحی على النبی ص و هو تلقی الآيات بألفاظها من لسان ملك الوحی فكان اقتراحهم أن الذی يتلوه ملك الوحی على النبی ص سوره بعد سوره و آيه بعد آيه و يتلقاه هو كذلك فليقرأ جميع ذلك مره واحده و ليتلقه هو مره واحده و لو دامت القراءه و التلقی مده من الزمان،و هذا المعنى أوفق بالتنزيل الدال على التدريج.

و أما كون مرادهم من اقتراح نزوله جمله واحده أن ينزل كتابا مكتوبا دفعه كما نزلت التوراه و كذا الإنجيل و الزبور على ما هو المعروف عندهم فلا- دلاله فی الكلام المنقول عنهم على ذلك.على أنهم ما كانوا مؤمنين بهذه الكتب السماويه حتى يسلموا نزولها دفعه.

و كيف كان فقولهم:« لَوْ لاٰ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وٰاحِدَةً »اعتراض منهم على القرآن من جهه نحو نزوله،يريدون به أنه ليس بكتاب سماوی نازل من عند الله سبحانه إذ لو كان كتابا سماويا متضمنا لدين سماوی يريده الله من الناس و قد بعث رسولا

يبلغه الناس لكان الدين المضمن فيه المراد من الناس دينا تامه أجزاؤه معلومه أصوله و فروعه مجموعه فرائضه و سننه و كان الكتاب المشتمل عليه منظمه أجزاؤه،مركبه بعضه على بعض.

و ليس كذلك بل هو أقوال متفرقه يأتى بها فى وقائع مختلفه و حوادث متشتته ربما وقع واقع فأتى عند ذلك بشىء من الكلام مرتبط به يسمى جملها المنضوده آيات إلهيه ينسبها إلى الله و يدعى أنها قرآن منزل إليه من عند الله سبحانه و ليس إلا أنه يتعمل حينا بعد حين عند وقوع وقائع فيختلق قولا يفتريه على الله،و ليس إلا رجلا صابئا ضل عن السبيل.هذا تقرير اعتراضهم على ما يستفاد من مجموع الاعتراض و الجواب.

قوله تعالى:« كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤٰادَكَ وَ رَتَّلْنٰاهُ تَرْتِيلاً وَ لاٰ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاّٰ جِئْنٰاكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيراً » الثبات ضد الزوال،و الإثبات و التثبيت بمعنى واحد و الفرق بينهما بالدفعه و التدريج،و الفؤاد القلب و المراد به كما مر غير مره الأمر المدرك من الإنسان و هو نفسه،و الترتيل -كما قالوا-الترسيل و الإتيان بالشىء عقيب الشىء، و التفسير -كما قال الراغب-المبالغه فى إظهار المعنى المعقول كما أن الفسر بالفتح فالسكون إظهار المعنى المعقول.

و ظاهر السياق أن قوله:« كَذٰلِكَ »متعلق بفعل مقدر يعلله قوله:« لِنُثَبِّتَ » و يعطف عليه قوله:« وَ رَتَّلْنٰاهُ »و التقدير نزلناه أى القرآن كذلك أى نجوما متفرقه لا جمله واحده لنثبت به فؤادك،و قول بعضهم:إن« كَذٰلِكَ »من تمام قول الذين كفروا سخيف جدا.

فقوله:« كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤٰادَكَ »بيان تام لسبب تنزيل القرآن نجوما متفرقه و بيان ذلك أن تعليم علم من العلوم و خاصه ما كان منها مرتبطا بالعمل بإلقاء المعلم مسائله واحده بعد واحده إلى المتعلم حتى تتم فصوله و أبوابه إنما يفيد حصولا ما لصور مسائله عند المتعلم و كونها مذخوره بوجه ما عنده يراجعها عند مسيس الحاجه إليها،و أما استقرارها فى النفس بحيث تنمو النفس عليها و تترتب عليها آثارها المطلوبه منها فيحتاج إلى مسيس الحاجه و الإشراف على العمل و حضور وقته.

ففرق بين بين أن يلقى الطبيب المعلم مثلا مسأله طبيه إلى متعلم الطب إلقاء

فحسب و بين أن يلقيها إليه و عنده مريض مبتلى بما يبحث عنه من الداء و هو يعالجه فيطابق بين ما يقول و ما يفعل.

و من هنا يظهر أن إلقاء أى نظره علميه عند مسيس الحاجه و حضور وقت العمل إلى من يراد تعليمه و تربيته أثبت فى النفس و أوقع فى القلب و أشد استقرارا و أكمل رسوخا فى الذهن و خاصه فى المعارف التى تهدى إليها الفطره فإن الفطره إنما تستعد للقبول و تتهيأ للإذعان إذا أحست بالحاجه.

ثم إن المعارف التى تتضمنها الدعوه الإسلاميه الناطق بها القرآن إنما هى شرائع و أحكام عمليه و قوانين فرديه و اجتماعيه تسعد الحياه الإنسانيه مبنيه على الأخلاق الفاضله المرتبطه بالمعارف الكليه الإلهيه التى تنتهى بالتحليل إلى التوحيد كما أن التوحيد ينتهى بالتركيب إليها ثم إلى الأخلاق و الأحكام العمليه.

فأحسن التعليم و أكمل التربيه أن تلقى هذه المعارف العاليه بالتدريج موزعه على الحوادث الواقعه المتضمنه لمساس أنواع الحاجات مبينه لما يرتبط بها من الاعتقاد الحق و الخلق الفاضل و الحكم العملى المشروع مع ما يتعلق بها من أسباب الاعتبار و الاتعاظ بين قصص الماضين و عاقبه أمر المسرفين و عتو الطاغين و المستكبرين.

و هذه سبيل البيانات القرآنيه المودعه فى آياته النازله كما قال تعالى:« وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّاسِ عَلى مُكْثٍ وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِيلاً» :إسراء:،۱۰۶ و هذا هو المراد بقوله تعالى:« كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ »و الله أعلم.

نعم يبقى عليه شىء و هو أن تفرق أجزاء التعليم و إلقاءها إلى المتعلم على التمهل و التؤده يفسد غرض التعليم لانقطاع أثر السابق إلى أن يلحق به اللاحق و سقوط الهمه و العزيمه عن ضبط المطالب ففى اتصال أجزاء العلم الواحد بعضها ببعض إمدادا للذهن و تهيئه للفهم على التفقه و الضبط لا يحصل بدونه البته.

و قد أجاب تعالى عنه بقوله:« وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً »فمعناه على ما يعطيه السياق أن هذه التعليمات على نزولها نجوما متفرقه عقبنا بعضها ببعض و نزلنا بعضها إثر بعض بحيث لا تبطل الروابط و لا تنقطع آثار الأبعاض فلا يفسد بذلك غرض التعليم بل هى سور و آيات نازله بعضها إثر بعض مترتبه مرتله.

على أن هناك أمرا آخر و هو أن القرآن كتاب بيان و احتجاج يحتج على المؤالف و المخالف فيما أشكل عليهم أو استشكلوه على الحق و الحقيقه بالتشكيك و الاعتراض، و يبين لهم ما التبس عليهم أمره من المعارف و الحكم الواقعه فى الملل و الأديان السابقه و ما فسرها به علماؤهم بتحريف الكلم عن مواضعه كما يظهر بقياس ما كان يعتقده الوثنيون فى الله تعالى و الملائكه و الجن و قديسى البشر و ما وقع فى العهدين من أخبار الأنبياء و ما بثوه من معارف المبدإ و المعاد،إلى ما بينه القرآن فى ذلك.

و هذا النوع من الاحتجاج و البيان لا يستوفى حقه إلا بالتنزيل التدريجى على حسب ما كان يبدو من شبههم و يرد على النبى ص من مسائلهم تدريجا،و يورد على المؤمنين أو على قومهم من تسويلاتهم شيئا بعد شىء و حينا بعد حين.

و إلى هذا يشير قوله تعالى:« وَ لاٰ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاّٰ جِئْنٰاكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيراً » -و المثل الوصف-أى لا يأتونك بوصف فيك أو فى غيرك حادوا به عن الحق أو أساءوا تفسيره إلا جئناك بما هو الحق فيه أو ما هو أحسن الوجوه فى تفسيره فإن ما أتوا به إما باطل محض فالحق يدفعه أو حق محرف عن موضعه فالتفسير الأحسن يرده إلى مستواه و يقومه.

فتبين بما تقدم أن قوله:« كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤٰادَكَ »-إلى قوله- وَ أَحْسَنَ تَفْسِيراً »جواب عن قولهم:« لَوْ لاٰ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وٰاحِدَةً »بوجهين:

أحدهما:بيان السبب الراجع إلى النبى ص و هو تثبيت فؤاده بالتنزيل التدريجى.

و ثانيهما:بيان السبب الراجع إلى الناس و هو بيان الحق فيما يوردون على النبى ص من المثل و الوصف الباطل،و التفسير بأحسن الوجوه فيما يوردون عليه من الحق المغير عن وجهه المحرف عن موضعه.

و يلحق بهذا الجواب قوله تلوا:« اَلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلىٰ وُجُوهِهِمْ إِلىٰ جَهَنَّمَ أُوْلٰئِكَ شَرٌّ مَكٰاناً وَ أَضَلُّ سَبِيلاً »فهو كالمتمم للجواب على ما سيجىء بيانه.

و تبين أيضا أن الآيات الثلاث مسوقه جميعا لغرض واحد و هو الجواب عما

أوردوه من القدح فی القرآن هذا،و المفسرون فرقوا بین مضامین الآیات الثلاث فجعلوا قوله:« كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤٰادَكَ »جوابا عن قولهم:« لَوْ لاٰ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وٰاحِدَةً »،و قوله:« وَ رَتَّلْنٰاهُ تَرْتِيلاً »خبرا عن ترسیله فی النزول أو فی القراءه علی النبی ص من غیر ارتباط بما تقدمه.

و جعلوا قوله:« وَ لاٰ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ »إلخ،كالبیان لقوله:« كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤٰادَكَ »و إیضاحا لکیفیه تثبیت فؤاده(ص)،و جعله بعضهم ناظرا إلی خصوص المثل الذی ضربوه للنبی ص،و أن الله بین الحق فیه و جاء بأحسن التفسیر و قیل غیر ذلک،و جعلوا قوله:« اَلَّذِينَ يُحْشَرُونَ »الآیه أجنبیا عن غرض الآیتین السابقتین بالکلیه.

و التأمل فیما قدمناه فی توجیه مضمون الآیتین الأولیین و ما سیأتی من معنی الآیه الثالثه یوضح فساد جمیع ذلک،و یظهر أن الآیات الثلاث جمیعا ذات غرض واحد و هو الجواب عما أوردوه من الطعن فی القرآن من جهه نزوله التدریجی.

و ذکروا أیضا أن الجواب عن قدحهم و اقتراحهم بقوله:« كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤٰادَكَ »جواب بذکر بعض ما لتفریق النزول من الفوائد و أن هناک فوائد أخری غیر ما ذکره الله تعالی،و قد أوردوا فوائد أخری أضافوها إلی ما وقع فی الآیه:

منها:أن الکتب السماویه السابقه علی القرآن إنما أنزلت جمله واحده لأنها أنزلت علی أنبیاء یکتبون و یقرءون فنزلت علیهم جمله واحده مکتوبه و القرآن إنما نزل علی نبی أمی لا یکتب و لا یقرأ و لذلک نزل متفرقا.

و منها أن الکتب المتقدمه لم یکن شاهد صحتها و دلیل کونها من عند الله تعالی إعجازها،و أما القرآن فبینه صحته و آیه کونه من عند الله تعالی نظمه المعجز الباقی علی مر الدهور المتحقق فی کل جزء من أجزائه المقدر بمقدار أقصر السور حسبما وقع به التحدی.

و لا ریب أن مدار الإعجاز هو المطابقه لما تقتضیه الأحوال،و من ضروره تجددها تجدد ما یطابقها.

ص:۲۱۳

و منها:أن فی القرآن ناسخا و منسوخا و لا یتیسر الجمع بینهما لمکان المضاده و المنافاه،و فیه ما هو جواب لمسائل سألوا النبی ص عنها و فیه ما هو إنکار لبعض ما کان،و فیه ما هو حکایه لبعض ما جری،و فیه ما فیه إخبار عما سیأتی فی زمن النبی ص کالإخبار عن فتح مکه و دخول المسجد الحرام،و الإخبار عن غلبه الروم علی الفرس إلی غیر ذلک من الفوائد فاقتضت الحکمه تنزیله متفرقا.

و هذه وجوه ضعیفه لا تقتضی امتناع النزول جمله واحده:

أما الوجه الأول فکون النبی ص أمیا لا یقرأ و لا یکتب لا یمنع النزول جمله واحده،و قد کان معه من یکتبه و یحفظه.علی أن الله سبحانه وعده أن یعصمه من النسیان و یحفظ الذکر النازل علیه کما قال: «سَنُقْرِئُکَ فَلاٰ تَنْسیٰ» :الأعلی:۶، و قال: «إِنّٰا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّکْرَ وَ إِنّٰا لَهُ لَحٰافِظُونَ» :الحجر:۹،و قال: «إِنَّهُ لَکِتٰابٌ عَزِیزٌ لاٰ یَأْتِیهِ الْبٰاطِلُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ لاٰ مِنْ خَلْفِهِ» :حم السجده:۴۲،و قدرته تعالی علی حفظ کتابه مع نزوله دفعه أو تدریجا سواء.

و أما الوجه الثانی:فکما أن الکلام المفرق یقارنه أحوال تقتضی فی نظمه أمورا إن اشتمل علیها الکلام کان بلیغا و إلا فلا،کذلک الکلام الجملی و إن کان کتابا یقارنه بحسب فصوله و أجزائه أحوال لها اقتضاءات إن طابقها کان بلیغا و إلا فلا فالبلاغه غیر موقوفه علی غیر الکتاب النازل دفعه و الکلام المجموع جمله واحده.

و أما الوجه الثالث فالنسخ لیس إبطالا للحکم السابق و إنما هو بیان انتهاء أمده فمن الممکن الجمع بین الحکمین و المنسوخ و الناسخ بالإشاره إلی أن الحکم الأول محدود موقت إن اقتضت المصلحه ذلک.

و من الممکن أیضا أن یقدم بیان المسائل التی سیسألون عنها حتی لا یحتاجوا فیها إلی سؤال و لو سألوا عن شیء منها أرجعوا إلی سابق البیان،و کذا من الممکن أن یقدم ذکر ما هو إنکار لما کان أو حکایه لما جری أو إخبار عن بعض المغیبات فشیء من ذلک لا یمتنع تقدیمه کما هو ظاهر.

علی أن تفریق النزول لبعض هذه الحکم و المصالح من تثبیت الفؤاد فلیست هذه الوجوه المذکوره وجوها علی حدتها.

فالحق أن البيان الواقع فى الآيه بيان تام جامع لا حاجه معه إلى شىء من هذه الوجوه البته.

قوله تعالى:« اَلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلىٰ وُجُوهِهِمْ إِلىٰ جَهَنَّمَ أُوْلٰئِكَ شَرٌّ مَكٰاناً وَ أَضَلُّ سَبِيلاً »اتصال الآيه بما قبلها من الآيات على ما لها من السياق يعطى أن هؤلاء القادحين فى القرآن استنتجوا من قدحهم ما لا يليق بمقام النبى ص فذكروه واصفين له بسوء المكانه و ضلال السبيل فلم يذكره الله تعالى فى ضمن ما حكى من قولهم فى القرآن صونا لمقام النبوه أن يذكر بسوء،و إنما أشار إلى ذلك فى ما أورد فى هذه الآيه من الرد عليهم بطريق التكنيه.

فقوله:« اَلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلىٰ وُجُوهِهِمْ إِلىٰ جَهَنَّمَ »كنايه عن الذين كفروا القادحين فى القرآن الواصفين للنبى ص بما وصفوا،و الكنايه أبلغ من التصريح.

فالمراد أن هؤلاء القادحين فى القرآن الواصفين لك هم شر مكانا و أضل سبيلا لا أنت فالكلام مبنى على قصر القلب،و لفظتا« شَرٌّ »و« أَضَلُّ »منسلختان عن معنى التفضيل أو مفيدتان على التهكم و نحوه.

و قد كنى عنهم بالمحشورين على وجوههم إلى جهنم و هو وصف من أضله الله من المتعنتين المنكرين للمعاد كما قال تعالى: «وَ مَنْ يَهْدِ اللّٰهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيٰاءَ مِنْ دُونِهِ وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ عَلىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَ بُكْماً وَ صُمًّا مَأْوٰاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمٰا خَبَتْ زِدْنٰاهُمْ سَعِيراً ذٰلِكَ جَزٰاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيٰاتِنٰا» XالخX:إسراء:٩٨.

ففى هذه التكنيه مضافا إلى كونها أبلغ،تهديد لهم بشر المكان و أليم العذاب و أيضا هى فى معنى الاحتجاج على ضلالهم إذ لا ضلال أضل من أن يسير الإنسان على وجهه و هو لا يشعر بما فى قدامه،و هذا الضلال الذى فى حشرهم على وجوههم إلى جهنم ممثل للضلال الذى كان لهم فى الدنيا فكأنه قيل:إن هؤلاء هم الضالون فإنهم محشورون على وجوههم،و لا يبتلى بذلك إلا من كان ضالا فى الدنيا.

و قد اختلفت كلماتهم فى وجه اتصال الآيه بما قبلها فسكت عنه بعضهم،و ذكر فى مجمع البيان،أنهم قالوا لمحمد ص و المؤمنين:إنهم شر خلق الله فقال الله تعالى:

« أَوْلٰئِكَ شَرٌّ مَكٰاناً وَ أَضَلُّ سَبِيلاً »و ذكر بعضهم أنها متصله بقوله قبل آيات:« أَصْحٰابُ الْجَنَّهِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِيلاً »و قد عرفت ما يلوح من السياق.و قد اختلفوا أيضا فى المراد بحشرهم على وجوههم فقيل:و هو على ظاهره و هو الانتقال مكبوبا،و قيل:هو السحب.

و قيل:هو الانتقال من مكان إلى مكان منكوسا و هو خلاف المشى على الاستقامه و فيه أن الأولى حينئذ التعبير بالحشر على الرءوس لا على الوجوه،و قد قال تعالى فى موضع آخر و هو كتوصيف ما يجرى بعد هذا الحشر: «يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النّٰارِ عَلىٰ وُجُوهِهِمْ» :القمر:۴۸.

و قيل:المراد به فرط الذله و الهوان و الخزى مجازا.و فيه أن المجاز إنما يصار إليه إذا لم يمكن حمل اللفظ على الحقيقه.

و قيل:هو من قول العرب:مر فلان على وجهه إذا لم يدر أين ذهب؟و فيه أن مرجعه إلى الجهل بالمكان المحشور إليه و لا يناسب ذلك تقييد الحشر فى الآيه بقوله:

« إِلىٰ جَهَنَّمَ ».

و قيل:الكلام كنايه أو استعاره تمثيليه،و المراد أنهم يحشرون و قلوبهم متعلقه بالسفليات من الدنيا و زخارفها متوجهه وجوههم إليها.و أورد عليه أنهم هناك فى شغل شاغل عن التوجه إلى الدنيا و تعلق القلوب بها،و لعل المراد به بقاء آثار ذلك فيهم و عليهم.

و فيه أن مقتضى آيات تجسم الأعمال كون العذاب ممثلا للتعلق بالدنيا و التوجه نحوها فهم فى الحقيقه لا شغل لهم يومئذ إلا ذلك.

قوله تعالى:« وَ لَقَدْ آتَيْنٰا مُوسَى الْكِتٰابَ وَ جَعَلْنٰا مَعَهُ أَخٰاهُ هٰارُونَ وَزِيراً » استشهاد على رساله النبى ص و نزول الكتاب عليه قبال تكذيب الكفار به و بكتابه برساله موسى و إيتائه الكتاب و إشراك هارون فى أمره للتخلص إلى ذكر تعذيب آل فرعون و إهلاكهم،و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى:« فَقُلْنَا اذْهَبٰا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا فَدَمَّرْنٰاهُمْ تَدْمِيراً »قال

فی مجمع البیان، التدمیر الإهلاک لأمر عجیب،و منه التنکیل یقال:دمر علی فلان إذا هجم علیه بالمکروه.انتهی.

و المراد بالآیات آیات الآفاق و الأنفس الداله علی التوحید التی کذبوا بها،و ذکر أبو السعود فی تفسیره أن الآیات هی المعجزات التسع المفصلات الظاهره علی یدی موسی(ع)و لم یوصف القوم لهما عند إرسالهما إلیهم بهذا الوصف ضروره تأخر تکذیب الآیات عن إظهارها المتأخر عن ذهابهما المتأخر عن الأمر به بل إنما وصفوا بذلک عند الحکایه لرسول الله ص بیانا لعله استحقاقهم لما یحکی بعده من التدمیر أی فذهبا إلیهم فأریاهم آیاتنا کلها فکذبوها تکذیبا مستمرا فدمرناهم.انتهی.و هو حسن لو تعین حمل الآیات علی آیات موسی(ع).

و وجه اتصال الآیتین بما قبلهما هو تهدید القادحین فی کتاب النبی ص و رسالته بتنظیر الأمر بأمر موسی حیث آتاه الله الکتاب و أرسله مع أخیه إلی قوم فرعون فکذبوه فدمرهم تدمیرا.

و لهذه النکته قدم ذکر إیتاء الکتاب علی إرسالهما إلی القوم و تدمیرهم مع أن التوراه إنما نزلت بعد غرق فرعون و جنوده فلم یکن الغرض من القصه إلا الإشاره إلی إیتاء الکتاب و الرساله لموسی و تدمیر القوم بالتکذیب.

و قیل:الآیتان متصلتان بقوله تعالی قبل:« وَ کَفیٰ بِرَبِّکَ هٰادِیاً وَ نَصِیراً » و هو بعید.

قوله تعالی:« وَ قَوْمَ نُوحٍ لَمّٰا کَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنٰاهُمْ وَ جَعَلْنٰاهُمْ لِلنّٰاسِ آیَهً وَ أَعْتَدْنٰا لِلظّٰالِمِینَ عَذٰاباً أَلِیماً »الظاهر أن قوله:« قَوْمَ نُوحٍ »منصوب بفعل مقدر یدل علیه قوله:« أَغْرَقْنٰاهُمْ ».

و المراد بتکذیبهم الرسل تکذیبهم نوحا فإن تکذیب الواحد من رسل الله تکذیب للجمیع لاتفاقهم علی کلمه الحق.علی أن هؤلاء الأمم کانوا أقواما وثنیین و هم ینکرون النبوه و یکذبون الرساله من رأس.

و قوله:« وَ جَعَلْنٰاهُمْ لِلنّٰاسِ آیَهً »أی لمن بقی بعدهم من ذراریهم،و الباقی ظاهر.

قوله تعالی:« وَ عٰاداً وَ ثَمُودَ وَ أَصْحٰابَ الرَّسِّ وَ قُرُوناً بَیْنَ ذٰلِکَ کَثِیراً »قال فی مجمع البیان،: الرس البئر التی لم تطو ذکروا أنهم کانوا قوما بعد ثمود نازلین علی بئر أرسل الله إلیهم رسولا فکذبوا به فأهلکهم الله،و قیل هو اسم نهر کانوا علی شاطئه و فی روایات الشیعه ما یؤید ذلک.

و قوله:« وَ عٰاداً »إلخ معطوف علی« قَوْمَ نُوحٍ »و التقدیر:و دمرنا أو و أهلکنا عادا و ثمود و أصحاب الرس«إلخ».

و قوله:« وَ قُرُوناً بَیْنَ ذٰلِکَ کَثِیراً » القرن أهل عصر واحد و ربما یطلق علی نفس العصر و الإشاره بذلک إلی من مر ذکرهم من الأقوام أولهم قوم نوح و آخرهم أصحاب الرس أو قوم فرعون،و المعنی و دمرنا أو و أهلکنا عادا و هم قوم هود،و ثمود و هم قوم صالح،و أصحاب الرس،و قرونا کثیرا متخللین بین هؤلاء الذین ذکرناهم و هم قوم نوح فمن بعدهم.

قوله تعالی:« وَ کُلاًّ ضَرَبْنٰا لَهُ الْأَمْثٰالَ وَ کُلاًّ تَبَّرْنٰا تَتْبِیراً »کلا منصوب بفعل یدل علیه قوله:« ضَرَبْنٰا لَهُ الْأَمْثٰالَ »فإن ضرب الأمثال فی معنی التذکیر و الموعظه و الإنذار،و التتبیر التفتیت،و معنی الآیه.

قوله تعالی:« وَ لَقَدْ أَتَوْا عَلَی الْقَرْیَهِ الَّتِی أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَ فَلَمْ یَکُونُوا یَرَوْنَهٰا بَلْ کٰانُوا لاٰ یَرْجُونَ نُشُوراً »هذه القریه هی قریه قوم لوط أمطر الله علیهم حجاره من سجیل و قد مر تفصیل قصصهم فی السور السابقه.

و قوله:« أَ فَلَمْ یَکُونُوا یَرَوْنَهٰا »استفهام توبیخی فإن القریه کانت علی طریق أهل الحجاز إلی الشام.

و قوله:« بَلْ کٰانُوا لاٰ یَرْجُونَ نُشُوراً »أی لا یخافون معادا أو کانوا آیسین من المعاد،و هذا کقوله تعالی فیما تقدم:« بَلْ کَذَّبُوا بِالسّٰاعَهِ »و المراد به أن المنشأ الأصیل لتکذیبهم بالکتاب و الرساله و عدم اتعاظهم بهذه المواعظ الشافیه و عدم اعتبارهم بما یعتبر به المعتبرون أنهم منکرون للمعاد فلا ینجح فیهم دعوه و لا تقع فی قلوبهم حکمه و لا موعظه.

(بحث روائی)

فی العیون،بإسناده عن أبی الصلت الهروی عن الرضا عن أمیر المؤمنین(ع) :حدیث طویل یذکر فیه قصه أصحاب الرس، ملخصه- أنهم کانوا قوما یعبدون شجره صنوبره-یقال لها شاه درخت-کان یافث بن نوح غرسها بعد الطوفان-علی شفیر عین یقال لها:روشن آب-و کان لهم اثنتا عشره قریه معموره علی شاطئ نهر-یقال له الرس یسمین بأسماء:آبان،آذر،دی،بهمن،إسفندار،فروردین،أردیبهشت خرداد،مرداد،تیر،مهر،شهریور،و منها اشتق العجم أسماء شهورهم.

و قد غرسوا فی کل قریه منها من طلع تلک الصنوبره حبه.أجروا علیها نهرا من العین التی عند الصنوبره،و حرموا شرب مائها علی أنفسهم و أنعامهم-و من شرب منه قتلوه و یقولون:إنه حیاه الآلهه فلا ینبغی لأحد أن ینقص حیاتها.

و قد جعلوا فی کل شهر من السنه یوما فی کل قریه عیدا-یخرجون فیه إلی الصنوبره التی خارج القریه-یقربون إلیها القرابین و یذبحون الذبائح-ثم یحرقونها فی نار أضرموها فیسجدون للشجره-عند ارتفاع دخانها و سطوعه فی السماء-و یبکون و یتضرعون و الشیطان یکلمهم من الشجره.

و هذا دأبهم فی القری-حتی إذا کان یوم عید قریتهم العظمی-التی کان یسکنها ملکهم و اسمها إسفندار-اجتمع إلیها أهل القری جمیعا و عیدوا اثنی عشر یوما،و جاءوا بأکثر ما یستطیعونه-من القرابین و العبادات للشجره و کلمهم إبلیس-و هو یعدهم و یمنیهم أکثر مما کان من الشیاطین-فی سائر الأعیاد من سائر الشجر.

و لما طال منهم الکفر بالله و عباده الشجره-بعث الله إلیهم رسولا من بنی إسرائیل من ولد یهودا-فدعاهم إلی عباده الله و ترک الشرک برهه فلم یؤمنوا-فدعا علی الشجره فیبست فلما رأوا ذلک ساءهم-فقال بعضهم:إن هذا الرجل سحر آلهتنا،و قال آخرون:إن آلهتنا غضبت علینا بذلک-لما رأت هذا الرجل یدعونا إلی الکفر بها فترکناه و شأنه من غیر أن نغضب علیه لآلهتنا.

فاجتمعت آراؤهم علی قتله فحفروا بئرا عمیقا-و ألقوه فیها و شدوا رأسها-فلم

يزالوا عليها يسمعون أنينه حتى مات-فأتبعهم الله بعذاب شديد أهلكهم عن آخرهم.

و فى نهج البلاغه،قال(ع): أين أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيين- و أطفئوا سنن المرسلين و أحيوا سنن الجبارين.

و فى الكافى،بإسناده عن محمد بن أبى حمزه و هشام و حفص عن أبى عبد الله(ع):

أنه دخل عليه نسوه فسألته امرأه منهن عن السحق-فقال:حدها حد الزانى-فقالت المرأه:ما ذكره الله عز و جل فى القرآن،فقال:بلى،فقالت:و أين هو؟قال:

هن الرس.

و فى الدر المنثور،أخرج ابن أبى الدنيا فى ذم الملاهى و البيهقى و ابن عساكر عن جعفر بن محمد بن على: أن امرأتين سألتاه:هل تجد غشيان المرأه المرأه محرما فى كتاب الله؟قال:نعم هن اللواتى كن على عهد تبع،و هن صواحب الرس،و كل نهر و بئر رس.

قال:يقطع لهن جلباب من نار،و درع من نار،و نطاق من نار،و تاج من نار،و خفان من نار،و من فوق ذلك ثوب غليظ جاف جاسف منتن من نار.قال جعفر:علموا هذا نساءكم.

أقول:و روى القمى عن أبيه عن ابن أبى عمير،عن جميل عن أبى عبد الله(ع) ما فى معناه.

و فى تفسير القمى،بإسناده عن حفص بن غياث عن أبى عبد الله(ع): فى قوله تعالى:« وَ كُلاًّ تَبَّرْنا تَتْبِيراً »يعنى«كسرنا تكسيرا»قال:هى لفظه بالنبطيه.

و فيه،و فى روايه أبى الجارود عن أبى جعفر(ع)قال: و أما القريه التى أمطرت مطر السوء-فهى سدوم قريه قوم لوط-أمطر الله عليهم حجاره من سجيل يعنى من طين.

[سوره الفرقان (٢٥): الآيات ۴۱ الى ۶۲]

اشاره

وَ إِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاّ هُزُواً أَ هٰذَا اَلَّذِي بَعَثَ اَللّٰهُ رَسُولاً (۴۱) إِنْ كٰادَ لَيُضِلُّنٰا عَنْ آلِهَتِنٰا لَوْ لاٰ أَنْ صَبَرْنٰا عَلَيْهٰا وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ اَلْعَذٰابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (۴۲) أَ رَأَيْتَ مَنِ اِتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ أَ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (۴۳) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاّ كَالْأَنْعٰامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (۴۴) أَ لَمْ تَرَ إِلىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ اَلظِّلَّ وَ لَوْ شٰاءَ لَجَعَلَهُ سٰاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا اَلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (۴۵) ثُمَّ قَبَضْنٰاهُ إِلَيْنٰا قَبْضاً يَسِيراً (۴۶) وَ هُوَ اَلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اَللَّيْلَ لِبٰاساً وَ اَلنَّوْمَ سُبٰاتاً وَ جَعَلَ اَلنَّهٰارَ نُشُوراً (۴۷) وَ هُوَ اَلَّذِي أَرْسَلَ اَلرِّيٰاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَ أَنْزَلْنٰا مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً طَهُوراً (۴۸) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَ نُسْقِيَهُ مِمّٰا خَلَقْنٰا أَنْعٰاماً وَ أَنٰاسِيَّ كَثِيراً (۴۹) وَ لَقَدْ صَرَّفْنٰاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبىٰ أَكْثَرُ اَلنّٰاسِ إِلاّ كُفُوراً (۵۰) وَ لَوْ شِئْنٰا لَبَعَثْنٰا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً (۵۱) فَلاٰ تُطِعِ اَلْكٰافِرِينَ وَ جٰاهِدْهُمْ بِهِ جِهٰاداً كَبِيراً (۵۲) وَ هُوَ اَلَّذِي مَرَجَ اَلْبَحْرَيْنِ هٰذٰا عَذْبٌ فُرٰاتٌ وَ هٰذٰا مِلْحٌ أُجٰاجٌ وَ جَعَلَ بَيْنَهُمٰا

بَرْزَخاً وَ حِجْراً مَحْجُوراً (۵۳) وَ هُوَ اَلَّذِی خَلَقَ مِنَ اَلْمٰاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَ صِهْراً وَ كٰانَ رَبُّكَ قَدِيراً (۵۴) وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ
مٰا لاٰ يَنْفَعُهُمْ وَ لاٰ يَضُرُّهُمْ وَ كٰانَ اَلْكٰافِرُ عَلىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً (۵۵) وَ مٰا أَرْسَلْنٰاكَ إِلاّٰ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (۵۶) قُلْ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاّٰ
مَنْ شٰاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (۵۷) وَ تَوَكَّلْ عَلَى اَلْحَيِّ اَلَّذِی لاٰ يَمُوتُ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَ كَفىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبٰادِهِ خَبِيراً (۵۸) اَلَّذِی
خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا فِی سِتَّةِ أَيّٰامٍ ثُمَّ اِسْتَوىٰ عَلَى اَلْعَرْشِ اَلرَّحْمٰنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً (۵۹) وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمُ اُسْجُدُوا
لِلرَّحْمٰنِ قٰالُوا وَ مَا اَلرَّحْمٰنُ أَ نَسْجُدُ لِمٰا تَأْمُرُنٰا وَ زٰادَهُمْ نُفُوراً (۶۰) تَبٰارَكَ اَلَّذِی جَعَلَ فِی اَلسَّمٰاءِ بُرُوجاً وَ جَعَلَ فِيهٰا سِرٰاجاً وَ قَمَراً
مُنِيراً (۶۱) وَ هُوَ اَلَّذِی جَعَلَ اَللَّيْلَ وَ اَلنَّهٰارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرٰادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرٰادَ شُكُوراً (۶۲)

(بیان)

تذکر الآیات بعض صفات أولئک الکفار القادحین فی الکتاب و الرساله و المنکرین للتوحید و المعاد مما یناسب سنخ اعتراضاتهم و اقتراحاتهم کاستهزائهم الرسول ص و اتباعهم الهوی و عبادتهم لما لا ـ ینفعهم و لا ـ یضرهم و استکبارهم عن السجود لله سبحانه.

قوله تعالی:« وَ إِذٰا رَأَوْکَ إِنْ یَتَّخِذُونَکَ إِلاّٰ هُزُواً أَ هٰذَا الَّذِی بَعَثَ اللّٰهُ رَسُولاً » ضمیر الجمع للذین کفروا السابق ذکرهم،و الهزؤ الاستهزاء و السخریه فالمصدر بمعنی المفعول،و المعنی:و إذا رآک الذین کفروا لا یتخذونک إلا مهزوا به.

و قوله:« أَ هٰذَا الَّذِی بَعَثَ اللّٰهُ رَسُولاً »بیان لاستهزائهم أی یقولون کذا استهزاء بک.

قوله تعالی:« إِنْ کٰادَ لَیُضِلُّنٰا عَنْ آلِهَتِنٰا لَوْ لاٰ أَنْ صَبَرْنٰا عَلَیْهٰا »إلخ« إِنْ »مخففه من الثقیله، و الإضلال کأنه مضمن معنی الصرف و لذا عدی بعن،و جواب لو لا محذوف

ص: ۲۲۲

يدل عليه ما تقدمه،و المعنى أنه قرب أن يصرفنا عن آلهتنا مضلا لنا لو لا أن صبرنا على آلهتنا أى على عبادتها لصرفنا عنها.

و قوله:« وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذٰابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً »توعد و تهديد منه تعالى لهم و تنبيه أنهم على غفله مما سيستقبلهم من معاينه العذاب و اليقين بالضلال و الغى.

قوله تعالى:« أَ رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ أَ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً » الهوى ميل النفس إلى الشهوه من غير تعديله بالعقل،و المراد باتخاذ الهوى إلها طاعته و اتباعه من دون الله و قد أكثر الله سبحانه فى كلامه ذم اتباع الهوى و عد طاعه الشىء عباده له فى قوله: «أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰا بَنِى آدَمَ أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا الشَّيْطٰانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَ أَنِ اعْبُدُونِى» :يس:۶۱.

و قوله:« أَ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً »استفهام إنكارى أى لست أنت وكيلا عليه قائما على نفسه و بأموره حتى تهديه إلى سبيل الرشد فليس فى مقدرتك ذلك و قد أضله الله و قطع عنه أسباب الهدايه و فى معناه قوله: «إِنَّكَ لاٰ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ» :القصص:۵۶،و قوله: «وَ مٰا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِى الْقُبُورِ» :فاطر:۲۲،و الآيه كالإجمال للتفصيل الذى فى قوله: «أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ وَ أَضَلَّهُ اللّٰهُ عَلىٰ عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلىٰ سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلىٰ بَصَرِهِ غِشٰاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللّٰهِ» :الجاثيه:۲۳.

و يظهر مما تقدم من المعنى أن قوله:« اِتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ »على نظمه الطبيعى أى إن« اِتَّخَذَ »فعل متعد إلى مفعولين و« إِلٰهَهُ »مفعوله الأول و« هَوٰاهُ »مفعول ثان له فهذا هو الذى يلائم السياق و ذلك أن الكلام حول شرك المشركين و عدولهم عن عباده الله إلى عباده الأصنام،و إعراضهم عن طاعه الحق التى هى طاعه الله إلى طاعه الهوى الذى يزين لهم الشرك،و هؤلاء يسلمون أن لهم إلها مطاعا و قد أصابوا فى ذلك،لكنهم يرون أن هذا المطاع هو الهوى فيتخذونه مطاعا بدلا من أن يتخذوا الحق مطاعا فقد وضعوا الهوى موضع الحق لا أنهم وضعوا المطاع موضع غيره فافهم.

و من هنا يظهر ما فى قول عده من المفسرين أن« هَوٰاهُ »مفعول أول لقوله « اِتَّخَذَ »و« إِلٰهَهُ »مفعول ثان مقدم،و إنما قدم للاعتناء به من حيث إنه الذى يدور

عليه أمر التعجيب فى قوله:« أَ رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ »إلـخ،كما قـاله بعضـهم،أو إنما قـدم للحصـر على ما قاله آخرون،و لهم فى ذلك مباحثات طويله أغمضنا عن إيرادها و فيما ذكرناه كفايه إن شاء الله.

قوله تعالى:« أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاّٰ كَالْأَنْعٰامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً »أم منقطعه،و الحسبان بمعنى الظن و ضـمائر الجمع راجعه إلى الموصول فى الآيه السابقه باعتبار المعنى.و الترديد بين السمع و العقل من جهه أن وسيله الإنسان إلى سعـاده الحيـاه أحـد أمرين إمـا أن يسـتقل بالتعقـل فيعقـل الحق فيتبعه أو يرجع إلى قول من يعقله و ينصـحه فيتبعه إن لم يسـتقل بالتعقـل فـالطريق إلى الرشـد سـمع أو عقـل فالآيه فى معنى قـوله: «وَ قٰالُوا لَوْ كُنّٰا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مٰا كُنّٰا فِي أَصْحٰابِ السَّعِيرِ» :الملك:١٠.

و المعنى:بل أ تظن أن أكثرهم لهم استعداد استماع الحق ليتبعه أو استعداد عقل الحق ليتبعه فترجو اهتداءهم فتبالغ فى دعوتهم.

و قوله:« إِنْ هُمْ إِلاّٰ كَالْأَنْعٰامِ »بيان للجمله السابقه فإنه فى معنى:أن أكثرهم لا يسـمعون و لا يعقلون فتنبه أنهم ليسوا إلا كالأنعام و البهائم فى أنها لا تعقل و لا تسمع إلا اللفظ دون المعنى.

و قوله:« بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً »أى من الأنعـام و ذلـك أن الأنعـام لا تقتحم على ما يضرها و هؤلاء يرجحون ما يضـرهم على ما ينفعهم،و أيضا الأنعام إن ضلت عن سبيل الحق فإنها لم تجهز فى خلقتها بما يهديها إليه و هؤلاء مجهزون و قد ضلوا.

و استدل بعضهم بالآيه على أن الأنعام لا علم لها بربها.و فيه أن الآيه لا تنفى عنها و لا عن الكفار أصل العلم بالله و إنما تنفى عن الكفار اتباع الحق الـذى يهـدى إليه عقل الإنسان الفطرى لاحتجابه باتباع الهوى،و تشبههم فى ذلك بالأنعام التى لم تجهز بهـذا النوع من الإدراك.

و أما ما أجاب به بعضهم أن الكلام خارج مخرج الظاهر فقول لا سبيل إلى إثباته بالاستدلال.

قوله تعالی:« أَ لَمْ تَرَ إِلیٰ رَبِّکَ کَیْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَ لَوْ شٰاءَ لَجَعَلَهُ سٰاکِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَیْهِ دَلِیلاً ثُمَّ قَبَضْنٰاهُ إِلَیْنٰا قَبْضاً یَسِیراً »هاتان الآیتان و ما بعدهما إلی تمام تسع آیات فی معنی التنظیر لما تضمنته الآیتان السابقتان بل الآیات الأربع السابقه من أن الله سبحانه جعل رساله الرسول لهدایه الناس إلی سبیل الرشد و إنقاذهم من الضلال فیهتدی بها بعضهم ممن شاء الله و أما غیرهم ممن اتخذ إلهه هواه فصار لا یسمع و لا یعقل فلیس فی وسع أحد أن یهدیهم من بعد الله.

فهی تبین أن لیس هذا ببدع من الله سبحانه ففی عجائب صنعه و بینات آیاته نظائر لذلک ففعله متشابه و هو علی صراط مستقیم،و ذلک کمد الظل و جعل الشمس دلیلا علیه تنسخه،و کجعل اللیل لباسا و النوم سباتا و النهار نشورا،و کجعل الریاح بشرا و إنزال المطر و إحیاء الأرض المیته و إرواء الأنعام و الأناسی به.

ثم ما مثل المؤمن و الکافر فی اهتداء هذا و ضلال ذاک-و هم جمیعا عباد الله یعیشون فی أرض واحده-إلا کمثل الماءین العذب الفرات و الملح الأجاج مرجهما الله تعالی لکن جعل بینهما برزخا و حجرا محجورا،و کالماء خلق الله سبحانه منه بشرا ثم جعله نسبا و صهرا فاختلف بذلک الموالید و کان ربک قدیرا.

هذا ما یهدی إلیه التدبر فی مضامین الآیات و خصوصیات نظمها و به یظهر وجه اتصالها بما تقدمها،و أما ما ذکروه من أن الآیات مسوقه لبیان بعض أدله التوحید إثر بیان جهاله المعرضین عنها و ضلالهم فالسیاق لا یساعد علیه و سنزید ذلک إیضاحا.

فقوله:« أَ لَمْ تَرَ إِلیٰ رَبِّکَ کَیْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَ لَوْ شٰاءَ لَجَعَلَهُ سٰاکِناً »تنظیر-کما تقدمت الإشاره إلیه-لشمول الجهل و الضلال للناس و رفعه تعالی ذلک بالرساله و الدعوه الحقه کما یشاء و لازم ذلک أن یکون المراد بمد الظل ما یعرض الظل الحادث بعد الزوال من التمدد شیئا فشیئا من المغرب إلی المشرق حسب اقتراب الشمس من الأفق حتی إذا غربت کانت فیه نهایه الامتداد و هو اللیل،و هو فی جمیع أحواله متحرک و لو شاء الله لجعله ساکنا.

و قوله:« ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَیْهِ دَلِیلاً »و الدلیل هی الشمس من حیث دلالتها

بنورها على أن هناك ظلا و بانبساطه شيئا فشيئا على تمدد الظل شيئا فشيئا و لولاها لم يتنبه لوجود الظل فإن السبب العام لتمييز الإنسان بعض المعانى من بعض تحول الأحوال المختلفه عليه من فقدان و وجدان فإذا فقد شيئا كان يجده تنبه لوجوده و إذا وجد ما كان يفقده تنبه لعدمه،و أما الأمر الثابت الذى لا تتحول عليه الحال فليس إلى تصوره بالتنبه سبيل.

و قوله:« ثُمَّ قَبَضْنٰاهُ إِلَيْنٰا قَبْضاً يَسِيراً »أى أزلنا الظل بإشراق الشمس و ارتفاعها شيئا فشيئا حتى ينسخ بالكليه،و فى التعبير عن الإزاله و النسخ بالقبض، و كونه إليه،و توصيفه باليسير دلاله على كمال القدره الإلهيه و أنها لا يشق عليها فعل، و أن فقدان الأشياء بعد وجودها ليس بالانعدام و البطلان بل بالرجوع إليه تعالى.

و ما تقدم من تفسير مد الظل بتمديد الفىء بعد زوال الشمس و إن كان معنى لم يذكره المفسرون لكن السياق-على ما أشرنا إليه-لا يلائم غيره مما ذكره المفسرون كقول بعضهم:إن المراد بالظل الممدود ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، و قول بعض:ما بين غروب الشمس و طلوعها،و قول بعض:ما يحدث من مقابله كثيف كجبل أو بناء أو شجر للشمس بعد طلوعها،و قول بعض-و هو أسخف الأقوال-هو ما كان يوم خلق الله السماء و جعلها كالقبه ثم دحا الأرض من تحتها فألقت ظلها عليها.

و فى الآيه أعنى قوله:« أَ لَمْ تَرَ إِلىٰ رَبِّكَ »إلخ،التفات من سياق التكلم بالغير فى الآيات السابقه إلى الغيبه،و النكته فيه أن المراد بالآيه و ما يتلوها من الآيات بيان أن أمر الهدايه إلى الله سبحانه و ليس للنبى ص من الأمر شىء و هو تعالى لا يريد هدايتهم و أن الرساله و الدعوه الحقه فى مقابلتها للضلال المنبسط على أهل الضلال و نسخها ما تنسخ منه من شعب السنه العامه الإلهيه فى بسط الرحمه على خلقه نظير اطلاع الشمس على الأرض و نسخ الظل الممدود فيها بها،و من المعلوم أن الخطاب المتضمن لهذه الحقيقه مما ينبغى أن يختص به(ص)و خاصه من جهه سلب القدره على الهدايه عنه،و أما الكفار المتخذون إلههم هواهم و هم لا يسمعون و لا يعقلون فلا نصيب لهم فيه.

و فی قوله:« ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا »رجوع إلی السیاق السابق،و فی ذلک مع ذلک من إظهار العظمه و الدلاله علی الکبریاء ما لا یخفی.

و الکلام فی قوله الآتی:« وَ هُوَ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ اللَّيْلَ »إلخ،و قوله:« وَ هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ الرِّيَاحَ »و قوله:« وَ هُوَ الَّذِی مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ »،و قوله:« وَ هُوَ الَّذِی خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً »کالکلام فی قوله:« أَ لَمْ تَرَ إِلَى رَبِّکَ »،و الکلام فی قوله:

« وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً »إلخ،و قوله:« وَ لَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ »،و قوله:« وَ لَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا »،کالکلام فی قوله:« ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ » .

قوله تعالی:« وَ هُوَ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَ النَّوْمَ سُبَاتاً وَ جَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً »کون اللیل لباسا إنما هو ستره الإنسان بغشیان الظلمه کما یستر اللباس لابسه.

و قوله:« وَ النَّوْمَ سُبَاتاً »أی قطعا للعمل،و قوله:« وَ جَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً » أی جعل فیه الانتشار و طلب الرزق علی ما ذکره الراغب فی معنی اللفظتین.

و حال ستره تعالی الناس بلباس اللیل و قطعهم به عن العمل و الحرکه ثم نشرهم للعمل و السعی بإظهار النهار و بسط النور کحال مد الظل ثم جعل الشمس علیه دلیلا و قبض الظل بها إلیه.

قوله تعالی:« وَ هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَیْ رَحْمَتِهِ وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً » البشر بالضم فالسکون مخفف بشر بضمتین جمع بشور بمعنی مبشر أی هو الذی أرسل الریاح مبشرات بین یدی رحمته و هی المطر.

و قوله:« وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً »أی من جهه العلو و هی جو الأرض ماء طهورا أی بالغا فی طهارته فهو طاهر فی نفسه مطهر لغیره یزیل الأوساخ و یذهب بالأرجاس و الأحداث-فالطهور علی ما قیل صیغه مبالغه-.

قوله تعالی:« لِنُحْيِیَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَ نُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَ أَنَاسِیَّ کَثِيراً »، البلده معروفه قیل:و أرید بها المکان کما فی قوله: «وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ» :الأعراف:۵۸،و لذا اتصف بالمیت و هو مذکر و المکان المیت ما لا نبات فیه و إحیاؤه إنباته،و الأناسی جمع إنسان،و معنی الآیه ظاهر.

و حال شمول الموت للأرض و الحاجه إلى الشرب و الرى للأنعام و الأناسى ثم إنزاله تعالى من السماء ماء طهورا ليحيى به بلده ميتا و يسقيه أنعاما و أناسى كثيرا من خلقه كحال مد الظل ثم الدلاله عليه بالشمس و نسخه بها كما تقدم.

قوله تعالى:« وَ لَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً » ظاهر اتصال الآيه بما قبلها أن ضمير« صَرَّفْنَاهُ »للماء و تصريفه بينهم صرفه عن قوم إلى غيرهم تاره و عن غيرهم إليهم أخرى فلا يدوم فى نزوله على قوم فيهلكوا و لا ينقطع عن قوم دائما فيهلكوا بل يدور بينهم حتى ينال كل نصيبه بحسب المصلحه،و قيل:

المراد بالتصريف التحويل من مكان إلى مكان.

و قوله:« لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً »تعليل للتصريف أى و أقسم لقد صرفنا الماء بتقسيمه بينهم ليتذكروا فيشكروا فأبى و امتنع أكثر الناس إلا كفران النعمه.

قوله تعالى:« وَ لَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً »أى لو أردنا أن نبعث فى كل قريه نذيرا ينذرهم و رسولا يبلغهم رسالاتنا لبعثنا و لكن بعثناك إلى القرى كلها نذيرا و رسولا لعظيم منزلتك عندنا.هكذا فسرت الآيه و لا تخلو الآيه التاليه من تأييد لذلك،و هذا المعنى لما وجهنا به اتصال الآيات أنسب.

أو أن المراد أنا قادرون على أن نبعث فى كل قريه رسولا و إنما اخترناك لمصلحه فى اختيارك.

قوله تعالى:« فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَ جَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً »متفرع على معنى الآيه السابقه،و ضمير« بِهِ »للقرآن بشهاده سياق الآيات،و المجاهده و الجهاد بذل الجهد و الطاقه فى مدافعه العدو و إذ كان بالقرآن فالمراد تلاوته عليهم و بيان حقائقه لهم و إتمام حججه عليهم.

فمحصل مضمون الآيه أنه إذا كان مثل الرساله الإلهيه فى رفع حجاب الجهل و الغفله المضروب على قلوب الناس بإظهار الحق لهم و إتمام الحجه عليهم مثل الشمس فى الدلاله على الظل الممدود و نسخه بأمر الله،و مثل النهار بالنسبه إلى الليل و سبته، و مثل المطر بالنسبه إلى الأرض الميته و الأنعام و الأناسى الظامئه،و قد بعثناك لتكون

نذیرا لأهل القری فلا تطع الکافرین لأن طاعتهم تبطل هذا الناموس العام المضروب للهدایه.و ابذل مبلغ جهدک و وسعک فی تبلیغ رسالتک و إتمام حجتک بالقرآن المشتمل علی الدعوه الحقه و جاهدهم به مجاهده کبیره.

قوله تعالی:« وَ هُوَ الَّذِی مَرَجَ الْبَحْرَیْنِ هٰذٰا عَذْبٌ فُرٰاتٌ وَ هٰذٰا مِلْحٌ أُجٰاجٌ وَ جَعَلَ بَیْنَهُمٰا بَرْزَخاً وَ حِجْراً مَحْجُوراً » المرج الخلط و منه أمر مریج أی مختلط،و العذب من الماء ما طاب طعمه،و الفرات منه ما کثر عذوبته،و الملح هو الماء المتغیر طعمه.

و الأجاج شدید الملوحه،و البرزخ هو الحد الحاجز بین شیئین،و حجرا محجورا أی حراما محرما أن یختلط أحد الماءین بالآخر.

و قوله:« وَ جَعَلَ بَیْنَهُمٰا »إلخ قرینه علی أن المراد بمرج البحرین إرسال الماءین متقارنین لا الخلط بمعنی ضرب الأجزاء بعضها ببعض.

و الکلام معطوف علی ما عطف علیه قوله:« وَ هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ الرِّیٰاحَ »إلخ، و فیه تنظیر لأمر الرساله من حیث تأدیتها إلی تمییز المؤمن من الکافر مع کون الفریقین یعیشان علی أرض واحده مختلطین و هما مع ذلک غیر متمازجین کما تقدمت الإشاره إلیه فی أول الآیات التسع.

قوله تعالی:« وَ هُوَ الَّذِی خَلَقَ مِنَ الْمٰاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَ صِهْراً وَ کٰانَ رَبُّکَ قَدِیراً » الصهر علی ما نقل عن الخلیل الختن و أهل بیت المرأه فالنسب هو التحرم من جهه الرجل و الصهر هو التحرم من جهه المرأه-کما قیل-و یؤیده المقابله بین النسب و الصهر.

و قد قیل:إن کلا من النسب و الصهر بتقدیر مضاف و التقدیر فجعله ذا نسب و صهر،و الضمیر للبشر،و المراد بالماء النطفه،و ربما احتمل أن یکون المراد به مطلق الماء الذی خلق الله منه الأشیاء الحیه کما قال: «وَ جَعَلْنٰا مِنَ الْمٰاءِ کُلَّ شَیْءٍ حَیٍّ» :الأنبیاء:۳۰.

و المعنی:و هو الذی خلق من النطفه-و هی ماء واحد-بشرا فقسمه قسمین ذا نسب و ذا صهر یعنی الرجل و المرأه و هذا تنظیر آخر یفید ما تفیده الآیه السابقه أن الله سبحانه أن یحفظ الکثره فی عین الوحده و التفرق فی عین الاتحاد و هکذا یحفظ

اختلاف النفوس و الآراء بالإيمان و الكفر مع اتحاد المجتمع البشرى بما بعث الله الرسل لكشف حجاب الضلال الذى من شأنه غشيانه لو لا الدعوه الحقه.

و قوله:« وَ كانَ رَبُّكَ قَدِيراً »فى إضافه الرب إلى ضمير الخطاب من النكته نظير ما تقدم فى قوله:« أَ لَمْ تَرَ إِلىٰ رَبِّكَ ».

قوله تعالى:« وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مٰا لاٰ يَنْفَعُهُمْ وَ لاٰ يَضُرُّهُمْ وَ كٰانَ الْكٰافِرُ عَلىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً »معطوف على قوله:« وَ إِذٰا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاّٰ هُزُواً ».و الظهير بمعنى المظاهر على ما قيل و المظاهره المعاونه.

و المعنى:و يعبدون-هؤلاء الكفار المشركون-من دون الله ما لا ينفعهم بإيصال الخير على تقدير العباده و لا يضرهم بإيصال الشر على تقدير ترك العباده و كان الكافر معاونا للشيطان على ربه.

و كون هؤلاء المعبودين و هم الأصنام ظاهرا لا ينفعون و لا يضرون لا ينافى كون عبادتهم مضره فلا يستلزم نفى الضرر عنهم أنفسهم حيث لا يقدرون على شىء نفى الضرر عن عبادتهم المضره المؤديه للإنسان إلى شقاء لازم و عذاب دائم.

قوله تعالى:« وَ مٰا أَرْسَلْنٰاكَ إِلاّٰ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً »أى لم نجعل لك فى رسالتك إلا التبشير و الإنذار و ليس لك وراء ذلك من الأمر شىء فلا عليك إن كانوا معاندين لربهم مظاهرين لعدوه عليه فليسوا بمعجزين لله و ما يمكرون إلا بأنفسهم،هذا هو الذى يعطيه السياق.

و عليه فقوله:« وَ مٰا أَرْسَلْنٰاكَ إِلاّٰ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً »هذا الفصل من الكلام نظير قوله:« أَ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً »فى الفصل السابق.

و منه يظهر أن أخذ بعضهم الآيه تسليه منه تعالى لنبيه(ص)حيث قال و المراد ما أرسلناك إلا مبشرا للمؤمنين و نذيرا للكافرين فلا تحزن على عدم إيمانهم.

غير سديد.

قوله تعالى:« قُلْ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاّٰ مَنْ شٰاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً » ضمير« عَلَيْهِ »للقرآن بما أن تلاوته عليهم تبلغ للرساله كما قال تعالى: «إِنَّ هٰذِهِ

تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شٰاءَ اتَّخَذَ إِلىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً» المزمل:١٩،الدهر:٢٩،و قال: «قُلْ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ مٰا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرٌ لِلْعٰالَمِينَ :-ص:٨٧.

و قوله:« إِلاّٰ مَنْ شٰاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً »استثناء منقطع فى معنى المتصل فإنه فى معنى إلا أن يتخذ إلى ربه سبيلا من شاء ذلك على حد قوله تعالى: «يَوْمَ لاٰ يَنْفَعُ مٰالٌ وَ لاٰ بَنُونَ إِلاّٰ مَنْ أَتَى اللّٰهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» :الشعراء:٨٩أى إلا أن يأتى الله بقلب سليم من أتاه به.

ففيه وضع الفاعل و هو من اتخذ السبيل موضع فعله و هو اتخاذ السبيل شكرا له ففى الكلام عد اتخاذهم سبيلا إلى الله سبحانه باستجابه الدعوه أجرا لنفسه ففيه تلويح إلى نهايه استغنائه عن أجر مالى أو جاهى منهم،و أنه لا يريد منهم وراء استجابتهم للدعوه و اتباعهم للحق شيئا آخر من مال أو جاه أو أى أجر مفروض فليطيبوا نفسا و لا يتهموه فى نصيحته.

و قد علق اتخاذ السبيل على مشيتهم للدلاله على حريتهم الكامله عن قبله (ص)فلا إكراه و لا إجبار إذ لا وظيفه له عن قبل ربه وراء التبشير و الإنذار و ليس عليهم بوكيل بل الأمر إلى الله يحكم فيهم ما يشاء.

فقوله:« قُلْ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاّٰ مَنْ شٰاءَ أَنْ يَتَّخِذَ »إلخ بعد ما سجل لنبيه(ص)أن ليس له إلا الرساله بالتبشير و الإنذار يأمره أن يبلغهم أن لا بغيه له فى دعوتهم إلا أن يستجيبوا له و يتخذوا إلى ربهم سبيلا من غير غرض زائد من الأجر أيا ما كان،و أن لهم الخيره فى أمرهم من غير أى إجبار و إكراه فهم و الدعوه إن شاءوا فليؤمنوا و إن شاءوا فليكفروا.

هذا ما يرجع إليه(ص)و هو تبليغ الرساله فحسب من غير طمع فى أجر و لا تحميل عليهم بإكراه أو انتقام منهم بنكال،و أما ما وراء ذلك فهو لله فليرجعه إليه و ليتوكل عليه كما أشار إليه فى الآيه التاليه:« وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاٰ يَمُوتُ ».

و ذكر جمهور المفسرين أن الاستثناء منقطع،و المعنى لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا أى بالإنفاق القائم مقام الأجر كالصدقه و الإنفاق فى سبيل الله فليفعل،و هو ضعيف لا دليل عليه لا من جهه لفظ الجمله و لا من جهه السياق.

و قال بعضهم:إنه متصل و الكلام بحذف مضاف و التقدير إلا فعل من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا بالإيمان و الطاعه حسبما أدعو إليهما.و فيه أخذ استجابتهم له أجرا لنفسه و قطعا لشائبه الطمع بالكليه و تطيبا لأنفسهم،و يرجع هذا الوجه بحسب المعنى إلى ما قدمناه و يمتاز منه بتقدير مضاف و التقدير خلاف الأصل.

و قال آخرون:إنه متصل بتقدير مضاف و التقدير لا أسألكم عليه من أجر إلا أجر من شاء«إلخ»أى إلا الأجر الحاصل لى من إيمانه فإن الدال على الخير كفاعله.و فيه أن مقتضى هذا المعنى أن يقال:إلا من اتخذ إلى ربه سبيلا فلا حاجه إلى تعليق الاتخاذ بالمشيه و الأجر إنما يترتب على العمل دون مشيته.

قوله تعالى:« وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاٰ يَمُوتُ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَ كَفىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبٰادِهِ خَبِيراً »لما سجل على نبيه ص أن ليس له من أمرهم شىء إلا الرساله و أمره أن يبلغهم أن لا بغيه له فى دعوتهم إلا الاستجابه لها و أنهم على خيره من أمرهم إن شاءوا آمنوا و إن شاءوا كفروا تمم ذلک بأمره(ص)أن يتخذه تعالى وكيلا فى أمرهم فهو تعالى عليهم و على كل شىء وكيل و بذنوب عباده خبير.

فقوله:« وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاٰ يَمُوتُ »أى اتخذه وكيلا فى أمرهم يحكم فيهم ما يشاء و يفعل بهم ما يريد فإنه الوكيل عليهم و على كل شىء و قد عدل عن تعليق التوكل بالله إلى تعليقه بالحى الذى لا يموت ليفيد التعليل فإن الحى الذى لا يموت لا يفوته فائت فهو المتعين لأن يكون وكيلا.

و قوله:« وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ »أى نزهه عن العجز و الجهل و كل ما لا يليق بساحه قدسه مقارنا ذلک للثناء عليه بالجميل فإن أمهلهم و استدرجهم بنعمه فليس عن عجز فعل بهم ذلک و لا عن جهل بذنوبهم و إن أخذهم بذنوبهم فبحكمه اقتضته و باستحقاق منهم استدعى ذلک فسبحانه و بحمده.

و قوله:« وَ كَفىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبٰادِهِ خَبِيراً »مسوق للدلاله على توحيده فى فعله و صفته فهو الوكيل المتصرف فى أمور عباده وحده و هو خبير بذنوبهم و حاكم فيهم وحده من غير حاجه إلى من يعينه فى علمه أو فى حكمه.

و من هنا يظهر أن الآيه التاليه:« اَلَّذِي خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ »متممه لقوله:

« وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاٰ يَمُوتُ »إلخ،لاشتمالها على توحيده فى ملكه و تصرفه كما يشتمل قوله:« وَ كَفىٰ بِهِ »إلخ على علمه و خبرته و بالحياه و الملك و العلم معا يتم معنى الوكاله و سنشير إليه.

قوله تعالى:« اَلَّذِي خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمٰنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً »ظاهر السياق أن الموصول صفه لقوله فى الآيه السابقه:« اَلْحَيِّ الَّذِي لاٰ يَمُوتُ »و بهذه الآيه يتم البيان فى قوله:« وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاٰ يَمُوتُ »فإن الوكاله كما تتوقف على حياه الوكيل تتوقف على العلم، و قد ذكره فى قوله:« وَ كَفىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبٰادِهِ خَبِيراً »و تتوقف على السلطنه على الحكم و التصرف و هو الذى تتضمنه هذه الآيه بما فيها من حديث خلق السماوات و الأرض و الاستواء على العرش.

و قد تقدم تفسير صدر الآيه فى مواضع من السور السابقه،و أما قوله:« اَلرَّحْمٰنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً »فالذى يعطيه السياق و يهدى إليه النظم أن يكون الرحمن خبرا لمبتدإ محذوف و التقدير هو الرحمن،و قوله:« فَسْئَلْ »متفرعا عليه و الفاء للتفريع، و الباء فى قوله:« بِهِ »للتعديه مع تضمين السؤال معنى الاعتناء.و قوله:« خَبِيراً » حال من الضمير.

و المعنى:هو الرحمن-الذى استوى على عرش الملك و الذى برحمته و إفاضته يقوم الخلق و الأمر و منه يبتدئ كل شىء و إليه يرجع-فاسأله عن حقيقه الحال يخبرك بها فإنه خبير.

فقوله:« فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً »كنايه عن أن الذى أخبر به حقيقه الأمر التى لا معدل عنها و هذا كما يقول من سئل عن أمر:سلنى أجبك إن كذا و كذا و من هذا الباب قولهم:على الخبير سقطت.

و لهم فى قوله:« اَلرَّحْمٰنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً »أقوال أخرى كثيره:فقيل:إن اَلرَّحْمٰنُ مرفوع على القطع للمدح،و قيل:مبتدأ خبره قوله:« فَسْئَلْ بِهِ »و قيل:

خبر مبتدؤه« اَلَّذِي »فى صدر الآيه،و قيل:بدل من الضمير المستكن فى« اِسْتَوىٰ ».

و قيل فى« فَسْئَلْ بِهِ »إنه خبر للرحمن كما تقدم و الفاء فصيحه،و قيل:جمله

مستقله متفرعه على ما قبلها و الفاء للتفريع ثم الباء فى« بِهِ »للصله أو بمعنى عن و الضمير راجع إليه تعالى أو إلى ما تقدم من الخلق و الاستواء.

و قيل« خَبِيراً »حال عن الضمير و هو راجع إليه تعالى،و المعنى فاسأل الله حال كونه خبيرا،و قيل:مفعول فاسأل و الباء بمعنى عن و المعنى فاسأل عن الرحمن أو عن حديث الخلق و الاستواء خبيرا،و المراد بالخبير هو الله سبحانه،و قيل جبرئيل و قيل:محمد ص،و قيل:من قرأ الكتب السماويه القديمه و وقف على صفاته و أفعاله تعالى و كيفيه الخلق و الإيجاد،و قيل:كل من كان له وقوف على هذه الحقائق.

و هذه الوجوه المتشتته جلها أو كلها لا تلائم ما يعطيه سياق الآيات الكريمه و لا موجب للتكلم عليها و الغور فيها.

قوله تعالى:« وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمٰنِ قٰالُوا وَ مَا الرَّحْمٰنُ أَ نَسْجُدُ لِمٰا تَأْمُرُنٰا وَ زٰادَهُمْ نُفُوراً »هذا فصل آخر من معاملتهم السوء مع الرسول و دعوته الحقه يذكر فيه استكبارهم عن السجود لله سبحانه إذا دعوا إليه و نفورهم منه و للآيه اتصال خاص بما قبلها من حيث ذكر الرحمن فيها و قد وصف فى الآيه السابقه بما وصف و لعل اللام فيه للعهد.

فقوله:« وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمٰنِ »الضمير للكفار،و القائل هو النبى ص بدليل قوله بعد:« أَ نَسْجُدُ لِمٰا تَأْمُرُنٰا »و لم يذكر اسمه ليتوجه استكبارهم إلى الله سبحانه وحده.

و قوله:« قٰالُوا وَ مَا الرَّحْمٰنُ »سؤال منهم عن هويته و مائيته مبالغه منهم فى التجاهل به استكبارا منهم على الله و لو لا ذلك لقالوا:و من الرحمن،و هذا كقول فرعون لموسى لما دعاه إلى رب العالمين: «وَ مٰا رَبُّ الْعٰالَمِينَ» :الشعراء:۲۳،و قول إبراهيم لقومه: «مٰا هٰذِهِ التَّمٰاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهٰا عٰاكِفُونَ» :الأنبياء:۵۲،و مراد السائل فى مثل هذا السؤال أنه لا معرفه له من المسئول عنه بشىء أزيد من اسمه كقول هود لقومه: «أَ تُجٰادِلُونَنِي فِي أَسْمٰاءٍ سَمَّيْتُمُوهٰا أَنْتُمْ وَ آبٰاؤُكُمْ» :الأعراف:۷۱.

و قوله حكايه عنهم:« أَ نَسْجُدُ لِمٰا تَأْمُرُنٰا »فى تكرار التعبير عنه تعالى بما إصرار على الاستكبار،و التعبير عن طلبه عنهم السجده بالأمر لا يخلو من تهكم و استهزاء.

و قوله:« وَ زٰادَهُمْ نُفُوراً »معطوف على جواب إذا و المعنى:و إذا قيل لهم اسجدوا استكبروا و زادهم ذلك نفورا ففاعل(زٰادَهُمْ)ضمير راجع إلى القول المفهوم من سابق الكلام.

و قول بعضهم:إن الفاعل ضمير راجع إلى السجود بناء على ما رووا أنه(ص) و أصحابه سجدوا فتباعدوا عنهم مستهزءين ليس بسديد فإن وقوع واقعه ما لا يؤثر فى دلاله اللفظ ما لم يتعرض له لفظا.و لا تعرض فى الآيه لهذه القصه أصلا.

قوله تعالى:« تَبٰارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمٰاءِ بُرُوجاً وَ جَعَلَ فِيهٰا سِرٰاجاً وَ قَمَراً مُنِيراً »الظاهر أن المراد بالبروج منازل الشمس و القمر من السماء أو الكواكب التى عليها كما تقدم فى قوله: «وَ لَقَدْ جَعَلْنٰا فِي السَّمٰاءِ بُرُوجاً وَ زَيَّنّٰاهٰا لِلنّٰاظِرِينَ وَ حَفِظْنٰاهٰا مِنْ كُلِّ شَيْطٰانٍ رَجِيمٍ» :الحجر:١٧،و إنما خصت بالذكر فى الآيه للإشاره إلى الحفظ و الرجم المذكورين.

و المراد بالسراج الشمس بدليل قوله: «وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِرٰاجاً :نوح:١۶.

و قد قرروا الآيه أنها احتجاج بوحده التدبير العجيب السماوى و الأرضى على وحده المدبر فيجب التوجه بالعبادات إليه و صرف الوجه عن غيره.

و التدبر فى اتصال الآيتين بما قبلهما و سياق الآيات لا يساعد عليه لأن مضمون الآيه السابقه من استكبارهم على الرحمن إذا أمروا بالسجود له و استهزائهم بالرسول لا نسبه كافيه بينه و بين الاحتجاج على توحيد الربوبيه حتى يعقب به،و إنما المناسب لهذا المعنى إظهار العزه و الغنى و أنهم غير معجزين لله بفعالهم هذا و لا خارجين عن ملكه و سلطانه.

و الذى يعطيه التدبر أن قوله:« تَبٰارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمٰاءِ بُرُوجاً »إلخ، مسوق سوق التعزز و الاستغناء،و أنهم غير معجزين باستكبارهم على الله و استهزائهم بالرسول بل هؤلاء ممنوعون عن الاقتراب من حضره قربه و الصعود إلى سماء جواره و المعارف الإلهيه مضيئه مع ذلك لأهله و عباده بما نورها الله سبحانه بنور هدايته و هو نور الرساله.

و على هذا فقد أثنى الله سبحانه على نفسه بذكر تباركه بجعل البروج المحفوظه الراجمه للشياطين بالشهب فى السماء المحسوسه و جعل الشمس المضيئه و القمر المنير فيها لإضاءه العالم المحسوس،و أشار بذلك إلى ما يناظره فى الحقيقه من إضاءه العالم الإنسانى بنور الهدايه من الرساله ليتبصر به عباده،كما يذكر حالهم بعد هذه الآيات و دفع أولياء الشياطين عن الصعود إليه بما هيأ لدفعهم من بروج محفوظه راجمه.

هذا ما يعطيه السياق و على هذا النمط من البيان سيقت هذه الآيات و التى قبلها كما تقدمت الإشاره إليه فى تفسير قوله:« أَ لَمْ تَرَ إِلىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ »فليس ما ذكرناه من التأويل بمعنى صرف الآيات عن ظاهرها.

قوله تعالى:« وَ هُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَ النَّهٰارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرٰادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرٰادَ شُكُوراً » الخلفه هى الشىء يسد مسد شىء آخر و بالعكس و كأنه بناء نوع أريد به معنى الوصف فكون الليل و النهار خلفه أن كلا منهما يخلف الآخر،و تقييد الخلفه بقوله:« لِمَنْ أَرٰادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرٰادَ شُكُوراً »للدلاله على نيابه كل منهما عن الآخر فى التذكر و الشكر.

و المقابله بين التذكر و الشكر يعطى أن المراد بالتذكر الرجوع إلى ما يعرفه الإنسان بفطرته من الحجج الداله على توحيد ربه و ما يليق به تعالى من الصفات و الأسماء و غايته الإيمان بالله،و بالشكور القول أو الفعل الذى ينبئ عن الثناء عليه بجميل ما أنعم،و ينطبق على عبادته و ما يلحق بها من صالح العمل.

و على هذا فالآيه اعتزاز أو امتنان بجعله تعالى الليل و النهار بحيث يخلف كل صاحبه فمن فاته الإيمان به فى هذه البرهه من الزمان تداركه فى البرهه الأخرى منه، و من لم يوفق لعباده أو لأى عمل صالح فى شىء منهما أتى به فى الآخر.

هذا ما تفيده الآيه و لها مع ذلك ارتباط بقوله فى الآيه السابقه:« وَ جَعَلَ فِيهٰا سِرٰاجاً وَ قَمَراً مُنِيراً »ففيه إشاره إلى أن الله سبحانه و إن دفع أولئك المستكبرين عن الصعود إلى ساحه قربه لكنه لم يمنع عباده عن التقرب إليه و الاستضاءه بنوره فجعل نهارا ذا شمس طالعه و ليلا ذا قمر منير و هما ذوا خلفه من فاته ذكر أو شكر فى أحدهما أتى به فى الآخر.

و فسر بعضهم التذكر بصلاه الفريضه و الشكور بالنافله و الآيه تقبل الانطباق على ذلك و إن لم يتعين حملها عليه.

(بحث روائی)

فی الدر المنثور،:فی قوله تعالی:« أَ رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ »:أخرج الطبرانی عن أبی أمامه قال:قال رسول الله ص: ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله-أعظم عند الله من هوى متبع.

و فی تفسير القمی،فی روايه أبی الجارود عن أبی جعفر(ع): فی قوله تعالی:« أَ لَمْ تَرَ إِلىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ »فقال:الظل ما بين طلوع الفجر إلی طلوع الشمس.

و فی المجمع":فی قوله تعالی:« وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمٰاءِ »الآيه،قال ابن سيرين:

نزلت فی النبی ص-و علی بن أبی طالب زوج فاطمه عليا-فهو ابن عمه و زوج ابنته فكان نسبا و صهرا.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس":فی قوله:« وَ كٰانَ الْكٰافِرُ عَلىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً »يعنی أبا الحكم-الذی سماه رسول الله ص أبا جهل بن هشام.

أقول:و الروايتان بالجری و التطبيق أشبه.

و فی تفسير القمی،فی روايه أبی الجارود عن أبی جعفر(ع): فی قوله تبارک و تعالی:« تَبٰارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمٰاءِ بُرُوجاً »فالبروج الكواكب و البروج التی للربيع و الصيف-الحمل و الثور و الجوزاء و السرطان و الأسد و السنبله،و بروج الخريف و الشتاء:الميزان و العقرب و القوس و الجدی و الدلو و الحوت-و هی اثنا عشر برجا.

و فی الفقيه،قال الصادق(ع): كلما فاتک بالليل فاقضه بالنهار قال الله تبارک و تعالی:« وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَ النَّهٰارَ خِلْفَةً-لِمَنْ أَرٰادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرٰادَ شُكُوراً » يعنی أن يقضی الرجل ما فاته بالليل بالنهار-و ما فاته بالنهار بالليل.

[سوره الفرقان (۲۵): الآیات ۶۳ الی ۷۷]

اشاره

وَ عِبٰادُ اَلرَّحْمٰنِ اَلَّذِینَ یَمْشُونَ عَلَی اَلْأَرْضِ هَوْناً وَ إِذٰا خٰاطَبَهُمُ اَلْجٰاهِلُونَ قٰالُوا سَلاٰماً (۶۳) وَ اَلَّذِینَ یَبِیتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَ قِیٰاماً
(۶۴) وَ اَلَّذِینَ یَقُولُونَ رَبَّنَا اِصْرِفْ عَنّٰا عَذٰابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذٰابَهٰا کٰانَ غَرٰاماً (۶۵) إِنَّهٰا سٰاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقٰاماً (۶۶) وَ اَلَّذِینَ إِذٰا أَنْفَقُوا
لَمْ یُسْرِفُوا وَ لَمْ یَقْتُرُوا وَ کٰانَ بَیْنَ ذٰلِکَ قَوٰاماً (۶۷) وَ اَلَّذِینَ لاٰ یَدْعُونَ مَعَ اَللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ وَ لاٰ یَقْتُلُونَ اَلنَّفْسَ اَلَّتِی حَرَّمَ اَللّٰهُ إِلاّٰ بِالْحَقِّ
وَ لاٰ یَزْنُونَ وَ مَنْ یَفْعَلْ ذٰلِکَ یَلْقَ أَثٰاماً (۶۸) یُضٰاعَفْ لَهُ اَلْعَذٰابُ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ وَ یَخْلُدْ فِیهِ مُهٰاناً (۶۹) إِلاّٰ مَنْ تٰابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ
عَمَلاً صٰالِحاً فَأُوْلٰئِکَ یُبَدِّلُ اَللّٰهُ سَیِّئٰاتِهِمْ حَسَنٰاتٍ وَ کٰانَ اَللّٰهُ غَفُوراً رَحِیماً (۷۰) وَ مَنْ تٰابَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً فَإِنَّهُ یَتُوبُ إِلَی اَللّٰهِ مَتٰاباً
(۷۱) وَ اَلَّذِینَ لاٰ یَشْهَدُونَ اَلزُّورَ وَ إِذٰا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا کِرٰاماً (۷۲) وَ اَلَّذِینَ إِذٰا ذُکِّرُوا بِآیٰاتِ رَبِّهِمْ لَمْ یَخِرُّوا عَلَیْهٰا صُمًّا وَ عُمْیٰاناً
(۷۳) وَ اَلَّذِینَ یَقُولُونَ رَبَّنٰا هَبْ لَنٰا مِنْ أَزْوٰاجِنٰا وَ ذُرِّیّٰاتِنٰا قُرَّهَ أَعْیُنٍ وَ اِجْعَلْنٰا لِلْمُتَّقِینَ إِمٰاماً (۷۴) أُوْلٰئِکَ یُجْزَوْنَ اَلْغُرْفَهَ بِمٰا صَبَرُوا وَ
یُلَقَّوْنَ فِیهٰا تَحِیَّهً وَ سَلاٰماً (۷۵) خٰالِدِینَ فِیهٰا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقٰاماً (۷۶) قُلْ مٰا یَعْبَؤُا بِکُمْ رَبِّی لَوْ لاٰ دُعٰاؤُکُمْ فَقَدْ کَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ
یَکُونُ لِزٰاماً (۷۷)

(بیان)

تذکر الآیات من محاسن خصال المؤمنین ما یقابل ما وصف من صفات الکفار السیئه و یجمعها أنهم یدعون ربهم و یصدقون رسوله و الکتاب النازل علیه قبال تکذیب الکفار لذلک و إعراضهم عنه إلی اتباع الهوی،و لذلک تختتم الآیات بقوله:« قُلْ مٰا یَعْبَؤُا بِکُمْ رَبِّی لَوْ لاٰ دُعٰاؤُکُمْ فَقَدْ کَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ یَکُونُ لِزٰاماً » و به تختتم السوره.

قوله تعالی:« وَ عِبٰادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِینَ یَمْشُونَ عَلَی الْأَرْضِ هَوْناً وَ إِذٰا خٰاطَبَهُمُ الْجٰاهِلُونَ قٰالُوا سَلاٰماً »لما ذکر فی الآیه السابقه استکبارهم علی الله سبحانه و إهانتهم بالاسم الکریم:الرحمن،قابله فی هذه الآیه بذکر ما یقابل ذلک للمؤمنین و سماهم عبادا و أضافهم إلی نفسه متسمیا باسم الرحمن الذی کان یحید عنه الکفار و ینفرون.

و قد وصفتهم الآیه بوصفین من صفاتهم:

أحدهما:ما اشتمل علیه قوله:اَلَّذِینَ یَمْشُونَ عَلَی الْأَرْضِ هَوْناً »و الهون علی ما ذکره الراغب التذلل،و الأشبه حینئذ أن یکون المشی علی الأرض کنایه عن عیشتهم بمخالطه الناس و معاشرتهم فهم فی أنفسهم متذللون لربهم و متواضعون للناس لما أنهم عباد الله غیر مستکبرین علی الله و لا مستعلین علی غیرهم بغیر حق،و أما التذلل لأعداء الله ابتغاء ما عندهم من العزه الوهمیه فحاشاهم و إن کان الهون بمعنی الرفق و اللین فالمراد أنهم یمشون من غیر تکبر و تبختر.

و ثانیهما:ما اشتمل علیه قوله:« وَ إِذٰا خٰاطَبَهُمُ الْجٰاهِلُونَ قٰالُوا سَلاٰماً »أی إذا خاطبهم الجاهلون خطابا ناشئا عن جهلهم مما یکرهون أن یخاطبوا به أو یثقل علیهم کما یستفاد من تعلق الفعل بالوصف أجابوهم بما هو سالم من القول و قالوا لهم قولا سلاما خالیا عن اللغو و الإثم،قال تعالی: «لاٰ یَسْمَعُونَ فِیهٰا لَغْواً وَ لاٰ تَأْثِیماً إِلاّٰ قِیلاً سَلاٰماً سَلاٰماً» :الواقعه:۲۶،و یرجع إلی عدم مقابلتهم الجهل بالجهل.

ص:۲۳۹

و هذه-كما قيل-صفه نهارهم إذا انتشروا فى الناس و أما صفه ليلهم فهى التى تصفها الآيه التاليه.

قوله تعالى:« وَ الَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَ قِيَاماً » البيتوته إدراك الليل سواء نام أم لا،و« لِرَبِّهِمْ »متعلق بقوله:« سُجَّداً »و السجد و القيام جمعا ساجد و قائم، و المراد عبادتهم له تعالى بالخرور على الأرض و القيام على السوق،و من مصاديقه الصلاه.

و المعنى:و هم الذين يدركون الليل حال كونهم ساجدين فيه لربهم و قائمين يتراوحون سجودا و قياما،و يمكن أن يراد به التهجد بنوافل الليل.

قوله تعالى:« وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً » الغرام ما ينوب الإنسان من شده أو مصيبه فيلزمه و لا يفارقه و الباقى ظاهر.

قوله تعالى:« إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقَاماً »الضمير لجهنم و المستقر و المقام اسما مكان من الاستقرار و الإقامه،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى:« وَ الَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كَانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوَاماً »، الإنفاق بذل المال و صرفه فى رفع حوائج نفسه أو غيره،و الإسراف الخروج عن الحد و لا يكون إلا فى جانب الزياده،و هو فى الإنفاق التعدى عما ينبغى الوقوف عليه فى بذل المال،و القتر بالفتح فالسكون التقليل فى الإنفاق و هو بإزاء الإسراف على ما ذكره الراغب،و القتر و الإقتار و التقتير بمعنى.

و القوام بالفتح الواسط العدل،و بالكسر ما يقوم به الشىء و قوله:« بَيْنَ ذٰلِكَ » متعلق بالقوام،و المعنى:و كان إنفاقهم وسطا عدلا بين ما ذكر من الإسراف و القتر فقوله:« وَ كَانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوَاماً تنصيص على ما يستفاد من قوله« إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا »،فصدر الآيه ينفى طرفى الإفراط و التفريط فى الإنفاق،و ذيلها يثبت الوسط.

قوله تعالى:« وَ الَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ »إلى آخر الآيه هذا هو الشرك و أصول الوثنيه لا تجيز دعاءه تعالى و عبادته أصلا لا وحده و لا مع آلهتهم و إنما توجب دعاء آلهتهم و عبادتهم ليقربوهم إلى الله زلفى و يشفعوا لهم عنده.

فالمراد بـدعائهم مع الله إلها آخر إما التلويـح إلى أنه تعالى إله مـدعو بالفطره على كل حال فدعاء غيره دعاء لإله آخر معه و إن لم يذكر الله.

أو أنه تعالى ثابت فى نفسه سواء دعى غيره أم لا فالمراد بدعاء غيره دعاء إله آخر مع وجوده و بعباره أخرى تعديه إلى غيره.

أو إشاره إلى ما كان يفعله جهله مشركى العرب فإنهم كانوا يرون أن دعاء آلهتهم إنما ينفعهم فى البر و أما البحر فإنه لله لا يشاركه فيه أحد فالمراد دعاؤه تعالى فى مورد كما عند شدائد البحر من طوفان و نحوه و دعاء غيره معه فى مورد و هو البر،و أحسن الوجوه أوسطها.

و قوله:« وَ لاٰ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّٰهُ إِلاّٰ بِالْحَقِّ »أى لا يقتلون النفس الإنسانيه التى حرم الله قتلها فى حال من الأحوال إلا حال تلبس القتل بالحق كقتلها قصاصا و حدا.

و قوله تعالى:« وَ لاٰ يَزْنُونَ »أى لا يطئون الفرج الحرام و قد كان شائعا بين العرب فى الجاهليه، و كان الإسلام معروفا بتحريم الزنا و الخمر من أول ما ظهرت دعوته.

و قوله:« وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثٰاماً »الإشاره بذلك إلى ما تقدم ذكره و هو الشرك و قتل النفس المحترمه بغير حق و الزنا،و الآثام الإثم و هو وبال الخطيئه و هو الجزاء بالعذاب الذى سيلقاه يوم القيامه المذكور فى الآيه التاليه.

قوله تعالى:« يُضٰاعَفْ لَهُ الْعَذٰابُ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ وَ يَخْلُدْ فِيهِ مُهٰاناً »بيان للقاء الآثام،و قوله:« وَ يَخْلُدْ فِيهِ مُهٰاناً »أى يخلد فى العذاب و قد وقعت عليه الإهانه.

و الخلود فى العذاب فى الشرك لا ريب فيه،و أما الخلود فيه عند قتل النفس المحترمه و الزنا و هما من الكبائر و قد صرح القرآن بذلك فيهما و كذا فى أكل الربا فيمكن أن يحمل على اقتضاء طبع المعصيه ذلك كما ربما استفيد من ظاهر قوله:« إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشٰاءُ ».

أو يحمل الخلود على المكث الطويل أعم من المنقطع و المؤبد أو يحمل قوله:

« وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ »على فعل جميع الثلاثه لأن الآيات فى الحقيقه تنزه المؤمنين عما كان الكفار مبتلين به و هو الجميع دون البعض.

قوله تعالى:« إِلاّٰ مَنْ تٰابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلاً صٰالِحاً فَأُوْلٰئِكَ يُبَدِّلُ اللّٰهُ سَيِّئٰاتِهِمْ حَسَنٰاتٍ وَ كٰانَ اللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً »استثناء من لقى الآثام و الخلود فيه، و قد أخذ فى المستثنى التوبه و الإيمان و إتيان العمل الصالح،أما التوبه و هى الرجوع عن المعصيه و أقل مراتبها الندم فلو لم يتحقق لم ينتزع العبد عن المعصيه و لم يزل مقيما عليها،و أما إتيان العمل الصالح فهو مما تستقر به التوبه و به تكون نصوحا.

و أما أخذ الإيمان فيدل على أن الاستثناء إنما هو من الشرك فتختص الآيه بمن أشرك و قتل و زنى أو بمن أشرك سواء أتى معه بشىء من القتل المذكور و الزنا أو لم يأت،و أما من أتى بشىء من القتل و الزنا من غير شرك فالمتكفل لبيان حكم توبته الآيه التاليه.

و قوله:« فَأُوْلٰئِكَ يُبَدِّلُ اللّٰهُ سَيِّئٰاتِهِمْ حَسَنٰاتٍ »تفريع على التوبه و الإيمان و العمل الصالح يصف ما يترتب على ذلك من جميل الأثر و هو أن الله يبدل سيئاتهم حسنات.

و قد قيل فى معنى ذلك أن الله يمحو سوابق معاصيهم بالتوبه و يثبت مكانها لواحق طاعاتهم فيبدل الكفر إيمانا و القتل بغير حق جهادا و قتلا بالحق و الزنا عفه و إحصانا.

و قيل:المراد بالسيئات و الحسنات ملكاتهما لا نفسهما فيبدل ملكه السيئه ملكه الحسنه.

و قيل:المراد بهما العقاب و الثواب عليهما لا نفسهما فيبدل عقاب القتل و الزنا مثلا ثواب القتل بالحق و الإحصان.

و أنت خبير بأن هذه الوجوه من صرف الكلام عن ظاهره بغير دليل يدل عليه.

و الذى يفيد ظاهر قوله:« يُبَدِّلُ اللّٰهُ سَيِّئٰاتِهِمْ حَسَنٰاتٍ »و قد ذيله بقوله:« وَ كٰانَ اللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً »أن كل سيئه منهم نفسها تتبدل حسنه،و ليست السيئه هى متن

الفعل الصادر من فاعله و هو حركات خاصه مشتركه بين السيئه و الحسنه كعمل المواقعه مثلا المشترك بين الزنا و النكاح،و الأكل المشترك بين أكل المال غصبا و بإذن من مالكه بل صفه الفعل من حيث موافقته لأمر الله و مخالفته له مثلا من حيث إنه يتأثر به الإنسان و يحفظ عليه دون الفعل الذى هو مجموع حركات متصرمه متقضيه فانيه و كذا عنوانه القائم به الفانى بفنائه.

و هذه الآثار السيئه التى يتبعها العقاب أعنى السيئات لازمه للإنسان حتى يؤخذ بها يوم تبلى السرائر.

و لو لا شوب من الشقوه و المساءه فى الذات لم يصدر عنها عمل سيئ إذ الذات السعيده الطاهره من كل وجه لا يصدر عنها سيئه قذره فالأعمال السيئه إنما تلحق ذاتا شقيه خبيثه بذاتها أو ذاتا فيها شوب من شقاء و خباثه.

و لازم ذلك إذا تطهرت بالتوبه و طابت بالإيمان و العمل الصالح فتبدلت ذاتا سعيده ما فيها شوب من قذاره الشقاء أن تتبدل آثارها اللازمه التى كانت سيئات قبل ذلك فتناسب الآثار للذات بمغفره من الله و رحمه و كان الله غفورا رحيما.

و إلى مثل هذا يمكن أن تكون الإشاره بقوله:« فَأُوْلٰئِكَ يُبَدِّلُ اللّٰهُ سَيِّئٰاتِهِمْ حَسَنٰاتٍ وَ كٰانَ اللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً ».

قوله تعالى:« وَ مَنْ تٰابَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللّٰهِ مَتٰاباً » المتاب مصدر ميمى للتوبه،و سياق الآيه يعطى أنها مسوقه لرفع استغراب تبدل السيئات حسنات بتعظيم أمر التوبه و أنها رجوع خاص إلى الله سبحانه فلا بدع فى أن يبدل السيئات حسنات و هو الله يفعل ما يشاء.

و فى الآيه مع ذلك شمول للتوبه من جميع المعاصى سواء قارنت الشرك أم فارقته، و الآيه السابقه-كما تقدمت الإشاره إليه-كانت خفيه الدلاله على حال المعاصى إذا تجردت من الشرك.

قوله تعالى:« وَ الَّذِينَ لاٰ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَ إِذٰا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرٰاماً »قال فى مجمع البيان:،أصل الزور تمويه الباطل بما يوهم أنه حق.انتهى.فيشمل الكذب و كل

لهو باطل كالغناء و الفحش و الخنا بوجه،و قال أيضا:يقال:تكرم فلان عما يشينه إذا تنزه و أكرم نفسه منه انتهى.

فقوله:« وَ الَّذِينَ لاٰ يَشْهَدُونَ الزُّورَ »إن كان المراد بالزور الكذب فهو قائم مقام المفعول المطلق و التقدير لا يشهدون شهاده الزور،و إن كان المراد اللهو الباطل كالغناء و نحوه كان مفعولا به و المعنى لا يحضرون مجالس الباطل،و ذيل الآيه يناسب ثانى المعنيين.

و قوله:« وَ إِذٰا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرٰاماً » اللغو ما لا يعتد به من الأفعال و الأقوال لعدم اشتماله على غرض عقلائى و يعم-كما قيل-جميع المعاصى،و المراد بالمرور باللغو المرور بأهل اللغو و هم مشتغلون به.

و المعنى:و إذا مروا بأهل اللغو و هم يلغون مروا معرضين عنهم منزهين أنفسهم عن الدخول فيهم و الاختلاط بهم و مجالستهم.

قوله تعالى:« وَ الَّذِينَ إِذٰا ذُكِّرُوا بِآيٰاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهٰا صُمًّا وَ عُمْيٰاناً » الخرور على الأرض السقوط عليها و كأنها فى الآيه كنايه عن لزوم الشىء و الانكباب عليه.

و المعنى:و الذين إذا ذكروا بآيات ربهم من حكمه أو موعظه حسنه من قرآن أو وحى لم يسقطوا عليه و هم صم لا يسمعون و عميان لا يبصرون بل تفكروا فيها و تعقلوها فأخذوا بها عن بصيره فآمنوا بحكمتها و اتعظوا بموعظتها و كانوا على بصيره من أمرهم و بينه من ربهم.

قوله تعالى:« وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنٰا هَبْ لَنٰا مِنْ أَزْوٰاجِنٰا وَ ذُرِّيّٰاتِنٰا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَ اجْعَلْنٰا لِلْمُتَّقِينَ إِمٰاماً »قال الراغب فى المفردات،: قرت عينه تقر سرت قال،تعالى:

« كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهٰا »و قيل لمن يسر به قره عين قال:« قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ »و قوله تعالى:

« هَبْ لَنٰا مِنْ أَزْوٰاجِنٰا وَ ذُرِّيّٰاتِنٰا قُرَّةَ أَعْيُنٍ »قيل:أصله من القر أى البرد فقرت عينه قيل:معناه بردت فصحت،و قيل:بل لأن للسرور دمعه بارده قاره و للحزن دمعه حاره و لذلك يقال فيمن يدعى عليه:أسخن الله عينه،و قيل:هو من القرار و المعنى أعطاه الله ما يسكن به عينه فلا تطمح إلى غيره انتهى.

ص :۲۴۴

و مرادهم بكون أزواجهم و ذرياتهم قره أعين لهم أن يسروهم بطاعه الله و التجنب عن معصيته فلا حاجه لهم فى غير ذلك و لا إربه و هم أهل حق لا يتبعون الهوى.

و قوله:« وَ اجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً »أى متسابقين إلى الخيرات سابقين إلى رحمتك فيتبعنا غيرنا من المتقين كما قال تعالى: «فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ» :البقره:۱۴۸،و قال:

«سابِقُوا إِلى مَغْفِرَهٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّهٍ» :الحديد:۲۱،و قال: «وَ السّابِقُونَ السّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ» :الواقعه:۱۱،و كأن المراد أن يكونوا صفا واحدا متقدما على غيرهم من المتقين و لذا جىء بالإمام بلفظ الإفراد.

و قال بعضهم:إن الإمام مما يطلق على الواحد و الجمع،و قيل:إن إمام جمع آم بمعنى القاصد كصيام جمع صائم،و المعنى:اجعلنا قاصدين للمتقين متقيدين بهم،و فى قراءه أهل البيت« و اجعل لنا من المتقين إماما ».

قوله تعالى:« أُوْلئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَهَ بِما صَبَرُوا وَ يُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّهً وَ سَلاماً خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقاماً » الغرفه -كما قيل- البناء فوق البناء فهو الدرجه العاليه من البيت،و هى كنايه عن الدرجه العاليه فى الجنه،و المراد بالصبر الصبر على طاعه الله و عن معصيته فهذان القسمان من الصبر هما المذكوران فى الآيات السابقه لكن لا ينفك ذلك عن الصبر عند النوائب و الشدائد.

و المعنى:أولئك الموصوفون بما وصفوا يجزون الدرجه الرفيعه من الجنه يلقون فيها أى يتلقاهم الملائكه بالتحيه و هو ما يقدم للإنسان مما يسره و بالسلام و هو كل ما ليس فيه ما يخافه و يحذره،و فى تنكير التحيه و السلام دلاله على التفخيم و التعظيم، و الباقى ظاهر.

قوله تعالى:« قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْ لا دُعاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً » قال فى المفردات:،ما عبأت به أى لم أبال به،و أصله من العبء أى الثقل كأنه قال:

ما أرى له وزنا و قدرا،قال تعالى:« قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْ لا دُعاؤُكُمْ »و قيل:من عبأت الطيب كأنه قيل:ما يبقيكم لو لا دعاؤكم.انتهى.

قيل:« دُعاؤُكُمْ »من إضافه المصدر إلى المفعول و فاعله ضمير راجع إلى« رَبِّى »

و علی هـذا فقوله:« فَقَدْ كَذَّبْتُمْ »من تفریع السبب علی المسبب بمعنی انکشافه بمسببه، و قوله:« فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً »أی سوف یکون تکذیبکم ملازما لکم أشد الملازمه فتجزون بشقاء لازم و عذاب دائم.

و المعنی:قل لا قدر و لا منزله لکم عند ربی فوجودکم و عدمکم عنده سواء لأنکم کذبتم فلا خیر یرجی فیکم فسوف یکون هـذا التکذیب ملازما لکم أشد الملازمه،إلا أن الله یدعوکم لیتم الحجه علیکم أو یدعوکم لعلکم ترجعون عن تکذیبکم.و هذا معنی حسن.

و قیل:« دُعاؤُكُمْ »من إضافه المصدر إلی الفاعل،و المراد به عبادتهم لله سبحانه و المعنی:ما یبالی بکم ربی أو ما یبقیکم ربی لو لا عبادتکم له.

و فیه أن هـذا المعنی لا یلائم تفرع قوله:« فَقَدْ كَذَّبْتُمْ »علیه و کان علیه من حق الکلام أن یقال:و قد کذبتم!علی أن المصدر المضاف إلی فاعله یدل علی تحقق الفعل منه و تلبسه به و هم غیر متلبسین بدعائه و عبادته تعالی فکان من حق الکلام علی هذا التقدیر أن یقال لو لا أن تدعوه فافهم.

و الآیه خاتمه السوره و تنعطف إلی غرض السوره و محصل القول فیه و هو الکلام علی اعتراض المشرکین علی الرسول و علی القرآن النازل علیه و تکذیبهما.

(بحث روائی)

فی المجمع، فی قوله تعالی:« اَلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً »قال أبو عبد الله(ع) :هو الرجل یمشی بسجیته التی جبل علیها-لا یتکلف و لا یتبختر.

و فی الدر المنثور،أخرج عبد بن حمید عن أبی سعید الخدری عن رسول الله ص:

فی قوله:« إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً »قال:الدائم.

و فی تفسیر القمی،فی روایه أبی الجارود عن أبی جعفر(ع): فی قوله تعالی:« إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً »یقول:ملازما لا ینفک.و قوله عز و جل:« وَ الَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا »و الإسراف الإنفاق فی المعصیه فی غیر حق« وَ لَمْ يَقْتُرُوا »لم یبخلوا

فی حق الله عز و جل« وَ کٰانَ بَیْنَ ذٰلِکَ قَوٰاماً »القوام العدل و الإنفاق فیما أمر الله به.

و فی الکافی:،أحمد بن محمد بن علی عن محمد بن سنان عن أبی الحسن(ع): فی قول الله عز و جل:« وَ کٰانَ بَیْنَ ذٰلِکَ قَوٰاماً »قال:القوام هو المعروف علی الموسع قدره- و علی المقتر قدره علی قدر عیاله-و مئونتهم التی هی صلاح له و لهم-لا یکلف الله نفسا إلا ما آتاها.

و فی المجمع،روی عن معاذ أنه قال: سألت رسول الله ص عن ذلک فقال:

من أعطی فی غیر حق فقد أسرف،و من منع من حق فقد قتر.

أقول:و الأخبار فی هذه المعانی کثیره جدا.

و فی الدر المنثور،أخرج الفاریابی و أحمد و عبد بن حمید و البخاری و مسلم و الترمذی و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردویه و البیهقی فی شعب الإیمان عن ابن مسعود قال: سئل النبی ص:أی الذنب أکبر؟قال:أن تجعل لله ندا و هو خلقک.قلت:ثم أی؟قال:أن تقتل ولدک خشیه أن یطعم معک. قلت:ثم أی؟ قال:أن تزانی حلیله جارک فأنزل الله تصدیق ذلک« وَ الَّذِینَ لاٰ یَدْعُونَ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ-وَ لاٰ یَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِی حَرَّمَ اللّٰهُ إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ لاٰ یَزْنُونَ ».

أقول:لعل المراد الانطباق دون سبب النزول.

و فیه،أخرج عبد بن حمید عن علی بن الحسین: « یُبَدِّلُ اللّٰهُ سَیِّئٰاتِهِمْ حَسَنٰاتٍ »قال:

فی الآخره،و قال الحسن:فی الدنیا.

و فیه،أخرج أحمد و هناد و مسلم و الترمذی و ابن جریر و البیهقی فی الأسماء و الصفات عن أبی ذر قال:قال رسول الله ص: یؤتی بالرجل یوم القیامه فیقال:

اعرضوا علیه صغار ذنوبه-فتعرض علیه صغارها و ینحی عنه کبارها-فیقال:عملت یوم کذا و کذا کذا و کذا-و هو مقر لیس ینکر و هو مشفق من الکبار أن تجیء-فیقال:

أعطوه مکان کل سیئه عملها حسنه.

أقول:هو من أخبار تبدیل السیئات حسنات یوم القیامه و هی کثیره مستفیضه من طرق أهل السنه و الشیعه مرویه عن النبی و الباقر و الصادق و الرضا علیه و علیهم الصلاه و السلام.

و فی روضه الواعظین،قال(ص): ما جلس قوم یذکرون الله إلا نادی بهم مناد من السماء-قوموا فقد بدل الله سیئاتکم حسنات-و غفر لکم جمیعا.

و فی الکافی،بإسناده عن أبی الصباح عن أبی عبد الله(ع): فی قوله عز و جل:

« لاٰ یَشْهَدُونَ الزُّورَ »قال:الغناء:.

أقول:و فی المجمع،أنه مروی عن أبی جعفر و أبی عبد الله(ع) و رواه القمی مسندا و مرسلا .

و فی العیون،بإسناده إلی محمد بن أبی عباد و کان مشتهرا بالسماع و یشرب النبیذ قال: سألت الرضا(ع)عن السماع فقال:لأهل الحجاز رأی فیه و هو فی حیز الباطل و اللهو-أ ما سمعت الله عز و جل یقول:« وَ إِذٰا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا کِرٰاماً ».

و فی روضه الکافی،بإسناده عن أبی بصیر قال: سألت أبا عبد الله(ع)عن قول الله عز و جل:« وَ الَّذِینَ إِذٰا ذُکِّرُوا بِآیٰاتِ رَبِّهِمْ-لَمْ یَخِرُّوا عَلَیْهٰا صُمًّا وَ عُمْیٰاناً » قال:مستبصرین لیسوا بشکاک.

و فی جوامع الجامع،عن الصادق(ع): فی قوله:« وَ اجْعَلْنٰا لِلْمُتَّقِینَ إِمٰاماً »قال:

إیانا عنی.

أقول:و هناک عده روایات فی هذا المعنی و أخری تتضمن قراءتهم(ع):

« و اجعل لنا من المتقین إماما ».

و فی الدر المنثور،أخرج ابن أبی حاتم و أبو نعیم فی الحلیه عن أبی جعفر: فی قوله:

« أُوْلٰئِکَ یُجْزَوْنَ الْغُرْفَهَ بِمٰا صَبَرُوا »قال:علی الفقر فی الدنیا.

و فی المجمع،روی العیاشی بإسناده عن برید بن معاویه العجلی قال: قلت لأبی جعفر(ع):کثره القراءه أفضل أو کثره الدعاء؟قال:کثره الدعاء أفضل و قرأ هذه الآیه.

أقول:و فی انطباق الآیه علی ما فی الروایه إبهام.

و فی تفسیر القمی،فی روایه أبی الجارود عن أبی جعفر(ع): فی قوله عز و جل:

« قُلْ مٰا یَعْبَؤُا بِکُمْ رَبِّی لَوْ لاٰ دُعٰاؤُکُمْ »یقول:ما یفعل ربی بکم-فقد کذبتم فسوف یکون لزاما.

(۲۶)سوره الشعراء مکیه و هی مائتان و سبع و عشرون آیه(۲۲۷)

[سوره الشعراء (۲۶): الآیات ۱ الی ۹]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ

طسم (۱) تِلْكَ آيٰاتُ اَلْكِتٰابِ اَلْمُبِينِ (۲) لَعَلَّكَ بٰاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاّٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (۳) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ اَلسَّمٰاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنٰاقُهُمْ لَهٰا خٰاضِعِينَ (۴) وَ مٰا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ اَلرَّحْمٰنِ مُحْدَثٍ إِلاّٰ كٰانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (۵) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبٰؤُا مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۶) أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى اَلْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنٰا فِيهٰا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (۷) إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَ مٰا كٰانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۸) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ اَلْعَزِيزُ اَلرَّحِيمُ (۹)

(بیان)

غرض السوره تسلیه النبی ص قبال ما کذبه قومه و کذبوا بکتابه النازل علیه من ربه-علی ما یلوح إلیه صدر السوره:تلک آیات الکتاب المبین-و قد رموه تاره بأنه مجنون و أخری بأنه شاعر،و فیها تهدیدهم مشفعا ذلک بإیراد قصص جمع من الأنبیاء و هم موسی و إبراهیم و نوح و هود و صالح و لوط و شعیب(ع)و ما انتهت إلیه عاقبه تکذیبهم لتتسلی به نفس النبی ص و لا یحزن بتکذیب أکثر قومه و لیعتبر المکذبون.

ص: ۲۴۹

و السوره من عتائق السور المكيه و أوائلها نزولا و قد اشتملت على قوله تعالى:

« وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ».و ربما أمكن أن يستفاد من وقوع هذه الآيه فى هذه السوره و وقوع قوله:« فَاصْدَعْ بِمٰا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ »فى سوره الحجر و قياس مضمونيهما كل مع الأخرى أن هذه السوره أقدم نزولا من سوره الحجر و ظاهر سياق آيات السوره أنها جميعا مكيه و استثنى بعضهم الآيات الخمس التى فى آخرها، و بعض آخر قوله:« أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمٰاءُ بَنِى إِسْرٰائِيلَ »و سيجىء الكلام فيهما.

قوله تعالى:« طسم تِلْكَ آيٰاتُ الْكِتٰابِ الْمُبِينِ »الإشاره بتلك إلى آيات الكتاب مما سينزل بنزول السوره و ما نزل قبل،و تخصيصها بالإشاره البعيده للدلاله على علو قدرها و رفعه مكانتها،و المبين من أبان بمعنى ظهر و انجلى.

و المعنى:تلك الآيات العاليه قدرا الرفيعه مكانا آيات الكتاب الظاهر الجلى كونه من عند الله سبحانه بما فيه من سمه الإعجاز و إن كذب به هؤلاء المشركون المعاندون و رموه تاره بأنه من إلقاء شياطين الجن و أخرى بأنه من الشعر.

قوله تعالى:« لَعَلَّكَ بٰاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاّٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » البخوع هو إهلاك النفس عن وجد،و قوله:« أَلاّٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ »تعليل للبخوع،و المعنى:يرجى منك أن تهلك نفسك بسبب عدم إيمانهم بآيات هذا الكتاب النازل عليك.

و الكلام مسوق سوق الإنكار و الغرض منه تسليه النبى ص.

قوله تعالى:« إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمٰاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنٰاقُهُمْ لَهٰا خٰاضِعِينَ » متعلق المشيه محذوف لدلاله الجزاء عليه،و قوله:« فَظَلَّتْ »إلخ،ظل فعل ناقص اسمه« أَعْنٰاقُهُمْ »و خبره« خٰاضِعِينَ »و نسب الخضوع إلى أعناقهم و هو وصفهم أنفسهم لأن الخضوع أول ما يظهر فى عنق الإنسان حيث يطأطئ رأسه تخضعا فهو من المجاز العقلى.

و المعنى:إن نشأ أن ننزل عليهم آيه تخضعهم و تلجئهم إلى القبول و تضطرهم إلى الإيمان ننزل عليهم آيه كذلك فظلوا خاضعين لها خضوعا بينا بانحناء أعناقهم.

و قيل:المراد بالأعناق الجماعات و قيل:الرؤساء و المقدمون منهم،و قيل:

هو على تقدير مضاف و التقدير فضلت أصحاب أعناقهم خاضعين لها.و هو أسخف الوجوه.

قوله تعالى:« وَ مٰا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمٰنِ مُحْدَثٍ إِلاّٰ كٰانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ » بيان لاستمرارهم على تكذيب آيات الله و تمكن الإعراض عن ذكر الله فی نفوسهم بحيث كلما تجدد عليهم ذكر من الرحمن و دعوا إليه دفعه بالإعراض.

فالغرض بيان استمرارهم على الإعراض عن كل ذكر أتاهم لا أنهم يعرضون عن محدث الذكر و يقبلون إلى قديمه و فی ذكر صفه الرحمن إشاره إلى أن الذكر الذی يأتيهم إنما ينشأ عن صفه الرحمه العامه التی بها صلاح دنياهم و أخراهم.

و قد تقدم فی تفسير أول سوره الأنبياء كلام فی معنى الذكر المحدث فراجع.

قوله تعالى:« فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبٰؤُا مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ تفريع على ما تقدم من استمرار إعراضهم،و قوله:« فَسَيَأْتِيهِمْ »إلخ تفريع على التفريع و الأنباء جمع نبإ و هو الخبر الخطير،و المعنى لما استمر منهم الإعراض عن كل ذكر يأتيهم تحقق منهم و ثبت عليهم أنهم كذبوا،و إذ تحقق منهم التكذيب فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون من آيات الله،و تلك الأنباء العقوبات العاجله و الآجله التی ستحيق بهم.

قوله تعالى:« أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنٰا فِيهٰا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ »الاستفهام للإنكار التوبيخی و الجمله معطوف على مقدر يدل عليه المقام و التقدير أصروا و استمروا على الإعراض و كذبوا بالآيات و لم ينظروا إلى هذه الأزواج الكريمه من النباتات التی أنبتناها فی الأرض.

فالرؤيه فی قوله:« أَ وَ لَمْ يَرَوْا »مضمنه معنى النظر و لذا عديت بإلى،و الظاهر أن المراد بالزوج الكريم.و هو الحسن على ما قيل:النوع من النبات و قد خلق الله سبحانه أنواعه أزواجا،و قيل:المراد بالزوج الكريم الذی أنبته الله يعم الحيوان و خاصه الإنسان بدليل قوله:« وَ اللّٰهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبٰاتاً ».

قوله تعالى:« إِنَّ فِی ذٰلِكَ لَآيَةً وَ مٰا كٰانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ »الإشاره بذلك إلى ما ذكر فی الآيه السابقه من إنبات كل زوج كريم حيث إن فيه إيجادا لكل زوج منه و تتميم نقائص كل من الزوجين بالآخر و سوقهما إلى الغايه المقصوده من وجودهما

و فیه هدایه کل إلی سعادته الأخیره و من کانت هذه سنته فکیف یهمل أمر الإنسان و لا یهدیه إلی سعادته و لا یدعوه إلی ما فیه خیر دنیاه و آخرته.هذا ما تدل علیه آیه النبات.

و قوله:« وَ مٰا کٰانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ »أی لم یکن المترقب من حال أکثرهم بما عندهم من ملکه الإعراض و بطلان الاستعداد أن یؤمنوا فظاهر الآیه نظیر ظاهر قوله: «فَمٰا کٰانُوا لِیُؤْمِنُوا بِمٰا کَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ» :یونس:۷۴ و تعلیل الکفر و الفسوق برسوخ الملکات الرذیله و استحکام الفساد فی السریره من قبل فی کلامه تعالی أکثر من أن تحصی.

و من هنا یظهر أن قول بعضهم:إن المراد ما کان فی علم الله أن لا یؤمنوا غیر سدید لأنه مضافا إلی کونه خلاف المتبادر من الجمله،مما لا دلیل علی أنه المراد من اللفظ بل الدلیل علی خلافه لسبق الدلاله علی أن ملکه الإعراض راسخه لم تزل فی نفوسهم.

و عن سیبویه أن« کٰانَ »فی قوله:« وَ مٰا کٰانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ »صله زائده و المعنی:و ما أکثرهم مؤمنین.و فیه أنه معنی صحیح فی نفسه لکن المقام بما تقدم من المعنی أوفق.

قوله تعالی:« وَ إِنَّ رَبَّکَ لَهُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ »فهو تعالی لکونه عزیزا غیر مغلوب یأخذ المعرضین عن ذکره المکذبین لآیاته المستهزءین بها و یجازیهم بالعقوبات العاجله و الآجله،و لکونه رحیما ینزل علیهم الذکر لیهدیهم و یغفر للمؤمنین به و یمهل الکافرین.

(بحث عقلی متعلق بالعلم) [فی ارتباط الأشیاء بعلمه تعالی]

قال فی روح المعانی،فی قوله تعالی« وَ مٰا کٰانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ »قیل:أی و ما کان فی علم الله تعالی ذلک،و اعترض-بناء علی أنه یفهم من السیاق العلیه-بأن علمه تعالی لیس عله لعدم إیمانهم لأن العلم تابع للمعلوم لا بالعکس.

و رد بأن معنى كون علمه تعالى تابعا للمعلوم أن علمه سبحانه فى الأزل بمعلوم معين حادث تابع لماهيته بمعنى أن خصوصيه العلم و امتيازه عن سائر العلوم باعتبار أنه علم بهذه الماهيه،و أما وجود الماهيه فيما لا يزال فتابع لعلمه تعالى الأزلى التابع لماهيته بمعنى أنه تعالى لما علمها فى الأزل على هذه الخصوصيه لزم أن يتحقق و يوجد فيما لا يزال كذلك فنفس موتهم على الكفر و عدم إيمانهم متبوع لعلمه الأزلى و وقوعه تابع له.انتهى.

و هذه حجه كثيره الورود فى كلام المجبره و خاصه الإمام الرازى فى تفسيره الكبير يستدلون بها على إثبات الجبر و نفى الاختيار و محصلها أن الحوادث و منها أفعال الإنسان معلومه لله سبحانه فى الأزل فهى ضروريه الوقوع و إلا كان علمه جهلا- تعالى عن ذلك- فالإنسان مجبر عليها غير مختار.و اعترض عليه بأن العلم تابع للمعلوم لا بالعكس و أجيب بما ذكره من أن علمه فى الأزل تابع لماهيه المعلوم لكن المعلوم تابع فى وجوده للعلم.

و الحجه مضافا إلى فساد مقدماتها بناء و مبنى مغالطه بينه ففيها أولا أن فرض ثبوت ما للماهيه فى الأزل و وجودها فيها لا يزال يقضى بتقدم الماهيه على الوجود و أنى للماهيه هذه الأصاله و التقدم؟.

و ثانيا:أن مبنى الحجه و كذا الاعتراض و الجواب على كون علمه تعالى بالأشياء علما حصوليا نظير علومنا الحصوليه المتعلقه بالمفاهيم و قد أقيم البرهان فى محله على بطلانه و أن الأشياء معلومه له تعالى علما حضوريا و علمه علمان:علم حضورى بالأشياء قبل الإيجاد و هو عين الذات و علم حضورى بها بعد الإيجاد و هو عين وجود الأشياء.

و تفصيل الكلام فى محله.

و ثالثا:أن العلم الأزلى بمعلومه فيما لا يزال إنما يكون علما بحقيقه معنى العلم إذا تعلق به على ما هو عليه أى بجميع قيوده و مشخصاته و خصوصياته الوجوديه،و من خصوصيات وجود الفعل أنه حركات خاصه إراديه اختياريه صادره عن فاعله الخاص مخالفه لسائر الحركات الاضطراريه القائمه بوجوده.

و إذا كان كذلك كانت الضروره اللاحقه للفعل من جهه تعلق العلم به صفه

للفعل الخاص الاختيارى بما هو فعل خاص اختيارى لا صفه للفعل المطلق إذ لا وجود له أى كان من الواجب أن يصدر الفعل عن إراده فاعله و اختياره و إلا تخلف المعلوم عن العلم لا أن يتعلق العلم بالفعل الاختيارى ثم يدفع صفه الاختيار عن متعلقه و يقيم مقامها صفه الضروره و الإجبار.

فقد وضع فى الحجه الفعل المطلق مكان الفعل الخاص فعد ضروريا مع أن الضرورى تحقق الفعل بوصف الاختيار نظير الممكن بالذات الواجب بالغير ففى الحجه مغالطه بالخلط بين الفعل المطلق و الفعل المقيد بالاختيار.

و من هنا يتبين عدم استقامه تعليل ضروره عدم إيمانهم بتعلق العلم الأزلى به فإن تعلق العلم الأزلى بفعل إنما يوجب ضروره وقوعه بالوصف الذى هو عليه فإن كان اختياريا وجب تحققه اختياريا و إن كان غير اختيارى وجب تحققه كذلك.

على أنه لو كان معنى قوله:« وَ مٰا كٰانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ »امتناع إيمانهم لتعلق العلم الأزلى بعدمه لاتخذوه حجه على النبى ص و عدوه عذرا لأنفسهم فى استنكافهم عن الإيمان كما اعترف به بعض المجبره.

(بحث روائى)

فى تفسير القمى،:فى قوله تعالى:« إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ اَلسَّمٰاءِ آيَةً-فَظَلَّتْ أَعْنٰاقُهُمْ لَهٰا خٰاضِعِينَ »:

حدثنى أبى عن ابن أبى عمير عن أبى عبد الله(ع)قال: تخضع رقابهم يعنى بنى أميه-و هى الصيحه من السماء باسم صاحب الأمر.

أقول:و هذا المعنى رواه الكلينى فى روضه الكافى،و الصدوق فى كمال الدين، و المفيد فى الإرشاد،و الشيخ فى الغيبه،،و الظاهر أنه من قبيل الجرى دون التفسير لعدم مساعده سياق الآيه عليه.

[سوره الشعراء (۲۶): الآيات ۱۰ الى ۶۸]

اشاره

وَ إِذْ نٰادىٰ رَبُّكَ مُوسىٰ أَنِ اِئْتِ اَلْقَوْمَ اَلظّٰالِمِينَ (۱۰) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَ لاٰ يَتَّقُونَ (۱۱) قٰالَ رَبِّ إِنِّى أَخٰافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (۱۲) وَ يَضِيقُ صَدْرِى وَ لاٰ يَنْطَلِقُ لِسٰانِى فَأَرْسِلْ إِلىٰ هٰارُونَ (۱۳) وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخٰافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (۱۴) قٰالَ كَلاّٰ فَاذْهَبٰا بِآيٰاتِنٰا إِنّٰا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (۱۵) فَأْتِيٰا فِرْعَوْنَ فَقُولاٰ إِنّٰا رَسُولُ رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (۱۶) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنٰا بَنِى إِسْرٰائِيلَ (۱۷) قٰالَ أَ لَمْ نُرَبِّكَ فِينٰا وَلِيداً وَ لَبِثْتَ فِينٰا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (۱۸) وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ اَلَّتِى فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ اَلْكٰافِرِينَ (۱۹) قٰالَ فَعَلْتُهٰا إِذاً وَ أَنَا مِنَ اَلضّٰالِّينَ (۲۰) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمّٰا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْماً وَ جَعَلَنِى مِنَ اَلْمُرْسَلِينَ (۲۱) وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهٰا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِى إِسْرٰائِيلَ (۲۲) قٰالَ فِرْعَوْنُ وَ مٰا رَبُّ اَلْعٰالَمِينَ (۲۳) قٰالَ رَبُّ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (۲۴) قٰالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَ لاٰ تَسْتَمِعُونَ (۲۵) قٰالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبٰائِكُمُ اَلْأَوَّلِينَ (۲۶) قٰالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ اَلَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (۲۷) قٰالَ رَبُّ اَلْمَشْرِقِ وَ اَلْمَغْرِبِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (۲۸) قٰالَ لَئِنِ اِتَّخَذْتَ إِلٰهَاً غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ اَلْمَسْجُونِينَ (۲۹) قٰالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (۳۰) قٰالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ اَلصّٰادِقِينَ (۳۱) فَأَلْقىٰ عَصٰاهُ فَإِذٰا هِىَ ثُعْبٰانٌ مُبِينٌ (۳۲) وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذٰا هِىَ بَيْضٰاءُ لِلنّٰاظِرِينَ (۳۳) قٰالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ

هٰذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (۳۴) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَما ذا تَأْمُرُونَ (۳۵) قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ وَ ابْعَثْ فِی اَلْمَدائِنِ حاشِرِينَ
(۳۶) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحّارٍ عَلِيمٍ (۳۷) فَجُمِعَ اَلسَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (۳۸) وَ قِيلَ لِلنّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (۳۹) لَعَلَّنا نَتَّبِعُ
اَلسَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ اَلْغالِبِينَ (۴۰) فَلَمّا جاءَ اَلسَّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَ إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنّا نَحْنُ اَلْغالِبِينَ (۴۱) قالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ إِذاً
لَمِنَ اَلْمُقَرَّبِينَ (۴۲) قالَ لَهُمْ مُوسىٰ أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (۴۳) فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَ عِصِيَّهُمْ وَ قالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنّا لَنَحْنُ اَلْغالِبُونَ (۴۴)
فَأَلْقىٰ مُوسىٰ عَصاهُ فَإِذا هِیَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (۴۵) فَأُلْقِیَ اَلسَّحَرَةُ ساجِدِينَ (۴۶) قالُوا آمَنّا بِرَبِّ اَلْعالَمِينَ (۴۷) رَبِّ مُوسىٰ وَ
هارُونَ (۴۸) قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ اَلَّذِی عَلَّمَكُمُ اَلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ
خِلافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (۴۹) قالُوا لا ضَيْرَ إِنّا إِلىٰ رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (۵۰) إِنّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنّا أَوَّلَ اَلْمُؤْمِنِينَ
(۵۱) وَ أَوْحَيْنا إِلىٰ مُوسىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبادِی إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (۵۲) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِی اَلْمَدائِنِ حاشِرِينَ (۵۳) إِنَّ هٰؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ
(۵۴) وَ إِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ (۵۵) وَ إِنّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ (۵۶) فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنّاتٍ وَ عُيُونٍ (۵۷) وَ كُنُوزٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ (۵۸) كَذٰلِكَ
وَ أَوْرَثْناها بَنِی إِسْرائِيلَ (۵۹) فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (۶۰) فَلَمّا تَراءَا اَلْجَمْعانِ قالَ أَصْحابُ مُوسىٰ إِنّا لَمُدْرَكُونَ (۶۱) قالَ كَلاّ إِنَّ مَعِی
رَبِّی سَيَهْدِينِ (۶۲) فَأَوْحَيْنا إِلىٰ مُوسىٰ أَنِ اِضْرِبْ بِعَصاكَ اَلْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ اَلْعَظِيمِ (۶۳) وَ أَزْلَفْنا ثَمَّ اَلْآخَرِينَ
(۶۴) وَ أَنْجَيْنا مُوسىٰ وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (۶۵) ثُمَّ أَغْرَقْنَا اَلْآخَرِينَ (۶۶) إِنَّ فِی ذٰلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۶۷) وَ إِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ اَلْعَزِيزُ اَلرَّحِيمُ (۶۸)

(بیان)

شروع فی ذکر قصص عده من أقوام الأنبیاء الماضین موسی و هارون و إبراهیم و نوح و هود و صالح و لوط و شعیب(ع)لیظهر أن قوم النبی ص سائرون مسیرهم و سیردون موردهم،لا یؤمن أکثرهم فیؤاخذهم الله تعالی بعقوبه العاجل و الآجل،و الدلیل علی ذلک ختم کل واحده من القصص بقوله:« وَ مٰا کٰانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ وَ إِنَّ رَبَّکَ لَهُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ »کما ختم به الکلام الحاکی لإعراض قوم النبی ص فی أول السوره،و لیس ذلک إلا لتطبیق القصه علی القصه.

کل ذلک لیتسلی النبی ص و لا یضیق صدره و یعلم أنه لیس بدعا من الرسل و لا المتوقع من قومه غیر ما عامل به الأمم الماضون رسلهم،و فیه تهدید ضمنی لقومه

ص:۲۵۷

و يؤيده تصدير قصه إبراهيم(ع)بقوله:« وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرٰاهِيمَ ».

قوله تعالى:« وَ إِذْ نٰادىٰ رَبُّكَ مُوسىٰ »-إلى قوله- أَ لاٰ يَتَّقُونَ »أى و اذكر وقتا نادى فيه ربك موسى و بعثه بالرساله إلى قوم فرعون لإنجاء بنى إسرائيل على ما فصله فى سوره طه و غيرها.

و قوله:« أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظّٰالِمِينَ »نوع تفسير للنداء،و توصيفهم أولا بالظالمين ثم بيانه ثانيا بقوم فرعون للإشاره إلى حكمه الإرسال و هى ظلمهم بالشرك و تعذيب بنى إسرائيل كما فى سوره طه من قوله: «اذْهَبٰا إِلىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغىٰ Xإلى أن قالX فَأْتِيٰاهُ فَقُولاٰ إِنّٰا رَسُولاٰ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنٰا بَنِي إِسْرٰائِيلَ وَ لاٰ تُعَذِّبْهُمْ» :طه:۴۷.

و قوله:« أَ لاٰ يَتَّقُونَ »بصيغه الغيبه،و هو توبيخ غيابى منه تعالى لهم و إيراده فى مقام عقد الرساله لموسى(ع)فى معنى قولنا:قل لهم إن ربى يوبخكم على ترك التقوى و يقول:أ لا تتقون.

قوله تعالى:« قٰالَ رَبِّ إِنِّي أَخٰافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ »-إلى قوله- فَأَرْسِلْ إِلىٰ هٰارُونَ »،قال فى مجمع البيان:،الخوف انزعاج النفس بتوقع الضر و نقيضه الأمن و هو سكون النفس إلى خلوص النفع،انتهى.و أكثر ما يطلق الخوف على إحساس الشر بحيث يؤدى إلى الاتقاء عملا و إن لم تضطرب النفس،و الخشيه على تأثر النفس من توقع الشر بحيث يورث الاضطراب و القلق،و لذا نفى الله الخشيه من غيره عن أنبيائه و ربما أثبت الخوف فقال: «وَ لاٰ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللّٰهَ» :الأحزاب:۳۹،و قال: «وَ إِمّٰا تَخٰافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيٰانَةً» :الأنفال:۵۸.

و قوله:« إِنِّي أَخٰافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ »أى ينسبنى قوم فرعون إلى الكذب، و قوله:

« وَ يَضِيقُ صَدْرِي وَ لاٰ يَنْطَلِقُ لِسٰانِي »الفعلان مرفوعان و هما معطوفان على قوله:

« أَخٰافُ »فالذى اعتل به أمور ثلاثه:خوف التكذيب و ضيق الصدر و عدم انطلاق اللسان،و فى قراءه يعقوب و غيره يضيق و ينطلق بالنصب عطفا على« يُكَذِّبُونِ »و هو أوفق بطبع المعنى،و عليه فالعله واحده و هى خوف التكذيب الذى يترتب عليه ضيق الصدر و عدم انطلاق اللسان.و يطابق ما سيجىء من آيه القصص من ذكر عله واحده هى خوف التكذيب.

و قوله:« فَأَرْسِلْ إِلىٰ هٰارُونَ »أی أرسل ملک الوحی إلی هارون لیکون معینا لی علی تبلیغ الرساله یقال لمن نزلت به نائبه أو أشکل علیه أمر:أرسل إلی فلان أی استمد منه و اتخذه عونا لک.

فالجمله أعنی قوله:« فَأَرْسِلْ إِلىٰ هٰارُونَ »متفرعه علی قوله:« إِنِّی أَخٰافُ »إلخ، و ذکر خوف التکذیب مع ما معه من ضیق الصدر و عدم انطلاق اللسان توطئه و تقدمه لذکرها و سؤال موهبه الرساله لهارون.

و إنما اعتل بما اعتل به و سأل الرساله لأخیه لیکون شریکا له فی أمره،معینا مصدقا له فی التبلیغ لا فرارا عن تحمل أعباء الرساله،و استعفاء منها، قال فی روح المعانی:و من الدلیل علی أن المعنی علی ذلک لا أنه تعلل وقوع« فَأَرْسِلْ »بین الأوائل و بین الرابعه أعنی قوله:« وَ لَهُمْ عَلَیَّ ذَنْبٌ »إلخ،فآذن بتعلقه بها و لو کان تعللا لأخر،انتهی.

و هو حسن و أوضح منه قوله تعالی فی سوره القصص فی القصه: «قٰالَ رَبِّ إِنِّی قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخٰافُ أَنْ یَقْتُلُونِ، وَ أَخِی هٰارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّی لِسٰاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِی رِدْءاً یُصَدِّقُنِی إِنِّی أَخٰافُ أَنْ یُکَذِّبُونِ» :القصص:۳۴.

قوله تعالی:« وَ لَهُمْ عَلَیَّ ذَنْبٌ فَأَخٰافُ أَنْ یَقْتُلُونِ »قال الراغب فی المفردات:، الذنب فی الأصل الأخذ بذنب الشیء یقال:ذنبته أصبت ذنبه،و یستعمل فی کل فعل یستوخم عقباه اعتبارا لما یحصل من عاقبته.انتهی.

و فی الآیه إشاره إلی قصه قتله(ع)،و کونه ذنبا لهم علیه إنما هو بالبناء علی اعتقادهم أو الاعتبار بمعناه اللغوی المذکور آنفا،و أما کونه ذنبا بمعنی معصیه الله تعالی فلا دلیل علیه و سیوافیک فیه کلام عند تفسیر سوره القصص إن شاء الله تعالی.

قوله تعالی:« قٰالَ کَلاّٰ فَاذْهَبٰا بِآیٰاتِنٰا إِنّٰا مَعَکُمْ مُسْتَمِعُونَ »کلا للردع و هو متعلق بما ذکره من خوف القتل،ففیه تأمین له و تطییب لنفسه أنهم لا یصلون إلیه،و أما سؤاله الإرسال إلی هارون فلم یذکر ما أجیب به عنه،غیر أن قوله:« فَاذْهَبٰا بِآیٰاتِنٰا » دلیل علی إجابه مسئوله.

و قوله:« فَاذْهَبٰا بِآیٰاتِنٰا »متفرع علی الردع فیفید أن اذهبا إلیه بآیاتنا و لا تخافا،

و قد علل ذلک بقوله:« إِنّٰا مَعَکُمْ مُسْتَمِعُونَ »و المراد بضمیر الجمع موسی و هارون و القوم الذین أرسلا إلیهم و لا یعبأ بقول من قال:إن المراد به موسی و هارون بناء علی کون أقل الجمع اثنین فإنه مع فساده فی أصله لا تساعد علیه ضمائر التثنیه قبله و بعده کما قیل.

و الاستماع هو الإصغاء إلی الکلام و الحدیث و هو کنایه عن الحضور و کمال العنایه بما یجری بینهما و بین فرعون و قومه عند تبلیغ الرساله کما قال فی القصه من سوره طه:

«لاٰ تَخٰافٰا إِنَّنِی مَعَکُمٰا أَسْمَعُ وَ أَریٰ» :طه:۴۶.

و محصل المعنی:کلا-لا-یقدرون علی قتلک فاذهبا إلیهم بآیاتنا و لا تخافا إنا حاضرون عندکم شاهدون علیکم معتنون بما یجری بینکم.

قوله تعالی:« فَأْتِیٰا فِرْعَوْنَ فَقُولاٰ إِنّٰا رَسُولُ رَبِّ الْعٰالَمِینَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنٰا بَنِی إِسْرٰائِیلَ »بیان لقوله فی الآیه السابقه:« فَاذْهَبٰا بِآیٰاتِنٰا ».

و قوله:« فَقُولاٰ-إِنّٰا رَسُولُ رَبِّ الْعٰالَمِینَ »تفریع علی إتیان فرعون،و التعبیر بالرسول بلفظ المفرد إما باعتبار کل واحد منهما أو باعتبار کون رسالتها واحده و هی قولهما:« أَنْ أَرْسِلْ »إلخ،أو باعتبار أن الرسول مصدر فی الأصل فالأصل أن یستوی فیه الواحد و الجمع،و التقدیر إنا ذوا رسول رب العالمین أی ذوا رسالته کما قیل.

و قوله:« أَنْ أَرْسِلْ مَعَنٰا بَنِی إِسْرٰائِیلَ »تفسیر للرساله المفهومه من السیاق و المراد بإرسالهم إطلاقهم لکن لما کان المطلوب أن یعودوا إلی الأرض المقدسه التی کتب الله لهم و هی أرض آبائهم إبراهیم و إسحاق و یعقوب(ع)سمی إطلاقهم لیعودوا إلیها إرسالا منه لهم إلیها.

قوله تعالی:« قٰالَ أَ لَمْ نُرَبِّکَ فِینٰا وَلِیداً وَ لَبِثْتَ فِینٰا مِنْ عُمُرِکَ سِنِینَ »الاستفهام للإنکار التوبیخی،و« نُرَبِّکَ »من التربیه،و الولید الصبی.

لما أقبل فرعون علی موسی و هارون و سمع کلامهما عرف موسی و خصه بالخطاب قائلا أ لم نربک إلخ و مراده الاعتراض علیه أولا من جهه دعواه الرساله یقول:أنت الذی ربیناک و أنت ولید و لبثت فینا من عمرک سنین عدیده نعرفک باسمک و نعتک و لم ننس شیئا من أحوالک فمن أین لک هذه الرساله و أنت من نعرفک و لا نجهل أصلک؟

قوله تعالی:« وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَکَ الَّتِی فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْکافِرِینَ » الفعله بفتح الفاء بناء مره من الفعل،و توصیف الفعله بقوله:« اَلَّتِی فَعَلْتَ »للدلاله علی عظم خطره و کثره شناعته و فظاعته نظیر ما فی قوله: «فَغَشِیَهُمْ مِنَ الْیَمِّ مٰا غَشِیَهُمْ» :طه:۷۸، و مراده بهذه الفعله قتله(ع)القبطی.

و قوله:« وَ أَنْتَ مِنَ الْکٰافِرِینَ »ظاهر السیاق علی ما سیأتی الإشاره إلیه أن مراده بالکفر کفران النعمه و أن قتله القبطی و إفساده فی أرضه کفران لنعمته علیه بالخصوص بما له عنده من الصنیعه حیث کف عن قتله کسائر الموالید من بنی إسرائیل و رباه فی بیته بل لأنه من بنی إسرائیل و هو یراهم عبیدا لنفسه و یری نفسه ربا منعما علیهم فقتل الواحد منهم رجلا من قومه و إفساده فی الأرض خروج من طور العبودیه و کفر بنعمته.

فمحصل اعتراضه المشار إلیه فی الآیتین أنک الذی ربیناک صبیا صغیرا و لبثت فینا من عمرک سنین،و أفسدت فی الأرض بقتل النفس فکفرت بنعمتی و أنت من عبیدی الإسرائیلیین فمن أین جاءتک هذه الرساله؟و کیف تکون رسولا و أنت هذا الذی نعرفک؟.

و بذلک یظهر عدم استقامه تفسیر بعضهم الکفر بالکفر المقابل للإیمان،و أن المعنی و أنت من الکافرین بألوهیتی أو أنت من الکافرین بالله علی زعمک حیث خالطتنا سنین و أنت فی ملتنا،و کذا قول بعضهم: إن المراد و أنت من الکافرین بنعمتی علیک خاصه.

قوله تعالی:« قٰالَ فَعَلْتُهٰا إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضّٰالِّینَ فَفَرَرْتُ مِنْکُمْ لَمّٰا خِفْتُکُمْ فَوَهَبَ لِی رَبِّی حُکْماً وَ جَعَلَنِی مِنَ الْمُرْسَلِینَ وَ تِلْکَ نِعْمَهٌ تَمُنُّهٰا عَلَیَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِی إِسْرٰائِیلَ »ضمیر « فَعَلْتُهٰا »راجع إلی الفعله و الظاهر أن« إِذاً »مقطوع عن الجواب و الجزاء و یفید معنی حینئذ کما قیل،و عبده تعبیدا و أعبده إعبادا إذا اتخذه عبدا لنفسه.

و الآیات الثلاث جواب موسی(ع)عما اعترض به فرعون،و التطبیق بین جوابه (ع)و ما اعترض به فرعون یعطی أنه(ع)حلل کلام فرعون إلی القدح فی دعواه الرساله من ثلاثه أوجه:أحدها استغراب رسالته و استبعادها و هو الذی یعلم حاله

و قد أشار إليه بقوله:« أَ لَمْ نُرَبِّکَ فِینا وَلِیداً وَ لَبِثْتَ فِینا مِنْ عُمُرِکَ سِنِینَ »و الثانی استقباح فعلته و رمیه بالإفساد و الجرم بقوله:« وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَکَ الَّتِی فَعَلْتَ »و الثالث المن علیه بأنه من عبیده و یستفاد ذلک من قوله:« وَ أَنْتَ مِنَ الْکافِرِینَ »و قد اقتضی طبع ما یذکره فی الجواب أن یغیر الترتیب فی الجواب فیجیب أولا عن اعتراضه الثانی ثم عن الأول ثم عن الثالث.

فقوله:« فَعَلْتُها إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضّالِّینَ »جواب عن اعتراضه بقتل القبطی و قد استعظمه حیث لم یصرح باسمه بل کنی عنه بالفعله التی فعلت صونا للأسماع أن تقرع باسمه فتتألم.

و التدبر فی متن الجواب و مقابلته الاعتراض یعطی أن قوله:« فَفَرَرْتُ مِنْکُمْ لَمّا خِفْتُکُمْ فَوَهَبَ لِی رَبِّی حُکْماً »من تمام الجواب عن القتل فیتقابل الحکم و الضلال و یتضح حینئذ أن المراد بالضلال الجهل المقابل للحکم و الحکم إصابه النظر فی حقیقه الأمر و إتقان الرأی فی تطبیق العمل علیه فیرجع معناه إلی القضاء الحق فی حسن الفعل و قبحه و تطبیق العمل علیه،و هذا هو الذی کان یؤتاه الأنبیاء،قال تعالی:« وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاّ لِیُطاعَ بِإِذْنِ اللّهِ ».

فالمراد أنی فعلتها حینئذ و الحال أنی فی ضلال من الجهل بجهه المصلحه فیه و الحق الذی یجب أن یتبع هناک فأقدمت علی الدفاع عمن استنصرنی و لم أعلم أنه یؤدی إلی قتل الرجل و یؤدی ذلک إلی عاقبه وخیمه تحوجنی إلی خروجی من مصر و فراری إلی مدین و التغرب عن الوطن سنین.

و من هنا یظهر ما فی قول بعضهم:إن المراد بالضلال الجهل بمعنی الإقدام علی الفعل من غیر مبالاه بالعواقب کما فی قوله:

ألا لا یجهلن أحد علینا

فنجهل فوق جهل الجاهلینا

و کذا قول بعض آخر:إن المراد بالضلال المحبه کما فسر به قول بنی یعقوب لأبیهم:« تَاللّهِ إِنَّکَ لَفِی ضَلالِکَ الْقَدِیمِ »أی فی محبتک القدیمه لیوسف،فالمعنی:فعلتها حینئذ و أنا من المحبین لله لا ألوی عن محبته إلی شیء.

أما الوجه الأول ففیه أنه اعتراف بالجرم و المعصیه،و آیات سوره القصص ناصه

على أن الله سبحانه آتاه حكما و علما قبل واقعه القتل و هذا لا يجامع الضلال بهذا المعنى من الجهل.

و أما الوجه الثانى ففيه مضافا إلى عدم مساعده السياق:أن من الممتنع من أدب القرآن أن يسمى محبه الله سبحانه ضلالا.

و أما قول القائل:إن المراد بالضلال الجهل بمعنى عدم التعمد و أنه إنما فعل ذلك جاهلا به غير متعمد إياه فإنه(ع)إنما تعمد وكز القبطى للتأديب فأدى إلى ما أدى.

و كذا قول القائل:إن المراد بالضلال الجهل بالشرائع كما فسر به بعضهم قوله:

« وَ وَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدىٰ ».

و كذا قول القائل:إن المراد بالضلال النسيان كما فسر به قوله تعالى: «أَنْ تَضِلَّ إِحْدٰاهُمٰا فَتُذَكِّرَ إِحْدٰاهُمَا الْأُخْرىٰ» :البقره:۲۸۲.و أن المعنى فعلتها ناسيا حرمتها أو ناسيا أن الوكز مما يفضى إلى القتل عاده.

فوجوه يمكن أن يوجه كل منها بما يرجع به إلى ما قدمناه.

و قوله:« فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمّٰا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً »متفرع على قصه القتل، و السبب فى خوفه و فراره ما أخبر الله به فى سوره القصص بقوله: «وَ جٰاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَهِ يَسْعىٰ قٰالَ يٰا مُوسىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النّٰاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهٰا خٰائِفاً يَتَرَقَّبُ» :القصص:۲۱.

و أما الحكم فالمراد به-كما استظهرناه-إصابه النظر فى حقيقه الأمر و إتقان الرأى فى العمل به.

فإن قلت:صريح الآيه أن موهبه الحكم كانت بعد واقعه القتل و مفاد آيات سوره القصص أنه(ع)أعطى الحكم قبلها،قال تعالى: «وَ لَمّٰا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوىٰ آتَيْنٰاهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، وَ دَخَلَ الْمَدِينَهَ XالخX:القصص:۱۵،ثم ساق القصه و ذكر القتل و الفرار.

قلت:إنما ورد لفظ الحكم هاهنا و فى سوره القصص منكرا و هو مشعر بمغايره كل منهما الآخر و قد ورد فى خصوص التوراه أنها متضمنه للحكم،قال تعالى:

«وَ عِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللّهِ» :المائده:۴۳،و قد نزلت التوراه بعد غرق فرعون و إنجاء بنى إسرائيل.

فمن الممكن أن يقال:إن موسى(ع)أعطى مراتب من الحكم بعضها فوق بعض قبل قتل القبطى و بعد الفرار قبل العود إلى مصر و بعد غرق فرعون،و قد خصه الله فى كل مره بمرتبه من الحكم حتى تمت له الحكمه بنزول التوراه،و هذا بحسب التمثيل نظير ما يرزق بعض الناس أوان صباه سلامه فى فطرته قلما يميل معها طبعه إلى الشر و الفساد ثم إذا نشأ يعطى اعتدالا فى التعقل و جوده فى التدبير فينبعث إلى اكتساب الفضائل فيرزق ملكه التقوى و الصفات الثلاث فى الحقيقه سنخ واحد ينمو و يزيد حالا بعد حال.

و يظهر بما تقدم عدم استقامه تفسير بعضهم الحكم بالنبوه لعدم دليل عليه من جهه اللفظ و لا المقام.

على أن الله سبحانه ذكر الحكم و النبوه فى مواضع من كلامه و فرق بينهما كقوله:

«أَنْ يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّهَ» :آل عمران:۷۹،و قوله: «أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّهَ» :الأنعام:۸۹،و قوله: «وَ لَقَدْ آتَيْنا بَنِى إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّهَ» :الجاثيه:۱۶ إلى غير ذلك.

و قوله:« وَ جَعَلَنِى مِنَ الْمُرْسَلِينَ »جواب عن الاعتراض الأول و هو استغراب رسالته و استبعادها و هم يعرفونه،و قد شاهدوا أحواله حينما كانوا يربونه فيهم وليدا و لبث فيهم من عمره سنين،و تقريره أن استغرابهم و استبعادهم رسالته استنادا إلى سابق معرفتهم بحاله إنما يستقيم لو كانت الرساله أمرا اكتسابيا يمكن أن يحدس به أو يتوقع حصوله بحصول مقدماته الاختياريه،و ليس الأمر كذلك بل هى أمر وهبى لا- تأثير للأسباب العاديه فيها و قد جعله الله من المرسلين كما وهب له الحكم بغير اكتساب هذا ما يعطيه التدبر فى السياق.

و أما ما ذكروه من أن قوله:« أَ لَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً »إلخ،مسوق للمن على موسى(ع)دون الاستغراب و الاستبعاد كما ذكرناه،فالآيه فى نفسها و إن لم تأب الحمل على ذلك لكن سياق مجموع الجواب لا يساعد عليه،و ذلك أن فيه إفساد السياق

من حیث یتعین أن یجعل قوله:« وَ تِلْکَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَیَّ »إلخ،جوابا عن المن و هو لا ینطبق علیه،و یجعل قوله:« فَعَلْتُها إِذاً »إلخ جوابا عن الاعتراض بالقتل،و یبقی قوله:« وَ جَعَلَنِی مِنَ الْمُرْسَلِینَ »فضلا لا حاجه إلیه فافهم ذلک.

و قوله:« وَ تِلْکَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَیَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِی إِسْرائِیلَ »جواب عن منه علیه و تقریعه بأنه من عبیده و قد کفر نعمته و تقریر الجواب أن هذا الذی تعده نعمه و تقرعنی بکفرانها سلطه ظلم و تغلب إذ عبدت بنی إسرائیل و التعبید ظلما و تغلبا لیس من النعمه فی شیء.

فالجمله استفهامیه مسوقه للإنکار و« أَنْ عَبَّدْتَ بَنِی إِسْرائِیلَ »بیان لما أشیر إلیه بقوله:« تِلْکَ »و المحصل أن الذی تشیر إلیه بقولک:« وَ أَنْتَ مِنَ الْکافِرِینَ »من أن لک علی نعمه کفرتها إذ کنت ولی نعمتی و سائر بنی إسرائیل-أو إذ کنت ولی نعمتنا معشر بنی إسرائیل-لیس بحق إذ کونک ولیا منعما لیس إلا استنادا إلی التعبید، و التعبید ظلم و الولایه المستنده إلیه أیضا ظلم و حاشا أن یکون الظالم ولیا منعما له علی من عبده نعمه و إلا کان التعبید نعمه و لیس نعمه،ففی قوله:« أَنْ عَبَّدْتَ بَنِی إِسْرائِیلَ »وضع السبب موضع المسبب.

و القوم حللوا کلام فرعون:« أَ لَمْ نُرَبِّکَ »إلخ،إلی اعتراضین-کما أشرنا إلیه-المن علیه بتربیته ولیدا و کفرانه النعمه و إفساده فی الأرض بقتل القبطی فأشکل علیهم الأمر من جهتین-کما أشرنا إلیه.

إحداهما صیروره قوله:« وَ جَعَلَنِی مِنَ الْمُرْسَلِینَ »فضلا لا حاجه إلیه فی سوق الجواب.

و الثانیه:عدم صلاحیه قوله:« وَ تِلْکَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَیَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِی إِسْرائِیلَ » جوابا عن منه علی موسی(ع)بتربیته فی بیته ولیدا.

و قد ذکروا فی توجیهه وجوها:

منها:أنه مسوق للاعتراف بأن تربیته لموسی کانت نعمه علیه و إنکار أن یکون ترک استعباده نعمه و همزه الإنکار مقدره فکأنه یقول:أ و تلک نعمه تمنها علی أن

عبدت بنی إسرائیل و لم تعبدنی هذا، و أنت تری أن فیه تقدیرا لما لا دلیل علیه من جهه اللفظ و لا إشاره.

و منها:أنه إنکار لأصل النعمه علیه لمکان تعبیده بنی إسرائیل کأنه یقول:إن تربیتک لی لیست نعمه یمن بها علی لأنک عبدت قومی فأحبطت به عملک فقوله:« أَنْ عَبَّدْتَ »إلخ فی مقام التعلیل للإنکار هذا،و هذا الوجه و إن کان أقرب إلی الذهن من سابقه لکن هذا الجواب غیر تام معنی فإن تعبیده لبنی إسرائیل لا یغیر حقیقه ما له من الصنیعه عند موسی فی تربیته ولیدا.

و منها:أن المعنی أن هذه النعمه التی تمن بها علی من التربیه إنما سببه ظلمک بنی إسرائیل بتعبیدهم فاضطرت أمی لذلک أن ألقتنی فی الیم فأخذتنی فربیتنی فإذ کانت هذه التربیه مسببه عن ظلمک بالتعبید فلیست بنعمه هذا و الشأن فی استفاده هذا المعنی من لفظ الآیه.

و منها:أن الذی ربانی أمی و غیرها من بنی إسرائیل حیث استعبدتهم فأمرتهم فربونی فلیست هذه التربیه نعمه منک تمنها علی لانتهائها إلی التعبید ظلما هذا،و هذا الوجه أبعد من سابقه من لفظ الآیه.

و منها:أن ذلک اعتراف منه(ع)بنعمه فرعون علیه و المعنی و تلک التربیه نعمه منک تمنها علی أن عبدت بنی إسرائیل و ترکت تعبیدی هذا و أنت خبیر بأن لا دلیل علی ما قدره من قوله:و ترکت تعبیدی.

قوله تعالی:« قٰالَ فِرْعَوْنُ وَ مٰا رَبُّ الْعٰالَمِینَ »-إلی قوله- مِنَ الْمَسْجُونِینَ »لما کلم فرعون موسی(ع)فی معنی رسالته قادحا فیها فتلقی الجواب بما کان فیه إفحامه أخذ یکلمه فی خصوص مرسله و قد أخبره أن الذی أرسله هو رب العالمین فراجعه فیه و استوضحه بقوله:« وَ مٰا رَبُّ الْعٰالَمِینَ »؟إلی تمام سبع آیات.

و اتضاح المراد منها یتوقف علی تذکر أصول مذاهب الوثنیه فی أمر الربوبیه و قد تقدمت الإشاره إلیها فی خلال الأبحاث السابقه من هذا الکتاب کرارا.

فهؤلاء یرون أن وجود الأشیاء ینتهی إلی موجد واجب الوجود هو واحد لا شریک له فی وجوب وجوده هو أجل من أن یحده حد فی وجوده و أعظم من أن یحیط

به فهم أو يناله إدراك،و لذلك لا يجوز عبادته لأن العباده نوع توجه إلى المعبود و التوجه إدراك.

و لذلك بعينه عدلوا عن عبادته و التقرب إليه إلى التقرب إلى أشياء من خلقه ذوى وجودات شريفه نوريه أو ناريه،هى مقربه إليه فانيه فيه من الملائكه و الجن و القديسين من البشر المتخلصين من ألواث الماده الفانين فى اللاهوت الباقين بها و منهم الملوك العظام أو بعضهم عند قدماء الوثنيه و كان من جملتهم فرعون و موسى و بالجمله كانوا يعبدونهم بعباده أصنامهم ليقربوهم إلى الله زلفى و يشفعوا لهم بمعنى أن يفيضوا إليهم من الخير الذى يفيض عنهم كما فى الملائكه أو لا يصيبوهم بالشر الذى يترشح عنهم كما فى الجن فإن كلا من هؤلاء المعبودين يرجع إليه تدبير أمر من أمور العالم الكليه كالحب و البغض و السلم و الحرب و الرفاهيه و غيرها أو صقع من أصقاعه كالسماء و الأرض و الإنسان و نحوها.

فهناك أرباب و آلهه يتصرف كل منهم فى العالم الذى يرجع إليه تدبيره كإله عالم الأرض و إله عالم السماء و هؤلاء هم الملائكه و الجن و قديسو البشر،و إله عالم الآلهه و هو الله سبحانه فهو إله الآلهه و رب الأرباب.

إذا عرفت ما ذكرناه بان لك أن لا معنى صحيحا لقولنا:رب العالمين عند الوثنيين نظرا إلى أصولهم إذ لو أريد به بعض هذه الموجودات الشريفه الممكنه بأعيانهم فهو رب عالم من عوالم الخلقه و هو العالم الذى يباشر التصرف فيه كعالم السماء و عالم الأرض مثلا و لو أريد به الله سبحانه فهو رب عالم الأرباب و إله عالم الآلهه فقط دون جميع العالمين و لو أريد غير الطائفتين من الرب الواجب الوجود و الأرباب الممكنه الوجود فلا مصداق له معقولا.

فقوله:« قَالَ فِرْعَوْنُ وَ مٰا رَبُّ الْعٰالَمِينَ »سؤال منه عن حقيقه رب العالمين بيانه أن فرعون كان وثنيا يعبد الأصنام و هو مع ذلك يدعى الألوهيه،أما عبادته الأصنام فلقوله تعالى: «وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ» :الأعراف:۱۲۷،و أما دعواه الألوهيه فللآيه المذكوره و لقوله تعالى: «فَقٰالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلىٰ» :النازعات:۲۴.

و لا منافاه عند الوثنيه بين كون الشىء إلها ربا و بين كونه مربوبا لرب آخر لأن

الربوبيه هو الاستقلال فی تدبير شیء من العالم و هو لا ينافی الإمكان و المربوبيه لشیء آخر و كل رب عندهم مربوب لآخر إلا الله سبحانه فهو رب الأرباب لا رب فوقه و إله الآلهه لا إله له.

و كان الملك عند الوثنيه ظهورا من اللاهوت فی بعض النفوس البشريه بالسلطه و نفوذ الحكم فكان يعبد الملوك كما يعبد أرباب الأصنام و كذلك رؤساء البيوت فی بيوتهم، و كان فرعون وثنيا يعبد الآلهه و هو ملك القبط يعبده قومه كسائر الآلهه.

فلما سمع من موسی و هارون قولهما:« إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ »تعجب منه إذ لم يعقل له معنی محصلا إذ لو أريد به الواجب و هو الله سبحانه فهو عنده رب عالم الأرباب دون جميع العالمين و لو أريد به بعض الممكنات الشريفه من الآلهه كبعض الملائكه و غيرهم فهو أيضا عنده رب عالم من عوالم الخلقه دون جميع العالمين فما معنی رب العالمين.

و لذلك قال:« وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ »فسأل عن حقيقه الموصوف بهذه الصفه بما هو موصوف بهذه الصفه و لم يسأل عن حقيقه الله سبحانه فإنه لوثنيته كان معتقدا بوجوده مذعنا له و هو يری كسائر الوثنيين أنه لا سبيل إلی إدراك حقيقته كيف؟و هو أساس مذهبهم الذی يبنون عليه عباده سائر الآلهه و الأرباب كما سمعت.

و قوله:« قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ »جواب موسی (ع)عن سؤاله:« وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ »و هو خبر لمبتدإ محذوف،و محصل المعنی علی ما يعطيه المطابقه بين السؤال و الجواب:هو رب السماوات و الأرض و ما بينهما التی تدل بوجود التدبير فيها و كونه تدبيرا واحدا متصلا مرتبطا علی أن لها مدبرا-ربا- واحدا علی ما يراه الموقنون السالكون سبيل اليقين من البرهان و الوجدان.

و بتعبير آخر مرادی بالعالمين السماوات و الأرض و ما بينهما التی تدل بالتدبير الواحد الذی فيها علی أن لها ربا مدبرا واحدا،و مرادی برب العالمين ذلك الرب الواحد الذی تدل عليه و هذه دلاله يقينيه يجدها أهل اليقين الذين يتعاطون البرهان و الوجدان.

فإن قلت:لم يطلب فرعون من موسی(ع)إلا أن يعرفه ما هذا الذی يسميه

رب العالمين؟و ما حقيقته؟لكونه غير معقول عنده فلم يسأل إلا التصور فما معنى قوله:« إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ »و اليقين علم تصديقى لا توقف للتصور عليه أصلا.

على أنه(ع)لم يأت فى جواب فرعون بشىء غير أنه وضع لفظ السماوات و الأرض و ما بينهما موضع لفظ العالمين فكان تفسيرا للفظ الجمع بأسماء آحاده كتفسير الرجال بزيد و عمرو و بكر فلم يفد بالأخره إلا التصور الأول و لا تأثير لليقين فى ذلك.

قلت:كون فرعون يسأله أن يصور له« رَبُّ الْعالَمِينَ »تصويرا مسلم لا شك فيه لكن موسى بدل القول بوضع« اَلسَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا »مكان العالمين و هو يدل على ارتباط بعض الأجزاء ببعض و الاتصال بينها بحيث يؤدى إلى وحده التدبير الواقع فيها و النظام الجارى عليها ثم قيده بقوله:« إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ »ليدل على أن أهل اليقين يصدقون من ذلك بوجود مدبر واحد لجميع العالمين.

فكأنه قيل له:ما تريد برب العالمين؟فقال:أريد به ما يريده أهل اليقين إذ يستدلون بارتباط التدبير و اتصاله فى عوالم السماوات و الأرض و ما بينهما على أن لجميع هذه العوالم مدبرا واحدا و ربا لا شريك له فى ربوبيته لها و إذ كانوا يصدقون بوجود رب واحد للعالمين فهم يتصورونه بوجه تصورا إذ لا معنى للتصديق بلا تصور.

و بعباره موجزه:رب العالمين هو الذى يوقن الموقنون بربوبيته لجميع السماوات و الأرض و ما بينهما إذا نظروا إليها و شاهدوا وحده التدبير الذى فيها.

و الاحتجاج بتحقق التصديق على تحقق التصور قبله أقوى ما يمكن أن يحتج به على أنه تعالى مدرك بوجه و متصور تصورا صحيحا و إن استحال أن يدرك بكنهه و لا يحيطون به علما.

و قد ظهر بذلك كله أولا:أن الجواب إنما هو بإحالته فى مسئوله إلى ما يتصوره منه الموقنون إذ يصدقون بوجوده.

و ثانيا:أن الذى أشير إليه من الحجه فى الآيه هو البرهان على توحيد الربوبيه المأخوذ من وحده التدبير إذ هو الذى يمسه الحاجه قبال الوثنيه المدعين للشركاء فى الربوبيه.

و بذلك يظهر فساد ما ذكروا أن العلم بحقيقه الذات لما كان ممتنعا عدل موسى

(ع)عن تعريف الحقيقه بالحد إلى تعريفه تعالى بصفاته فقال: رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا و أشار بقوله:« إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ »إلى دلالتها بحدوثها على أن محدثها ذات واحده واجبه الوجود لا يشاركها فى وجوب وجودها شىء غيرها.

وجه الفساد ما عرفت أن الوثنيه قائلون باستحاله العلم بحقيقه الذات و كنهها، و أن الموجد ذات واجبه الوجود لا يشاركها فى وجوب وجودها غيره،و أن الآلهه من دون الله موجودات ممكنه الوجود كل منها مدبر لجهه من جهات العالم و هى جميعا مخلوقه لله فما قرروه فى معنى الآيه لا يجدى فى مقام المخاصمه معهم شيئا.

و قوله:« قٰالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَ لاٰ تَسْتَمِعُونَ »أى أ لا تصغون إلى ما يقول موسى؟ و الاستفهام للتعجيب يريد أن يصغوا إليه فيتعجبوا من قوله حيث يدعى رساله رب العالمين،و إذا سئل ما رب العالمين؟أعاد الكلمه ثانيا و لم يزد على ما بدأ به شيئا.

و هذا تمويه منه عليهم يريد به الستر على الحق الذى لاح من كلام موسى(ع) فإنه إنما قال إن جميع العالمين تدل بوحده التدبير الذى يشاهده أهل اليقين فيها على أن لها ربا مدبرا واحدا هو الذى تسألنى عنه،و هو يفسر كلامه أنه يقول:أنا رسول رب العالمين،فإذا سألته ما رب العالمين؟يجيبنى بأنه رب العالمين.

و بما تقدم بأن عدم سداد قولهم فى تفسير هذا التعجيب أن مراده أنى سألته عن الذات فأجاب بالصفه و ذلك أن السؤال إنما هو عن الذات من حيث صفته على ما تقدم بيانه،و لم يفسر موسى الذات بالوصف بل غير قوله: رَبُّ الْعٰالَمِينَ إلى قوله:« رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ »فوضع ثانيا قوله:« اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ »مكان قوله أولا:

« اَلْعٰالَمِينَ »كأنه يومئ إلى أن فرعون لم يفهم معنى العالمين.

و قوله:« قٰالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبٰائِكُمُ الْأَوَّلِينَ »جواب موسى(ع)ثانيا فإنه لما رأى تمويه فرعون على من حوله و قد كان أجاب عن سؤاله« وَ مٰا رَبُّ الْعٰالَمِينَ »بتفسير العالمين من العالم الكبير كالسماوات و الأرض و ما بينهما عدل ثانيا إلى ما يكون أصرح فى المقصود فذكر ربوبيته تعالى لعالمى الإنسانيه فإن العالم الجماعه من الناس أو الأشياء فعالمو الإنسان هو الجماعات من الحاضرين و الماضين و لذلك قال:« رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبٰائِكُمُ الْأَوَّلِينَ .

فإن فرعون ما كان يدافع فى الحقيقه إلا عن نفسه لما كان يدعى الألوهيه فكان يحتال فى أن يبطل تعلق ربوبيه الرب به فى ضمن تعلقه بالعالمين لاستلزام ذلك بطلان ربوبيه الأرباب و هو من جملتهم و إن كان يرى أنه أعلاهم و أهمهم كما حكى الله تعالى عنه: «فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلىٰ» :النازعات:۲۴. «وَ قَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِى» :القصص:۳۸.

فكأنه كان يقول إن أردت برب العالمين الله تعالى فهو رب الأرباب لا غير و إن أردت غيره من الآلهه فكل منهم رب عالم خاص فما معنى رب العالمين؟فأجاب موسى بما حاصله أن ليس فى الوجود إلا رب واحد فيكون رب العالمين فهو ربكم و قد أرسلنى إليكم.

و كان محصل تمويه فرعون أن موسى لم يجبه بشىء إذ كرر اللفظ فأجابه موسى ثانيا بالتصريح على أن رب العالمين هو رب عالمى الإنسانيه من الحاضرين و الماضين و بذلك تنقطع حيلته.

و قوله:« قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قول فرعون ثانيا و قد سمى موسى رسولا تهكما و استهزاء و أضافه إلى من حوله ترفعا من أن يكون رسولا إليه،و قد رماه بالجنون مستندا إلى قوله(ع):« رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ »إلخ.

كأنه يقول:إنه لمجنون لما فى كلامه من الاختلال الكاشف عن الاختلال فى تعقله يدعى رساله رب العالمين؟فأسأله ما رب العالمين فيكرر اللفظ تقريبا أولا ثم يفسره بأنه ربكم و رب آبائكم الأولين.

و قوله:« قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ »ظاهر السياق أن المراد بالمشرق جهه شروق الشمس و سائر الأجرام النيره السماويه و طلوعها و بالمغرب الجهه التى تغرب فيها بحسب الحس،و بما بينهما ما بين الجهتين فيشمل العالم المشهود و يساوى السماوات و الأرض و ما بينهما.

فيكون إعاده لمعنى الجواب الأول بتقرير آخر و هو مشتمل على ما اشتمل عليه من نكته اتصال التدبير و اتحاده فإن للشروق ارتباطا بالغروب و المشرق و المغرب يتحققان طرفين لوسط بينهما،كما أن للسماء أرضا و لهما أمر بينهما و هذا النوع من الاتحاد

لا یقبل إلا تدبیرا متصلا واحدا،و کما أن کل أمه حاضره لها ارتباط وجودی بالأمم الماضیه ارتباط الأخلاف بالأسلاف فالنوع واحد و التدبیر واحد فالمدبر واحد.

و قد بدل قوله فی الجواب الأول:« إِنْ کُنْتُمْ مُوقِنِینَ »من قوله هاهنا:« إِنْ کُنْتُمْ تَعْقِلُونَ »تعریضا له حیث قال لمن حوله:« أَ لاٰ تَسْتَمِعُونَ »استهزاء به و إهانه له،ثم رماه ثانیا بالجنون و اختلال الکلام فأشار(ع)بقوله:« إِنْ کُنْتُمْ تَعْقِلُونَ »إلی أنهم هم المحرومون من نعمه التعقل و التفقه و لو کانوا یعقلون لفهموا أن جوابه الأول لیس بتکرار غیر مفید و لکفاهم حجه علی توحید الرب و أن القائم بتدبیر جمیع العالمین من السماوات و الأرض و ما بینهما مدبر واحد لا مدبر سواه و لا رب غیره.

و قد تبین بما ذکر أن الآیه أعنی قوله:« رَبُّ الْمَشْرِقِ »إلخ،تقریر آخر لقوله فی الجواب الأول:« رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمَا »و أنه برهان علی وحده المدبر من طریق وحده التدبیر و فی ذلک تعریف لرب العالمین بأنه المدبر الواحد الذی یدل علیه التدبیر الواحد فی جمیع العالمین،نعم البیان الذی یشیر إلیه هذه الآیه أوضح لاشتماله علی معنی الشروق و الغروب و کونهما من التدبیر ظاهر.

و قد ذکروا أن الحجج المودعه فی الآیات حجج علی وحدانیه ذات الواجب بالذات و نفی الشریک فی وجوب الوجود و قد تقدم عدم استقامته البته.

و قوله:« قٰالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلٰهَاً غَیْرِی لَأَجْعَلَنَّکَ مِنَ الْمَسْجُونِینَ »تهدید منه لموسی (ع)لو دام علی ما یقول به من ربوبیه رب العالمین مدعیا أنه رسول منه و هذا دأب الجاهل المعاند إذا انقطع عن الحجه أخذ فی التهدید و تشبث بالوعید.

و اتخاذ إله غیره کنایه عن القول بربوبیه رب العالمین الذی یدعو إلیه موسی و إنما لم یذکره صونا للسانه عن التفوه باسمه،و لم یعبأ بسائر الآلهه التی کانوا یعبدونها استکبارا و علوا،و کأن السجن کان جزاء المعرضین عنه المنکرین لألوهیته .و الظاهر أن اللام فی اَلْمَسْجُونِینَ للعهد،و المعنی:لو دمت علی ما تقول لأجعلنک فی زمره الذین فی سجنی علی ما تعلم من سوء حالهم و شده عذابهم،و لهذا لم یعدل عن هذا التعبیر إلی مثل قولنا:لأسجننک مع اختصاره.

قوله تعالی:« قٰالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُکَ بِشَیْءٍ مُبِینٍ »القائل هو موسی(ع)و المراد

بشیء مبین شیء یبین و یظهر صحه دعواه و هو آیه الرساله التی تدل علی صحه دعوی الرساله من مدعیه فإن الآیه المعجزه إنما تدل علی صدق الرسول فی دعواه الرساله و أما المعارف الإلهیه التی یدعو إلیها کالتوحید و المعاد و ما یتعلق بهما فالسبیل إلی إثباته الحجه البرهانیه و علی ذلک کانت تجری سیره الأنبیاء فی دعوتهم و قد تقدم کلام فیه فی الجزء الأول من الکتاب.

و المعنی:قال موسی:أ تجعلنی من المسجونین و لو أتیتک بشیء یوضح صدقی فیما ادعیت من الرساله.

قوله تعالی:« قٰالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ کُنْتَ مِنَ اَلصّٰادِقِینَ »القائل فرعون و قد فرع أمره بإتیانه علی استفهام موسی المشعر بأنه یدعی أن عنده شیئا مبینا و لذا قید الأمر بالإتیان بقوله:« إِنْ کُنْتَ مِنَ اَلصّٰادِقِینَ »أی إن کنت صادقا فی أن عندک شیئا کذلک.

قوله تعالی:« فَأَلْقیٰ عَصٰاهُ فَإِذٰا هِیَ ثُعْبٰانٌ مُبِینٌ وَ نَزَعَ یَدَهُ فَإِذٰا هِیَ بَیْضٰاءُ لِلنّٰاظِرِینَ »هاتان الآیتان اللتان أوتیهما موسی لیله الطور،و الثعبان :الحیه العظیمه و کونه مبینا ظهور واقعیته بحیث لا یرتاب فیه،و المراد بنزع یده نزعه من جیبه بعد وضعها فیه کما فی سورتی:النمل الآیه ۱۲ و القصص الآیه ۳۲.

قوله تعالی:« قٰالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هٰذٰا لَسٰاحِرٌ عَلِیمٌ یُرِیدُ أَنْ یُخْرِجَکُمْ مِنْ أَرْضِکُمْ بِسِحْرِهِ فَمٰا ذٰا تَأْمُرُونَ »القائل فرعون و قد قال لموسی:« فَأْتِ بِهِ إِنْ کُنْتَ مِنَ اَلصّٰادِقِینَ »رجاء أن یأتی بأمر فیه موضع معارضه و مناقشه فلما أتی بما لا مغمض فیه لم یجد بدا دون أن یبهته بأنه ساحر علیم.

و لذا أتبع رمیه بالسحر بقوله:« یُرِیدُ أَنْ یُخْرِجَکُمْ مِنْ أَرْضِکُمْ بِسِحْرِهِ » إغراء لهم علیه و حثا لهم علی أن یتفقوا معه علی دفعه بأی وسیله ممکنه.

و قوله:« فَمٰا ذٰا تَأْمُرُونَ »لعل المراد بالأمر الإشاره علیه لما أن المشیر یشیر علی من یستشیره بلفظ الأمر فالمعنی إذا کان الشأن هذا فما ذا تشیرون علی أن أعامله به حتی أعمل به و ذلک أنه کان یری نفسه ربهم الأعلی و یراهم عبیده و لا یناسب ذلک حمل الأمر علی معناه المتعارف.

و يؤيد هذا المعنى أنه تعالى حكى فى موضع آخر هذا الكلام عن الملإ أنفسهم إذ قال قَالَ:«الْمَلَأَ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هٰذٰا لَسٰاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمٰا ذٰا تَأْمُرُونَ» :الأعراف:١١٠.و ظاهر أن المراد بأمرهم إشارتهم على فرعون أن افعل بهما كذا.

و قيل:إن سلطان المعجزه بهره و أدهشه فضل عن عجبه و تكبره و غشيته المسكنه فلم يدر ما ذا يقول؟و لا كيف يتكلم؟ قوله تعالى:« قٰالُوا أَرْجِهْ وَ أَخٰاهُ وَ ابْعَثْ فِي الْمَدٰائِنِ حٰاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحّٰارٍ عَلِيمٍ »القائلون هم الملأ حوله و هم أشراف قومه،و قوله:« أَرْجِهْ »بسكون الهاء على القراءه الدائره و هو أمر من الإرجاء بمعنى التأخير أى أخر موسى و أخاه و أمهلهما و لا تعجل إليهما بسياسه أو سجن و نحوه حتى تعارض سحرهما بسحر مثله.

و قرئ« أَرْجِهْ »بكسر الهاء و« أرجئه »بالهمزه و ضم الهاء و هما أفصح من القراءه الدائره،و المعنى واحد على أى حال.

و قوله:« وَ ابْعَثْ فِي الْمَدٰائِنِ حٰاشِرِينَ » المدائن جمع مدينه و هى البلده و الحاشر من الحشر و هو إخراج إلى مكان بإزعاج أى ابعث فى البلاد عده من شرطائك و جنودك يحشرون كل سحار عليم فيها و يأتوك بهم لتعارضهما بسحرهم.

و التعبير بالسحارون الساحر للإشاره إلى أن هناك من هو أعلم منه بفنون السحر و أكثر عملا.

قوله تعالى:« فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقٰاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ »هو يوم الزينه الذى اتفق موسى و فرعون على جعله ميقاتا للمعارضه كما فى سوره طه ففى الكلام إيجاز و تلخيص.

قوله تعالى:« وَ قِيلَ لِلنّٰاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ لَعَلَّنٰا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كٰانُوا هُمُ الْغٰالِبِينَ »الاستفهام لحث الناس و ترغيبهم على الاجتماع.

قال فى الكشاف،ما حاصله أن المراد باتباع السحره اتباعهم فى دينهم-و كانوا متظاهرين بعباده فرعون كما يظهر من سياق الآيات التاليه-و ليس مرادهم بذلك إلا أن لا يتبعوا موسى لا اتباع السحره،و إنما ساقوا كلامهم مساق الكنايه ليحملوا به السحره على الاهتمام و الجد فى المغالبه.

قوله تعالى:« فَلَمّٰا جٰاءَ السَّحَرَةُ قٰالُوا لِفِرْعَوْنَ أَ إِنَّ لَنٰا لَأَجْراً إِنْ كُنّٰا نَحْنُ الْغٰالِبِينَ قٰالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ »الاستفهام فى معنى الطلب،و قد قالوا: إِنْ كُنّٰا »و لم يقولوا،إذا كنا نحن الغالبين ليفيد القطع بالغلبه كما يفيده قولهم بعد:

« بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنّٰا لَنَحْنُ الْغٰالِبُونَ »بل ألقوه فى صوره الشك ليكون أدعى لفرعون إلى جعل الأجر.

و قد أثر ذلك أثره حيث جعل لهم أجرا و زاد عليه الوعد بجعلهم من المقربين.

قوله تعالى:« قٰالَ لَهُمْ مُوسىٰ أَلْقُوا »إلى قوله- تَلْقَفُ مٰا يَأْفِكُونَ » الحبال جمع حبل،و العصى جمع عصا،و اللقف الابتلاع بسرعه،و ما يأفكون من الإفك بمعنى صرف الشيء عن وجهه سمى السحر إفكا لأن فيه صرف الشيء عن صورته الواقعيه إلى صوره خياليه،و معنى الآيات ظاهر.

قوله تعالى:« فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سٰاجِدِينَ قٰالُوا آمَنّٰا بِرَبِّ الْعٰالَمِينَ رَبِّ مُوسىٰ وَ هٰارُونَ »يريد أن السحره لما رأوا ما رأوا من الآيات الباهره بهرهم و أدهشهم ذلك فلم يتمالكوا أنفسهم دون أن خروا على الأرض ساجدين لله سبحانه فاستعير الإلقاء لخرورهم على الأرض للدلاله على عدم تمالك أنفسهم كأنهم قد طرحوا على الأرض طرحا.

و قوله:« قٰالُوا آمَنّٰا بِرَبِّ الْعٰالَمِينَ »فيه إيمان بالله سبحانه إيمان توحيد لما تقدم أن الاعتراف بكونه تعالى رب العالمين لا يتم إلا مع التوحيد و نفى الآلهه من دونه.

و قوله:« رَبِّ مُوسىٰ وَ هٰارُونَ »فيه إشاره إلى الإيمان بالرساله مضافا إلى التوحيد.

قوله تعالى:« قٰالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ »إلى آخر الآيه،القائل فرعون،و المراد بقوله:« آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ »آمنتم من دون إذن منى كما فى قوله تعالى:« لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمٰاتُ رَبِّي »و ليس مفاده أن الإذن كان ممكنا أو متوقعا منه كما قيل.

و قوله:« إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ »بهتان آخر يبهت به موسى(ع) ليصرف به قلوب قومه و خاصه ملإهم عنه.

و قوله:« فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ »تهديد لهم فى سياق الإبهام للدلاله على أنه فى غنى عن ذكره و أما هم فسوف يعلمونه.

و قوله:« لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ »القطع من خلاف أن تقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو بالعكس و التصليب جعل المجرم على الصليب،و قد تقدم نظير الآيه فى سورتى الأعراف و طه.

قوله تعالى:« قالُوا لا ضَيْرَ إِنّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ » الضير هو الضرر،و قوله:

« إِنّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ »تعليل لقولهم:لا ضير أى إنا لا نستضر بهذا العذاب الذى توعدنا به لأنا نصبر و نرجع بذلك إلى ربنا و ما أكرمه من رجوع.

قوله تعالى:« إِنّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ »تعليل لما يستفاد من كلامهم السابق أنهم لا يخافون الموت و القتل بل يشتاقون إلى لقاء ربهم يقولون:لا نخاف من عذابك شيئا لأنا نرجع به إلى ربنا و لا نخاف الرجوع لأنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا بسبب كوننا أول المؤمنين بموسى و هارون رسولى ربنا.

و فتح الباب فى كل خير له أثر من الخير لا يرتاب فيه العقل السليم فلو أن الله سبحانه أكرم مؤمنا لإيمانه بالمغفره و الرحمه لم تطفر مغفرته و رحمته أول الفاتحين لهذا الباب و الواردين هذا المورد.

قوله تعالى:« وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ »شروع فى سرد الشطر الثانى من القصه و هو وصف عذاب آل فرعون بسبب ردهم دعوه موسى و هارون(ع)و،قد كان الشطر الأول رساله موسى و هارون إليهم و دعوتهم إلى التوحيد،و الإسراء و السرى السير بالليل،و المراد بعبادى بنو إسرائيل و فى هذا التعبير نوع إكرام لهم.

و قوله:« إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ »تعليل للأمر أى سر بهم ليلا ليتبعكم آل فرعون و فيه دلاله على أن الله فى اتباعهم أمرا و أن فيه فرج بنى إسرائيل و قد صرح بذلك فى قوله: «فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ وَ اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ» الدخان:۲۴.

قوله تعالى:« فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ إلى قوله ثُمَّ أَغْرَقْنَا

الْآخَرِينَ

«قصه غرق آل فرعون و إنجاء بنى إسرائيل فى أربع عشره آيه و قد أوجز فى الكلام بحذف بعض فصول القصه لظهوره من سياقها كخروج موسى و بنى إسرائيل ليلا من مصر لدلاله قوله:« أَنْ أَسْرِ بِعِبادِی »عليه و على هذا القياس.

فقال تعالى:« فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ »أى فأسرى موسى بعبادى فلما علم فرعون بذلك أرسل« فِی الْمَدائِنِ »التى تحت سلطانه رجالا« حاشِرِینَ »يحشرون الناس و يجمعون الجموع قائلين للناس« إِنَّ هؤُلاءِ »بنى إسرائيل« لَشِرْذِمَهٌ قَلِيلُونَ »و الشرذمه من كل شىء بقيته القليله فتوصيفها بالقله تأكيد « وَ إِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ »يأتون من الأعمال ما يغيظوننا به « وَ إِنّا لَجَمِیعٌ »مجموع متفق فيما نعزم عليه« حاذِرُونَ »نحذر العدو أن يغتالنا أو يمكر بنا و إن كان ضعيفا قليلا،و المطلوب بقولهم هذا و هو لا محاله بلاغ من فرعون لحث الناس عليهم.

« فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنّاتٍ وَ عُیُونٍ وَ كُنُوزٍ وَ مَقامٍ كَرِیمٍ فيه قصورهم المشيده و بيوتهم الرفيعه،و لما كان خروجهم عن مكر إلهى بسبب داعيه الاستعلاء و الاستكبار التى فيهم نسب إلى نفسه أنه أخرجهم « كَذلِكَ »أى الأمر كذلك« وَ أَوْرَثْناها »أى تلك الجنات و العيون و الكنوز و المقام الكريم« بَنِی إِسْرائِیلَ »حيث أهلكنا فرعون و جنوده و أبقينا بنى إسرائيل بعدهم فكانوا هم الوارثين.

« فَأَتْبَعُوهُمْ »أى لحقوا ببنى إسرائيل« مُشْرِقِینَ »أى داخلين فى وقت شروق الشمس و طلوعها « فَلَمّا تَراءَا الْجَمْعانِ »أى دنا بعضهم من بعض فرأى كل من الجمعين جمع فرعون و جمع موسى الآخر،« قالَ أَصْحابُ مُوسى من بنى إسرائيل خائفين فزعين« إِنّا لَمُدْرَكُونَ »سيدركنا جنود فرعون.

« قالَ موسى كَلاّ »لن يدركونا« إِنَّ مَعِی رَبِّی سَیَهْدِینِ »و المراد بهذه المعيه معيه الحفظ و النصره و هى التى وعدها له ربه أول ما بعثه و أخاه إلى فرعون:« إِنَّنِی مَعَكُما »و أما معيه الإيجاد و التدبير فالله سبحانه مع موسى و فرعون على نسبه سواء، و قوله:« سَیَهْدِینِ »أى سيدلنى على طريق لا يدركنى فرعون معها.

« فَأَوْحَیْنا إِلی مُوسی أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ و الانفلاق انشقاق الشىء و بينونه بعضه من بعض« فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ »أى قطعه منفصله من الماء« كَالطَّوْدِ »و هو

القطعه من الجبل« اَلْعَظِيمِ »فدخلها موسى و من معه من بنى إسرائيل.

« وَ أَزْلَفْنا ثَمَّ »أى و قربنا هناك« اَلْآخَرِينَ »و هم فرعون و جنوده «وَ أَنْجَيْنا مُوسى وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ »بحفظ البحر على حاله و هيئته حتى قطعوه و خرجوا منه، « ثُمَّ أَغْرَقْنَا اَلْآخَرِينَ »بإطباق البحر عليهم و هم فى فلقه.

قوله تعالى:« إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ »ظاهر السياق-و يؤيده سياق القصص الآتيه-أن المشار إليه مجموع ما ذكر فى قصه موسى من بعثه و دعوته فرعون و قومه و إنجاء بنى إسرائيل و غرق فرعون و جنوده،ففى ذلك كله آيه تدل على توحيده تعالى بالربوبيه و صدق الرساله لمن تدبر فيها.

و قوله:« وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ »أى و ما كان أكثر هؤلاء الذين ذكرنا قصتهم مؤمنين مع ظهور ما دل عليه من الآيه و على هذا فقوله بعد كل من القصص المورده فى السوره:« وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ »بمنزله أخذ النتيجه و تطبيق الشاهد على المستشهد له كأنه يقال بعد إيراد كل واحده من القصص:هذه قصتهم المتضمنه لآيته تعالى و ما كان أكثرهم مؤمنين كما لم يؤمن أكثر قومك فلا تحزن عليهم فهذا دأب كل من الأمم التى بعثنا إليهم رسولا فدعاهم إلى توحيد الربوبيه.

و قيل:إن الضمير فى« أَكْثَرُهُمْ »راجع إلى قوم النبى ص و المعنى:أن فى هذه القصه آيه و ما كان أكثر قومك مؤمنين بها و لا يخلو من بعد.

و قوله:« وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ »تقدم تفسيره فى أول السوره.

[سوره الشعراء (۲۶): الآيات ۶۹ الى ۱۰۴]

اشاره

وَ اُتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ (۶۹) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما تَعْبُدُونَ (۷۰) قالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ (۷۱) قالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (۷۲) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (۷۳) قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ (۷۴) قالَ أَ فَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (۷۵) أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمُ اَلْأَقْدَمُونَ (۷۶) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاّ رَبَّ اَلْعالَمِينَ (۷۷) اَلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (۷۸) وَ اَلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَ يَسْقِينِ (۷۹) وَ إِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (۸۰) وَ اَلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (۸۱) وَ اَلَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ اَلدِّينِ (۸۲) رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصّالِحِينَ (۸۳) وَ اِجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي اَلْآخِرِينَ (۸۴) وَ اِجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ اَلنَّعِيمِ (۸۵) وَ اِغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ اَلضّالِّينَ (۸۶) وَ لا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (۸۷) يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ (۸۸) إِلاّ مَنْ أَتَى اَللّٰهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (۸۹) وَ أُزْلِفَتِ اَلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (۹۰) وَ بُرِّزَتِ اَلْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ (۹۱) وَ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (۹۲) مِنْ دُونِ اَللّٰهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (۹۳) فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَ اَلْغاوُونَ (۹۴) وَ جُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (۹۵) قالُوا وَ هُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ (۹۶) تَاللّٰهِ إِنْ كُنّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۹۷) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ اَلْعالَمِينَ (۹۸) وَ ما أَضَلَّنا إِلاَّ اَلْمُجْرِمُونَ (۹۹) فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ (۱۰۰) وَ لا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (۱۰۱) فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ (۱۰۲) إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۰۳) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ اَلْعَزِيزُ اَلرَّحِيمُ (۱۰۴)

(بيان)

تشير الآيات بعد الفراغ عن قصه موسى إلى نبإ إبراهيم(ع)و هو خبره الخطير إذ انتهض لتوحيد الله سبحانه بفطرته الزاكيه الطاهره من بين قومه المطبقين على عباده الأصنام فتبرأ منهم و دافع عن الحق ثم كان من أمره ما قد كان ففى ذلك آيه و لم يؤمن به أكثر قومه كما سيشير إلى ذلك فى آخر الآيات.

قوله تعالى:« وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرٰاهِيمَ »غير السياق عما كان عليه أول القصه « وَ إِذْ نٰادىٰ رَبُّكَ مُوسىٰ »إلخ،لمكان قوله:« عَلَيْهِمْ »فإن المطلوب تلاوته على مشركى العرب و عمدتهم قريش و إبراهيم هذا أبوهم و قد قام لنشر التوحيد و إقامه الدين الحق و لم يكن بينهم يومئذ من يقول:لا إله إلا الله،فنصر الله و نصره حتى ثبتت كلمه التوحيد فى الأرض المقدسه و فى الحجاز.

فلم يكن ذلك كله إلا عن دعوه من الفطره و بعث من الله سبحانه ففى ذلك آيه لله فليعتبروا به و ليتبرءوا من دين الوثنيه كما تبرأ منه و من أبيه و قومه المنتحلين به أبوهم إبراهيم(ع).

قوله تعالى:« إِذْ قٰالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مٰا تَعْبُدُونَ »مخاصمته و مناظرته(ع)مع أبيه غير مخاصمته مع قومه و احتجاجه عليهم كما حكاه الله تعالى فى سوره الأنعام و غيرها لكن البناء هاهنا على الإيجاز و الاختصار و لذا جمع بين المحاجتين و سبكهما محاجه واحده أورد فيها ما هو القدر المشترك بينهما.

و قوله:« مٰا تَعْبُدُونَ »سؤال عن الحقيقه بوضع نفسه موضع من لا يعرف شيئا من حقيقتها و سائر شئونها و هذا من طرق المناظره سبيل من يريد أن يبين الخصم حقيقه مدعاه و سائر شئونه حتى يأخذه بما سمع من اعترافه.

على أن هذه المحاجه كانت من إبراهيم أول ما خرج من كهفه و دخل فى مجتمع أبيه و قومه و لم يكن شهد شيئا من ذلك قبل اليوم فحاجهم عن فطره ساذجه طاهره كما تقدم تفصيل القول فيه فى تفسير سوره الأنعام.

قوله تعالى:« قٰالُوا نَعْبُدُ أَصْنٰاماً فَنَظَلُّ لَهٰا عٰاكِفِينَ » ظل بمعنى دام،و العكوف

على الشىء ملازمته و الإقامه عنده،و اللام فى« لَها »للتعليل أى ندوم عاكفين عليها لأجلها و هو تفريع على عباده الأصنام.

و الصنم جثه مأخوذه من فلز أو خشب أو غير ذلك على هيئه خاصه يمثل بها ما فى المعبود من الصفات،و هؤلاء كانوا يعبدون الملائكه و الجن و هم يرون أنها روحانيات خارجه عن عالم الأجسام منزهه عن خواص الماده و آثارها،و لما كان من الصعب عليهم التوجه العبادى إلى هذه الروحانيات باستحضارها للإدراك توسلوا إلى ذلك باتخاذ صور و تماثيل جسمانيه تمثل بأشكالها و هيئاتها ما هناك من المعنويات.

و كذلك الحال فى عباده عباد الكواكب لها فإن المعبود الأصلى هناك روحانيات الكواكب ثم اتخذ أجرام الكواكب أصناما لروحانياتها ثم لما اختلفت أحوال الكواكب بالحضور و الغيبه و الطلوع و الغروب اتخذوا لها أصناما تمثل ما للكواكب من القوى الفعاله فيما دونها من عالم العناصر كالقوه الفاعله للطرب و السرور و النشاط فى الزهره فيصورونها فى صوره فتاه،و لسفك الدماء فى المريخ،و للعلم و المعرفه فى عطارد و على هذا القياس الأمر فى أصنام القديسين من الإنسان.

فالأصنام إنما اتخذت ليكون الواحد منها مرآه لرب الصنم من ملك أو جن أو إنسان غير أنهم يعبدون الصنم نفسه بتوجيه العباده إليه و التقرب منه و لو تعدوا عن الصنم إلى ربه عبدوه دون الله سبحانه.

و هذا هو الذى يكذب قول القائل منهم:إن الصنم إنما هى قبله لم تتخذ إلا جهه للتوجه العبادى لا مقصوده بالذات كالكعبه عند المسلمين و ذلك أن القبله هى ما يستقبل فى العباده و لا يستقبل بالعباده و هم يستقبلون الصنم فى العباده و بالعباده،و بعباره أخرى التوجه إلى القبله و العباده لرب القبله و هو الله عز اسمه و أما الصنم فالتوجه إليه و العباده له لا لربه و لو فرض أن العباده لربه و هو شىء من الروحانيات كانت له لا لله فالله سبحانه غير معبود فى ذلك على أى حال.

و بالجمله فجوابهم عن سؤال إبراهيم:« مٰا تَعْبُدُونَ »بقولهم:« نَعْبُدُ أَصْنٰاماً » إبانه أن هذه الأجسام المعبوده ممثلات مقصوده لغيرها لا لنفسها،و قد أخذ إبراهيم قولهم:« نَعْبُدُ »و خاصمهم به فإن استقلال الأصنام بالمعبوديه لا يجامع كونها أصناما

ممثله للغير فإذ كانت مقصوده بالعباده فمن الواجب أن يشتمل على ما هو الغرض المقصود منها من جلب نفع أو دفع ضر بالتوجه العبادى و الدعاء و المسأله و الأصنام بمعزل من أن تعلم بمسأله أو تجيب مضطرا بإيصال نفع أو صرف ضر و لذلك سألهم إبراهيم بقوله:« هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ »إلخ.

قوله تعالى:« قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ »اعترض (ع)عليهم فى عبادتهم الأصنام من جهتين:

إحداهما:أن العباده تمثيل لذله العابد و حاجته إلى المعبود فلا يخلو من دعاء من العابد للمعبود،و الدعاء يتوقف على علم المعبود بذلك و سمعه ما يدعوه به،و الأصنام أجسام جماديه لا سمع لها فلا معنى لعبادتها.

و الثانيه:أن الناس إنما يعبدون الإله إما طمعا فى خيره و نفعه و إما اتقاء من شره و ضره و الأصنام جمادات لا قدره لها على إيصال نفع أو دفع ضرر.

فكل من الآيتين يتضمن جهه من جهتى الاعتراض،و قد أوردهما فى صوره الاستفهام ليضطرهم على الاعتراف.

قوله تعالى:« قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ »كان مقتضى المقام أن يجيبوا عن سؤاله(ع)بالنفى لكنه لما كان ينتج خلاف ما هم عليه من الانتحال بالوثنيه أضربوا عنه إلى التشبث بذيل التقليد فذكروا أنهم لا مستند لهم فى عبادتها إلا تقليد الآباء محضا.

و قوله:« وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ »أى ففعلنا كما كانوا يفعلون و عبدناهم كما كانوا يعبدون،و لم يعدل عن قوله:« كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ »إلى مثل قولنا:يعبدونها ليكون أصرح فى التقليد كأنهم لا يفهمون من هذه العبادات إلا أنها أفعال كأفعال آبائهم من غير أن يفقهوا منها شيئا أزيد من أشكالها و صورها.

قوله تعالى:« قَالَ أَ فَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ »لما انتهت محاجته مع أبيه و قومه إلى أن لا حجه لهم فى عبادتهم الأصنام إلا تقليد آبائهم محضا تبرأ(ع)من آلهتهم و من أنفسهم و آبائهم بقوله« أَ فَرَأَيْتُمْ »إلخ.

فقوله:« أَ فَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ »تفريع على ما ظهر مما

تقدم من عدم الدليل على عباده الأصنام إلا التقليد بل بطلانها من أصلها أى فإذا كانت باطله لا حجه لكم عليها إلا تقليد آبائكم فهذه الأصنام التى رأيتموها أى هذه بأعيانها التى تعبدونها أنتم و آباؤكم الأقدمون فإنها عدو لى لأن عبادتها ضاره لدينى مهلكه لنفسى فليست إلا عدوا لى.

و ذكر آبائهم الأقدمين للدلاله على أنه لا يأخذ بالتقليد كما أخذوا و أن لا وقع عنده(ع)لتقدم العهد،و لا أثر للسبق الزمانى فى إبطال حق أو إحقاق باطل، و إرجاع ضمير أولى العقل إلى الأصنام لمكان نسبه العباده إليها و هى تستلزم الشعور و العقل، و هو كثير الوقوع فى القرآن.

و قوله:« إِلاّٰ رَبَّ الْعٰالَمِينَ »استثناء منقطع من قوله:« فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي »أى لكن رب العالمين ليس كذلك.

قوله تعالى:« اَلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ -إلى قوله- يَوْمَ الدِّينِ »لما استثنى رب العالمين جل اسمه وصفه بأوصاف تتم بها الحجه على أنه تعالى ليس عدوا له بل رب رحيم ذو عنايه بحاله منعم عليه بكل خير دافع عنه كل شر فقال: اَلَّذِي خَلَقَنِي » «إلخ»و أما قول القائل:إن قوله:« اَلَّذِي خَلَقَنِي »إلخ استيناف من الكلام لا يعبأ به.

فقوله:« اَلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ »بدأ بالخلق لأن المطلوب بيان استناد تدبير أمره إليه تعالى بطريق إعطاء الحكم بالدليل،و البرهان على قيام التدبير به تعالى قيام الخلق و الإيجاد به لوضوح أن الخلق و التدبير لا ينفكان فى هذه الموجودات الجسمانيه التدريجيه الوجود التى تستكمل الوجود على التدريج فليس من المعقول أن يقوم الخلق بشىء و التدبير بشىء و إذ كان الخلق و الإيجاد لله سبحانه فالتدبير له أيضا.

و لهذا عطف الهدايه على الخلق بفاء التفريع فدل على أنه تعالى هو الهادى لأنه هو الخالق.

و ظاهر قوله:« فَهُوَ يَهْدِينِ »-و هو مطلق-أن المراد به مطلق الهدايه إلى المنافع دنيويه كانت أو أخرويه و التعبير بلفظ المضارع لإفاده الاستمرار فالمعنى أنه الذى خلقنى و لا يزال يهدينى إلى ما فيه سعاده حياتى منذ خلقنى و لن يزال كذلك.

فيكون الآيه فى معنى ما حكاه الله عن موسى إذ قال لفرعون: «رَبُّنَا الَّذِي أَعْطىٰ

كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدىٰ» :طه:۵۰،أى هداه إلى منافعه و هى الهدايه العامه.

و هذا هو الذى أشير إليه فى أول السوره بقوله:« أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنٰا فِيهٰا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً »و قد مر تقرير الحجه فيه.

و على هذا فما سيأتى فى قوله:« وَ الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي »إلخ من الصفات المعدوده من قبيل ذكر الخاص بعد العام فإنها جميعا من مصاديق الهدايه العامه بعضها هدايه إلى منافع دنيويه و بعضها هدايه إلى ما يرجع إلى الآخره.

و لو كان المراد بالهدايه الهدايه الخاصه الدينيه فالصفات المعدوده على رسلها و ذكر الهدايه بعد الخلقه،و تقديمها على سائر النعم و المواهب لكونها أفضل النعم بعد الوجود.

و قوله:« وَ الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَ يَسْقِينِ وَ إِذٰا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ »هو كالكنايه عن جمله النعم الماديه التى يرزقه الله إياها لتتميم النواقص و رفع الحوائج الدنيويه،و قد خص بالذكر منها ما هو أهمها و هو الإطعام و السقى و الشفاء إذا مرض.

و من هنا يظهر أن قوله:« وَ إِذٰا مَرِضْتُ »توطئه و تمهيد لذكر الشفاء فالكلام فى معنى يطعمنى و يسقينى و يشفين،و لذا نسب المرض إلى نفسه لئلا يختل المراد بذكر ما هو سلب النعمه بين النعم،و أما قول القائل:إنه إنما نسب المرض إلى نفسه مع كونه من الله للتأدب فليس بذاك.

و إنما أعاد الموصول فقال:« اَلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي »إلخ،و لم يعطف الصفات على ما فى قوله:« اَلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ »للدلاله على أن كلا من الصفات المذكوره فى هذه الجمل المترتبه كان فى إثبات كونه تعالى هو الرب المدبر لأمره و القائم على نفسه المجيب لدعوته.

و قوله:« وَ الَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ »يريد الموت المقضى لكل نفس المدلول عليه بقوله: «كُلُّ نَفْسٍ ذٰائِقَةُ الْمَوْتِ» :الأنبياء:۳۵،و ليس بانعدام و فناء بل انتقال من دار إلى دار من جمله التدبير العام الجارى،و المراد بالإحياء إفاضه الحياه بعد الموت.

و قوله:« وَ الَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ »أى يوم الجزاء و هو يوم القيامه،و لم يقطع بالمغفره كما قطع فى الأمور المذكوره قبلها لأن المغفره ليست

بالاستحقاق بل هی فضل من الله فلیس یستحق أحد علی الله سبحانه شیئا لکنه سبحانه قضی علی نفسه الهدایه و الرزق و الإماته و الإحیاء لکل ذی نفس و لم یقض المغفره لکل ذی خطیئه فقال: «فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ» :الذاریات:۲۳،و قال:

«کُلُّ نَفْسٍ ذائِقَهُ الْمَوْتِ» :الأنبیاء:۳۵،و قال: «إِلَیْهِ مَرْجِعُکُمْ جَمِیعاً وَعْدَ اللّهِ حَقًّا» :یونس:۴،و قال فی المغفره: «إِنَّ اللّهَ لا یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ وَ یَغْفِرُ ما دُونَ ذلِکَ لِمَنْ یَشاءُ :النساء:۴۸.

و نسبه الخطیئه إلی نفسه و هو(ع)نبی معصوم من المعصیه دلیل علی أن المراد بالخطیئه غیر المعصیه بمعنی مخالفه الأمر المولوی فإن للخطیئه و الذنب مراتب تتقدر حسب حال العبد فی عبودیته کما قیل:حسنات الأبرار سیئات المقربین و قد قال تعالی لنبیه(ص):« وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِکَ ».

فالخطیئه من مثل إبراهیم(ع)اشتغاله عن ذکر الله محضا بما تقتضیه ضروریات الحیاه کالنوم و الأکل و الشرب و نحوها و إن کانت بنظر آخر طاعه منه(ع)کیف؟ و قد نص تعالی علی کونه(ع)مخلصا لله لا یشارکه تعالی فیه شیء إذ قال: «إِنّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَهٍ ذِکْرَی الدّارِ» :-ص:۴۶،و قد قدمنا کلاما له تعلق بهذا المقام فی آخر الجزء السادس و فی قصص إبراهیم فی الجزء السابع من الکتاب.

قوله تعالی:« رَبِّ هَبْ لِی حُکْماً وَ أَلْحِقْنِی بِالصّالِحِینَ »لما ذکر(ع)نعم ربه المستمره المتوالیه المتراکمه علیه منذ خلق إلی ما لا نهایه له من أمد البقاء و صور بذلک شمول اللطف و الحنان الإلهی أخذته جاذبه الرحمه الملتئمه بالفقر العبودی فدعته إلی إظهار الحاجه و بث المسأله فالتفت من الغیبه إلی الخطاب فسأل ما سأل.

فقوله:« رَبِّ »أضاف الرب إلی نفسه بعد ما کان یصفه بما أنه رب العالمین إثاره للرحمه الإلهیه و تهییجا للعنایه الربانیه لاستجابه دعائه و مسألته.

و قوله:« هَبْ لِی حُکْماً »یرید بالحکم ما تقدم فی قول موسی(ع): «فَوَهَبَ لِی رَبِّی حُکْماً» :الآیه ۲۱ من السوره و هو-کما تقدم-إصابه النظر و الرأی فی المعارف الاعتقادیه و العملیه الکلیه و تطبیق العمل علیها کما یشیر إلیه قوله تعالی: «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رَسُولٍ إِلاّ نُوحِی إِلَیْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاّ أَنَا فَاعْبُدُونِ» :الأنبیاء:۲۵،و هو

وحی المعارف الاعتقادیه و العملیه التی یجمعها التوحید و التقوی، و قوله تعالی:

«وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ :الأنبیاء:

۷۳،و هو وحی التسدید و الهدایه إلی الصلاح فی مقام العمل،و تنکیر الحکم لتفخیم أمره.

و قوله:« وَ أَلْحِقْنِي بِالصّالِحِينَ » الصلاح علی ما ذکره الراغب-یقابل الفساد الذی هو تغیر الشیء عن مقتضی طبعه الأصلی فصلاحه کونه علی مقتضی الطبع الأصلی فیترتب علیه من الخیر و النفع ما من شأنه أن یترتب علیه من غیر أن یفسد فیحرم من آثاره الحسنه.

و إذ کان« بِالصّالِحِينَ »غیر مقید بالعمل و نحوه فالمراد به الصالحون ذاتا لا عملا فحسب و إن کان صلاح الذات لا ینفک عنه صلاح العمل،قال تعالی: «الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ» :الأعراف:۵۸.

فصلاح الذات کونها تامه الاستعداد لقبول الرحمه الإلهیه و إفاضه کل خیر و سعاده من شأنها أن تتلبس به من غیر أن یقارنها ما یفسدها من اعتقاد باطل أو عمل سیئ و بذلک یتبین أن الصلاح الذاتی من لوازم موهبه الحکم بالمعنی الذی تقدم و إن کان الحکم أخص موردا من الصلاح و هو ظاهر.

فمسألته الإلحاق بالصالحین من لوازم مسأله موهبه الحکم و فروعها المترتبه علیها فیعود معنی قوله:« رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصّالِحِينَ »إلی مثل قولنا:رب هب لی حکما و تمم أثره فی و هو الصلاح الذاتی.

و قد تقدم فی تفسیر قوله تعالی: «وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصّالِحِينَ» :البقره:۱۳۰ فی الجزء الأول من الکتاب کلام له تعلق بهذا المقام.

قوله تعالی:« وَ اجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ »إضافه اللسان إلی الصدق لامیه تفید اختصاصه بالصدق بحیث لا یتکلم إلا به،و ظاهر جعل هذا اللسان له أن یکون مختصا به کلسانه لا یتکلم إلا بما فی ضمیره مما یتکلم هو به فیئول المعنی إلی مسأله أن یبعث الله فی الآخرین من یقوم بدعوته و یدعو الناس إلی ملته و هی دین التوحید.

فتکون الآیه فی معنی قوله فی سوره الصافات بعد ذکر إبراهیم(ع): «وَ تَرَكْنا

عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ» :الصافات:۱۰۸،و قد ذكر هذه الجمله بعد ذكر عده من الأنبياء غيره كنوح و موسى و هارون و إلياس،و كذا قال تعالى فى سوره مريم بعد ذكر زكريا و يحيى و عيسى و إبراهيم و موسى و هارون: «وَ جَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا» :مريم:۵۰ فالمراد على أى حال إبقاء دعوتهم بعدهم ببعث رسل أمثالهم.

و قيل:المراد به بعث النبى ص

و قد روى عنه أنه قال: أنا دعوه أبى إبراهيم ،و يؤيده تسميه دينه فى مواضع من القرآن مله إبراهيم،و يرجع معنى الآيه حينئذ إلى معنى قوله حكايه عن إبراهيم و إسماعيل حين بناء الكعبه: «رَبَّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ Xإلى أن قالX رَبَّنَا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ :البقره:۱۲۹.

و قيل:المراد به أن يجعل الله له ذكرا جميلا و ثناء حسنا بعده إلى يوم القيامه و قد استجاب الله دعاءه فأهل الأديان يثنون عليه و يذكرونه بالجميل.

و فى صدق لسان الصدق على الذكر الجميل خفاء،و كذا كون هذا الدعاء و المحكى فى سوره البقره دعاء واحدا لا يخلو من خفاء.

قوله تعالى:« وَ اجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ »تقدم معنى وراثه الجنه فى تفسير قوله تعالى: «أُولٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ» :المؤمنون:۱۰.

قوله تعالى:« وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ »استغفار لأبيه حسب ما وعده فى قوله: «سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي» :مريم:۴۷،و ليس ببعيد أن يستفاد من قوله تعالى: «وَ مَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ» :التوبه:۱۱۴،أنه دعا لأبيه بهذا الدعاء و هو حى بعد،و على هذا فمعنى قوله:« إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ »أنه كان قبل الدعاء بزمان من أهل الضلال.

قوله تعالى:« وَ لاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَ لاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » الخزى عدم النصر ممن يؤمل منه النصر،و الضمير فى« يُبْعَثُونَ »للناس و لا يضره عدم سبق الذكر لكونه معلوما من خارج.

و يعلم من سؤاله عدم الإخزاء يوم القيامه أن الإنسان فى حاجه إلى النصر الإلهى

یومئذ فهذه البنیه الضعیفه لا تقوم دون الأهوال التی تواجهها یوم القیامه إلا بنصر و تأیید منه تعالی.

و قوله:« یَوْمَ لاٰ یَنْفَعُ مٰالٌ وَ لاٰ بَنُونَ »الظرف بدل من قوله:« یَوْمَ یُبْعَثُونَ » و به یندفع قول من قال:إن قول إبراهیم قد انقطع فی« یُبْعَثُونَ »و الآیه إلی تمام خمس عشره آیه من کلام الله تعالی.

و الآیه تنفی نفع المال و البنین یوم القیامه و ذلک أن رابطه المال و البنین التی هی المناط فی التناصر و التعاضد فی الدنیا هی رابطه وهمیه اجتماعیه لا تؤثر أثرا فی الخارج من ظرف الاجتماع المدنی و یوم القیامه یوم انکشاف الحقائق و تقطع الأسباب فلا ینفع فیه مال بمالیته و لا بنون بنسبه بنوتهم و قرابتهم،قال تعالی: «وَ لَقَدْ جِئْتُمُونٰا فُرٰادیٰ کَمٰا خَلَقْنٰاکُمْ أَوَّلَ مَرَّهٍ وَ تَرَکْتُمْ مٰا خَوَّلْنٰاکُمْ وَرٰاءَ ظُهُورِکُمْ» :الأنعام:۹۴،و قال: «فَإِذٰا نُفِخَ فِی الصُّورِ فَلاٰ أَنْسٰابَ بَیْنَهُمْ یَوْمَئِذٍ وَ لاٰ یَتَسٰاءَلُونَ» :المؤمنون:۱۰۱.

فالمراد بنفی نفع المال و البنین یوم القیامه نفی سببیتهما الوضعیه الاعتباریه فی المجتمع الإنسانی فی الدنیا فإن المال نعم السبب و الوسیله فی المجتمع للظفر بالمقاصد الحیویه،و کذا البنون نعمت الوسیله للقوه و العزه و الغلبه و الشوکه،فالمال و البنون عمده ما یرکن إلیهما و یتعلق بهما الإنسان فی الحیاه الدنیا فنفی نفعهما یوم القیامه کالکنایه عن نفی نفع کل سبب وضعی اعتباری فی المجتمع الإنسانی یتوسل به إلی جلب المنافع المادیه کالعلم و الصنعه و الجمال و غیرها.

و بعباره أخری نفی نفعهما فی معنی الإخبار عن بطلان الاجتماع المدنی بما یعمل فیه من الأسباب الوضعیه الاعتباریه کما یشیر إلیه قوله تعالی:« مٰا لَکُمْ لاٰ تَنٰاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْیَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ».

و قوله:« إِلاّٰ مَنْ أَتَی اللّٰهَ بِقَلْبٍ سَلِیمٍ »قال الراغب: السلم و السلامه التعری من الآفات الظاهره و الباطنه.انتهی.و السیاق یعطی أنه(ع)فی مقام ذکر معنی جامع یتمیز به الیوم من غیره و قد سأل ربه أولا أن ینصره و لا یخزیه یوم لا ینفعه ما کان ینفعه فی الدنیا من المال و البنین،و مقتضی هذه التوطئه أن یکون المطلوب بقوله:« إِلاّٰ مَنْ أَتَی اللّٰهَ بِقَلْبٍ سَلِیمٍ »بیان ما هو النافع یومئذ و قد ذکر فیه الإتیان بالقلب السلیم.

فالاستثناء منقطع،و المعنى:لكن من أتى الله بقلب سليم فإنه ينتفع به،و المحصل أن مدار السعاده يومئذ على سلامه القلب سواء كان صاحبه ذا مال و بنين فى الدنيا أو لم يكن.

و قيل:الاستثناء متصل و المستثنى منه مفعول ينفع المحذوف و التقدير يوم لا ينفع مال و لا بنون أحدا إلا من أتى الله بقلب سليم.

و قيل:الاستثناء متصل و الكلام بتقدير مضاف،و التقدير لا ينفع مال و لا بنون إلا مال و بنو من أتى«إلخ».

و قيل:المال و البنون فى معنى الغنى و الاستثناء منه بحذف مضاف من نوعه و التقدير يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم،و سلامه القلب من الغنى فالاستثناء متصل ادعاء لا حقيقه.

و قيل:الاستثناء منقطع و هناك مضاف محذوف،و التقدير لا ينفع مال و لا بنون إلا حال من أتى«إلخ».

و الأقوال الثلاثه الأول توجب اختصاص تميز اليوم بمن له مال و بنون فقط فإن الكلام عليها فى معنى قولنا:يوم لا ينفع المال و البنون أصحابهما إلا ذا القلب السليم منهم و أما من لا مال له و لا ولد فمسكوت عنه و السياق لا يساعده،و أما القول الرابع فمبنى على تقدير لا حاجه إليه.

و الآيه قريبه المعنى من قوله تعالى: «الْمَالُ وَ الْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَ خَيْرٌ أَمَلاً» :الكهف:۴۶،غير أنها تسند النفع إلى القلب السليم و هو النفس السالمه من وصمه الظلم و هو الشرك و المعصيه كما قال تعالى فى وصف اليوم: «وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَ قَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً» :طه:۱۱۱.

قال بعضهم:و فى الآيتين تأييد لكون استغفاره(ع)لأبيه طلبا لهدايته إلى الإيمان لاستحاله طلب مغفرته بعد موته كافرا مع علمه بعدم نفعه لأنه من باب الشفاعه انتهى.

و هذا على تقدير أخذ الاستثناء متصلا كما ذهب إليه هذا القائل مبنى على كون

إبراهيم(ع)ابن آزر لصلبه و قد تقدم فی قصته(ع)من سوره الأنعام فساد القول به و أن الآیات ناصه علی خلافه.

و أما إذا أخذ الاستثناء منقطعا فقوله:« إِلاّٰ مَنْ أَتَی اللّٰهَ بِقَلْبٍ سَلِیمٍ »بضمیمه قوله تعالی: «وَ لاٰ یَشْفَعُونَ إِلاّٰ لِمَنِ ارْتَضیٰ» :الأنبیاء:۲۸.دلیل علی کون الاستغفار قبل موته کما لا یخفی.

قوله تعالی:« وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّهُ لِلْمُتَّقِینَ وَ بُرِّزَتِ الْجَحِیمُ لِلْغٰاوِینَ » الإزلاف التقریب و التبریز الإظهار،و فی المقابله بین المتقین و الغاوین و اختیار هذین الوصفین لهاتین الطائفتین إشاره إلی ما قضی به الله سبحانه یوم رجم إبلیس عند إبائه أن یسجد لآدم کما ذکر فی سوره الحجر «إِنَّ عِبٰادِی لَیْسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُلْطٰانٌ إِلاّٰ مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْغٰاوِینَ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِینَ Xإلی أن قالX إِنَّ الْمُتَّقِینَ فِی جَنّٰاتٍ وَ عُیُونٍ» :الحجر:۴۵.

قوله تعالی:« وَ قِیلَ لَهُمْ أَیْنَ مٰا کُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ هَلْ یَنْصُرُونَکُمْ أَوْ یَنْتَصِرُونَ »أی هل یدفعون الشقاء و العذاب عنکم أو عن أنفسهم،و المحصل أنه یتبین لهم أنهم ضلوا فی عبادتهم غیر الله.

قوله تعالی:« فَکُبْکِبُوا فِیهٰا هُمْ وَ الْغٰاوُونَ وَ جُنُودُ إِبْلِیسَ أَجْمَعُونَ »یقال: کبه فانکب أی ألقاه علی وجهه و کبکبه أی ألقاه علی وجهه مره بعد أخری فهو یفید تکرار الکب کدب و دبدب و ذب و ذبذب و زل و زلزل و دک و دکدک.

و ضمیر الجمع فی قوله:« فَکُبْکِبُوا فِیهٰا هُمْ »للأصنام کما یدل علیه قوله: «إِنَّکُمْ وَ مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ» :الأنبیاء:۹۸،و هؤلاء إحدی الطوائف الثلاث التی تذکر الآیه أنها تکبکب فی جهنم یوم القیامه،و الطائفه الثانیه الغاوون المقضی علیهم ذلک کما فی آیه الحجر المنقوله آنفا، و الطائفه الثالثه جنود إبلیس و هم قرناء الشیاطین الذین یذکر القرآن أنهم لا یفارقون أهل الغوایه حتی یدخلوا النار،قال تعالی: «وَ مَنْ یَعْشُ عَنْ ذِکْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَیِّضْ لَهُ شَیْطٰاناً فَهُوَ لَهُ قَرِینٌ Xإلی أن قالX وَ لَنْ یَنْفَعَکُمُ الْیَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّکُمْ فِی الْعَذٰابِ مُشْتَرِکُونَ» :الزخرف:۳۹.

قوله تعالی:« قٰالُوا وَ هُمْ فِیهٰا یَخْتَصِمُونَ »-إلی قوله- إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ »الظاهر أن القائلین هم الغاوون،و الاختصام واقع بینهم یخاصمون أنفسهم و الشیاطین علی ما

ذکره الله سبحانه فی مواضع من کلامه.

و قوله:« تَاللّٰهِ إِنْ کُنّٰا لَفِی ضَلاٰلٍ مُبِینٍ »اعتراف منهم بالضلال، و الخطاب فی قوله:« إِذْ نُسَوِّیکُمْ بِرَبِّ الْعٰالَمِینَ »للآلهه من الأصنام و هم معهم فی النار،أو لهم و للشیاطین أو لهما و للمتبوعین و الرؤساء من الغاوین و خیر الوجوه أولها.

و قوله:« وَ مٰا أَضَلَّنٰا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ »الظاهر أن کلا من القائلین یرید بالمجرمین غیره من إمام ضلال اقتدی به فی الدنیا و داع دعاه إلی الشرک فاتبعه و آباء مشرکین قلدهم فیه و خلیل تشبه به،و المجرمون علی ما یستفاد من آیات القیامه هم الذین ثبت فیهم الاجرام و قضی علیهم بدخول النار قال تعالی: «وَ امْتٰازُوا الْیَوْمَ أَیُّهَا الْمُجْرِمُونَ» :یس:۵۶.

قوله تعالی:« فَمٰا لَنٰا مِنْ شٰافِعِینَ وَ لاٰ صَدِیقٍ حَمِیمٍ » الحمیم علی ما ذکره الراغب القریب المشفق.

و هذا الکلام تحسر منهم علی حرمانهم من شفاعه الشافعین و إغاثه الأصدقاء و فی التعبیر بقوله: « فَمٰا لَنٰا مِنْ شٰافِعِینَ »إشاره إلی وجود شافعین هناک یشفعون بعض المذنبین،و لو لا ذلک لکان من حق الکلام أن یقال:فما لنا من شافع إذ لا نکته تقتضی الجمع،و قد روی أنهم یقولون ذلک لما یرون الملائکه و الأنبیاء و المؤمنین یشفعون.

قوله تعالی:« فَلَوْ أَنَّ لَنٰا کَرَّهً فَنَکُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ »تمن منهم أن یرجعوا إلی الدنیا فیکونوا من المؤمنین حتی ینالوا ما ناله المؤمنون من السعاده.

قوله تعالی:« إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً »إلی آخر الآیتین أی فی قصه إبراهیم(ع) و لزومه عن فطرته الساذجه دین التوحید و توجیه وجهه نحو رب العالمین و تبریه من الأصنام و احتجاجه علی الوثنیین و عبده الأصنام آیه لمن تدبر فیها علی أن فی سائر قصصه من محنه و ابتلاءاته التی لم تذکر هاهنا کإلقائه فی النار و نزول الضیف من الملائکه علیه و قصه إسکانه إسماعیل و أمه بوادی مکه و بناء الکعبه و ذبح إسماعیل آیات لأولی الألباب.

و قوله:« وَ مٰا کٰانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ »أی و ما کان أکثر قوم إبراهیم مؤمنین و الباقی ظاهر مما تقدم.

(بحث روائی)

فی تفسیر القمی،:فی قوله تعالی:« وَ اجْعَلْ لِی لِسٰانَ صِدْقٍ فِی اَلْآخِرِینَ »قال:

هو أمیر المؤمنین(ع).

أقول:یحتمل التفسیر و الجری.

و فی الکافی،بإسناده عن یحیی عن أبی عبد الله(ع)قال: قال أمیر المؤمنین (ع): و لسان الصدق للمرء یجعله الله فی الناس خیر-من المال یأکله و یورثه. الحدیث.

و فی الدر المنثور،:فی قوله تعالی:« وَ اغْفِرْ لِأَبِی »:أخرج عبد بن حمید و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن قتاده: فی قوله:« وَ لاٰ تُخْزِنِی یَوْمَ یُبْعَثُونَ »قال:ذکر لنا أن نبی الله ص قال:لیجیئن رجل یوم القیامه من المؤمنین-آخذا بید أب له مشرک-حتی یقطعه النار و یرجو أن یدخله الجنه-فینادیه مناد أنه لا یدخل الجنه مشرک-فیقول:

ربی أبی و وعدت أن لا تخزینی.

قال:فما یزال متشبثا به حتی یحوله الله-فی صوره سیئه و ریح منتنه فی صوره ضبعان-فإذا رآه کذلک تبرأ منه و قال:لست بأبی.قال:فکنا نری أنه یعنی إبراهیم و ما سمی به یومئذ.

و فیه،أخرج البخاری و النسائی عن أبی هریره عن النبی ص قال: یلقی إبراهیم أباه آزر یوم القیامه-و علی وجه آزر قتره و غبره-یقول له إبراهیم:أ لم أقل لک:

لا تعصنی؟فیقول أبوه:فالیوم لا أعصیک.

فیقول إبراهیم:رب إنک وعدتنی أن لا تخزینی یوم یبعثون-فأی خزی أخزی من أبی الأبعد؟فیقول الله:إنی حرمت الجنه علی الکافرین-ثم یقال:یا إبراهیم ما تحت رجلیک؟فإذا هو بذیخ متلطخ فیؤخذ بقوائمه فیلقی فی النار.

أقول:الخبران من أخبار بنوه إبراهیم لآزر لصلبه و قد مر فی قصص إبراهیم من سوره الأنعام أنها مخالفه للکتاب و کلامه تعالی نص فی خلافه.

و فی الکافی،بإسناده عن سفیان بن عیینه قال: سألته عن قول الله عز و جل:

« إِلاّٰ مَنْ أَتَی اللّٰهَ بِقَلْبٍ سَلِیمٍ »قال:السلیم الذی یلقی ربه و لیس فیه أحد سواه.

قال:و کل قلب فیه شرک أو شک فهو ساقط-و إنما أرادوا بالزهد فی الدنیا-لتفرغ قلوبهم إلی الآخره.

و فی المجمع،و روی عن الصادق(ع)أنه قال: هو القلب الذی سلم من حب الدنیا.و یؤیده قول النبی ص:حب الدنیا رأس کل خطیئه.

و فی الکافی،بإسناده عن محمد بن سالم عن أبی جعفر(ع):فی حدیث « وَ جُنُودُ إِبْلِیسَ أَجْمَعُونَ »جنود إبلیس ذریته من الشیاطین.

قال:و قولهم:« وَ مٰا أَضَلَّنٰا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ »إذ دعونا إلی سبیلهم-ذلک قول الله عز و جل فیهم إذ جمعهم إلی النار: قٰالَتْ أُخْرٰاهُمْ لِأُولاٰهُمْ-رَبَّنٰا هٰؤُلاٰءِ أَضَلُّونٰا فَآتِهِمْ عَذٰاباً ضِعْفاً مِنَ النّٰارِ »و قوله:« کُلَّمٰا دَخَلَتْ أُمَّهٌ لَعَنَتْ أُخْتَهٰا-حَتّٰی إِذَا ادّٰارَکُوا فِیهٰا جَمِیعاً »برىء بعضهم من بعض و لعن بعضهم بعضا-یرید بعضهم أن یحج بعضا رجاء الفلج-فیفلتوا جمیعا من عظیم ما نزل بهم-و لیس بأوان بلوی و لا اختبار-و لا قبول معذره و لا حین نجاه.

و فی الکافی،أیضا بسندین عن أبی بصیر عن أبی جعفر و أبی عبد الله(ع):

فی قول الله عز و جل:« فَکُبْکِبُوا فِیهٰا هُمْ وَ الْغٰاوُونَ »هم قوم وصفوا عدلا بألسنتهم ثم خالفوه إلی غیره.

أقول:و روی هذا المعنی القمی فی تفسیره،و البرقی فی المحاسن،عن أبی عبد الله (ع)

، و الظاهر أن الروایه کانت وارده فی ذیل قوله تعالی:« وَ الشُّعَرٰاءُ یَتَّبِعُهُمُ الْغٰاوُونَ »لما بعده من قوله تعالی:« وَ أَنَّهُمْ یَقُولُونَ مٰا لاٰ یَفْعَلُونَ »و قد وقع الخطأ فی إیرادها فی ذیل قوله:« فَکُبْکِبُوا فِیهٰا »إلخ،و هو ظاهر للمتأمل.

و فی المجمع،و فی الخبر المأثور عن جابر بن عبد الله قال سمعت النبی ص یقول:

إن الرجل یقول فی الجنه:ما فعل صدیقی؟و صدیقه فی الجحیم.فیقول الله:أخرجوا له صدیقه إلی الجنه فیقول من بقی فی النار:« فَمٰا لَنٰا مِنْ شٰافِعِینَ وَ لاٰ صَدِیقٍ حَمِیمٍ »

و روی بالإسناد عن حمران بن أعین عن أبی عبد الله(ع)قال: و الله لنشفعن لشیعتنا ثلاث مرات حتی یقول الناس:« فَمٰا لَنٰا مِنْ شٰافِعِینَ وَ لاٰ صَدِیقٍ حَمِیمٍ »إلی قوله -فَنَکُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ »و فی روایه أخری حتی یقول عدونا.

و فی تفسیر القمی، ":« فَلَوْ أَنَّ لَنٰا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »قال:من المهتدين قال:لأن الإيمان قد لزمهم بالإقرار.

أقول:مراده أنهم يؤمنون يومئذ إيمان إيقان لكنهم يرون أن الإيمان يومئذ لا ينفعهم بل الإيمان النافع هو الإيمان فی الدنيا فيتمنون أن يرجعوا إلى الدنيا ليكون ما عنده من الإيمان من إيمان المهتدين و هم المؤمنون حقا المهتدون بإيمانهم يوم القيامه و هذا معنى لطيف،و إليه يشير قوله تعالى: «وَ لَوْ تَرىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نٰاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنٰا أَبْصَرْنٰا وَ سَمِعْنٰا فَارْجِعْنٰا نَعْمَلْ صٰالِحاً إِنّٰا مُوقِنُونَ» :سجده:١٣ فلم يقولوا فارجعنا نؤمن و نعمل صالحا بل قالوا فارجعنا نعمل صالحا فافهم ذلك.

[سوره الشعراء (٢۶): الآيات ١٠۵ الی ١٢٢]

اشاره

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ اَلْمُرْسَلِينَ (١٠۵) إِذْ قٰالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَ لاٰ تَتَّقُونَ (١٠۶) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اَللّٰهَ وَ أَطِيعُونِ (١٠٨) وَ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّٰ عَلىٰ رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اَللّٰهَ وَ أَطِيعُونِ (١١٠) قٰالُوا أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اِتَّبَعَكَ اَلْأَرْذَلُونَ (١١١) قٰالَ وَ مٰا عِلْمِي بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسٰابُهُمْ إِلاّٰ عَلىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَ مٰا أَنَا بِطٰارِدِ اَلْمُؤْمِنِينَ (١١۴) إِنْ أَنَا إِلاّٰ نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١۵) قٰالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يٰا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ اَلْمَرْجُومِينَ (١١۶) قٰالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنْجَيْنٰاهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي اَلْفُلْكِ اَلْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنٰا بَعْدُ اَلْبٰاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَ مٰا كٰانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ اَلْعَزِيزُ اَلرَّحِيمُ (١٢٢)

(بیان)

تشیر الآیات بعد الفراغ عن قصتی موسی و إبراهیم(ع)و هما من أولی العزم إلی قصه نوح(ع)و هو أول أولی العزم ساده الأنبیاء،و إجمال ما جری بینه و بین قومه فلم یؤمن به أکثرهم فأغرقهم الله و أنجی نوحا و من معه من المؤمنین.

قوله تعالی:« کَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِینَ »قال فی المفردات:،القوم جماعه الرجال فی الأصل دون النساء،و لذلک قال:« لاٰ یَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ »الآیه،قال الشاعر:أ قوم آل حصن أم نساء،.و فی عامه القرآن أریدوا به و النساء جمیعا.انتهی.

و لفظ القوم قیل:مذکر و تأنیث الفعل المسند إلیه بتأویل الجماعه و قیل:

مؤنث و قال فی المصباح:یذکر و یؤنث.

و عد القوم مکذبین للمرسلین مع أنهم لم یکذبوا إلا واحدا منهم و هو نوح(ع) إنما هو من جهه أن دعوتهم واحده و کلمتهم متفقه علی التوحید فیکون المکذب للواحد منهم مکذبا للجمیع و لذا عد الله سبحانه الإیمان ببعض رسله دون بعض کفرا بالجمیع قال تعالی: «إِنَّ الَّذِینَ یَکْفُرُونَ بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ یُرِیدُونَ أَنْ یُفَرِّقُوا بَیْنَ اللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ یَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَکْفُرُ بِبَعْضٍ وَ یُرِیدُونَ أَنْ یَتَّخِذُوا بَیْنَ ذٰلِکَ سَبِیلاً أُولٰئِکَ هُمُ الْکٰافِرُونَ حَقًّا» :النساء:۱۵۱.

و قیل:هو من قبیل قولهم فلان یرکب الدواب و یلبس البرود و لیس له إلا دابه واحده و برده واحده فیکون الجمع کنایه عن الجنس،و الأول أوجه و نظیر الوجهین جار فی قوله الآتی:« کَذَّبَتْ عٰادٌ الْمُرْسَلِینَ »« کَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِینَ »و غیرهما.

قوله تعالی:« إِذْ قٰالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَ لاٰ تَتَّقُونَ »المراد بالأخ النسیب کقولهم:

أخو تمیم و أخو کلیب و الاستفهام للتوبیخ.

قوله تعالی:« إِنِّی لَکُمْ رَسُولٌ أَمِینٌ »أی رسول من الله سبحانه أمین علی ما حملته من الرساله لا أبلغکم إلا ما أمرنی ربی و أراده منکم، و لذا فرع علیه قوله:

« فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ أَطِیعُونِ »فأمرهم بطاعته لأن طاعته طاعه الله.

قوله تعالی:« وَ مٰا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِیَ إِلاّٰ عَلیٰ رَبِّ الْعٰالَمِینَ »مسوق لنفی الطمع الدنیوی بنفی سؤال الأجر فیثبت بذلک أنه ناصح لهم فیما یدعوهم إلیه لا یخونهم و لا یغشهم فعلیهم أن یطیعوه فیما یأمرهم،و لذا فرع علیه ثانیا قوله:« فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ أَطِیعُونِ ».

و العدول فی قوله:« إِنْ أَجْرِیَ إِلاّٰ عَلیٰ رَبِّ الْعٰالَمِینَ »عن اسم الجلاله إلی« رَبِّ الْعٰالَمِینَ »للدلاله علی صریح التوحید فإنهم کانوا یرون أنه تعالی إله عالم الآلهه و کانوا یرون لکل عالم إلها آخر یعبدونه من دون الله فإثباته تعالی ربا للعالمین جمیعا تصریح بتوحید العباده و نفی الآلهه من دون الله مطلقا.

قوله تعالی:« فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ أَطِیعُونِ »قد تقدم وجه تکرار الآیه فهو یفید أن کلا من الأمانه و عدم سؤال الأجر سبب مستقل فی إیجاب طاعته علیهم.

قوله تعالی:« قٰالُوا أَ نُؤْمِنُ لَکَ وَ اتَّبَعَکَ الْأَرْذَلُونَ » الأرذلون جمع أرذل علی الصحه و هو اسم تفضیل من الرذاله و الرذاله الخسه و الدناءه،و مرادهم بکون متبعیه أراذل أنهم ذوو أعمال رذیله و مشاغل خسیسه و لذا أجاب ع عنه بمثل قوله:

« وَ مٰا عِلْمِی بِمٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ ».

و الظاهر أنهم کانوا یرون الشرف و الکرامه فی الأموال و الجموع من البنین و الأتباع کما یستفاد من دعاء نوح(ع)إذ یقول:«رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِی وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ یَزِدْهُ مٰالُهُ وَ وَلَدُهُ إِلاّٰ خَسٰاراً» :نوح:۲۱. فمرادهم بالأرذلین من یعدهم الأشراف و المترفون سفله یتجنبون معاشرتهم من العبید و الفقراء و أرباب الحرف الدنیه.

قوله تعالی:« قٰالَ وَ مٰا عِلْمِی بِمٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ »الضمیر لنوح(ع)،و« مٰا » استفهامیه و قیل:نافیه و علیه فالخبر محذوف لدلاله السیاق علیه،و المراد علی أی حال نفی علمه بأعمالهم قبل إیمانهم به لمکان قوله:« کٰانُوا یَعْمَلُونَ ».

قوله تعالی:« إِنْ حِسٰابُهُمْ إِلاّٰ عَلیٰ رَبِّی لَوْ تَشْعُرُونَ »المراد بقوله:« رَبِّی »رب

العالمين فإنه الذى كان يختص نوح بالدعوه إليه من بينهم،و قوله:« لَوْ تَشْعُرُونَ » مقطوع عن العمل أى لو كان لكم شعور،و قيل:المعنى لو تشعرون بشىء لعلمتم ذلك و هو كما ترى.

و المعنى:بالنظر إلى الحصر الذى فى صدر الآيه أنه لا علم لى بسابق أعمالهم و ليس على حسابهم حتى أتجسس و أبحث عن أعمالهم و إنما حسابهم على ربى« لَوْ تَشْعُرُونَ » فيجازيهم حسب أعمالهم.

قوله تعالى:« وَ مٰا أَنَا بِطٰارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلاّٰ نَذِيرٌ مُبِينٌ »الآيه الثانيه بمنزله التعليل للأولى و المجموع متمم للبيان السابق و المعنى:لا شأن لى إلا الإنذار و الدعوه فلست أطرد من أقبل على و آمن بى و لست أتفحص عن سابق أعمالهم لأحاسبهم عليها فحسابهم على ربى و هو رب العالمين لا على.

قوله تعالى:« قٰالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يٰا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ »المراد بالانتهاء ترك الدعوه،و الرجم هو الرمى بالحجاره،و قيل:المراد به الشتم و هو بعيد،و هذا مما قالوه فى آخر العهد من دعوتهم يهددونه(ع)بقول جازم كما يشهد به ما فى الكلام من وجوه التأكيد.

قوله تعالى:« قٰالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِى وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً »إلخ،هذا استفتاح منه(ع)و قد قدم له قوله:« رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ »على سبيل التوطئه أى تحقق منهم التكذيب المطلق الذى لا مطمع فى تصديقهم بعده كما يستفاد من دعائه عليهم إذ يقول: «رَبِّ لاٰ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰافِرِينَ دَيّٰاراً إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبٰادَكَ وَ لاٰ يَلِدُوا إِلاّٰ فٰاجِراً كَفّٰاراً» :نوح:۲۷.

و قوله:« فَافْتَحْ بَيْنِى وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً »كنايه عن القضاء بينه و بين قومه كما قال تعالى: «وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذٰا جٰاءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ» :يونس:۴۷.

و أصله من الاستعاره بالكنايه كأنه و أتباعه و الكفار من قومه اختلطوا و اجتمعوا من غير تميز فسأل ربه أن يفتح بينهم بإيجاد فسحه بينه و بين قومه يبتعد بذلك أحد القبيلين من الآخر و ذلك كنايه عن نزول العذاب و ليس يهلك إلا القوم الفاسقين و الدليل عليه قوله بعد:« وَ نَجِّنِى وَ مَنْ مَعِىَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ».

و قیل: الفتح بمعنی الحکم و القضاء من الفتاحه بمعنی الحکومه.

قوله تعالی:« فَأَنْجَیْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِی الْفُلْکِ الْمَشْحُونِ »أی المملوء منهم و من کل زوجین اثنین کما ذکره فی سوره هود.

قوله تعالی:« ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِینَ »أی أغرقنا بعد إنجائهم الباقین من قومه.

قوله تعالی:« إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً -إلی قوله- اَلْعَزِیزُ الرَّحِیمُ »تقدم الکلام فی معنی الآیتین.

(بحث روائی)

فی کتاب کمال الدین،و روضه الکافی،مسندا عن أبی حمزه عن أبی جعفر(ع) فی حدیث: فمکث نوح ألف سنه إلا خمسین عاما-لم یشارکه فی نبوته أحد-و لکنه قدم علی قوم مکذبین للأنبیاء-الذین کانوا بینه و بین آدم-و ذلک قوله عز و جل: کَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِینَ »یعنی من کان بینه و بین آدم إلی أن انتهی إلی قوله:« وَ إِنَّ رَبَّکَ لَهُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ »

و قال فیه،أیضا: فکان بینه و بین آدم عشره آباء کلهم أنبیاء ،و فی تفسیر القمی":

فی قوله تعالی:« وَ اتَّبَعَکَ الْأَرْذَلُونَ »قال:الفقراء.

و فیه،و فی روایه أبی الجارود عن أبی جعفر(ع): فی قوله تعالی:« اَلْفُلْکِ الْمَشْحُونِ »المجهز الذی قد فرغ منه و لم یبق إلا دفعه.

[سوره الشعراء (۲۶): الآیات ۱۲۳ الی ۱۴۰]

اشاره

کَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِینَ (۱۲۳) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَ لاٰ تَتَّقُونَ (۱۲۴) إِنِّی لَکُمْ رَسُولٌ أَمِینٌ (۱۲۵) فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ أَطِیعُونِ (۱۲۶) وَ مٰا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِیَ إِلاّٰ عَلیٰ رَبِّ الْعٰالَمِینَ (۱۲۷) أَ تَبْنُونَ بِکُلِّ رِیعٍ آیَهً تَعْبَثُونَ (۱۲۸) وَ تَتَّخِذُونَ مَصٰانِعَ لَعَلَّکُمْ تَخْلُدُونَ (۱۲۹) وَ إِذٰا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبّٰارِینَ (۱۳۰) فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ أَطِیعُونِ (۱۳۱) وَ اتَّقُوا الَّذِی أَمَدَّکُمْ بِمٰا تَعْلَمُونَ (۱۳۲) أَمَدَّکُمْ بِأَنْعٰامٍ وَ بَنِینَ (۱۳۳) وَ جَنّٰاتٍ وَ عُیُونٍ (۱۳۴) إِنِّی أَخٰافُ عَلَیْکُمْ عَذٰابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ (۱۳۵) قٰالُوا سَوٰاءٌ عَلَیْنٰا أَ وَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَکُنْ مِنَ الْوٰاعِظِینَ (۱۳۶) إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ خُلُقُ الْأَوَّلِینَ (۱۳۷) وَ مٰا نَحْنُ بِمُعَذَّبِینَ (۱۳۸) فَکَذَّبُوهُ فَأَهْلَکْنٰاهُمْ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً وَ مٰا کٰانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ (۱۳۹) وَ إِنَّ رَبَّکَ لَهُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ (۱۴۰)

(بيان)

تشير الآيات إلى قصه هود(ع)و قومه و هو قوم عاد.

قوله تعالى:« كَذَّبَتْ عٰادٌ الْمُرْسَلِينَ »قوم عاد من العرب العاربه الأولى كانوا يسكنون الأحقاف من جزيره العرب لهم مدنيه راقيه و أراض خصبه و ديار معموره فكذبوا الرسل و كفروا بأنعم الله و أطغوا فأهلكهم الله بالريح العقيم و خرب ديارهم و عفا آثارهم.

و عاد فيما يقال اسم أبيهم فتسميتهم بعاد من قبيل تسميه القوم باسم أبيهم كما يقال تميم و بكر و تغلب و يراد بنو تميم و بنو بكر و بنو تغلب.

و قد تقدم فى نظير الآيه من قصه نوح وجه عد القوم مكذبين للمرسلين و لم يكذبوا ظاهرا إلا واحدا منهم.

قوله تعالى:« إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ -إلى قوله- رَبِّ الْعٰالَمِينَ »تقدم الكلام فيها فى نظائرها من قصه نوح(ع).

ص :٢٩٩

و ذكر بعض المفسرين أن تصدير هذه القصص الخمس بذكر أمانه الرسل و عدم سؤالهم أجرا على رسالتهم و أمرهم الناس بالتقوى و الطاعه للتنبيه على أن مبنى البعثه هو الدعاء إلى معرفه الحق و الطاعه فيما يقرب المدعو من الثواب و يبعده من العقاب و أن الأنبياء(ع)مجتمعون على ذلك و إن اختلفوا فى بعض فروع الشرائع المختلفه باختلاف الأزمنه و الأعصار،و أنهم منزهون عن المطامع الدنيويه بالكليه انتهى.

و نظيره الكلام فى ختم جميع القصص السبع المورده فى السوره بقوله:« إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَ مٰا كٰانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ »ففيه دلاله على أن أكثر الأمم و الأقوام معرضون عن آيات الله،و أن الله سبحانه عزيز يجازيهم على تكذيبهم رحيم ينجى المؤمنين برحمته،و قد تقدمت الإشاره إلى ذلك فى الكلام على غرض السوره.

قوله تعالى:« أَ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ » الريع هو المرتفع من الأرض و الآيه العلامه و العبث الفعل الذى لا غايه له،و كأنهم كانوا يبنون على قلل الجبال و كل مرتفع من الأرض أبنيه كالأعلام يتنزهون فيها و يفاخرون بها من غير ضروره تدعوهم إلى ذلك بل لهوا و اتباعا للهوى فوبخهم عليه.

و قد ذكر للآيه معان أخر لا دليل عليها من جهه اللفظ و لا ملاءمه للسياق أضربنا عنها.

قوله تعالى: «وَ تَتَّخِذُونَ مَصٰانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ »، المصانع على ما قيل:

الحصون المنيعه و القصور المشيده و الأبنيه العاليه واحدها مصنع.

و قوله:« لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ »فى مقام التعليل لما قبله أى تتخذون هذه المصانع بسبب أنكم ترجون الخلود و لو لا رجاء الخلود ما عملتم مثل هذه الأعمال التى من طبعها أن تدوم دهرا طويلا لا يفى به أطول الأعمار الإنسانيه،و قيل فى معنى الآيه و مفرداتها وجوه أخرى أغمضنا عنها.

قوله تعالى:« وَ إِذٰا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبّٰارِينَ »قال فى المجمع:، البطش العسف قتلا بالسيف و ضربا بالسوط،و الجبار العالى على غيره بعظيم سلطانه.و هو فى صفه الله سبحانه مدح و فى صفه غيره ذم لأن معناه فى العبد أنه يتكلف الجبريه.انتهى.

فالمعنی:و إذا أظهرتم شده فی العمل و بأسا بالغتم فی ذلک کما یبالغ الجبابره فی الشده.

و محصل الآیات الثلاث أنکم مسرفون فی جانبی الشهوه و الغضب متعدون حد الاعتدال خارجون عن طور العبودیه.

قوله تعالی:« فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُونِ »تفریع علی إسرافهم فی جانبی الشهوه و الغضب و خروجهم عن طور العبودیه فلیتقوا الله و لیطیعوه فیما یأمرهم به من ترک الإتراف و الاستکبار.

قوله تعالی:« وَ اتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمٰا تَعْلَمُونَ »-إلی قوله- وَ عُيُونٍ »قال الراغب:أصل المد الجر، قال:و أمددت الجیش بمدود و الإنسان بطعام قال:و أکثر ما جاء الإمداد فی المحبوب و المد فی المکروه،قال تعالی:« وَ أَمْدَدْنٰاهُمْ بِفٰاكِهَةٍ » « وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذٰابِ مَدًّا »انتهی ملخصا.

و قوله:« وَ اتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ »إلخ،فی معنی تعلیق الحکم بالوصف المشعر بالعلیه أی اتقوا الله الذی یمدکم بنعمه لأنه یمدکم بها فیجب علیکم أن تشکروه بوضع نعمه فی موضعها من غیر إتراف و استکبار فإن کفران النعمه یستعقب السخط و العذاب قال تعالی:« لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذٰابِي لَشَدِيدٌ» :إبراهیم:۷.

و قد ذکر النعم إجمالا بقوله أولا:« أَمَدَّكُمْ بِمٰا تَعْلَمُونَ »ثم فصلها بقوله ثانیا:

« أَمَدَّكُمْ بِأَنْعٰامٍ وَ بَنِينَ وَ جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ » .

و فی قوله:« أَمَدَّكُمْ بِمٰا تَعْلَمُونَ »نکته أخری هی أنکم تعلمون أن هذه النعم من إمداده تعالی و صنعه لا یشارکه فی إیجادها و الإمداد بها غیره فهو الذی یجب لکم أن تتقوه بالشکر و العباده دون الأوثان و الأصنام فالکلام متضمن للحجه.

قوله تعالی:« إِنِّي أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ »تعلیل للأمر بالتقوی أی إنی آمرکم بالتقوی شکرا لأنی أخاف علیکم عذاب یوم عظیم أن تکفروا و لم تشکروا، و الظاهر أن المراد بالیوم العظیم یوم القیامه و إن جوز بعضهم أن یکون المراد به یوم عذاب الاستئصال.

قوله تعالی:« قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَ وَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ »نفی لأثر کلامه و إیاس له من إیمانهم بالکلیه.

قیل:الکلام لا یخلو من مبالغه فقد کان مقتضی التردید أن یقال:أ وعظت أم لم تعظ ففی العدول عنه إلی قوله:« أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ »النافی لأصل کونه واعظا ما لا یخفی من المبالغه.

قوله تعالی:« إِنْ هٰذَا إِلاَّ خُلُقُ الْأَوَّلِينَ »الخلق بضم الخاء و اللام أو سکونها قال الراغب: الخلق و الخلق -أی بفتح الخاء و ضمها- فی الأصل واحد کالشرب و الشرب و الصرم و الصرم لکن خص الخلق-بفتح الخاء-بالهیئات و الأشکال و الصور المدرکه بالبصر،و خص الخلق-بضم الخاء-بالقوی و السجایا المدرکه بالبصیره،قال تعالی:« إِنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ »و قرئ« إِنْ هٰذَا إِلاَّ خُلُقُ الْأَوَّلِينَ »انتهی.

و الإشاره بهذا إلی ما جاء به هود و قد سموه وعظا و المعنی:لیس ما تلبست به من الدعوه إلی التوحید و الموعظه إلا عاده البشر الأولین الماضین من أهل الأساطیر و الخرافات،و هذا کقولهم: إِنْ هٰذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

و یمکن أن تکون الإشاره بهذا إلی ما هم فیه من الشرک و عباده الآلهه من دون الله اقتداء بآبائهم الأولین کقولهم:« وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ ».

و احتمل بعضهم أن یکون المراد ما خلقنا هذا إلا-خلق الأولین نحیا کما حیوا و نموت کما ماتوا و لا بعث و لا حساب و لا عذاب.و هو بعید من السیاق.

قوله تعالی:« وَ مَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ »إنکار للمعاد بناء علی کون المراد بالیوم العظیم فی کلام هود (ع)یوم القیامه.

قوله تعالی:« فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً -إلی قوله- اَلرَّحِيمُ » معناه ظاهر مما تقدم.

(بحث روائی)

فی کتاب کمال الدین،و روضه الکافی،مسندا عن أبی حمزه الثمالی عن أبی جعفر محمد

بن علی الباقر(ع)فی حدیث: و قال نوح-إن الله تبارک و تعالی باعث نبیا یقال له هود-و إنه یدعو قومه إلی الله عز و جل فیکذبونه-و إن الله عز و جل یهلکهم بالریح-فمن أدرکه منکم فلیؤمن به و لیتبعه-فإن الله تبارک و تعالی ینجیه من عذاب الریح.

و أمر نوح ابنه سام أن یتعاهد هذه الوصیه-عند رأس کل سنه و یکون یوم عید لهم-فیتعاهدون فیه بعث هود و زمانه الذی یخرج فیه.

فلما بعث الله تبارک و تعالی هودا-نظروا فیما عندهم من العلم و الإیمان-و میراث العلم و الاسم الأکبر و آثار علم النبوه-فوجدوا هودا نبیا و قد بشرهم أبوهم نوح به-فآمنوا به و صدقوه و اتبعوه فنجوا من عذاب الریح،و هو قول الله عز و جل:« وَ إِلیٰ عٰادٍ أَخٰاهُمْ هُوداً »و قوله:« کَذَّبَتْ عٰادٌ الْمُرْسَلِینَ- إِذْ قٰالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَ لاٰ تَتَّقُونَ » و فی المجمع،:فی قوله تعالی:« آیَهً تَعْبَثُونَ »أی ما لا تحتاجون إلیه لسکناکم- و إنما تریدون العبث بذلک و اللعب و اللهو-کأنه جعل بناءهم ما یستغنون عنه عبثا منهم-عن ابن عباس فی روایه عطاء،و یؤیده

الخبر المأثور عن أنس بن مالک- أن رسول الله ص خرج فرأی قبه فقال:ما هذه؟فقالوا له أصحابه: هذا لرجل من الأنصار-فمکث حتی إذا جاء صاحبها فسلم فی الناس-أعرض عنه صنع ذلک مرارا-حتی عرف الرجل الغضب به و الإعراض عنه.

فشکا ذلک إلی أصحابه و قال:و الله إنی لأنکر نظر رسول الله ص-ما أدری ما حدث فی و ما صنعت؟قالوا خرج رسول الله ص فرأی قبتک فقال:لمن هذه؟ فأخبرناه فرجع إلی قبته فسواها بالأرض-فخرج رسول الله ص ذات یوم فلم یر القبه فقال:ما فعلت القبه التی کانت هاهنا؟قالوا:شکا إلینا صاحبها إعراضک عنه- فأخبرناه فهدمها.

فقال:إن کل ما یبنی وبال علی صاحبه یوم القیامه-إلا ما لا بد منه.

و فی تفسیر القمی،":فی قوله تعالی:« وَ إِذٰا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبّٰارِینَ »قال:تقتلون بالغضب من غیر استحقاق.

[سوره الشعراء (۲۶): الآيات ۱۴۱ الى ۱۵۹]

اشاره

كَذَّبَتْ ثَمُودُ اَلْمُرْسَلِينَ (۱۴۱) إِذْ قٰالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صٰالِحٌ أَ لاٰ تَتَّقُونَ (۱۴۲) إِنِّی لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (۱۴۳) فَاتَّقُوا اَللّٰهَ وَ أَطِيعُونِ
(۱۴۴) وَ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّٰ عَلىٰ رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (۱۴۵) أَ تُتْرَكُونَ فِی مٰا هٰاهُنٰا آمِنِينَ (۱۴۶) فِی جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ
(۱۴۷) وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُهٰا هَضِيمٌ (۱۴۸) وَ تَنْحِتُونَ مِنَ اَلْجِبٰالِ بُيُوتاً فٰارِهِينَ (۱۴۹) فَاتَّقُوا اَللّٰهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۵۰) وَ لاٰ تُطِيعُوا أَمْرَ
اَلْمُسْرِفِينَ (۱۵۱) اَلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِی اَلْأَرْضِ وَ لاٰ يُصْلِحُونَ (۱۵۲) قٰالُوا إِنَّمٰا أَنْتَ مِنَ اَلْمُسَحَّرِينَ (۱۵۳) مٰا أَنْتَ إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُنٰا فَأْتِ
بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ اَلصّٰادِقِينَ (۱۵۴) قٰالَ هٰذِهِ نٰاقَةٌ لَهٰا شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (۱۵۵) وَ لاٰ تَمَسُّوهٰا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذٰابُ يَوْمٍ
عَظِيمٍ (۱۵۶) فَعَقَرُوهٰا فَأَصْبَحُوا نٰادِمِينَ (۱۵۷) فَأَخَذَهُمُ اَلْعَذٰابُ إِنَّ فِی ذٰلِكَ لَآيَةً وَ مٰا كٰانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۵۸) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
اَلْعَزِيزُ اَلرَّحِيمُ (۱۵۹)

(بيان)

تشير الآيات إلى إجمال قصه صالح(ع)و قومه و هو من أنبياء العرب و يذكر فی القرآن بعد هود(ع).

قوله تعالى:« كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ -إلى قوله- عَلىٰ رَبِّ الْعٰالَمِينَ »قد اتضح معناها مما تقدم.

ص: ۳۰۴

قوله تعالی:« أَ تُتْرَكُونَ فِی مٰا هٰاهُنٰا آمِنِینَ »الظاهر أن الاستفهام للإنکار و«ما» موصوله و المراد بها النعم التی یفصلها بعد قوله:« فِی جَنّٰاتٍ وَ عُیُونٍ »إلخ،و« هٰاهُنٰا » إشاره إلی المکان الحاضر القریب و هو أرض ثمود و« آمِنِینَ »حال من نائب فاعل « تُتْرَكُونَ ».

و المعنی:لا تترکون فی هذه النعم التی أحاطت بکم فی أرضکم هذه و أنتم مطلقو العنان لا تسألون عما تفعلون آمنون من أی مؤاخذه إلهیه.

قوله تعالی:« فِی جَنّٰاتٍ وَ عُیُونٍ وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُهٰا هَضِیمٌ »بیان تفصیلی لقوله:« فِی مٰا هٰاهُنٰا »،و قد خص النخل بالذکر مع دخوله فی الجنات لاهتمامهم به، و الطلع فی النخل کالنور فی سائر الأشجار و الهضیم -علی ما قیل-المتداخل المنضم بعضه إلی بعض.

قوله تعالی:« وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبٰالِ بُیُوتاً فٰارِهِینَ »قال الراغب: الفره - بالفتح فالکسر صفه مشبهه-الأشر،و قوله تعالی:« وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبٰالِ بُیُوتاً فٰارِهِینَ »أی حاذقین و قیل:معناه أشرین.انتهی ملخصا،و علی ما اختاره تکون الآیه من بیان النعمه،و علی المعنی الآخر تکون مسوقه لإنکار أشرهم و بطرهم.

و الآیه علی أی حال فی حیز الاستفهام.

قوله تعالی:« فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ أَطِیعُونِ »تفریع علی ما تقدم من الإنکار الذی فی معنی المنفی.

قوله تعالی:« وَ لاٰ تُطِیعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِینَ اَلَّذِینَ یُفْسِدُونَ فِی الْأَرْضِ وَ لاٰ یُصْلِحُونَ » الظاهر أن المراد بالأمر ما یقابل النهی بقرینه النهی عن طاعته و إن جوز بعضهم کون الأمر بمعنی الشأن و علیه یکون المراد بطاعه أمرهم تقلید العامه و اتباعهم لهم فی أعمالهم و سلوکهم السبل التی یستحبون لهم سلوکها.

و المراد بالمسرفین علی أی حال أشراف القوم و عظماؤهم المتبوعون و الخطاب للعامه التابعین لهم و أما الساده الأشراف فقد کانوا مأیوسا من إیمانهم و اتباعهم للحق.

ص :۳۰۵

و يمكن أن يكون الخطاب للجميع من جهه أن الأشراف منهم أيضا كانوا يقلدون آباءهم و يطيعون أمرهم كما قالوا لصالح(ع): «أَ تَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا» :هود:۶۲،فقد كانوا جميعا يطيعون أمر المسرفين فنهوا عنه.

و قد فسر المسرفين و هم المتعدون عن الحق الخارجون عن حد الاعتدال بتوصيفهم بقوله:« اَلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لاٰ يُصْلِحُونَ »إشاره إلى عله الحكم الحقيقيه فالمعنى اتقوا الله و لا تطيعوا أمر المسرفين لأنهم مفسدون فى الأرض غير مصلحين و الإفساد لا يؤمن معه العذاب الإلهى و هو عزيز ذو انتقام.

و ذلك أن الكون على ما بين أجزائه من التضاد و التزاحم مؤلف تأليفا خاصا يتلاءم معه أجزاؤه بعضها مع بعض فى النتائج و الآثار كالأمر فى كفتى الميزان فإنهما على اضطرابها و اختلافها الشديد بالارتفاع و الانخفاض متوافقتان فى تعيين وزن المتاع الموزون و هو الغايه و العالم الإنسانى الذى هو جزء من الكون كذلك ثم الفرد من الإنسان بما له من القوى و الأدوات المختلفه المتضاده مفطور على تعديل أفعاله و أعماله بحيث تنال كل قوه من قواه حظها المقدر لها و قد جهز بعقل يميز بين الخير و الشر و يعطى كل ذى حق حقه.

فالكون يسير بالنظام الجارى فيه إلى غايات صالحه مقصوده و هو بما بين أجزائه من الارتباط التام يخط لكل من أجزائه سبيلا خاصا يسير فيها بأعمال خاصه من غير أن يميل عن حاق وسطها إلى يمين أو يسار أو ينحرف بإفراط أو تفريط فإن فى الميل و الانحراف إفسادا للنظام المرسوم،و يتبعه إفساد غايته و غايه الكل،و من الضرورى أن خروج بعض الأجزاء عن خطه المخطوط له و إفساد النظم المفروض له و لغيره يستعقب منازعه بقيه الأجزاء له فإن استطاعت أن تقيمه و ترده إلى وسط الاعتدال فهو و إلا أفنته و عفت آثاره حفظا لصلاح الكون و استبقاء لقوامه.

و الإنسان الذى هو أحد أجزاء الكون غير مستثنى من هذه الكليه فإن جرى على ما يهديه إليه الفطره فاز بالسعاده المقدره له و إن تعدى حدود فطرته و أفسد فى الأرض أخذه الله سبحانه بالسنين و المثلات و أنواع النكال و النقمه لعله يرجع إلى الصلاح و السداد قال تعالى: «ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النّاسِ لِيُذِيقَهُمْ

بَعْضَ الَّذِی عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ» :الروم:۴۱.

و إن أقاموا مع ذلک علی الفساد لرسوخه فی نفوسهم أخذهم الله بعذاب الاستئصال و طهر الأرض من قذاره فسادهم قال تعالی: «وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَی آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَیْهِمْ بَرَکَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ لَکِنْ کَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا کَانُوا یَکْسِبُونَ» :الأعراف:

۹۶.و قال: «وَ مَا کَانَ رَبُّکَ لِیُهْلِکَ الْقُرَی بِظُلْمٍ وَ أَهْلُهَا مُصْلِحُونَ» :هود:۱۱۷، و قال: «أَنَّ الْأَرْضَ یَرِثُهَا عِبَادِیَ الصَّالِحُونَ» :الأنبیاء:۱۰۵،و ذلک أنهم إذا صلحوا صلحت أعمالهم و إذا صلحت أعمالهم وافقت النظام العام و صلحت بها الأرض لحیاتهم الأرضیه.

فقد تبین بما مر أولا- أن حقیقه دعوه النبوه هی إصلاح الحیاه الإنسانیه الأرضیه قال تعالی:حکایه عن شعیب: «إِنْ أُرِیدُ إِلَّا الْإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ» :هود:۸۸.

و ثانیا:أن قوله:« وَ لاَ تُطِیعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِینَ الَّذِینَ یُفْسِدُونَ »إلخ،علی سذاجه بیانه معتمد علی حجه برهانیه.

و لعل فی قوله:« وَ لاَ یُصْلِحُونَ »بعد قوله:« اَلَّذِینَ یُفْسِدُونَ فِی الْأَرْضِ » إشاره إلی أنه کان المتوقع منهم بما أنهم بشر ذوو فطره إنسانیه أن یصلحوا فی الأرض لکنهم انحرفوا عن الفطره و بدلوا الإصلاح إفسادا.

قوله تعالی:« قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِینَ »أی ممن سحر مره بعد مره حتی غلب علی عقله،و قیل:إن السحر أعلی البطن و المسحر من له جوف فیکون کنایه عن أنک بشر مثلنا تأکل و تشرب فیکون قوله بعده:« مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا » تأکیدا له،و قیل: المسحر من له سحر أی رئه کأن مرادهم أنک متنفس بشر مثلنا.

قوله تعالی:« مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا -إلی قوله- عَذَابُ یَوْمٍ عَظِیمٍ » الشرب بکسر الشین النصیب من الماء،و الباقی ظاهر و قد تقدمت تفصیل القصه فی سوره هود.

قوله تعالی:« فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِینَ »نسبه العقر إلی الجمع-و لم یعقرها إلا واحد منهم- لرضاهم بفعله،

و فی نهج البلاغه،: أیها الناس إنما یجمع الناس الرضا و السخط-و إنما عقر ناقه ثمود رجل واحد-فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضا-فقال سبحانه:« فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِینَ ».

و قوله:« فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ »لعل ندمهم إنما كان عند مشاهدتهم ظهور آثار العذاب و إن قالوا له بعد العقر تعجيزا و استهزاء: «يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ» :الأعراف:٧٧.

قوله تعالى:« فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ -إلى قوله- اَلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ »اللام للعهد أي أخذهم العذاب الموعود فإن صالحا وعدهم نزول العذاب بعد ثلاثه أيام كما في سوره هود،و الباقي ظاهر.

[سوره الشعراء (٢۶): الآيات ١۶٠ الى ١٧۵]

اشاره

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ اَلْمُرْسَلِينَ (١۶٠) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَ لاٰ تَتَّقُونَ (١۶١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١۶٢) فَاتَّقُوا اَللّٰهَ وَ أَطِيعُونِ (١۶٣) وَ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّٰ عَلىٰ رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (١۶۴) أَ تَأْتُونَ اَلذُّكْرٰانَ مِنَ اَلْعٰالَمِينَ (١۶۵) وَ تَذَرُونَ مٰا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوٰاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عٰادُونَ (١۶۶) قٰالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يٰا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ اَلْمُخْرَجِينَ (١۶٧) قٰالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ اَلْقٰالِينَ (١۶٨) رَبِّ نَجِّنِي وَ أَهْلِي مِمّٰا يَعْمَلُونَ (١۶٩) فَنَجَّيْنٰاهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلاّٰ عَجُوزاً فِي اَلْغٰابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا اَلْآخَرِينَ (١٧٢) وَ أَمْطَرْنٰا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسٰاءَ مَطَرُ اَلْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَ مٰا كٰانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧۴) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ اَلْعَزِيزُ اَلرَّحِيمُ (١٧۵)

(بيان)

تشير الآيات إلى قصه لوط النبی(ع)و هو بعد صالح(ع).

قوله تعالی:« كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ »-إلی قوله-« رَبِّ الْعَالَمِينَ »، تقدم تفسيره.

قوله تعالی:« أَ تَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ »الاستفهام للإنكار و التوبيخ و الذكران جمع ذكر مقابل الأنثی و إتيانهم كنايه عن اللواط و قد كان شاع فيما بينهم، و العالمين جمع عالم و هو الجماعه من الناس.

و قوله:« مِنَ الْعالَمِينَ »يمكن أن يكون متصلا بضمير الفاعل فی« تَأْتُونَ » و المراد أ تأتون أنتم من بين العالمين هذا العمل الشنيع؟فيكون فی معنی قوله فی موضع آخر: «ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ» :الأعراف:۸۰،العنكبوت-۲۸.

و يمكن أن يكون متصلا بقوله:« اَلذُّكْرانَ »و المعنی علی هذا أ تنكحون من بين العالمين-علی كثرتهم و اشتمالهم علی النساء-الرجال فقط؟.

قوله تعالی:« وَ تَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ »إلخ« تَذَرُونَ »بمعنی تتركون و لا ماضی له من مادته.

و المتأمل فی خلق الإنسان و انقسام أفراده إلی صنفی الذكر و الأنثی و ما جهز به كل من الصنفين من الأعضاء و الأدوات و ما يختص به من الخلقه لا يرتاب فی أن غرض الصنع و الإيجاد من هذا التصوير المختلف و إلقاء غريزه الشهوه فی القبيلين و تفريق أمرهما بالفعل و الانفعال أن يجمع بينهما بالنكاح ليتوسل بذلك إلی التناسل الحافظ لبقاء النوع حتی حين.

فالرجل من الإنسان بما هو رجل مخلوق للمرأه منه لا لرجل مثله و المرأه من الإنسان بما هی امرأه مخلوقه للرجل منه لا لامرأه مثلها و ما يختص به الرجل فی خلقته للمرأه و ما تختص به المرأه فی خلقتها للرجل و هذه هی الزوجيه الطبيعيه التی عقدها الصنع و الإيجاد بين الرجل و المرأه من الإنسان فجعلهما زوجين.

ثم الأغراض و الغايات الاجتماعيه أو الدينيه سنت بين الناس سنه النكاح الاجتماعى الاعتبارى الذى فيه نوع من الاختصاص بين الزوجين و قسم من التحديد للزوجيه الطبيعيه المذكوره فالفطره الإنسانيه و الخلقه الخاصه تهديه إلى ازدواج الرجال بالنساء دون الرجال و ازدواج النساء بالرجال دون النساء،و أن الازدواج مبنى على أصل التوالد و التناسل دون الاشتراك فى مطلق الحياه.

و من هنا يظهر أن الأقرب أن يكون المراد بقوله:« مٰا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ » العضو المباح للرجال من النساء بالازدواج و اللام للملك الطبيعى،و أن مِنْ فى قوله:« مِنْ أَزْوٰاجِكُمْ »للتبعيض و الزوجيه هى الزوجيه الطبيعيه و إن أمكن أن يراد بها الزوجيه الاجتماعيه الاعتباريه بوجه.

و أما تجويز بعضهم أن يراد بلفظه« مٰا »النساء و يكون قوله:« مِنْ أَزْوٰاجِكُمْ » بيانا له فبعيد.

و قوله:« بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عٰادُونَ »أى متجاوزون خارجون عن الحد الذى خطته لكم الفطره و الخلقه فهو فى معنى قوله: «إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجٰالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ» :العنكبوت:۲۹.

و قد ظهر من جميع ما مر أن كلامه(ع)مبنى على حجه برهانيه أشير إليها.

قوله تعالى:« قٰالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يٰا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ »أى المبعدين المنفيين من قريتنا كما نقل عنهم فى موضع آخر:« أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ».

قوله تعالى:« قٰالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقٰالِينَ »المراد بعملهم-على ما يعطيه السياق-إتيان الذكران و ترك الإناث.و القالى المبغض،و مقابله تهديدهم بالنفى بمثل هذا الكلام من غير تعرض للجواب عن تهديدهم يفيد من المعنى أنى لا أخاف الخروج من قريتكم و لا أكترث به بل مبغض لعملكم راغب فى النجاه من وباله النازل بكم لا محاله،و لذا أتبعه بقوله:« رَبِّ نَجِّنِي وَ أَهْلِي مِمّٰا يَعْمَلُونَ ».

قوله تعالى:« رَبِّ نَجِّنِي وَ أَهْلِي مِمّٰا يَعْمَلُونَ »أى من أصل عملهم الذى يأتون به بمرأى و مسمع منه فهو منزجر منه أو من وبال عملهم و العذاب الذى سيتبعه لا محاله.

و إنما لم يذكر إلا نفسه و أهله إذ لم يكن آمن به من أهل القريه أحد،قال تعالى

فی ذلک: «فَمٰا وَجَدْنٰا فِیهٰا غَیْرَ بَیْتٍ مِنَ اَلْمُسْلِمِینَ» :الذاریات:۳۶.

قوله تعالی:« فَنَجَّیْنٰاهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِینَ -إلی قوله- اَلْآخَرِینَ » الغابر کما قیل الباقی بعد ذهاب من کان معه،و التدمیر الإهلاک،و الباقی ظاهر.

قوله تعالی:« وَ أَمْطَرْنٰا عَلَیْهِمْ مَطَراً »إلخ،و هو السجیل کما قال تعالی:

«وَ أَمْطَرْنٰا عَلَیْهِمْ حِجٰارَةً مِنْ سِجِّیلٍ» :الحجر:۷۴.

قوله تعالی:« إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَةً -إلی قوله- اَلْعَزِیزُ الرَّحِیمُ »تقدم تفسیره.

[سوره الشعراء (۲۶): الآیات ۱۷۶ الی ۱۹۱]

اشاره

کَذَّبَ أَصْحٰابُ اَلْأَیْکَهِ اَلْمُرْسَلِینَ (۱۷۶) إِذْ قٰالَ لَهُمْ شُعَیْبٌ أَ لاٰ تَتَّقُونَ (۱۷۷) إِنِّی لَکُمْ رَسُولٌ أَمِینٌ (۱۷۸) فَاتَّقُوا اَللّٰهَ وَ أَطِیعُونِ (۱۷۹) وَ مٰا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِیَ إِلاّٰ عَلیٰ رَبِّ اَلْعٰالَمِینَ (۱۸۰) أَوْفُوا اَلْکَیْلَ وَ لاٰ تَکُونُوا مِنَ اَلْمُخْسِرِینَ (۱۸۱) وَ زِنُوا بِالْقِسْطٰاسِ اَلْمُسْتَقِیمِ (۱۸۲) وَ لاٰ تَبْخَسُوا اَلنّٰاسَ أَشْیٰاءَهُمْ وَ لاٰ تَعْثَوْا فِی اَلْأَرْضِ مُفْسِدِینَ (۱۸۳) وَ اِتَّقُوا اَلَّذِی خَلَقَکُمْ وَ اَلْجِبِلَّةَ اَلْأَوَّلِینَ (۱۸۴) قٰالُوا إِنَّمٰا أَنْتَ مِنَ اَلْمُسَحَّرِینَ (۱۸۵) وَ مٰا أَنْتَ إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُنٰا وَ إِنْ نَظُنُّکَ لَمِنَ اَلْکٰاذِبِینَ (۱۸۶) فَأَسْقِطْ عَلَیْنٰا کِسَفاً مِنَ اَلسَّمٰاءِ إِنْ کُنْتَ مِنَ اَلصّٰادِقِینَ (۱۸۷) قٰالَ رَبِّی أَعْلَمُ بِمٰا تَعْمَلُونَ (۱۸۸) فَکَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذٰابُ یَوْمِ اَلظُّلَّةِ إِنَّهُ کٰانَ عَذٰابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ (۱۸۹) إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَةً وَ مٰا کٰانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ (۱۹۰) وَ إِنَّ رَبَّکَ لَهُوَ اَلْعَزِیزُ اَلرَّحِیمُ (۱۹۱)

ص :۳۱۱

(بيان)

إجمال قصه شعيب(ع)و هو من أنبياء العرب،و هى آخر القصص السبع الموردة فى السوره.

قوله تعالى:« كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَهِ الْمُرْسَلِينَ -إلى قوله- رَبِّ الْعالَمِينَ » الأيكه الغيضه الملتف شجرها.قيل:إنها كانت غيضه بقرب مدين يسكنها طائفه و كانوا ممن بعث إليهم شعيب(ع)،و كان أجنبيا منهم و لذلك قيل:« إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ »و لم يقل:أخوهم شعيب بخلاف هود و صالح فقد كانا نسيبين إلى قومهما و كذا لوط فقد كان نسيبا إلى قومه بالمصاهره و لذا عبر عنهم بقوله:« أَخُوهُمْ هُودٌ »« أَخُوهُمْ صالِحٌ »« أَخُوهُمْ لُوطٌ ».

و قد تقدم تفسير باقى الآيات.

قوله تعالى:« أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ » الكيل ما يقدر به المتاع من جهه حجمه و إيفاؤه أن لا ينقص الحجم،و القسطاس الميزان الذى يقدر به من جهه وزنه و استقامته أن يزن بالعدل،و الآيتان تأمران بالعدل فى الأخذ و الإعطاء بالكيل و الوزن.

قوله تعالى:« وَ لا تَبْخَسُوا النّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » البخس النقص فى الوزن و التقدير كما أن الإخسار النقص فى رأس المال.

و ظاهر السياق أن قوله:« وَ لا تَبْخَسُوا النّاسَ أَشْياءَهُمْ »أى سلعهم و أمتعتهم قيد متمم لقوله:« وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ »كما أن قوله:« وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ » قيد متمم لقوله:« أَوْفُوا الْكَيْلَ »و قوله:« وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ »تأكيد للنهيين جميعا أعنى قوله:« لا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ »و قوله:« لا تَبْخَسُوا »و بيان لتبعه التطفيف السيئه المشئومه.

و قوله:« وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » العثى و العيث الإفساد،فقوله:

« مُفْسِدِينَ »حال مؤكد و قد تقدم فى قصه شعيب من سوره هود و فى قوله: «وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلاً» :الآيه-۳۵ من سوره الإسراء كلام فى كيفيه

ص:۳۱۲

إفساد التطفيف المجتمع الإنسانی،فراجع.

قوله تعالی:« وَ اتَّقُوا الَّذِی خَلَقَکُمْ وَ الْجِبِلَّهَ الْأَوَّلِینَ »قال فی المجمع:، الجبله الخلیقه التی طبع علیها الشیء.انتهی.فالمراد بالجبله ذوو الجبله أی اتقوا الله الذی خلقکم و آباءکم الأولین الذین فطرهم و قرر فی جبلتهم تقبیح الفساد و الاعتراف بشؤمه.

و لعل هذا الذی أشرنا إلیه من المعنی هو الموجب لتخصیص الجبله بالذکر، و فی الآیه علی أی حال دعوه إلی توحید العباده فإنهم لم یکونوا یتقون الخالق الذی هو رب العالمین.

قوله تعالی:« قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِینَ »-إلی قوله: وَ إِنْ نَظُنُّکَ لَمِنَ الْکاذِبِینَ »تقدم تفسیر الصدر،و:« إِنْ فی قوله:« إِنْ نَظُنُّکَ »مخففه من الثقیله.

قوله تعالی:« فَأَسْقِطْ عَلَیْنا کِسَفاً مِنَ السَّماءِ »إلخ، الکسف بالکسر فالفتح -علی ما قیل-جمع کسفه و هی القطعه،و الأمر مبنی علی التعجیز و الاستهزاء.

قوله تعالی:« قالَ رَبِّی أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ »جواب شعیب عن قولهم و اقتراحهم منه إتیان العذاب،و هو کنایه عن أنه لیس له من الأمر شیء و إنما الأمر إلی الله لأنه أعلم بما یعملون و أن عملهم هل یستوجب عذابا؟و ما هو العذاب الذی یستوجبه إذا استوجب؟فهو کقول هود لقومه: «إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللّهِ وَ أُبَلِّغُکُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ» :الأحقاف:۲۳.

قوله تعالی:« فَکَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ یَوْمِ الظُّلَّهِ »إلخ،یوم الظله یوم عذب فیه قوم شعیب بظله من الغمام،و قد تقدم تفصیل قصتهم فی سوره هود.

قوله تعالی:« إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَهً -إلی قوله- اَلْعَزِیزُ الرَّحِیمُ »:تقدم تفسیره.

(بحث روائی)

فی جوامع الجامع،:فی قوله تعالی:« إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَیْبٌ »و

فی الحدیث أن شعیبا أخا مدین-أرسل إلیهم و إلی أصحاب الأیکه.

و فی تفسیر القمی،":فی قوله تعالی:« وَ اتَّقُوا الَّذِی خَلَقَکُمْ وَ الْجِبِلَّهَ الْأَوَّلِینَ »قال:

الخلق الأولين،و قوله:« فَكَذَّبُوهُ »قال:قوم شعيب« فَأَخَذَهُمْ عَذٰابُ يَوْمِ الظُّلَّهِ » قال:يوم حر و سمائم.

[سوره الشعراء (٢۶): الآيات ١٩٢ الى ٢٢٧]

اشاره

وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ اَلرُّوحُ اَلْأَمِينُ (١٩٣) عَلىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ اَلْمُنْذِرِينَ (١٩۴) بِلِسٰانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩۵) وَ إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ اَلْأَوَّلِينَ (١٩۶) أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمٰاءُ بَنِي إِسْرٰائِيلَ (١٩٧) وَ لَوْ نَزَّلْنٰاهُ عَلىٰ بَعْضِ اَلْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذٰلِكَ سَلَكْنٰاهُ فِي قُلُوبِ اَلْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لاٰ يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتّٰى يَرَوُا اَلْعَذٰابَ اَلْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣) أَ فَبِعَذٰابِنٰا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠۴) أَ فَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنٰاهُمْ سِنِينَ (٢٠۵) ثُمَّ جٰاءَهُمْ مٰا كٰانُوا يُوعَدُونَ (٢٠۶) مٰا أَغْنىٰ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَ مٰا أَهْلَكْنٰا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاّٰ لَهٰا مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرىٰ وَ مٰا كُنّٰا ظٰالِمِينَ (٢٠٩) وَ مٰا تَنَزَّلَتْ بِهِ اَلشَّيٰاطِينُ (٢١٠) وَ مٰا يَنْبَغِي لَهُمْ وَ مٰا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ اَلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) فَلاٰ تَدْعُ مَعَ اَللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ اَلْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ اَلْأَقْرَبِينَ (٢١۴) وَ اِخْفِضْ جَنٰاحَكَ لِمَنِ اِتَّبَعَكَ مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ (٢١۵) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمّٰا تَعْمَلُونَ (٢١۶) وَ تَوَكَّلْ عَلَى اَلْعَزِيزِ اَلرَّحِيمِ (٢١٧) اَلَّذِي يَرٰاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَ تَقَلُّبَكَ فِي اَلسّٰاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْعَلِيمُ (٢٢٠) هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلىٰ مَنْ تَنَزَّلُ اَلشَّيٰاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلىٰ كُلِّ أَفّٰاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ اَلسَّمْعَ وَ أَكْثَرُهُمْ كٰاذِبُونَ (٢٢٣) وَ اَلشُّعَرٰاءُ يَتَّبِعُهُمُ اَلْغٰاوُونَ (٢٢۴) أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وٰادٍ يَهِيمُونَ (٢٢۵) وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مٰا لاٰ يَفْعَلُونَ (٢٢۶) إِلاَّ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ وَ ذَكَرُوا اَللّٰهَ كَثِيراً وَ اِنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مٰا ظُلِمُوا وَ سَيَعْلَمُ اَلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)

(بیان)

تشیر الآیات إلی ما هو کالنتیجه المستخرجه من القصص السبع السابقه و یتضمن التوبیخ و التهدید لکفار الأمه.

و فیها دفاع عن نبوه النبی ص بالاحتجاج علیه بذکره فی زبر الأولین و علم علماء بنی إسرائیل به،و دفاع عن کتابه بالاحتجاج علی أنه لیس من إلقاءات الشیاطین و لا من أقاویل الشعراء.

قوله تعالی:« وَ إِنَّهُ لَتَنْزِیلُ رَبِّ الْعالَمِینَ »الضمیر للقرآن،و فیه رجوع إلی ما فی صدر السوره من قوله:« تِلْکَ آیاتُ الْکِتابِ الْمُبِینِ »و تعقیب لحدیث کفرهم به کما فی قوله بعد ذلک:« وَ ما یَأْتِیهِمْ مِنْ ذِکْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلاّ کانُوا عَنْهُ مُعْرِضِینَ، فَقَدْ کَذَّبُوا »الآیه.

ص: ۳۱۵

و التنزيل و الإنزال بمعنى واحد،غير أن الغالب على باب الإفعال الدفعه و على باب التفعيل التدريج،و أصل النزول فى الأجسام انتقال الجسم من مكان عال إلى ما هو دونه و فى غير الأجسام بما يناسبه.

و تنزيله تعالى إخراجه الشىء من عنده إلى موطن الخلق و التقدير و قد سمى نفسه بالعلى العظيم و الكبير المتعال و رفيع الدرجات و القاهر فوق عباده فيكون خروج الشىء بإيجاده من عنده إلى عالم الخلق و التقدير-و إن شئت فقل:إخراجه من عالم الغيب إلى عالم الشهاده-تنزيلا منه تعالى له.

و قد استعمل الإنزال و التنزيل فى كلامه تعالى فى أشياء بهذه العنايه كقوله تعالى:

«يا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِى سَوْآتِكُمْ» :الأعراف:۲۶،و قوله: «وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَهَ أَزْواجٍ» :الزمر:۶،و قوله: «وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ» :الحديد:۲۵،و قوله: «ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ لاَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ» :البقره:۱۰۵،و قد أطلق القول فى قوله: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلاّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» :الحجر:۲۱.

و من الآيات الداله على اعتبار هذا المعنى فى خصوص القرآن قوله تعالى: «إِنّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ» :الزخرف:۴.

و قد أضيف التنزيل إلى رب العالمين للدلاله على توحيد الرب تعالى لما تكرر مرارا أن المشركين إنما كانوا يعترفون به تعالى بما أنه رب الأرباب و لا يرون أنه رب العالمين.

قوله تعالى:« نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ »المراد بالروح الأمين هو جبرئيل ملك الوحى بدليل قوله: «مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ» :البقره:۹۷ و قد سماه فى موضع آخر بروح القدس:

«قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ» :النحل:۱۰۲،و قد تقدم فى تفسير سورتى النحل و الإسراء ما يتعلق بمعنى الروح من الكلام.

و قد وصف الروح بالأمين للدلاله على أنه مأمون فى رسالته منه تعالى إلى نبيه ص لا يغير شيئا من كلامه تعالى بتبديل أو تحريف بعمد أو سهو أو نسيان كما أن

توصیفه فی آیه أخری بالقدس یشیر إلی ذلک.

و قوله:« نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ »الباء للتعدیه أی نزله الروح الأمین و أما قول من قال:إن الباء للمصاحبه و المعنی نزل معه الروح فلا یلتفت إلیه لأن العنایه فی المقام بنزول القرآن لا بنزول الروح مع القرآن.

و الضمیر فی« نَزَلَ بِهِ »للقرآن بما أنه کلام مؤلف من ألفاظ لها معانیها الحقه فإن ألفاظ القرآن نازله من عنده تعالی کما أن معانیها نازله من عنده علی ما هو ظاهر قوله: «فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ» :القیامه:۱۸،و قوله: «تِلْکَ آیاتُ اللّهِ نَتْلُوها عَلَیْکَ بِالْحَقِّ» :آل عمران:۱۰۸،الجاثیه:۶،إلی غیر ذلک.

فلا یعبأ بقول من قال:إن الذی نزل به الروح الأمین إنما هو معانی القرآن الکریم ثم النبی ص کان یعبر عنها بما یطابقها و یحکیها من الألفاظ بلسان عربی.

و أسخف منه قول من قال:إن القرآن بلفظه و معناه من منشئات النبی ص ألقته مرتبه من نفسه الشریفه تسمی الروح الأمین إلی مرتبه منها تسمی القلب.

و المراد بالقلب المنسوب إلیه الإدراک و الشعور فی کلامه تعالی هو النفس الإنسانیه التی لها الإدراک و إلیها تنتهی أنواع الشعور و الإراده دون اللحم الصنوبری المعلق عن یسار الصدر الذی هو أحد الأعضاء الرئیسه کما یستفاد من مواضع فی کلامه تعالی، کقوله: «وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ» :الأحزاب:۱۰،أی الأرواح،و قوله: «فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ» :البقره:۲۸۳،أی نفسه إذ لا معنی لنسبه الإثم إلی العضو الخاص.

و لعل الوجه فی قوله:« نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِینُ عَلیٰ قَلْبِکَ »دون أن یقول:علیک هو الإشاره إلی کیفیه تلقیه(ص)القرآن النازل علیه،و أن الذی کان یتلقاه من الروح هو نفسه الشریفه من غیر مشارکه الحواس الظاهره التی هی الأدوات المستعمله فی إدراک الأمور الجزئیه.

فکان(ص)یری و یسمع حینما کان یوحی إلیه من غیر أن یستعمل حاستی البصر و السمع کما روی أنه کان یأخذه شبه إغماء یسمی برجاء الوحی.

فکان(ص)یری الشخص و یسمع الصوت مثل ما نری الشخص و نسمع الصوت غیر أنه ما کان یستخدم حاستی بصره و سمعه المادیتین فی ذلک کما نستخدمهما.

و لو كان رؤيته و سمعه بالبصر و السمع الماديين لكان ما يجده مشتركا بينه و بين غيره فكان سائر الناس يرون ما يراه و يسمعون ما يسمعه و النقل القطعى يكذب ذلك فكثيرا ما كان يأخذه برجاء الوحى و هو بين الناس فيوحى إليه و من حوله لا يشعرون بشىء و لا يشاهدون شخصا يكلمه و لا كلاما يلقى إليه.

و القول بأن من الجائز أن يصرف الله تعالى حواس غيره(ص)من الناس عن بعض ما كانت تناله حواسه و هى الأمور الغيبيه المستوره عنا.

هدم لبنيان التصديق العلمى إذ لو جاز مثل هذا الخطإ العظيم على الحواس و هى مفتاح العلوم الضروريه و التصديقات البديهيه و غيرها لم يبق وثوق على شىء من العلوم و التصديقات.

على أن هذا الكلام مبنى على أصاله الحس و أن لا وجود إلا لمحسوس و هو من أفحش الخطإ و قد تقدم فى تفسير سوره مريم كلام فى معنى تمثل الملك نافع فى المقام.

و ربما قيل فى وجه تخصيص القلب بالإنزال إنه لكونه هو المدرك المكلف دون الجسد و إن كان يتلقى الوحى بتوسيط الأدوات البدنيه من السمع و البصر،و قد عرفت ما فيه.

و ربما قيل:لما كان للنبى ص جهتان:جهه ملكيه يستفيض بها،و جهه بشريه يفيض بها،جعل الإنزال على روحه لأنها المتصفه بالصفات الملكيه التى يستفيض بها من الروح الأمين،و للإشاره إلى ذلك قيل.« عَلىٰ قَلْبِكَ »و لم يقل:عليك مع كونه أخصر.انتهى.

و هذا أيضا مبنى على مشاركه الحواس و القوى البدنيه فى تلقى الوحى فيرد عليه ما قدمناه.

و ذكر جمع من المفسرين أن المراد بالقلب هو العضو الخاص البدنى و أن الإدراك كيفما كان من خواصه.

فمنهم من قال:إن جعل القلب متعلق الإنزال مبنى على التوسع لأن الله تعالى يسمع القرآن جبرئيل بخلق الصوت فيحفظه و ينزل به على الرسول ص و يقرؤه عليه فيعيه و يحفظه بقلبه فكأنه نزل به على قلبه.

و منهم من قال:إن تخصيص القلب بالإنزال لأن المعانى الروحانيه تنزل أولا على الروح ثم تنتقل منها إلى القلب لما بينهما من التعلق ثم تنتقل منه إلى الدماغ فينتقش بها لوح المتخيله.

و منهم من قال:إن تخصيصه به للإشاره إلى كمال تعقله(ص)حيث لم يعتبر الوسائط من سمع و بصر و غيرهما.

و منهم من قال:إن ذلك للإشاره إلى صلاح قلبه (ص)و تقدسه حيث كان منزلا لكلامه تعالى ليعلم به صلاح سائر أجزائه و أعضائه فإن القلب رئيس سائر الأعضاء و ملكها و إذا صلح الملك صلحت رعيته.

و منهم من قال:إن ذلك لأن الله تعالى جعل لقلب رسوله ص سمعا و بصرا مخصوصين يسمع و يبصر بهما تمييزا لشأنه من غيره كما يشعر به قوله تعالى: «مٰا كَذَبَ الْفُؤٰادُ مٰا رَأىٰ» :النجم:١١.

و هذه الوجوه مضافا على اشتمال أكثرها على المجازفه مبنيه على قياس هذه الأمور الغيبيه على ما عندنا من الحوادث الماديه و إجراء حكمها فيها و قد بلغ من تعسف بعضهم أن قال:إن معنى إنزال الملك القرآن أن الله ألهمه كلامه و هو فى السماء و علمه قراءته ثم الملك أداه فى الأرض و هو يهبط فى المكان و فى ذلك طريقتان:إحداهما أن النبى ص انخلع من صوره البشريه إلى صوره الملكيه فأخذه من الملك،و ثانيتهما أن الملك انخلع إلى صوره البشريه حتى يأخذه النبى ص و الأولى أصعب الحالين.انتهى.

و ليت شعرى ما الذى تصوره من انخلاع الإنسان من صورته إلى صوره الملكيه و صيرورته ملكا ثم عوده إنسانا و من انخلاع الملك إلى صوره الإنسانيه و قد فرض لكل منهما هويه مغايره للآخر لا رابطه بين أحدهما و الآخر ذاتا و أثرا و فى كلامه مواضع أخرى للنظر غير خفيه على من تأمل فيه.

و للبحث تتمه لعل الله سبحانه يوفقنا لاستيفائها بإيراد كلام جامع فى الملك و آخر فى الوحى.

و قوله:« لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ »أى من الداعين إلى الله سبحانه بالتخويف من عذابه و هو المراد بالإنذار فى عرف القرآن دون النبى أو الرسول بالخصوص،قال

تعالى فى مؤمنى الجن: «وَ إِذْ صَرَفْنٰا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمّٰا حَضَرُوهُ قٰالُوا أَنْصِتُوا فَلَمّٰا قُضِيَ وَلَّوْا إِلىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ» :الأحقاف:۲۹،و قال فى المتفقهين من المؤمنين: «لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذٰا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ» :براءه:۱۲۲.

و إنما ذكر إنذاره(ص)غايه لإنزال القرآن دون نبوته أو رسالته لأن سياق آيات السوره سياق التخويف و التهديد.

و قوله« بِلِسٰانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ »أى ظاهر فى عربيته أو مبين للمقاصد تمام البيان و الجار و المجرور متعلق بنزل أى أنزله بلسان عربى مبين.

و جوز بعضهم أن يكون متعلقا بقوله:« اَلْمُنْذِرِينَ »و المعنى أنزله على قلبك لتدخل فى زمره الأنبياء من العرب و قد ذكر منهم فى القرآن هود و صالح و إسماعيل و شعيب(ع)و أول الوجهين أحسنهما.

قوله تعالى:« وَ إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ »الضمير للقرآن أو نزوله على النبى ص و الزبر جمع زبور و هو الكتاب و المعنى و إن خبر القرآن أو خبر نزوله عليك فى كتب الماضين من الأنبياء.

و قيل:الضمير لما فى القرآن من المعارف الكليه أى إن المعارف القرآنيه موجوده مذكوره فى كتب الأنبياء الماضين.

و فيه أولا:أن المشركين ما كانوا يؤمنون بالأنبياء و كتبهم حتى يحتج عليهم بما فيها من التوحيد و المعاد و غيرهما،و هذا بخلاف ذكر خبر القرآن و نزوله على النبى ص فى كتب الأولين فإنه حينئذ يكون ملحمه تضطر النفوس إلى قبولها.

و ثانيا:أنه لا يلائم الآيه التاليه.

قوله تعالى:« أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمٰاءُ بَنِي إِسْرٰائِيلَ »ضمير« أَنْ يَعْلَمَهُ » لخبر القرآن أو خبر نزوله على النبى ص أى أ و لم يكن علم علماء بنى إسرائيل بخبر القرآن أو نزوله عليك على سبيل البشاره فى كتب الأنبياء الماضين آيه للمشركين على صحه نبوتك و كانت اليهود تبشر بذلك و تستفتح على العرب به كما مر فى قوله تعالى:

«وَ كٰانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا» :البقره:۸۹.

و قد أسلم عده من علماء اليهود فى عهد النبى ص و اعترفوا بأنه مبشر به فى

كتبهم"و السوره من أوائل السور المكيه النازله قبل الهجره و لم تبلغ عداوه اليهود للنبى ص مبلغها بعد الهجره و كان من المرجو أن ينطقوا ببعض ما عندهم من الحق و لو بوجه كلى.

قوله تعالى:« وَ لَوْ نَزَّلْنٰاهُ عَلىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ » قال فى المفردات:، العجمه خلاف الإبانه و الإعجام الإبهام-إلى أن قال-و العجم خلاف العرب و العجمى منسوب إليهم،و الأعجم من فى لسانه عجمه عربيا كان أو غير عربى اعتبارا بقله فهمهم عن العجم،و منه قيل للبهيمه عجماء و الأعجمى منسوب إليه قوله تعالى:« وَ لَوْ نَزَّلْنٰاهُ عَلىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ »على حذف الياءات انتهى.

و مقتضى ما ذكره-كما ترى-أن أصل الأعجمين الأعجميين ثم حذفت ياء النسبه و به صرح بعض آخر،و ذكر بعضهم أن الوجه أن أعجم مؤنثه عجماء و أفعل فعلاء لا يجمع جمع السلامه لكن الكوفيين من النحاه يجوزون ذلك و ظاهر اللفظ يؤيد قولهم فلا موجب للقول بالحذف.

و كيف كان فظاهر السياق اتصال الآيتين بقوله:« بِلِسٰانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » فتكونان فى مقام التعليل له و يكون المعنى:نزلناه عليك بلسان عربى ظاهر العربيه واضح الدلاله ليؤمنوا به و لا يتعللوا بعدم فهمهم مقاصده و لو نزلناه على بعض الأعجمين بلسان أعجمى ما كانوا به مؤمنين و ردوه بعدم فهم مقاصده.

فيكون المراد بنزوله على بعض الأعجمين نزوله أعجميا و بلسانه،و الآيتان و التى بعدهما فى معنى قوله تعالى: «وَ لَوْ جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقٰالُوا لَوْ لاٰ فُصِّلَتْ آيٰاتُهُ ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفٰاءٌ وَ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ فِي آذٰانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى» :حم السجده:۴۴.

و قال بعضهم:إن المعنى و لو نزلناه قرآنا عربيا كما هو بنظمه الرائق المعجز على بعض الأعجمين الذين لا يقدرون على التكلم بالعربيه فقرأه عليهم قراءه صحيحه خارقه للعادات ما كانوا به مؤمنين مع انضمام إعجاز القراءه إلى إعجاز المقروء لفرط عنادهم و شده شكيمتهم فى المكابره.

قال:و أما قول بعضهم:إن المعنى و لو نزلناه على بعض الأعجمين بلغه العجم فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين فليس بذاك فإنه بمعزل من المناسبه لمقام بيان تماديهم فى المكابره و العناد.انتهى ملخصا.

و فيه أن اتصال الآيتين بقوله:« بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ »أقرب إليهما من اتصالهما بسياق تمادى الكفار فى كفرهم و جحودهم و قد عرفت توضيحه.

و يمكن أن يورد على الوجه السابق أن الضمير فى قوله:« وَ لَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ »راجع إلى هذا القرآن الذى هو عربى فلو كان المراد تنزيله بلسان أعجمى لكان المعنى و لو نزلنا العربى غير عربى و لا محصل له.

و يرده أنه من قبيل قوله تعالى: «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» :الزخرف:٣،و لا معنى لقولنا:إنا جعلنا العربى عربيا فالمراد بالقرآن على أى حال الكتاب المقروء.

قوله تعالى:« كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ »الإشاره بقوله:« كَذَٰلِكَ » إلى الحال التى عليها القرآن عند المشركين و قد ذكرت فى الآيات السابقه و هى أنهم معرضون عنه لا يؤمنون به و إن كان تنزيلا من رب العالمين و كان عربيا مبينا غير أعجمى و كان مذكورا فى زبر الأولين يعلمه علماء بنى إسرائيل.

و السلوك الإدخال فى الطريق و الإمرار،و المراد بالمجرمين هم الكفار و المشركون و ذكرهم بوصف الاجرام للإشاره إلى عله الحكم و هو سلوكه فى قلوبهم على هذه الحال المبغوضه و المنفوره و أن ذلك مجازاه إلهيه جازاهم بها عن إجرامهم و ليعم الحكم بعموم العله.

و المعنى على هذه الحال-و هى أن يكون بحيث يعرض عنه و لا يؤمن به-ندخل القرآن فى قلوب هؤلاء المشركين و نمره فى نفوسهم جزاء لإجرامهم و كذلك كل مجرم.

و قيل:الإشاره إلى ما ذكر من أوصاف القرآن الكريمه و المعنى:ندخل القرآن و نمره فى قلوب المجرمين بمثل ما بينا له الأوصاف فيرون أنه كتاب سماوى ذو نظم معجز خارج عن طوق البشر و أنه مبشر به فى زبر الأولين يعلمه علماء بنى إسرائيل و تتم الحجه به عليهم و هو بعيد من السياق.

و قيل:الضمير فى« سَلَكْنٰاهُ »للتكذيب بالقرآن و الكفر به المدلول عليه بقوله:

« مٰا كٰانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ »هذا و هو قريب من الوجه الأول لكن الوجه الأول ألطف و أدق،و قد ذكره فى الكشاف،

و قد تبين بما تقدم أن المراد بالمجرمين مشركو مكه غير أن عموم وصف الاجرام يعمم الحكم،و قال بعضهم:إن المراد بالمجرمين غير مشركى مكه من معاصريهم و من يأتى بعدهم،و المعنى:كما سلكناه فى قلوب مشركى مكه نسلكه فى قلوب غيرهم من المجرمين.

و لعل الذى دعاه إلى اختيار هذا الوجه إشكال اتحاد المشبه و المشبه به على الوجه الأول مع لزوم المغايره بينهما فاعتبر المشار إليه بقوله:« كَذٰلِكَ »السلوك فى قلوب مشركى مكه و هو المشبه به و جعل المشبه غيرهم من المجرمين و فيه أن تشبيه الكلى ببعض أفراده للدلاله على سرايه حكمه فى جميع الأفراد طريقه شائعه.

و من هنا يظهر أن هناك وجها آخر و هو أن يكون المراد بالمجرمين ما يعم مشركى مكه و غيرهم بجعل اللام فيه لغير العهد و لعل الوجه الأول أقرب من السياق.

قوله تعالى:« لاٰ يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتّٰى يَرَوُا الْعَذٰابَ الْأَلِيمَ -إلى قوله- مُنْظَرُونَ » تفسير و بيان لقوله:« كَذٰلِكَ سَلَكْنٰاهُ »إلخ هذا على الوجه الأول و الثالث من الوجوه المذكوره فى الآيه السابقه و أما على الوجه الثانى فهو استئناف غير مرتبط بما قبله.

و قوله:« حَتّٰى يَرَوُا الْعَذٰابَ الْأَلِيمَ »أى حتى يشاهدوا العذاب الأليم فيلجئهم إلى الإيمان الاضطرارى الذى لا ينفعهم،و الظاهر أن المراد بالعذاب الأليم ما يشاهدونه عند الموت و احتمل بعضهم أن يكون المراد به ما أصابهم يوم بدر من القتل،لكن عموم الحكم فى الآيه السابقه لمشركى مكه و غيرهم لا يلائم ذلك.

و قوله:« فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ »كالتفسير لقوله:« حَتّٰى يَرَوُا الْعَذٰابَ الْأَلِيمَ »إذ لو لم يأتهم بغته و علموا به قبل موعده لاستعدوا له و آمنوا باختيار منهم غير ملجئين إليه.

و قوله:« فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ »كلمه تحسر منهم.

قوله تعالى:« أَ فَبِعَذٰابِنٰا يَسْتَعْجِلُونَ »توبيخ و تهديد.

قوله تعالى:« أَ فَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنٰاهُمْ سِنِينَ -إلى قوله- يُمَتَّعُونَ »متصل بقوله:

« فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ »و محصل المعنى أن تمنى الإمهال و الإنظار تمنى أمر لا ينفعهم لو وقع على ما يتمنونه و لم يغن عنهم شيئا لو أجيبوا إلى ما سألوه فإن تمتيعهم أمدا محدودا طال أو قصر لا يرفع العذاب الخالد الذى قضى فى حقهم.

و هو قوله:« أَ فَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنٰاهُمْ سِنِينَ »معدوده ستنقضى:« ثُمَّ جٰاءَهُمْ مٰا كٰانُوا يُوعَدُونَ »من العذاب بعد انقضاء سنى الإنظار و الإمهال « مٰا أَغْنىٰ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يُمَتَّعُونَ »أى تمتيعهم أمدا محدودا.

قوله تعالى:« وَ مٰا أَهْلَكْنٰا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاّٰ لَهٰا مُنْذِرُونَ ذِكْرىٰ »إلخ،الأقرب أن يكون قوله:« لَهٰا مُنْذِرُونَ »حالا من« قَرْيَةٍ »و قوله:« ذِكْرىٰ »حالا من ضمير الجمع فى« مُنْذِرُونَ »أو مفعولا مطلقا عامله« مُنْذِرُونَ »لكونه فى معنى مذكرون و المعنى ظاهر،و قيل غير ذلك مما لا جدوى فى ذكره و إطاله البحث عنه.

و قوله:« وَ مٰا كُنّٰا ظٰالِمِينَ »ورود النفى على الكون دون أن يقال:و ما ظلمناهم و نحو ذلك يفيد نفى الشأنيه أى و ما كان من شأننا و لا المترقب منا أن نظلمهم.

و الجمله فى مقام التعليل للحصر السابق و المعنى:ما أهلكنا من قريه إلا فى حال لها منذرون مذكرون تتم بهم الحجه عليهم لأنا لو أهلكناهم فى غير هذه الحال لكنا ظالمين لهم و ليس من شأننا أن نظلم أحدا فالآيه فى معنى قوله تعالى: «وَ مٰا كُنّٰا مُعَذِّبِينَ حَتّٰى نَبْعَثَ رَسُولاً» :إسراء:١۵.

كلام فى معنى نفى الظلم عنه تعالى

من لوازم معنى الظلم المتساويه له فعل الفاعل و تصرفه ما لا يملكه من الفعل و التصرف،و يقابله العدل و لازمه أنه فعل الفاعل و تصرفه ما يملكه.

و من هنا يظهر أن أفعال الفواعل التكوينيه من حيث هى مملوكه لها تكوينا لا يتحقق فيها معنى الظلم لأن فرض صدور الفعل عن فاعله تكوينا مساوق لكونه مملوكا له بمعنى قيام وجوده به قياما لا يستقل دونه.

و لله سبحانه ملک مطلق منبسط على الأشياء من جميع جهات وجودها لقيامها به تعالى من غير غنى عنه و استقلال دونه فأى تصرف تصرف به فيها مما يسرها أو يسوؤها أو ينفعها أو يضرها ليس من الظلم فى شىء و إن شئت فقل:عدل بمعنى ما ليس بظلم فله أن يفعل ما يشاء و له أن يحكم ما يريد كل ذلک بحسب التكوين.

فله تعالى ملک مطلق بذاته،و لغيره من الفواعل التكوينيه ملک تكوينى بالنسبه إلى فعله حسب الإعطاء و الموهبه الإلهيه و هو ملک فى طول ملكه تعالى و هو المالک لما ملكها و المهيمن على ما عليه سلطها.

و من جمله هذه الفواعل النوع الإنسانى بالنسبه إلى أفعاله و خاصه ما نسميها بالأفعال الاختياريه و الاختيار الذى يتعين به هذه الأفعال،فالواحد منا يجد من نفسه عيانا أنه يملک الاختيار بمعنى إمكان الفعل و الترک معا،فإن شاء فعل و إن لم يشأ ترک فهو يرى نفسه حرا يملک الفعل و الترک،أى فعل و ترک كانا،بمعنى إمكان صدور كل منهما عنه.

ثم إن اضطرار الإنسان إلى الحياه الاجتماعيه المدنيه اضطر العقل أن يغمض عن بعض ما للإنسان من حريه العمل و يرفع اليد عن بعض الأفعال التى كان يرى أنه يملكها و هى التى يختل بإتيانها أمر المجتمع فيختل نظم حياته نفسه و هذه هى المحرمات و المعاصى التى تنهى عنها القوانين المدنيه أو السنن القوميه أو الأحكام الملوكيه الدائره فى المجتمعات.

و من الضرورى لتحكيم هذه القوانين و السنن أن يجعل نوع من الجزاء السيئ على المتخلف عنها-بشرط العلم و تمام الحجه لأنه شرط تحقق التكليف-من ذم أو عقاب،و نوع من الأجر الجميل للمطيع الذى يحترمها من مدح أو ثواب.

و من الضرورى أن ينتصب على المجتمع و القوانين الجاريه فيها من يجريها على ما هى عليه و هو مسئول عما نصب له و خاصه بالنسبه إلى أحكام الجزاء،فلو لم يكن مسئولا و جاز له أن يجازى و أن لا يجازى و يأخذ المحسن و يترک المسىء لغا وضع القوانين و السنن من رأس.هذه أصول عقلائيه جاريه فى الجمله فى المجتمعات الإنسانيه منذ استقر هذا النوع على الأرض منبعثه عن فطرتهم الإنسانيه.

و قد دلت البراهين العقليه و أيدها تواتر الأنبياء و الرسل من قبله تعالى على أن القوانين الاجتماعيه و سنن الحياه يجب أن تكون من عنده تعالى و هى أحكام و وظائف إنسانيه تهدى إليها الفطره الإنسانيه و تضمن سعاده حياته و تحفظ مصالح مجتمعه.

و هذه الشريعه السماويه الفطريه واضعها هو الله سبحانه و مجريها من حيث الثواب و العقاب-و موطنهما موطن الرجوع إليه تعالى-هو الله سبحانه.

و مقتضى تشريعه تعالى هذه الشرائع السماويه و اعتباره نفسه مجريا لها أنه أوجب على نفسه إيجابا تشريعيا-و ليس بالتكوينى-أن لا يناقض نفسه و لا يتخلف بإهمال أو إلغاء جزاء يستوجبه خلاف أو إعمال جزاء لا يستحقه عمل كتعذيب الغافل الجاهل بعذاب المتعمد المعاند،و أخذ المظلوم بإثم الظالم و إلا كان ظلما منه،تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

و لعل هذا معنى ما يقال:إن الظلم مقدور له تعالى لكنه ليس بواقع البته لأنه نقص كمال يتنزه تعالى عنه ففرض الظلم منه تعالى من فرض المحال و ليس بفرض محال، و هو المستفاد من ظاهر قوله تعالى: «وَ مٰا كُنّٰا ظٰالِمِينَ» ،و قوله:

:الآيه ۲۰۹ من السوره «إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَظْلِمُ النّٰاسَ شَيْئاً» :يونس:۴۴،و قوله: «وَ مٰا رَبُّكَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ» :فصلت:۴۶،و قوله: «لِئَلاّٰ يَكُونَ لِلنّٰاسِ عَلَى اللّٰهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ» :النساء:۱۶۵، فظاهرها أنها ليست من قبيل السالبه بانتفاء الموضوع كما يومئ إليه تفسير من فسرها بأن المعنى أن الله لا يفعل فعلا لو فعله غيره لكان ظالما.

فإن قلت:ما ذكر من وجوب إجراء الجزاء ثوابا أو عقابا يخالف ما هو المسلم عندهم أن ترك عقاب العاصى جائز لأنه من حق المعاقب و من الجائز على صاحب الحق تركه و عدم المطالبه به بخلاف ثواب المطيع لأنه من حق الغير و هو المطيع فلا يجوز تركه و إبطاله.

على أنه قيل:إن الإثابه على الطاعات من الفضل دون الاستحقاق لأن العبد و عمله لمولاه فلا يملك شيئا حتى يعاوضه بشىء.

قلت:ترك عقاب العاصى فى الجمله مما لا كلام فيه لأنه من الفضل و أما بالجمله فلا لاستلزامه لغويه التشريع و التقنين و ترتيب الجزاء على العمل.

و أما کون ثواب الأعمال من الفضل بالنظر إلی کون عمل العبد کنفسه لله فلا ینافی فضلا آخر منه تعالی علی عبده باعتبار عمله ملکا له،ثم جعل ما یثیبه علیه أجرا لعمله،و القرآن ملیء بحدیث الأجر علی الأعمال الصالحه،و قد قال تعالی: «إِنَّ اللّٰهَ اشْتَریٰ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوٰالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّهَ» :براءه:۱۱۱.

[بيان]

قوله تعالی:« وَ مٰا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّیٰاطِینُ -إلی قوله- لَمَعْزُولُونَ »شروع فی الجواب عن قول المشرکین:إن لمحمد جنا یأتیه بهذا الکلام،و قولهم:إنه شاعر، و قدم الجواب عن الأول و قد وجه الکلام أولا إلی النبی ص فبین له أن القرآن لیس من تنزیل الشیاطین و طیب بذلک نفسه ثم وجه القول إلی القوم فبینه لهم بما فی وسعهم أن یفقهوه.

فقوله:« وَ مٰا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّیٰاطِینُ »أی ما نزلته و الآیه متصله بقوله:« وَ إِنَّهُ لَتَنْزِیلُ رَبِّ الْعٰالَمِینَ »و وجه الکلام کما سمعت إلی النبی ص بدلیل قوله تلوا:« فَلاٰ تَدْعُ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ »إلی آخر الخطابات المختصه به(ص)المتفرعه علی قوله:« وَ مٰا تَنَزَّلَتْ بِهِ »إلخ،علی ما سیجیء بیانه.

و إنما وجه الکلام إلی النبی ص دون القوم لأنه معلل بما لا یقبلونه بکفرهم أعنی قوله:« إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ »و الشیطان الشریر و جمعه الشیاطین و المراد بهم أشرار الجن.

و قوله:« وَ مٰا یَنْبَغِی لَهُمْ »أی للشیاطین.قال فی مجمع البیان:،و معنی قول العرب:ینبغی لک أن تفعل کذا أنه یطلب منک فعله فی مقتضی العقل من البغیه التی هی الطلب.انتهی.

و الوجه فی أنه لا ینبغی لهم أن یتنزلوا به أنهم خلق شریر لا هم لهم إلا الشر و الفساد و الأخذ بالباطل و تصویره فی صوره الحق لیضلوا به عن سبیل الله،و القرآن کلام حق لا سبیل للباطل إلیه فلا یناسب جبلتهم الشیطانیه أن یلقوه إلی أحد.

و قوله:« وَ مٰا یَسْتَطِیعُونَ »أی و ما یقدرون علی التنزل به لأنه کلام سماوی تتلقاه الملائکه من رب العزه فینزلونه بأمره فی حفظ و حراسه منه تعالی کما قال:

«فَإِنَّهُ یَسْلُکُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِیَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسٰالاٰتِ رَبِّهِمْ وَ أَحٰاطَ

بِما لَدَيْهِمْ» :الجن:۲۸،و إلى ذلك يشير قوله:« إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ »إلخ.

و قوله:« إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ »أي إن الشياطين عن سمع الأخبار السماويه و الاطلاع على ما يجرى فى الملإ الأعلى معزولون حيث يقذفون بالشهب الثاقبه لو تسمعوا كما ذكره الله فى مواضع من كلامه.

قوله تعالى:« فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ »خطاب للنبى ص ينهاه عن الشرك بالله متفرع على قوله:« وَ ما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ »إلخ،أي إذا كان هذا القرآن تنزيلا من رب العالمين و لم تنزل به الشياطين و هو ينهى عن الشرك و يوعد عليه العذاب فلا تشرك بالله فينالك العذاب الموعود عليه و تدخل فى زمره المعذبين.

و كونه(ص)معصوما بعصمه إلهيه يستحيل معها صدور المعصيه منه لا ينافى نهيه عن الشرك فإن العصمه لا توجب بطلان تعلق الأمر و النهى بالمعصوم و ارتفاع التكليف عنه بما أنه بشر مختار فى الفعل و الترك متصور فى حقه الطاعه و المعصيه بالنظر إلى نفسه،و قد تكاثرت الآيات فى تكليف الأنبياء(ع)فى القرآن الكريم كقوله فى الأنبياء(ع): «وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» :الأنعام:۸۸، و قوله فى النبى ص: «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ» :الزمر:۶۵،و الآيتان فى معنى النهى.

و قول بعضهم:إن التكليف للتكميل فيرتفع عند حصول الكمال و تحققه لاستحاله تحصيل الحاصل خطأ فإن الأعمال الصالحه التى يتعلق بها التكاليف من آثار الكمال المطلوب و الكمال النفسانى كما يجب أن يكتسب بالإتيان بآثاره و مزاوله الأعمال التى تناسبه و الارتياض بها كذلك يجب أن يستبقى بذلك فما دام الإنسان بشرا له تعلق بالحياه الأرضيه لا مناص له عن تحمل أعباء التكليف،و قد تقدم كلام فى هذا المعنى فى بعض الأبحاث.

قوله تعالى:« وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ »فى مجمع البيان:،عشيره الرجل قرابته سموا بذلك لأنه يعاشرهم و هم يعاشرونه انتهى.و خص عشيرته و قرابته الأقربين بالذكر بعد نهى نفسه عن الشرك و إنذاره تنبيها على أنه لا استثناء فى الدعوه الدينيه

و لا ـ مداهنه و لا ـ مساهله كما هو معهود فى السنن الملوكيه فلا ـ فرق فى تعلق الإنذار بين النبى و أمته و لا ـ بين الأقارب و الأجانب،فالجميع عبيد و الله مولاهم.

قوله تعالى:« وَ اخْفِضْ جَنٰاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أى اشتغل بالمؤمنين بك و اجمعهم و ضمهم إليك بالرأفه و الرحمه كما يجمع الطير أفراخه إليه بخفض جناحه لها،و هذا من الاستعاره بالكنايه تقدم نظيره فى قوله: «وَ اخْفِضْ جَنٰاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ» :الحجر:۸۸.

و المراد بالاتباع الطاعه بقرينه قوله فى الآيه التاليه: فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمّٰا تَعْمَلُونَ » فملخص معنى الآيتين:إن آمنوا بك و اتبعوك فاجمعهم إليك بالرأفه و اشتغل بهم بالتربيه و إن عصوك فتبرأ من عملهم.

قوله تعالى:« وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ »أى ليس لك من أمر طاعتهم و معصيتهم شىء وراء ما كلفناك فكل ما وراء ذلك إلى الله سبحانه فإنه لعزته سيعذب العاصين و برحمته سينجى المؤمنين المتبعين.

و فى اختصاص اسمى العزيز و الرحيم إلفات للذهن إلى ما تقدم من القصص ختمت واحده بعد واحده بالاسمين الكريمين.

فهو فى معنى أن يقال:توكل فى أمر المتبعين و العاصين جميعا إلى الله فهو العزيز الرحيم الذى فعل بقوم نوح و هود و صالح و إبراهيم و لوط و شعيب و قوم فرعون ما فعل مما قصصناه فسنته أخذ العاصين و إنجاء المؤمنين.

قوله تعالى:« اَلَّذِي يَرٰاكَ حِينَ تَقُومُ وَ تَقَلُّبَكَ فِي السّٰاجِدِينَ »ظاهر الآيتين-على ما يسبق إلى الذهن-أن المراد بالساجدين الساجدون فى الصلاه من المؤمنين و فيهم رسول الله ص فى صلاته بهم جماعه،و المراد بقرينه المقابله القيام فى الصلاه فيكون المعنى:الذى يراك و أنت بعينه فى حالتى قيامك و سجودك متقلبا فى الساجدين و أنت تصلى مع المؤمنين.

و فى معنى الآيه روايات من طرق الشيعه و أهل السنه سنتعرض لها فى البحث الروائى الآتى إن شاء الله.

قوله تعالى:« إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »تعليل لقوله:« وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ »

و فی الآیات-علی ما تقدم من معناها-تسلیه للنبی ص و بشری للمؤمنین بالنجاه و إیعاد للکفار بالعذاب.

قوله تعالی:« هَلْ أُنَبِّئُکُمْ عَلیٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّیٰاطِینُ -إلی قوله- کٰاذِبُونَ »، تعریف لمن تتنزل علیه الشیاطین بما یخصه من الصفه لیعلم أن النبی ص لیس منهم و لا أن القرآن من إلقاء الشیاطین،و الخطاب متوجه إلی المشرکین.

فقوله:« هَلْ أُنَبِّئُکُمْ عَلیٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّیٰاطِینُ »فی معنی هل أعرفکم الذین تتنزل علیهم شیاطین الجن بالأخبار؟ و قوله:« تَنَزَّلُ عَلیٰ کُلِّ أَفّٰاکٍ أَثِیمٍ »قال فی مجمع البیان:،الأفاک الکذاب و أصل الإفک القلب و الأفاک الکثیر القلب للخبر عن جهه الصدق إلی جهه الکذب،و الأثیم الفاعل للقبیح یقال: أثم یأثم إثما إذا ارتکب القبیح و تأثم إذا ترک الإثم انتهی.

و ذلک أن الشیاطین لا شأن لهم إلا إظهار الباطل فی صوره الحق و تزیین القبیح فی زی الحسن فلا یتنزلون إلا علی أفاک أثیم.

و قوله:« یُلْقُونَ السَّمْعَ وَ أَکْثَرُهُمْ کٰاذِبُونَ »الظاهر أن ضمیری الجمع فی« یُلْقُونَ » و« أَکْثَرُهُمْ »معا للشیاطین،و السمع مصدر بمعنی المسموع و المراد به ما سمعه الشیاطین من أخبار السماء و لو ناقصا فإنهم ممنوعون من الاستماع مرمیون بالشهب فما استرقوه لا یکون إلا ناقصا غیر تام و لا کامل و لذا یتسرب إلیه الکذب کثیرا.

و قوله:« وَ أَکْثَرُهُمْ کٰاذِبُونَ »أی أکثر الشیاطین کاذبون لا یخبرون بصدق أصلا و هذا هو الکثره بحسب الأفراد و یمکن أن یکون المراد الکثره من حیث التنزل أی أکثر المتنزلین منهم کاذبون أی أکثر أخبارهم کاذبه.

و محصل حجه الآیات الثلاث أن الشیاطین لابتناء جبلتهم علی الشر لا یتنزلون إلا علی کل کذاب فاجر و أکثرهم کاذبون فی أخبارهم،و النبی ص لیس بأفاک أثیم و لا ما یوحی إلیه من الکلام کذبا مختلقا فلیس ممن تتنزل علیه الشیاطین و لا الذی یتنزل علیه شیطانا،و لا القرآن النازل علیه من إلقاء الشیاطین.

قوله تعالی:« وَ الشُّعَرٰاءُ یَتَّبِعُهُمُ الْغٰاوُونَ »-إلی قوله- لاٰ یَفْعَلُونَ »جواب عن رمی المشرکین للنبی ص بأنه شاعر،نبه علیه بعد الجواب عن قولهم إن له شیطانا یوحی إلیه القرآن.

و هذان أعنى قولهم إن من الجن من يأتيه،و قولهم إنه شاعر،مما كانوا يكررونه فى ألسنتهم بمكه قبل الهجره يدفعون به الدعوه الحقه،و هذا مما يؤيد نزول هذه الآيات بمكه خلافا لما قيل إنها نزلت بالمدينه.

على أن الآيات مشتمله على ختام السوره أعنى قوله:« وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ »و لا معنى لبقاء سوره هى من أقدم السور المكيه سنين على نعت النقص ثم تمامها بالمدينه،و لا دلاله فى الاستثناء على أن المستثنين هم شعراء المؤمنين بعد الهجره.

و كيف كان فالغى خلاف الرشد الذى هو إصابه الواقع فالرشيد هو الذى لا يهتم إلا بما هو حق واقع و الغوى هو السالك سبيل الباطل و المخطئ طريق الحق،و الغوايه مما يختص به صناعه الشعر المبنيه على التخييل و تصوير غير الواقع فى صوره الواقع و لذلك لا يهتم به إلا الغوى المشعوف بالتزيينات الخياليه و التصويرات الوهميه الملهيه عن الحق الصارفه عن الرشد،و لا يتبع الشعراء الذين يبتنى صناعتهم على الغى و الغوايه إلا الغاوون و ذلك قوله تعالى:« وَ الشُّعَرٰاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغٰاوُونَ ».

و قوله:« أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وٰادٍ يَهِيمُونَ وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مٰا لاٰ يَفْعَلُونَ »يقال:

هام يهيم هيمانا إذا ذهب على وجهه و المراد بهيمانهم فى كل واد استرسالهم فى القول من غير أن يقفوا على حد فربما مدحوا الباطل المذموم كما يمدح الحق المحمود و ربما هجوا الجميل كما يهجى القبيح الدميم و ربما دعوا إلى الباطل و صرفوا عن الحق و فى ذلك انحراف عن سبيل الفطره الإنسانيه المبنيه على الرشد الداعيه إلى الحق،و كذا قولهم ما لا يفعلون من العدول عن صراط الفطره.

و ملخص حجه الآيات الثلاث أنه(ص)ليس بشاعر لأن الشعراء يتبعهم الغاوون لابتناء صناعتهم على الغوايه و خلاف الرشد لكن الذين يتبعونه إنما يتبعونه ابتغاء للرشد و إصابه الواقع و طلبا للحق لابتناء ما عنده من الكلام المشتمل على الدعوه على الحق و الرشد دون الباطل و الغى.

قوله تعالى:« إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ وَ ذَكَرُوا اللّٰهَ كَثِيراً »إلخ، استثناء من الشعراء المذمومين،و المستثنون هم شعراء المؤمنين فإن الإيمان و صالحات الأعمال تردع الإنسان بالطبع عن ترك الحق و اتباع الباطل ثم الذكر الكثير لله سبحانه

يجعل الإنسان على ذكر منه تعالى مقبلا إلى الحق الذى يرتضيه مدبرا عن الباطل الذى لا يحب الاشتغال به فلا يعرض لهؤلاء ما كان يعرض لأولئک.

و بهذا البيان يظهر وجه تقييد المستثنى بالإيمان و عمل الصالحات ثم عطف قوله:

« وَ ذَكَرُوا اللّٰهَ كَثِيراً »على ذلک.

و قوله:« وَ انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مٰا ظُلِمُوا » الانتصار الانتقام،قيل:المراد به رد الشعراء من المؤمنين على المشركين أشعارهم التى هجوا بها النبى ص أو طعنوا فيها فى الدين و قدحوا فى الإسلام و المسلمين،و هو حسن يؤيده المقام.

و قوله:« وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » المنقلب اسم مكان أو مصدر ميمى،و المعنى: وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا -و هم المشركون على ما يعطيه السياق- إلى أى مرجع و منصرف يرجعون و ينصرفون و هو النار أو ينقلبون أى انقلاب.

و فيه تهديد للمشركين و رجوع مختتم السوره إلى مفتتحها و قد وقع فى أولها قوله:

« فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبٰؤُا مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ».

(بحث روائى)

فى الكافى،بإسناده عن الحجال عمن ذكره عن أحدهما(ع)قال: سألته عن قول الله عز و جل:« بِلِسٰانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ »قال:يبين الألسن و لا تبينه الألسن.

و فى تفسير القمى،:فى قوله تعالى:« وَ لَوْ نَزَّلْنٰاهُ عَلىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ »إلخ،

قال الصادق(ع): لو نزلنا القرآن على العجم ما آمنت به العرب-و قد نزل على العرب فآمنت به العجم-فهذه فضيله العجم.

و فى الكافى،بإسناده عن على بن عيسى القماط عن عمه عن أبى عبد الله(ع) قال: أرى رسول الله ص فى منامه بنى أميه- يصعدون على منبره من بعده-و يضلون الناس عن الصراط القهقرى-فأصبح كئيبا حزينا.

قال:فهبط جبرئيل فقال:يا رسول الله ما لى أراک كئيبا حزينا؟قال:

ص:٣٣٢

يا جبرئيل إنى رأيت بنى أميه فى ليلتى هذه-يصعدون منبرى من بعدى-يضلون الناس عن الصراط القهقرى،فقال:و الذى بعثك بالحق نبيا إنى ما اطلعت عليه-فعرج إلى السماء-فلم يلبث أن نزل عليه بآى من القرآن يؤنسه بها.قال:« أَ فَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنٰاهُمْ سِنِينَ- ثُمَّ جٰاءَهُمْ مٰا كٰانُوا يُوعَدُونَ- مٰا أَغْنىٰ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يُمَتَّعُونَ »و أنزل عليه:« إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ فِى لَيْلَهِ الْقَدْرِ- وَ مٰا أَدْرٰاكَ مٰا لَيْلَهُ الْقَدْرِ- لَيْلَهُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ »جعل الله ليله القدر لنبيه(ص)-خيرا من ألف شهر ملك بنى أميه.

و فى الدر المنثور،أخرج ابن أبى حاتم عن أبى جهضم قال: رئى النبى ص كأنه متحير فسألوه عن ذلك فقال:و لم و رأيت عدوى يلون أمر أمتى من بعدى- فنزلت« أَ فَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنٰاهُمْ سِنِينَ- ثُمَّ جٰاءَهُمْ مٰا كٰانُوا يُوعَدُونَ- مٰا أَغْنىٰ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يُمَتَّعُونَ »فطابت نفسه.

أقول:و قوله:و لم و رأيت إلخ،فيه حذف و التقدير و لم لا أكون كذلك و قد رأيت«إلخ».

و فيه،أخرج أحمد و عبد بن حميد و البخارى و مسلم و الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى فى شعب الإيمان و فى الدلائل عن أبى هريره قال: لما نزلت هذه الآيه:« وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ »دعا رسول الله ص قريشا و عم و خص فقال:يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار-فإنى لا أملك لكم ضرا و لا نفعا. يا معشر بنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار-فإنى لا أملك لكم ضرا و لا نفعا.يا معشر بنى قصى أنقذوا أنفسكم من النار-فإنى لا أملك لكم ضرا و لا نفعا.يا معشر بنى عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار-فإنى لا أملك لكم ضرا و لا نفعا.يا بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار-فإنى لا أملك لكم ضرا و لا نفعا.

يا فاطمه بنت محمد أنقذى نفسك من النار-فإنى لا أملك لك ضرا و لا نفعا.ألا إن لكم رحما و سأبلها ببلالها.

و فيه،أخرج عبد بن حميد و ابن مردويه عن ابن عباس قال":لما نزلت« وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ »جعل يدعوهم قبائل قبائل.

و فيه،أخرج سعيد بن منصور و البخارى و ابن مردويه و ابن جرير و ابن المنذر

و ابن أبی حاتم عن ابن عباس قال: لما نزلت« وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ و رهطك منهم المخلصین»خرج النبی ص حتی صعد علی الصفا فنادی یا صباحاه-فقالوا:من هذا الذی یهتف؟قالوا:محمد،فاجتمعوا إلیه-فجعل الرجل إذا لم یستطع أن یخرج أرسل رسولا لینظر ما هو؟ فجاء أبو لهب و قریش فقال(ص):أ رأیتکم لو أخبرتکم أن خیلا بالوادی-ترید أن تغیر علیکم أ کنتم مصدقی؟قالوا:نعم ما جربنا علیک إلا صدقا.قال:فإنی نذیر لکم بین یدی عذاب شدید،فقال أبو لهب:تبا لک سائر الیوم أ لهذا جمعتنا؟ فنزلت:« تَبَّتْ يَدٰا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ ».

و فیه،أخرج الطبرانی و ابن مردویه عن أبی أمامه قال: لما نزلت« وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ »جمع رسول الله بنی هاشم فأجلسهم علی الباب-و جمع نساءه و أهله فأجلسهم فی البیت- ثم اطلع علیهم فقال:یا بنی هاشم اشتروا أنفسکم من النار- و اسعوا فی فکاک رقابکم و افتکوها بأنفسکم من الله-فإنی لا أملک لکم من الله شیئا.

ثم أقبل علی أهل بیته فقال:یا عائشه بنت أبی بکر و یا حفصه بنت عمر-و یا أم سلمه و یا فاطمه بنت محمد-و یا أم الزبیر عمه رسول الله-اشتروا (1)أنفسکم من الله و اسعوا فی فکاک رقابکم-فإنی لا أملک لکم من الله شیئا و لا أغنی ،الحدیث.

أقول:و فی معنی هذه الروایات بعض روایات أخر و فی بعضها أنه(ص)خص بنی عبد مناف بالإنذار فیشمل بنی أمیه و بنی هاشم جمیعا.

و الروایات الثلاث الأول لا تنطبق علیها الآیه فإنها تعمم الإنذار قریشا عامه و الآیه تصرح بالعشیره الأقربین و هم إما بنو عبد المطلب أو بنو هاشم و أبعد ما یکون من الآیه الروایه الثانیه حیث تقول:جعل یدعوهم قبائل قبائل.

علی أن ما تقدم من معنی الآیه و هو نفی أن تکون قرابه النبی ص تغنیهم من تقوی الله و فی الروایات إشاره إلی ذلک-حیث تقول:لا أغنی عنکم من الله

۱- ۱) کذا.

شيئا-لا يناسب عمومه لغير الخاصه من قرابته(ص).

و أما الروايه الرابعه فقوله تعالى:« وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ »آيه مكيه فى سوره مكيه و لم يقل أحد بنزول الآيه بالمدينه و أين كانت يوم نزولها عائشه و حفصه و أم سلمه و لم يتزوج النبى ص بهن إلا فى المدينه)فالمعتمد من الروايات ما يدل على أنه(ص)خص بالإنذار يوم نزول الآيه بنى هاشم أو بنى عبد المطلب،و من عجيب الكلام قول الآلوسى بعد نقل الروايات:و إذا صح الكل فطريق الجمع أن يقال بتعدد الإنذار.

و فى المجمع،عن تفسير الثعلبى بإسناده عن براء بن عازب قال: لما نزلت هذه الآيه جمع رسول الله ص-بنى عبد المطلب و هم يومئذ أربعون رجلا-الرجل منهم يأكل المسنه و يشرب العس-فأمر عليا برجل شاه فأدمها ثم قال:ادنوا بسم الله فدنا القوم عشره عشره-فأكلوا حتى صدروا.ثم دعا بعقب من لبن فجرع منه جرعا ثم قال لهم:اشربوا بسم الله فشربوا حتى رووا-فبدرهم أبو لهب فقال:هذا ما سحركم به الرجل-فسكت(ص)يومئذ و لم يتكلم.

ثم دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام و الشراب-ثم أنذرهم رسول الله ص فقال:يا بنى عبد المطلب إنى أنا النذير إليكم-من الله عز و جل فأسلموا و أطيعونى تهتدوا.

ثم قال:من يواخينى و يوازرنى-و يكون وليى و وصيى بعدى-و خليفتى فى أهلى و يقضى دينى؟-فسكت القوم فأعادها ثلاثا كل ذلك يسكت القوم-و يقول على أنا فقال فى المره الثالثه:أنت-فقام القوم و هم يقولون لأبى طالب:أطع ابنك فقد أمر عليك.

قال الطبرسى،:و روى عن أبى رافع هذه القصه و أنه جمعهم فى الشعب-فصنع لهم رجل شاه فأكلوا حتى تضلعوا-و سقاهم عسا فشربوا كلهم حتى رووا.ثم قال:

إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى و رهطى،و إن الله لم يبعث نبيا إلا جعل له من أهله أخا-و وزيرا و وارثا و وصيا و خليفه فى أهله- فأيكم يقوم فيبايعنى على أنه أخى و وارثى و وزيرى-و وصيى و يكون منى بمنزله هارون من موسى؟فقال على:أنا فقال:ادن منى-ففتح فاه و مج فى فيه من ريقه و تفل بين كتفيه و ثدييه-فقال أبو لهب:بئس ما

حبوت به ابن عمک-أن أجابک فملأت فاه و وجهه بزاقا-فقال(ص)ملأته حکمه و علما.

أقول:

و روی السیوطی فی الدر المنثور،ما فی معنی حدیث البراء عن ابن إسحاق و ابن جریر و ابن أبی حاتم و ابن مردویه و أبی نعیم و البیهقی فی الدلائل من طرق عن علی رضی الله عنه و فیه: ثم تکلم النبی ص فقال:یا بنی عبد المطلب-إنی و الله ما أعلم أحدا فی العرب-جاء قومه بأفضل مما جئتکم به-إنی قد جئتکم بخیر الدنیا و الآخره-و قد أمرنی الله أن أدعوکم إلیه-فأیکم یوازرنی علی أمری هذا؟فقلت و أنا أحدثهم سنا:إنه أنا،فقام القوم یضحکون.

و فی علل الشرائع،بإسناده عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن علی بن أبی طالب(ع)قال: لما نزلت« وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَکَ الْأَقْرَبِينَ »أی رهطک المخلصین- دعا رسول الله ص بنی عبد المطلب-و هم إذ ذاک أربعون رجلا-یزیدون رجلا-و ینقصون رجلا فقال:أیکم یکون أخی و وارثی و وزیری و وصیی-و خلیفتی فیکم بعدی،فعرض علیهم ذلک رجلا-رجلا کلهم یأبی ذلک-حتی أتی علی فقلت:أنا یا رسول الله.

فقال:یا بنی عبد المطلب هذا وارثی و وزیری-و خلیفتی فیکم بعدی فقام القوم یضحک بعضهم إلی بعض-و یقولون لأبی طالب-قد أمرک أن تسمع و تطیع لهذا الغلام.

أقول:و من الممکن أن یستفاد من قوله(ع):أی رهطک المخلصین أن ما نسب إلی قراءه أهل البیت« وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَکَ الْأَقْرَبِينَ رهطک منهم المخلصین»و نسب أیضا إلی قرآن أبی بن کعب کان من قبیل التفسیر.

و فی المجمع،": فی قوله تعالی:« وَ تَقَلُّبَکَ فِي السّاجِدِينَ »قیل:معناه و تقلبک فی الساجدین الموحدین-من نبی إلی نبی حتی أخرجک نبیا":عن ابن عباس فی روایه عطاء و عکرمه و هو المروی عن أبی جعفر و أبی عبد الله(ع)قالا: أصلاب النبیین نبی بعد نبی-حتی أخرجه من صلب أبیه-عن نکاح غیر سفاح من لدن آدم.:

أقول:و رواه غیره من رواه الشیعه،و رواه فی الدر المنثور،عن ابن أبی حاتم و ابن مردویه و أبی نعیم و غیرهم عن ابن عباس و غیرهم .

و فی المجمع،روی جابر عن أبی جعفر(ع)قال:قال رسول الله ص: لا

ترفعوا قبلی و لا تضعوا قبلی-فإنی أراكم من خلفی كما أراكم من أمامی-ثم تلا هذه الآیه.

أقول:یرید(ص)وضع الجبهه علی الأرض و رفعها فی السجده و رواه فی الدر المنثور،عن ابن عباس و غیره.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن أبی شیبه و أحمد عن أبی سعید قال: بینما نحن نسیر مع رسول الله ص إذ عرض شاعر ینشد-فقال النبی ص:لئن یمتلئ جوف أحدكم قیحا-خیر له من أن یمتلئ شعرا.:

أقول:و هو مروی من طرق الشیعه أیضا عن الصادق(ع)عنه(ص) .

و فی تفسیر القمی،قال:یعظون الناس و لا یتعظون-و ینهون عن المنكر و لا ینتهون-و یأمرون بالمعروف و لا یعملون-و هم الذین قال الله فیهم:« أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِی كُلِّ وٰادٍ یَهِیمُونَ »أی فی كل مذهب یذهبون« وَ أَنَّهُمْ یَقُولُونَ مٰا لاٰ یَفْعَلُونَ »و هم الذین غصبوا آل محمد حقهم.

و فی اعتقادات الصدوق،: سئل الصادق(ع)عن قول الله عز و جل:« وَ الشُّعَرٰاءُ یَتَّبِعُهُمُ الْغٰاوُونَ »قال:هم القصاص.

أقول:هم من المصادیق و المعنی الجامع ما تقدم فی ذیل الآیه.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن أبی شیبه عن ابن مسعود عن النبی ص قال: إن من الشعر حكما و إن من البیان سحرا.

أقول:

و روی الجمله الأولی أیضا عنه عن بریده و ابن عباس عن النبی ص و أیضا عن ابن مردویه عن أبی هریره عنه(ص)و لفظه: إن من الشعر حكمه ،و الممدوح من الشعر ما فیه نصره الحق و لا تشمله الآیه.

و فی المجمع،عن الزهری قال:حدثنی عبد الرحمن بن كعب بن مالك: أن كعب بن مالك قال:یا رسول الله ما ذا تقول فی الشعراء؟قال:إن المؤمن مجاهد بسیفه و لسانه- و الذی نفسی بیده لكأنما تنضخونهم بالنبل.

قال الطبرسی،:و قال النبی ص لحسان بن ثابت:اهجهم أو هاجهم و روح

القدس معک: رواه البخاری و مسلم فی الصحیحین .

و فی الدر المنثور،أخرج ابن أبی شیبه و عبد بن حمید و أبو داود فی ناسخه و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردویه عن أبی الحسن سالم البراد قال": لما نزلت« وَ الشُّعَرٰاءُ »الآیه-جاء عبد الله بن رواحه و کعب بن مالک-و حسان بن ثابت و هم یبکون فقالوا-یا رسول الله لقد أنزل الله هذه الآیه-و هو یعلم أنا شعراء أهلکنا؟ فأنزل الله« إِلاَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ »فدعاهم رسول الله فتلاها علیهم.

أقول:هذه الروایه و ما فی معناها هی التی دعا بعضهم إلی القول بکون الآیات الخمس من آخر السوره مدنیات و قد عرفت الکلام فی ذلک عند تفسیر الآیات.

و فی الکافی،بإسناده عن أبی عبیده عن أبی عبد الله(ع)قال: من أشد ما فرض الله علی خلقه ذکر الله کثیرا.ثم قال:لا أعنی-سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله أکبر،و إن کان منه و لکن ذکر الله عند ما أحل و حرم-فإن کان طاعه عمل بها و إن کان معصیه ترکها.

أقول:فیه تأیید لما تقدم فی تفسیر الآیه.

(۲۷)سوره النمل مکیه و هی ثلاث و تسعون آیه(۹۳)

[سوره النمل (۲۷): الآیات ۱ الی ۶]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ

طس تِلْکَ آیٰاتُ اَلْقُرْآنِ وَ کِتٰابٍ مُبِینٍ (۱) هُدیً وَ بُشْریٰ لِلْمُؤْمِنِینَ (۲) اَلَّذِینَ یُقِیمُونَ اَلصَّلاٰهَ وَ یُؤْتُونَ اَلزَّکٰاهَ وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ هُمْ یُوقِنُونَ (۳) إِنَّ اَلَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ زَیَّنّٰا لَهُمْ أَعْمٰالَهُمْ فَهُمْ یَعْمَهُونَ (۴) أُوْلٰئِکَ اَلَّذِینَ لَهُمْ سُوءُ اَلْعَذٰابِ وَ هُمْ فِی اَلْآخِرَهِ هُمُ اَلْأَخْسَرُونَ (۵) وَ إِنَّکَ لَتُلَقَّی اَلْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَکِیمٍ عَلِیمٍ (۶)

(بیان)

غرض السوره-علی ما تدل علیه آیات صدرها و الآیات الخمس الخاتمه لها- التبشیر و الإنذار و قد استشهد لذلک بطرف من قصص موسی و داود و سلیمان و صالح و لوط(ع)ثم عقبها ببیان نبذه من أصول المعارف کوحدانیته تعالی فی الربوبیه و المعاد و غیر ذلک.

قوله تعالی:« تِلْکَ آیٰاتُ اَلْقُرْآنِ وَ کِتٰابٍ مُبِینٍ »الإشاره بتلک-کما مر فی أول سوره الشعراء-إلی آیات السوره مما ستنزل بعد و ما نزلت قبل،و التعبیر باللفظ الخاص بالبعید للدلاله علی رفعه قدرها و بعد منالها.

و القرآن اسم للکتاب باعتبار کونه مقروا،و المبین من الإبانه بمعنی الإظهار، و تنکیر« اَلْقُرْآنِ »للتفخیم أی تلک الآیات الرفیعه القدر التی ننزلها آیات الکتاب و آیات کتاب مقرو عظیم الشأن مبین لمقاصده من غیر إبهام و لا تعقید.

قال فی مجمع البیان:،وصفه بالصفتین یعنی الکتاب و القرآن لیفید أنه مما یظهر بالقراءه و یظهر بالکتابه و هو بمنزله الناطق بما فیه من الأمرین جمیعا،و وصفه بأنه مبین تشبیه له بالناطق بکذا.انتهی.

قوله تعالی:« هُدیً وَ بُشْریٰ لِلْمُؤْمِنِینَ »المصدران أعنی« هُدیً وَ بُشْریٰ » بمعنی اسم الفاعل أو المراد بهما المعنی المصدری للمبالغه.

قوله تعالی:« اَلَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاٰهَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکٰاهَ »إلخ،المراد إتیان الأعمال الصالحه و إنما اقتصر علی الصلاه و الزکاه لکون کل منها رکنا فی بابه فالصلاه فیما یرجع إلی الله تعالی و الزکاه فیما یرجع إلی الناس و بنظر آخر الصلاه فی الأعمال البدنیه و الزکاه فی الأعمال المالیه.

و قوله:« وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ هُمْ یُوقِنُونَ »وصف آخر للمؤمنین معطوف علی ما قبله جیء به للإشاره إلی أن هذه الأعمال الصالحه إنما تقع موقعها و تصیب غرضها مع الإیقان بالآخره فإن العمل یحبط مع تکذیب الآخره،قال تعالی: «وَ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا وَ لِقٰاءِ الْآخِرَهِ حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ» :الأعراف:۱۴۷.

و تکرار الضمیر فی قوله:« وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ هُمْ »إلخ للدلاله علی أن هذا الإیقان من شأنهم و هم أهله المترقب منهم ذلک.

قوله تعالی:« إِنَّ الَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ زَیَّنّٰا لَهُمْ أَعْمٰالَهُمْ فَهُمْ یَعْمَهُونَ » العمه التحیر فی الأمر و معنی تزیین العمل جعله بحیث ینجذب إلیه الإنسان و الذین لا یؤمنون بالآخره لما أنکروها و هی غایه مسیرهم بقوا فی الدنیا و هی سبیل لا غایه فتعلقوا بأعمالهم فیها و کانوا متحیرین فی الطریق لا غایه لهم یقصدونها.

قوله تعالی:« أُولٰئِکَ الَّذِینَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذٰابِ »إلخ إیعاد بمطلق العذاب من دنیوی و أخروی بدلیل ما فی قوله:« وَ هُمْ فِی الْآخِرَهِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ »و لعل وجه کونهم أخسر الناس أن سائر العصاه لهم صحائف أعمال مثبته فیها سیئاتهم و حسناتهم یجازون بها و أما هؤلاء فسیئاتهم محفوظه علیهم یجازون بها و حسناتهم حابطه.

قوله تعالی:« وَ إِنَّکَ لَتُلَقَّی الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَکِیمٍ عَلِیمٍ » التلقیه قریبه المعنی من التلقین،و تنکیر« حَکِیمٍ عَلِیمٍ »للتعظیم،و التصریح بکون هذا القرآن من عنده

تعالی لیکون ذلک حجه علی الرساله و تأییدا لما تقدم من المعارف و لصحه ما سیذکره من قصص الأنبیاء(ع).

و تخصیص الاسمین الکریمین للدلاله علی نزوله من ینبوع الحکمه فلا ینقضه ناقض و لا یوهنه موهن،و منبع العلم فلا یکذب فی خبره و لا یخطئ فی قضائه.

[سوره النمل (۲۷): الآیات ۷ الی ۱۴]

اشاره

إِذْ قالَ مُوسیٰ لِأَهْلِهِ إِنِّی آنَسْتُ ناراً سَآتِیکُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِیکُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّکُمْ تَصْطَلُونَ (۷) فَلَمّا جاءَها نُودِیَ أَنْ بُورِکَ
مَنْ فِی النّارِ وَ مَنْ حَوْلَها وَ سُبْحانَ اللّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ (۸) یا مُوسیٰ إِنَّهُ أَنَا اللّهُ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (۹) وَ أَلْقِ عَصاکَ فَلَمّا رَآها تَهْتَزُّ
کَأَنَّها جانٌّ وَلّیٰ مُدْبِراً وَ لَمْ یُعَقِّبْ یا مُوسیٰ لا تَخَفْ إِنِّی لا یَخافُ لَدَیَّ الْمُرْسَلُونَ (۱۰) إِلاّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّی
غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۱) وَ أَدْخِلْ یَدَکَ فِی جَیْبِکَ تَخْرُجْ بَیْضاءَ مِنْ غَیْرِ سُوءٍ فِی تِسْعِ آیاتٍ إِلیٰ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ إِنَّهُمْ کانُوا قَوْماً فاسِقِینَ
(۱۲) فَلَمّا جاءَتْهُمْ آیاتُنا مُبْصِرَةً قالُوا هٰذا سِحْرٌ مُبِینٌ (۱۳) وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَیْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا فَانْظُرْ کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ
الْمُفْسِدِینَ (۱۴)

(بیان)

أول القصص الخمس التی أشیر إلیها فی السوره استشهادا لما فی صدرها من التبشیر و الإنذار و الوعد و الوعید و تغلب فی الثلاث الأول منها و هی قصص موسی و داود

ص: ۳۴۱

و سليمان جهه الوعد على الوعيد و فى الأخيرتين بالعكس.

قوله تعالى:« إِذْ قٰالَ مُوسىٰ لِأَهْلِهِ »إلخ المراد بأهله امرأته و هى بنت شعيب على ما ذكره الله تعالى فى سوره القصص قال فى المجمع،:إن خطابها بقوله:« آتِيكُمْ » بصيغه الجمع لإقامتها مقام الجماعه فى الأنس بها فى الأمكنه الموحشه.انتهى و من المحتمل أنه كان معها غيرها من خادم أو مكار أو غيرهما.

و فى المجمع،: الإيناس الإبصار،و قيل:آنست أى أحسست بالشىء من جهه يؤنس بها و ما آنست به فقد أحسست به مع سكون نفسك إليه.انتهى و الشهاب على ما فى المجمع:،نور كالعمود من النار و كل نور يمتد كالعمود يسمى شهابا و المراد الشعله من النار،و فى المفردات:،الشهاب الشعله الساطعه من النار الموقده و من العارض فى الجو و فى المفردات،أيضا: القبس المتناول من الشعله،و الاصطلاء بالنار الاستدفاء بها.

و سياق الآيه يشهد و يؤيده ما وقع من القصه فى سور أخرى أنه كان حينذاك يسير بأهله و قد ضل الطريق و أصابه و أهله البرد فى ليله داجيه فأبصر نارا من بعيد فأراد أن يذهب إليها فإن وجد عندها إنسانا استخبره أو يأخذ قبسا يأتى به إلى أهله فيوقدوا نارا يصطلون بها.فقال لأهله امكثوا إنى أحسست و أبصرت نارا فالزموا مكانكم سآتيكم منها أى من عندها بخبر نهتدى به أو آتيكم بشعله متناوله من النار لعلكم توقدون بها نارا تصطلون و تستدفئون بها.

و يظهر من السياق أيضا أن النار إنما ظهرت له(ع)و لم يشاهدها غيره و إلا عبر عنها بالإشاره دون التنكير.

و لعل اختلاف الإتيان بالخبر و الإتيان بالنار نوعا هو الموجب لتكرار لفظ الإتيان حيث قال:« سَآتِيكُمْ مِنْهٰا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهٰابٍ قَبَسٍ ».

قوله تعالى:« فَلَمّٰا جٰاءَهٰا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النّٰارِ وَ مَنْ حَوْلَهٰا وَ سُبْحٰانَ اللّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ »أى فلما أتى النار و حضر عندها نودى أن بورك«إلخ».

و المراد بالمباركه إعطاء الخير الكثير يقال:باركه و بارك عليه و بارك فيه أى ألبسه الخير الكثير و حباه به،و قد وقع فى سوره طه فى هذا الموضع من القصه قوله:

«فَلَمّٰا أَتٰاهٰا نُودِيَ يٰا مُوسىٰ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوٰادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً وَ أَنَا

اخْتَرْتُکَ فَاسْتَمِعْ لِمٰا یُوحیٰ» :طه:١٣.و یستأنس منه أن المراد بمن حول النار موسی أو هو ممن حول النار،و مبارکته اختیاره بعد تقدیسه.

و أما المراد بمن فی النار فقد قیل:إن معناه من ظهر سلطانه و قدرته فی النار فإن التکلیم کان من الشجره-علی ما فی سوره القصص-و قد أحاطت بها النار،و علی هذا فالمعنی:تبارک من تجلی لک بکلامه من النار و بارک فیک،و یکون قوله:

« وَ سُبْحٰانَ اللّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِینَ »تنزیها له سبحانه من أن یکون جسما أو جسمانیا یحیط به المکان أو یجاوره الحدثان لا لتعجیب موسی کما قیل.

و قیل:المراد بمن فی النار الملائکه الحاضرون فیها کما أن المراد بمن حولها موسی(ع).

و قیل:المراد به موسی(ع)و بمن حولها الملائکه.

و قیل:فی الکلام تقدیر و الأصل بورک من فی المکان الذی فیه النار-و هو البقعه المبارکه التی کانت فیها الشجره کما فی سوره القصص-و من فیها هو موسی و حولها هی الأرض المقدسه التی هی الشامات،و من حولها هم الأنبیاء القاطنون فیها من آل إبراهیم و بنی إسرائیل.

و قیل:المراد بمن فی النار نور الله تعالی و بمن حولها موسی.

و قیل:المراد بمن فی النار الشجره فإنها کانت محاطه بالنار بمن حولها الملائکه المسبحون.

و أکثر هذه الوجوه لا یخلو من تحکم ظاهر.

قوله تعالی:« یٰا مُوسیٰ إِنَّهُ أَنَا اللّٰهُ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ »تعرف منه تعالی لموسی (ع)لیعلم أن الذی یشافهه بالکلام ربه تعالی فهذه الآیه فی هذه السوره تحاذی قوله من سوره طه« نُودِیَ یٰا مُوسیٰ إِنِّی أَنَا رَبُّکَ فَاخْلَعْ »إلخ،فارجع إلی سوره طه و تدبر فی الآیات.

قوله تعالی:« وَ أَلْقِ عَصٰاکَ فَلَمّٰا رَآهٰا تَهْتَزُّ کَأَنَّهٰا جَانٌّ وَلّٰی مُدْبِراً وَ لَمْ یُعَقِّبْ » إلخ، الاهتزاز التحرک الشدید،و الجان الحیه الصغیره السریعه الحرکه،و الإدبار خلاف الإقبال،و التعقیب الکر بعد الفر من عقب المقاتل إذا کر بعد فراره.

و فى الآيه حذف و إيجاز تفصح عنه الفاء الفصيحه فى قوله:« فَلَمّا رَآها تَهْتَزُّ » و التقدير و ألق عصاك فلما ألقاها إذا هى ثعبان مبين يهتز كأنه جان و لما رآها تهتز إلخ.

و لا منافاه بين صيروره العصا ثعبانا مبينا كما وقع فى قصته(ع)من سورتى الأعراف و الشعراء و الثعبان الحيه العظيمه الجثه و بين تشبيهها فى هذه السوره بالجان فإن التشبيه إنما وقع فى الاهتزاز و سرعه الحركه و الاضطراب حيث شاهد العصا و قد تبدلت ثعبانا عظيم الجثه هائل المنظر يهتز و يتحرك بسرعه اهتزاز الجان و تحركه بسرعه و ليس تشبيها لنفس العصا أو الثعبان بنفس الجان.

و قيل:إن آيه العصا كانت مختلفه الظهور فقد ظهرت العصا لأول مره فى صوره الجان كما وقع فى سوره طه: «فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى :آيه:٢٠ من السوره ثم ظهرت لما ألقاها عند فرعون فى صوره ثعبان مبين كما فى سورتى الأعراف و الشعراء.

و فيه أن هذا الوجه و إن كان لا يخلو بالنظر إلى سياق الآيات عن وجاهه لكنه لا يندفع به إشكال تشبيه الشىء بنفسه أو عدم تبدلها حيه فالمعول فى دفع الإشكال على ما تقدم.

قوله تعالى:« يا مُوسى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ »حكايه نفس الخطاب الصادر هناك و هو فى معنى قال الله يا موسى لا تخف«إلخ».

و قوله:« لا تَخَفْ »نهى مطلق يؤمنه عن كل ما يسوء مما يخاف منه ما دام فى حضره القرب و المشافهه سواء كان المخوف منه عصا أو غيرها و لذا علل النهى بقوله:

« إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ »فإن تقييد النفى بقوله: « لَدَيَّ »يفيد أن مقام القرب و الحضور يلازم الأمن و لا يجامع مكروها يخاف منه،و يؤيده تبديل هذه الجمله فى القصه من سوره القصص من قوله:« إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ »فيتحصل المعنى:لا تخف من شىء إنك مرسل و المرسلون-و هم لدى فى مقام القرب-فى مقام الأمن و لا خوف مع الأمن.

و أما فرار موسى(ع)من العصا و قد تصورت بتلك الصوره الهائله و هى تهتز كأنها جان فقد كان جريا منه على ما جبل الله الطبيعه الإنسانيه عليه إذا فاجأه من المخاطر ما لا سبيل له إلى دفعه عن نفسه إلا الفرار و قد كان أعزل لا سلاح معه إلا

عصاه و هی التی یخافها علی نفسه و لم یرد علیه من جانبه تعالی أمر سابق أن یلزم مکانه أو نهی عن الفرار مما یخافه علی نفسه إلا قوله تعالی:« وَ أَلْقِ عَصٰاکَ »و قد امتثله، و لیس الفرار من المخاطر العظیمه التی لا دافع لها إلا الفرار،من الجبن المذموم حتی یذم علیه.

و أما إن الأنبیاء و المرسلین لا یخافون شیئا و هم عند ربهم-علی ما یدل علیه قوله:« إِنِّی لاٰ یَخٰافُ لَدَیَّ الْمُرْسَلُونَ »-فهم لا یملکون هذه الکرامه من عند أنفسهم بل إنما ذلک بتعلیم من الله و تأدیب و إذ کان موقف لیله الطور أول موقف من موسی قربه الله إلیه فیه و خصه بالتکلیم و حباه بالرساله و الکرامه فقوله:« لاٰ تَخَفْ إِنَّکَ مِنَ الْآمِنِینَ »و قوله:« لاٰ تَخَفْ إِنِّی لاٰ یَخٰافُ لَدَیَّ الْمُرْسَلُونَ »تعلیم و تأدیب إلهی له(ع).

فتبین بذلک أن قوله:« لاٰ تَخَفْ إِنِّی لاٰ یَخٰافُ لَدَیَّ الْمُرْسَلُونَ »تأدیب و تربیه إلهیه لموسی(ع)و لیس من التوبیخ و التأنیب فی شیء.

قوله تعالی:« إِلاّٰ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّی غَفُورٌ رَحِیمٌ »الذی ینبغی أن یقال-و الله أعلم-أن الآیه السابقه لما أخبرت عن أن المرسلین آمنون لا یخافون فهم منه أن غیرهم من أهل الظلم غیر آمنین لهم أن یخافوا استدرک فی هذه الآیه حال أهل التوبه من جمله أهل الظلم فبین أنهم لتوبتهم و تبدیلهم ظلمهم-و هو السوء-حسنا بعد سوء مغفور لهم مرحومون فلا یخافون أیضا.

فالاستثناء من المرسلین و هو استثناء منقطع و المراد بالظلم مطلق المعصیه و بالحسن بعد السوء التوبه بعد المعصیه أو العمل الصالح بعد السیئ،و المعنی:لکن من ظلم باقتراف المعصیه ثم بدل ذلک حسنا بعد سوء و توبه بعد معصیه أو عملا صالحا بعد سیئ فإنی غفور رحیم أغفر ظلمه و أرحمه فلا یخافن بعد ذلک شیئا.

قوله تعالی:« وَ أَدْخِلْ یَدَکَ فِی جَیْبِکَ تَخْرُجْ بَیْضٰاءَ مِنْ غَیْرِ سُوءٍ »إلخ،فسر السوء بالبرص و قد تقدم،و قوله:« فِی تِسْعِ آیٰاتٍ إِلیٰ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ »یمکن أن یستظهر من السیاق أولا أن« فِی تِسْعِ »حال من الآیتین جمیعا،و المعنی:آتیتک هاتین الآیتین-العصا و الید-حال کونهما فی تسع آیات.

و ثانیا:أن الآیتین من جمله الآیات التسع،و قد تقدم فی تفسیر قوله تعالی:

«وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ :إسراء:۱۰۱،کلام فی تفصیل الآیات التسع، و الباقی ظاهر.

قوله تعالی:« فَلَمّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ » المبصره بمعنی الواضحه الجلیه،و فی قولهم:« هذا سِحْرٌ مُبِينٌ »إزراء و إهانه بالآیات حیث أهملوا الدلاله علی خصوصیات الآیات حتی العدد فلم یعبئوا بها إلا بمقدار أنها أمر ما.

قوله تعالی:« وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا »إلخ،قال الراغب:

الجحد نفی ما فی القلب إثباته و إثبات ما فی القلب نفیه.انتهی.و الاستیقان و الإیقان بمعنی.

[سوره النمل (۲۷): الآیات ۱۵ الی ۴۴]

اشاره

وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَ سُلَيْمانَ عِلْماً وَ قالاَ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (۱۵) وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَ قالَ يا أَيُّهَا النّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَ أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (۱۶) وَ حُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ وَ الطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (۱۷) حَتّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۱۸) فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها وَ قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصّالِحِينَ (۱۹) وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ (۲۰) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (۲۱) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (۲۲) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَ لَها عَرْشٌ عَظِيمٌ (۲۳) وَجَدْتُها وَ قَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللّهِ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (۲۴) أَلاّ يَسْجُدُوا لِلّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَ ما تُعْلِنُونَ (۲۵) اللّهُ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (۲۶) قالَ سَنَنْظُرُ أَ صَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ (۲۷) اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ (۲۸) قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ (۲۹) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (۳۰) أَلاّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ (۳۱) قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتّى تَشْهَدُونِ (۳۲) قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَ أُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَ الْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ (۳۳) قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَ كَذلِكَ يَفْعَلُونَ (۳۴) وَ إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (۳۵) فَلَمّا جاءَ سُلَيْمانَ قالَ أَ تُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِيَ اللّهُ خَيْرٌ مِمّا آتاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (۳۶) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها وَ لَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَ هُمْ صاغِرُونَ (۳۷) قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (۳۸) قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَ إِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (۳۹) قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (۴۰) قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (۴۱) فَلَمّا جاءَتْ قِيلَ أَ هكَذا عَرْشُكِ قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَ كُنّا مُسْلِمِينَ (۴۲) وَ صَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللّهِ إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ (۴۳) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَ كَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها قالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ قالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۴۴)

(بيان)

نبذه من قصص داود و سليمان(ع)و فيها شیء من عجائب أخبار سليمان بما آتاه الله من الملك.

ص :۳۴۸

قوله تعالی:« وَ لَقَدْ آتَیْنا داوُدَ وَ سُلَیْمانَ عِلْماً »إلخ،فی تنکیر العلم إشاره إلی تفخیم أمره،و مما أشیر فیه إلی علم داود من کلامه تعالی قوله: «وَ آتَیْناهُ الْحِکْمَهَ وَ فَصْلَ الْخِطابِ» :(ص):٢٠.و مما أشیر فیه إلی علم سلیمان قوله: «فَفَهَّمْناها سُلَیْمانَ وَ کُلاًّ آتَیْنا حُکْماً وَ عِلْماً» :الأنبیاء:٧٩،و ذیل الآیه یشملهما جمیعا.

و قوله:« وَ قالاَ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِی فَضَّلَنا عَلی کَثِیرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِینَ »المراد بالتفضیل إما التفضیل بالعلم علی ما ربما یؤیده سیاق الآیه،و إما التفضیل بمطلق ما خصهما الله به من المواهب کتسخیر الجبال و الطیر لداود و تلیین الحدید له و إیتائه الملک،و تسخیر الجن و الوحش و الطیر و کذا الریح لسلیمان و تعلیمه منطق الطیر و إیتائه الملک علی ما یستدعیه إطلاق التفضیل.

و الآیه أعنی قوله:« وَ قالاَ الْحَمْدُ لِلّهِ »إلخ،علی أی حال بمنزله حکایه اعترافهما علی التفضیل الإلهی فیکون کالشاهد علی المدعی الذی تشیر إلیه بشاره صدر السوره أن الله سبحانه سیخص المؤمنین بما تقر به عیونهم و مثلها ما سیأتی من اعترافات سلیمان فی مواضع من کلامه.

قوله تعالی:« وَ وَرِثَ سُلَیْمانُ داوُدَ »إلخ،أی ورثه ماله و ملکه،و أما قول بعضهم:المراد به وراثه النبوه و العلم ففیه أن النبوه لا تقبل الوراثه لعدم قبولها الانتقال،و العلم و إن قبل الانتقال بنوع من العنایه غیر أنه إنما یصح فی العلم الفکری الاکتسابی و العلم الذی یختص به الأنبیاء و الرسل کرامه من الله لهم وهبی لیس مما یکتسب بالفکر فغیر النبی یرث العلم من النبی لکن النبی لا یرث علمه من نبی آخر و لا من غیر نبی.

و قوله:« وَ قالَ یا أَیُّهَا النّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّیْرِ »ظاهر السیاق أنه(ع) یباهی عن نفسه و أبیه و هو منه(ع)تحدیث بنعمه الله کما قال تعالی: «وَ أَمّا بِنِعْمَهِ رَبِّکَ فَحَدِّثْ» :الضحی:١١،و أما إصرار بعض المفسرین علی أن الضمیر فی قوله:

« عُلِّمْنا »و« أُوتِینا »لنفسه لا له و لأبیه علی ما هو عاده الملوک و العظماء فی الإخبار عن أنفسهم-فإنهم یخبرون عنهم و عن خدمهم و أعوانهم رعایه لسیاسه الملک- فالسیاق السابق لا یساعد علیه کل المساعده.

و المراد بالناس ظاهر معناه و هو عامه المجتمعين من غير تميز لبعضهم من بعض و قول بعضهم إن المراد بهم عظماء أهل مملكته أو علماؤهم غير سديد.

و المنطق و النطق على ما نتعارفه هو الصوت أو الأصوات المؤلفه الداله بالوضع على معان مقصوده للناطق المسماه كلاما و لا يكاد يقال-على ما ذكره الراغب-إلا للإنسان لكن القرآن الكريم يستعمله فى معنى أوسع من ذلك و هو دلاله الشىء على معنى مقصود لنفسه،قال تعالى: «وَ قَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللّٰهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ» :حم السجده:۲۱، و هو إما من باب تحليل المعنى كما يستعمله القرآن فى أغلب المعانى و المفاهيم المقصوره فى الاستعمالات على المصاديق الجسمانيه الماديه كالرؤيه و النظر و السمع و اللوح و القلم و العرش و الكرسى و غيرها،و إما لأن للفظ معنى أعم و اختصاصه بالإنسان من باب الانصراف لكثره الاستعمال.

و كيف كان فمنطق الطير هو ما تدل به الطير بعضها على مقاصدها،و الذى نجده عند التأمل فى أحوالها الحيويه هو أن لكل صنف أو نوع منها أصواتا ساذجه خاصه فى حالاتها الخاصه الاجتماعيه حسب تنوع اجتماعاتها كحال الهياج للسفاد و حال المغالبه و الغلبه و حال الوحشه و الفزع و حال التضرع أو الاستغاثه إلى غير ذلك و نظير الطير فى ذلك سائر الحيوان.

لكن لا ينبغى الارتياب فى أن المراد بمنطق الطير فى الآيه معنى أدق و أوسع من ذلك.

أما أولا:فلشهاده سياق الآيه على أنه(ص)يتحدث عن أمر اختصاصى ليس فى وسع عامه الناس أن ينالوه و إنما ناله بعنايه خاصه إلهيه،و هذا المقدار المذكور من منطق الطير مما يسع لكل أحد أن يطلع عليه و يعرفه.

و أما ثانيا:فلأن ما حكاه الله تعالى فى الآيات التاليه من محاوره سليمان و الهدهد يتضمن معارف عاليه متنوعه لا يسع لما نجده عند الهدهد من الأصوات المعدوده أن تدل عليها بتميز لبعضها من بعض ففى كلام الهدهد ذكر الله سبحانه و وحدانيته و قدرته و علمه و ربوبيته و عرشه العظيم و ذكر الشيطان و تزيينه الأعمال و الهدى و الضلال و غير ذلك،و فيه ذكر الملك و العرش و المرأه و قومها و سجدتهم للشمس،و فى كلام

سليمان أمره بالذهاب بالكتاب و إلقائه إليهم ثم النظر فيما يرجعون،و هذه كما لا يخفى على الباحث فى أمر المعانى المتعمق فيها معارف جمه لها أصول عريقه يتوقف الوقوف عليها على ألوف و ألوف من المعلومات،و أنى تفى على إفاده تفصيلها أصوات ساذجه معدوده.

على أنه لا دليل على أن كل ما يأتى بها الحيوان فى نطقه من الأصوات أو خصوصيات الصوت يفى حسنا بإدراكه أو تمييزه،و يؤيده ما نقل من قول النمله فى الآيات التاليه و هو من منطق الحيوان قطعا و لا صوت للنمله يناله سمعنا و يؤيده أيضا ما يراه علماء الطبيعه اليوم أن الذى يناله سمع الإنسان من الصوت عدد خاص من الارتعاش المادى و هو ما بين سته عشر ألفا إلى اثنين و ثلاثين ألفا فى الثانيه،و أن الخارج من ذلك فى جانبى القله و الكثره لا يقوى عليه سمع الإنسان و ربما ناله سائر الحيوان أو بعضها.

و قد عثر العلماء الباحثون عن الحيوان من عجيب الفهم و لطيف الإدراك عند أنواع من الحيوان كالفرس و الكلب و القرد و الدب و الزنبور و النمله و غيرها على أمور لا يكاد يعثر على نظائرها عند أكثر أفراد الإنسان.

و قد تبين بما مر أن ظاهر السياق أن للطير منطقا علمه الله سليمان،و ظهر به فساد قول من قال إن نطق الطير كان معجزه لسليمان و أما هى فى نفسها فليس لها نطق هذا.

و قوله:« وَ أُوتِينٰا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ »أى أعطينا من كل شىء و« كُلِّ شَيْءٍ »و إن كان شاملا لجميع ما يفرض موجودا-لأن مفهوم شىء من أعم المفاهيم و قد دخل عليه كلمه الاستغراق-لكن لما كان المقام مقام التحديث بالنعمه و لا كل نعمه بل النعم التى يمكن أن يؤتاها الإنسان فيتنعم بها تقيد به معنى كل شىء و كان معنى الجمله:

و أعطانا الله من كل نعمه يمكن أن يعطاها الإنسان فيتنعم بها مقدارا معتدا به كالعلم و النبوه و الملك و الحكم و سائر النعم المعنويه و الماديه.

و قوله:« إِنَّ هٰذٰا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ »شكر و تأكيد للتحديث بالنعمه من غير عجب و لا كبر و اختيال لإسناده الجميع إلى الله بقوله:« عُلِّمْنٰا »و« أُوتِينٰا »،

و احتمل بعضهم أن تكون الجمله من كلام الله سبحانه لا من كلام سليمان و السياق يأباه.

قوله تعالى:« وَ حُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ وَ الطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ » الحشر هو جمع الناس و إخراجهم لأمر بإزعاج و الوزع المنع و قيل الحبس،و المعنى كما قيل:و جمع لسليمان جنوده من الجن و الإنس و الطير فهم يمنعون من التفرق و اختلاط كل جمع بآخر برد أولهم إلى آخرهم و حبس كل فى مكانه.

و يستفاد من الآيه أنه كان له جنود من الجن و الطير يسيرون معه كجنوده من الإنس.

و كلمه الحشر و وصف المحشورين بأنهم جنود،و سياق الآيات التاليه كل ذلك دليل على أن جنوده كانوا طوائف خاصه من الجن و الإنس و الطير سواء كانت « مِنَ »فى الآيه للتبعيض أو للبيان.

و قد أغرب فى التفسير الكبير،فزعم أن الآيه تدل على أن جميع الجن و الإنس و الطير كانوا جنوده و قد ملك الأرض كلها و أن الله تعالى جعل الطير فى زمانه عقلاء مكلفين ثم عادت بعد زمانه على ما كانت عليه قبله و قال بمثله فى النمله التى تكلمت، قال فى تفسير الآيه:و المعنى أنه جعل الله تعالى كل هذه الأصناف جنوده،و لا يكون كذلك إلا بأن يتصرف على مراده،و لا يكون كذلك إلا مع العقل الذى يصح معه التكليف أو يكون بمنزله المراهق الذى قد قارب حد التكليف،فلذلك قلنا:إن الله تعالى جعل الطير فى أيامه مما له عقل و ليس كذلك حال الطيور فى أيامنا و إن كان فيها ما قد ألهمه الله تعالى الدقائق التى خصت بالحاجه إليها أو خصها الله بها لمنافع العباد كالنحل و غيره.انتهى.

و وجوه التحكم فيه غنيه عن البيان.

و تقديم الجن فى الذكر على الإنس و الطير لكون تسخيرهم و دخولهم تحت الطاعه عجيبا،و ذكر الإنس بعده دون الطير مع كون تسخيرها أيضا عجيبا رعايه لأمر المقابله بين الجن و الإنس.

قوله تعالى:« حَتّٰى إِذٰا أَتَوْا عَلىٰ وٰادِ النَّمْلِ »الآيه،« حَتّٰى »غايه لما يفهم من الآيه السابقه،و ضمير الجمع لسليمان و جنوده،و تعديه الإتيان بعلى قيل:لكون

الإتيان من فوق،و وادی النمل واد بالشام علی ما قیل،و قیل فی أرض الطائف، و قیل:فی أقصی الیمن،و الحطم الکسر.

و المعنی:فلما سار سلیمان و جنوده حتی أتوا علی وادی النمل قالت نمله مخاطبه لسائر النمل:یا أیها النمل ادخلوا مساکنکم لا یکسرنکم سلیمان و جنوده أی لا یطأنکم بأقدامهم و هم لا یشعرون.و فیه دلیل علی أنهم کانوا یسیرون علی الأرض.

قوله تعالی:« فَتَبَسَّمَ ضٰاحِکاً مِنْ قَوْلِهٰا »إلی آخر الآیه،قیل:التبسم دون الضحک،و علی هذا فالمراد بالضحک هو الإشراف علیه مجازا.

و لا منافاه بین قوله(ع):« عُلِّمْنٰا مَنْطِقَ الطَّیْرِ »و بین فهمه کلام النمله إذ لم ینف فهمه کلام سائر الحیوان أو کلام بعضها کالنمله.

و قد تسلم جمع منهم دلاله قوله:« عُلِّمْنٰا مَنْطِقَ الطَّیْرِ »علی نفی ما عداه فتکلفوا فی توجیه فهمه(ع)قول النمله تاره بأنه کانت قضیه فی واقعه،و أخری بتقدیر أنها کانت نمله ذات جناحین و هی من الطیر،و ثالثه بأن کلامها کان من معجزات سلیمان(ع)و رابعه بأنه(ع)لم یسمع منها صوتا قط و إنما فهم ما فی نفس النمله إلهاما من الله تعالی هذا.

و ما تقدم من معنی منطق الحیوان یزاح به هذه الأوهام.علی أن سیاق الآیات وحده کاف فی دفعها.

و قوله:« وَ قٰالَ رَبِّ أَوْزِعْنِی أَنْ أَشْکُرَ نِعْمَتَکَ الَّتِی أَنْعَمْتَ عَلَیَّ وَ عَلیٰ وٰالِدَیَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صٰالِحاً تَرْضٰاهُ » الإیزاع الإلهام.تبسم(ع)مبتهجا مسرورا بما أنعم الله علیه حتی أوقفه هذا الموقف و هی النبوه و العلم بمنطق الحیوان و الملک و الجنود من الجن و الإنس و الطیر فسأل الله أن یلهمه شکر نعمته و أن یعمل بما فیه رضاه سبحانه.

و قد جعل الشکر للنعمه التی أنعم الله تعالی بها علی نفسه مختصه به،و للنعمه التی أنعم بها علی والدیه فإن الإنعام علی والدیه إنعام علیه بوجه لکونه منهما و قد أنعم الله تعالی علی أبیه داود بالنبوه و الملک و الحکمه و فصل الخطاب و غیرها و أنعم علی أمه حیث زوجها من داود النبی و رزقها سلیمان النبی و جعلها من أهل بیت النبوه.

و فی کلامه هذا دلیل علی أن والدته من أهل الصراط المستقیم الذین أنعم الله علیهم (۱)و هم إحدی الطوائف الأربع المذکورین فی قوله تعالی: «الَّذِینَ أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَیْهِمْ مِنَ النَّبِیِّینَ وَ الصِّدِّیقِینَ وَ الشُّهَدٰاءِ وَ الصّٰالِحِینَ» :النساء:۶۹.

و قوله:« وَ أَنْ أَعْمَلَ صٰالِحاً تَرْضٰاهُ »عطف علی قوله:« أَنْ أَشْکُرَ نِعْمَتَکَ » و مسألته هذه:«أوزعنی أن أعمل»إلخ،أمر أرفع قدرا و أعلی منزله من سؤال التوفیق للعمل الصالح فإن التوفیق یعمل فی الأسباب الخارجیه بترتیبها بحیث توافق سعاده الإنسان و الإیزاع الذی سأله دعوه باطنیه فی الإنسان إلی السعاده،و علی هذا فلیس من البعید أن یکون المراد به الوحی الذی أکرم الله به إبراهیم و آله فیما یخبر عنه بقوله:

«وَ أَوْحَیْنٰا إِلَیْهِمْ فِعْلَ الْخَیْرٰاتِ» XالآیهX:الأنبیاء:۷۳،و هو التأیید بروح القدس علی ما مر فی تفسیر الآیه.

و قوله:« وَ أَدْخِلْنِی بِرَحْمَتِکَ فِی عِبٰادِکَ الصّٰالِحِینَ »أی اجعلنی منهم،و هذا الصلاح لما لم یتقید بالعمل کان هو صلاح الذات و هو صلاح النفس فی جوهرها الذی یستعد به لقبول أی کرامه إلهیه.

و من المعلوم أن صلاح الذات أرفع قدرا من صلاح العمل ففی قوله:« وَ أَنْ أَعْمَلَ صٰالِحاً تَرْضٰاهُ وَ أَدْخِلْنِی بِرَحْمَتِکَ فِی عِبٰادِکَ الصّٰالِحِینَ »تدرج فی المسأله من الأدنی إلی الأعلی و قد کان صلاح العمل منسوبا إلی صنعه و اختیاره بوجه دون صلاح الذات و لذا سأل صلاح الذات من ربه و لم یسأل نفس صلاح العمل بل أن یوزعه أن یعمل.

و فی تبدیله سؤال صلاح الذات من سؤال أن یدخله فی عباده الصالحین إیذان بسؤاله ما خصهم الله به من المواهب و أعزرها العبودیه و قد وصفه الله بها فی قوله:

«نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّٰابٌ» :-ص:۳۰.

قوله تعالی:« وَ تَفَقَّدَ الطَّیْرَ فَقٰالَ مٰا لِیَ لاٰ أَرَی الْهُدْهُدَ أَمْ کٰانَ مِنَ الْغٰائِبِینَ » قال الراغب: التفقد التعهد لکن حقیقه التفقد تعرف فقدان الشیء و التعهد تعرف العهد

۱- ۱) و فیه تبرئه ساحتها عما فی التوراه أنها کانت امرأه أوریا فجر بها داود ثم کاد فی قتل أوریا فقتل فی بعض الحروب فأدخلها فی أزواجه فولدت له سلیمان.

المتقدم قال تعالى:« وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ »انتهى.

استفهم أولا- متعجبا من حال نفسه إذ لا- يرى الهدهد بين الطير كأنه لم يكن من المظنون فى حقه أن يغيب عن موكبه و يستنكف عن امتثال أمره ثم أضرب عن ذلك بالاستفهام عن غيبته.

و المعنى:ما بالى لا أرى الهدهد بين الطيور الملازمه لموكبى بل أ كان من الغائبين.

قوله تعالى:« لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطانٍ مُبِينٍ » اللامات للقسم و السلطان المبين البرهان الواضح،يقضى(ع)على الهدهد أحد ثلاث خصال:العذاب الشديد و الذبح و فيهما شقاؤه،و الإتيان بحجه واضحه و فيه خلاصه و نجاته.

قوله تعالى:« فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ »ضمير« فَمَكَثَ »لسليمان و يحتمل أن يكون للهدهد و يؤيد الأول سابق السياق و الثانى لاحقه،و المراد بالإحاطه العلم الكامل،و قوله:« وَ جِئْتُكَ »إلخ،بمنزله عطف التفسير لقوله:« أَحَطْتُ »إلخ،و سبأ بلده باليمن كانت عاصمته يومئذ و النبأ الخبر الذى له أهميه،و اليقين ما لا شك فيه.

و المعنى:فمكث سليمان-أو فمكث الهدهد-زمانا غير بعيد- ثم حضر فسأله سليمان عن غيبته و عاتبه-فقال أحطت من العلم بما لم تحط به و جئتك من سبإ بخبر مهم لا شك فيه.

و منه يظهر أن فى الآيه حذفا و إيجازا،و قد قيل:إن فى قول الهدهد:« أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ »كسرا لسوره سليمان(ع)فيما شدد عليه.

قوله تعالى:« إِنِّى وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَ لَها عَرْشٌ عَظِيمٌ »الضمير فى« تَمْلِكُهُمْ »لأهل سبإ و ما يتبعها و قوله:« وَ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » وصف لسعه ملكها و عظمته و هو القرينه على أن المراد بكل شىء فى الآيه كل شىء هو من لوازم الملك العظيم من حزم و عزم و سطوه و مملكه عريضه و كنوز و جنود مجنده و رعيه مطيعه،و خص بالذكر من بينها عرشها العظيم.

قوله تعالى:« وَجَدْتُها وَ قَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللّهِ »إلخ،أى إنهم

من عبده الشمس من الوثنيين.

و قوله:« وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ »بمنزله عطف التفسير لما سبقه و هو مع ذلك توطئه لقوله بعد:« فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ »لأن تزيين الشيطان لهم أعمالهم التى هى سجدتهم و سائر تقرباتهم هو الذى صرفهم و منعهم عن سبيل الله و هى عبادته وحده.

و فى إطلاق السبيل من غير إضافتها إليه تعالى إشاره إلى أنها السبيل المتعينه للسبيليه بنفسها للإنسان بالنظر إلى فطرته بل لكل شىء بالنظر إلى الخلقه العامه.

و قوله:« فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ »تفريع على صدهم عن السبيل إذ لا سبيل مع الصد عن السبيل فلا اهتداء،فافهمه.

قوله تعالى:« أَلاّ يَسْجُدُوا لِلّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَ ما تُعْلِنُونَ »القراءه الدائره« أَلاّ »-بتشديد اللام-مؤلف من«أن و لا» و هو عطف بيان من« أَعْمالَهُمْ »،و المعنى:زين لهم الشيطان أن لا يسجدوا لله، و قيل:بتقدير لام التعليل،و المعنى:زين لهم الشيطان ضلالتهم لئلا يسجدوا لله.

و الخبء على ما فى مجمع البيان،المخبوء و هو ما أحاط به غيره حتى منع من إدراكه و هو مصدر وصف به يقال:خبأته أخبئه خبأ و ما يوجده الله تعالى فيخرجه من العدم إلى الوجود يكون بهذه المنزله.انتهى.

ففى قوله:« يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ »استعاره كأن الأشياء مخبوءه مستوره تحت أطباق العدم فيخرجها الله تعالى إلى الوجود واحدا بعد آخر فيكون تسميه الإيجاد بعد العدم إخراجا للخبء قريبا من تسميته بالفطر و توصيفه تعالى بأنه فاطر السماوات و الأرض و الفطر هو الشق كأنه يشق العدم فيخرج الأشياء.

و يمكن حمل الجمله على الحقيقه من غير استعاره لكنه مفتقر إلى بيان موضعه غير هذا الموضع.و قيل:المراد بالخبء الغيب و إخراجه العلم به و هو كما ترى.

و قوله:« وَ يَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَ ما تُعْلِنُونَ »بالتاء على الخطاب أى يعلم سركم و علانيتكم،و قرأ الأكثرون بالياء على الغيبه و هو أرجح.

و ملخص الحجه:أنهم إنما يسجدون للشمس دون الله تعظيما لها على ما أودع الله سبحانه فى طباعها من الآثار الحسنه و التدبير العام للعالم الأرضى و غيره،و الله الذى

أخرج جميع الأشياء من العدم إلى الوجود و من الغيب إلى الشهاده فترتب على ذلك نظام التدبير من أصله-و من جملتها الشمس و تدبيرها-أولى بالتعظيم و أحق أن يسجد له، مع أنه لا معنى لعباده ما لا شعور له بها و لا شعور للشمس بسجدتهم و الله سبحانه يعلم ما يخفون و ما يعلنون فالله سبحانه هو المتعين للسجده و التعظيم لا غير.

و بهذا البيان تبين وجه اتصال قوله تلوا« اَللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ »إلخ.

قوله تعالى:« اَللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ »من تمام كلام الهدهد و هو بمنزله التصريح بنتيجه البيان الضمنى السابق و إظهار الحق قبال باطلهم و لذا أتى أولا بالتهليل الدال على توحيد العباده ثم ضم إليه قوله:« رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ »الدال على انتهاء تدبير الأمر إليه فإن العرش الملكى هو المقام الذى تجتمع عنده أزمه الأمور و تصدر منه الأحكام الجاريه فى الملك.

و فى قوله:« رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ »مناسبه محاذاه أخرى مع قوله فى وصف ملكه سبإ:« وَ لَهٰا عَرْشٌ عَظِيمٌ »و لعل قول الهدهد هذا هو الذى دعا-أو هو من جمله ما دعا-سليمان(ع)أن يأمر أن يأتوا بعرشها إليه ليخضع لعظمه ربه كل عظمه.

قوله تعالى:« قٰالَ سَنَنْظُرُ أَ صَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكٰاذِبِينَ »الضمير لسليمان (ع).أحال القضاء فى أمر الهدهد إلى المستقبل فلم يصدقه فى قوله لعدم بينه عليه بعد و لم يكذبه لعدم الدليل على كذبه بل وعده أن يجرب و يتأمل.

قوله تعالى:« اِذْهَبْ بِكِتٰابِي هٰذٰا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مٰا ذٰا يَرْجِعُونَ » حكايه قول سليمان خطابا للهدهد كأنه قيل:فكتب سليمان كتابا ثم قال للهدهد:

اذهب بكتابى هذا إليهم أى إلى ملكه سبإ و ملئها فألقه إليهم ثم تول عنهم أى تنح عنهم وقع فى مكان تراهم فانظر ما ذا يرجعون أى ما ذا يرد بعضهم من الجواب على بعض إذا تكلموا فيه.

و قوله:« فَأَلْقِهْ »بسكون الهاء وصلا و وقفا فى جميع القراءات و هى هاء السكت،و مما قيل فى الآيه:إن قوله« ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ »إلخ،من قبيل التقديم و التأخير و الأصل فانظر ما ذا يرجعون ثم تول عنهم:و هو كما ترى.

قوله تعالى:« قٰالَتْ يٰا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتٰابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمٰانَ وَ إِنَّهُ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

»فى الكلام حذف و إيجاز و التقدير فأخذ الهدهد الكتاب و حمله إلى ملكه سبإ حتى إذا أتاها ألقاه إليها فأخذته و لما قرأته قالت لملئها و أشراف قومها يا أيها الملؤا«إلخ».

فقوله:« قٰالَتْ يٰا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتٰابٌ كَرِيمٌ »حكايه ذكرها لملئها أمر الكتاب و كيفيه وصوله إليها و مضمونه،و قد عظمته إذ وصفته بالكرم.

و قوله:« إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمٰانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ »ظاهره أنه تعليل لكون الكتاب كريما أى و السبب فيه أنه من سليمان و لم يكد يخفى عليها جبروت سليمان و ما أوتيه من الملك العظيم و الشوكه العجيبه كما اعترفت بذلك فى قولها على ما حكاه الله بعد:« وَ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهٰا وَ كُنّٰا مُسْلِمِينَ ».

« وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ :أى الكتاب باسمه تعالى فهو كريم لذلك و الوثنيون جميعا قائلون بالله سبحانه يرونه رب الأرباب و إن لم يعبدوه،و عبده الشمس منهم و هم من شعب الصابئين يعظمونه و يعظمون صفاته و إن كانوا يفسرون الصفات بنفى النقائص و الأعدام فيفسرون العلم و القدره و الحياه و الرحمه مثلا بانتفاء الجهل و العجز و الموت و القسوه فكون الكتاب باسم الله الرحمن الرحيم يستدعى كونه كريما،كما أن كونه من سليمان العظيم يستدعى كونه كريما،و على هذا فالكتاب أى مضمونه هو قوله:« أَلاّٰ تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ »و أن مفسره.

و من العجيب ما عن جمع من المفسرين أن قوله:« إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمٰانَ »استئناف وقع جوابا لسؤال مقدر كأنه قيل:ممن الكتاب و ما ذا فيه فقالت:إنه من سليمان إلخ،و على هذا يكون قوله: وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللّٰهِ بيانا للكتاب أى لمتنه و أن الكتاب هو « بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ أَلاّٰ تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ ».

و يتوجه عليهم أولا:وقوع لفظه«أن»زائده لا فائده لها و لذا قال بعضهم:إنها مصدريه و«لا»نافيه لا ناهيه و هو وجه سخيف كما سيأتى.

و ثانيا:بيان الوجه فى كون الكتاب كريما فقيل:وجه كرامته أنه كان مختوما

ففى الحديث: إكرام الكتاب ختمه حتى ادعى بعضهم أن معنى كرامه الكتاب ختمه،يقال:أكرمت الكتاب فهو كريم إذا ختمته،و قيل:إنها سمته كريما لجوده

خطه و حسن بيانه،و قيل:لوصوله إليها على منهاج غير عادى،و قيل:لظنها بسبب إلقاء الطير أنه كتاب سماوى إلى غير ذلك من الوجوه.

و أنت خبير بأنها تحكمات غير مقنعه،و الظاهر أن الذى أوقعهم فيما وقعوا حملهم قوله:« وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللّٰهِ -إلى قوله- مُسْلِمِينَ »على حكايه متن الكتاب و ذلك ينافى حمل قوله:« إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمٰانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللّٰهِ »إلخ،على تعليل كرامه الكتاب و يدفعه أن ظاهر أن المفسره فى قوله:« أَلاّٰ تَعْلُوا عَلَيَّ »إلخ،أنه نقل لمعنى الكتاب و مضمونه لا حكايه متنه فمحصل الآيتين أن الكتاب كان مبدوا ببسم الله الرحمن الرحيم و أن مضمونه النهى عن العلو عليه و الأمر بأن يأتوه مسلمين فلا محذور أصلا.

قوله تعالى:« أَلاّٰ تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ »أن مفسره تفسر مضمون كتاب سليمان كما تقدمت الإشاره إليه.

و قول بعضهم:إنها مصدريه و«لا»نافيه أى عدم علوكم على،سخيف لاستلزامه أولا:تقدير مبتدإ أو خبر محذوف من غير موجب،و ثانيا: عطف الإنشاء و هو قوله:« وَ أْتُونِي »على الإخبار.

و المراد بعلوهم عليه،استكبارهم عليه،و بقوله:« وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ »إسلامهم بمعنى الانقياد على ما يؤيده قوله:« أَلاّٰ تَعْلُوا عَلَيَّ »دون الإسلام بالمعنى المصطلح و هو الإيمان بالله سبحانه و إن كان إتيانهم منقادين له يستلزم إيمانهم بالله على ما يستفاد من سياق قول الهدهد و سياق الآيات الآتيه،و لو كان المراد بالإيمان المعنى المصطلح كان المناسب له أن يقال:أن لا تعلوا على الله.

و كون سليمان(ع)نبيا شأنه الدعوه إلى الإسلام لا ينافى ذلك فإنه كان ملكا رسولا و كانت دعوته إلى الانقياد المطلق تستلزم ذلك كما تقدم و قد انتهت إلى إسلامها لله كما حكى الله تعالى عنها« وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمٰانَ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ ».

قوله تعالى:« قٰالَتْ يٰا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مٰا كُنْتُ قٰاطِعَةً أَمْراً حَتّٰى تَشْهَدُونِ » الإفتاء إظهار الفتوى و هى الرأى،و قطع الأمر القضاء به و العزم عليه و الشهاده الحضور و هذا استشاره منها لهم تقول:أشيروا على فى هذا الأمر الذى واجهته و هو الذى يشير إليه كتاب سليمان-و إنما أستشيركم فيه لأنى لم أكن حتى اليوم

أستبد برأيی فی الأمور بل أقضی و أعزم عن إشاره و حضور منكم.

فالآيه تشير إلى فصل ثان من كلامها مع ملئها بعد الفصل الأول الذی أخبرتهم فيه بكتاب سليمان(ع)و كيفيه وصوله و ما فيه.

قوله تعالى:« قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَ أُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَ الْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِی مَا ذَا تَأْمُرِينَ » القوه ما يتقوى به على المطلوب و هی هاهنا الجند الذی يتقوى به على دفع العدو و قتاله،و البأس الشده فی العمل و المراد به النجده و الشجاعه.

و الآيه تتضمن جواب الملإ لها يسمعونها أولا ما يطيب له نفسها و يسكن به قلقها ثم يرجعون إليها الأمر يقولون طيبی نفسا و لا تحزنی فإن لنا من القوه و الشده ما لا نهاب به عدوا و إن كان هو سليمان ثم الأمر إليك مری بما شئت فنحن مطيعوك.

قوله تعالى:« قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَ كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ » إفساد القرى تخريبها و إحراقها و هدم أبنيتها،و إذلال أعزه أهلها هو بالقتل و الأسر و السبی و الإجلاء و التحكم.

كان رأيها على ما يستفاد من هاتين الآيتين---زياده التبصر فی أمر سليمان(ع) بأن ترسل إليه من يختبر حاله و يشاهد مظاهر نبوته و ملكه فيخبر الملكه بما رأى حتى تصمم هی العزم على أحد الأمرين:الحرب أو السلم و كان الظاهر من كلام الملإ«حيث بدءوا فی الكلام معها بقولهم نحن أولو قوه و أولو بأس شديد،أنهم يميلون إلى القتال لذلک أخذت أولا تذم الحرب ثم نصت على ما هو رأيها فقالت:« إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا »إلخ،أی إن الحرب لا تنتهی إلا إلى غلبه أحد المتحاربين و فيها فساد القرى و ذله أعزتها فليس من الحزم الإقدام عليها مع قوه العدو و شوكته مهما كانت إلى السلم و الصلح سبيل إلا لضروره و رأيی الذی أراه أن أرسل إليهم بهديه ثم أنظر بما ذا يرجع المرسلون من الخبر و عند ذلک أقطع بأحد الأمرين الحرب أو السلم.

فقوله:« إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا »إلخ،توطئه لقوله بعد:« وَ إِنِّی مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ »إلخ.

و قوله:« وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً »أبلغ و آكد من قولنا مثلا:استذلوا أعزتها لأنه مع الدلاله على تحقق الذله يدل على تلبسهم بصفه الذله.

و قوله:« وَ كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ »مسوق للدلاله على الاستمرار بعد دلاله قوله:

« أَفْسَدُوهٰا وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهٰا أَذِلَّةً »على أصل الوقوع،و قيل:إن الجمله من كلام الله سبحانه لا من تمام كلام ملكه سبإ و ليس بسديد إذ لا اقتضاء فى المقام لمثل هذا التصديق.

قوله تعالى:« وَ إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنٰاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ »أى مرسله إلى سليمان و هذا نوع من التجبر و الاعتزاز الملوكى تصون لسانها عن اسمه و تنسب الأمر إليه و إلى من معه جميعا و أيضا تشير به إلى أنه يفعل ما يفعل بأيدى أعضاده و جنوده و إمداد رعيته.

و قوله:« فَنٰاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ »أى حتى أعمل عند ذلك بما تقتضيه الحال و هذا-كما تقدم-هو رأى ملكه سبإ و يعلم من قوله:« اَلْمُرْسَلُونَ »أن الحامل للهديه كان جمعا من قومها كما يستفاد من قول سليمان بعد:« اِرْجِعْ إِلَيْهِمْ »أنه كان للقوم المرسلين رئيس يرأسهم.

قوله تعالى:« فَلَمّٰا جٰاءَ سُلَيْمٰانَ قٰالَ أَ تُمِدُّونَنِ بِمٰالٍ فَمٰا آتٰانِيَ اللّٰهُ خَيْرٌ مِمّٰا آتٰاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ »ضمير جاء للمال الذى أهدى إليه أو للرسول الذى جاء بالهديه.

و الاستفهام فى قوله:« أَ تُمِدُّونَنِ بِمٰالٍ »للتوبيخ و الخطاب للرسول و المرسل بتغليب الحاضر على الغائب،و توبيخ القوم من غير تعيين الملكه من بينهم نظير قولها فيما تقدم:« وَ إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ »كما أشرنا إليه.

و جوز أن يكون الخطاب للمرسلين و كانوا جماعه و هو خطأ فإن الإمداد لم يكن من المرسلين بل ممن أرسلهم فلا معنى لتوجيه التوبيخ إليهم خاصه،و تنكير المال للتحقير،و المراد بما آتانى الله الملك و النبوه.

و المعنى:أ تمدوننى بمال حقير لا قدر له عندى فى جنب ما آتانى الله فما آتانى الله من النبوه و الملك و الثروه خير مما آتاكم.

و قوله:« بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ »إضراب عن التوبيخ بإمداده بالمال إلى التوبيخ بفرحهم بهديتهم أى إن إمدادكم إياى بمال لا قدر له عندى فى جنب ما آتانى الله قبيح و فرحكم بهديتكم لاستعظامكم لها و إعجابكم بها أقبح.

و قيل:المراد بهديتكم الهديه التى تهدى إليكم،و المعنى:بل أنتم تفرحون بما

یهدی إلیکم من الهدیه لحبکم زیاده المال و أما أنا فلا أعتد بمال الدنیا هذا.و بعده ظاهر.

قوله تعالی:« اِرْجِعْ إِلَیْهِمْ فَلَنَأْتِیَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاٰ قِبَلَ لَهُمْ بِهٰا وَ لَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهٰا أَذِلَّةً وَ هُمْ صٰاغِرُونَ »الخطاب لرئیس المرسلین،و ضمائر الجمع راجعه إلی ملکه سبإ و قومها،و القبل الطاقه،و ضمیر« بِهٰا »لسبإ،و قوله:« وَ هُمْ صٰاغِرُونَ »تأکید لما قبله،و اللام فی« فَلَنَأْتِیَنَّهُمْ » و« لَنُخْرِجَنَّهُمْ »للقسم.

لما کان ظاهر تبدیلهم امتثال أمره-و هو قوله:« وَ أْتُونِی مُسْلِمِینَ »من إرسال الهدیه هو الاستنکاف عن الإسلام قدر بحسب المقام أنهم غیر مسلمین له فهددهم بإرسال جنود لا قبل لهم بها و لذلک فرع إتیانهم بالجنود علی رجوع الرسول من غیر أن یشترطه بعدم إتیانهم مسلمین فقال:« اِرْجِعْ إِلَیْهِمْ فَلَنَأْتِیَنَّهُمْ »إلخ،و لم یقل:ارجع فإن لم یأتونی مسلمین فلنأتینهم إلخ،و إن کان مرجع المعنی إلیه فإن إرسال الجنود و إخراجهم من سبإ علی حال الذله کان مشروطا به علی أی حال.

و السیاق یشهد أنه(ع)رد إلیهم هدیتهم و لم یقبلها منهم.

قوله تعالی:« قٰالَ یٰا أَیُّهَا الْمَلَؤُا أَیُّکُمْ یَأْتِینِی بِعَرْشِهٰا قَبْلَ أَنْ یَأْتُونِی مُسْلِمِینَ » کلام تکلم به بعد رد الهدیه و إرجاع الرسل،و فیه إخباره أنهم سیأتونه مسلمین و إنما أراد الإتیان بعرشها قبل حضورها و قومها عنده لیکون دلاله ظاهره علی بلوغ قدرته الموهوبه من ربه و معجزه باهره لنبوته حتی یسلموا لله کما یسلمون له و یستفاد ذلک من الآیات التالیه.

قوله تعالی:« قٰالَ عِفْرِیتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِیکَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقٰامِکَ وَ إِنِّی عَلَیْهِ لَقَوِیٌّ أَمِینٌ » العفریت -علی ما قیل-المارد الخبیث،و قوله:« آتِیکَ بِهِ » اسم فاعل أو فعل مضارع من الإتیان،و الأول أنسب للسیاق لدلالته علی التلبس بالفعل و کونه أنسب لعطف قوله:« وَ إِنِّی عَلَیْهِ »إلخ،و هو جمله اسمیه علیه.کذا قیل.

و قوله:« وَ إِنِّی عَلَیْهِ لَقَوِیٌّ أَمِینٌ »الضمیر للإتیان أی أنا للإتیان بعرشها لقوی لا یثقل علی حمله و لا یجهدنی نقله أمین لا أخونک فی هذا الأمر.

قوله تعالی:« قٰالَ الَّذِی عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْکِتٰابِ أَنَا آتِیکَ »مقابلته لمن قبله دلیل

على أنه كان من الإنس،و قد وردت الروايات عن أئمه أهل البيت(ع)أنه كان آصف بن برخيا وزير سليمان و وصيه،و قيل:هو الخضر،و قيل:رجل كان عنده اسم الله الأعظم الذى إذا سئل به أجاب و قيل:جبرئيل،و قيل:هو سليمان نفسه،و هى وجوه لا دليل على شىء منها.

و أيا ما كان و أى من كان ففصل الكلام مما قبله من غير أن يعطف عليه للاعتناء بشأن هذا العالم الذى أتى بعرشها إليه فى أقل من طرفه العين،و قد اعتنى بشأن علمه أيضا إذ نكر فقيل: عِلْمٌ مِنَ الْكِتٰابِ أى علم لا يحتمل اللفظ وصفه.

و المراد بالكتاب الذى هو مبدأ هذا العلم العجيب إما جنس الكتب السماويه أو اللوح المحفوظ،و العلم الذى أخذه هذا العالم منه كان علما يسهل له الوصول إلى هذه البغيه و قد ذكر المفسرون أنه كان يعلم اسم الله الأعظم الذى إذا سئل به أجاب، و ربما ذكر بعضهم أن ذلك الاسم هو الحى القيوم،و قيل:ذو الجلال و الإكرام، و قيل:الله الرحمن،و قيل:هو بالعبرانيه آهيا شراهيا،و قيل:إنه دعا بقوله:

يا إلهنا و إله كل شىء إلها واحدا لا إله إلا أنت ائتنى بعرشها.إلى غير ذلك مما قيل.

و قد تقدم فى البحث عن الأسماء الحسنى فى الجزء الثامن من الكتاب أن من المحال أن يكون الاسم الأعظم الذى له التصرف فى كل شىء من قبيل الألفاظ و لا المفاهيم التى تدل عليها و تكشف عنها الألفاظ بل إن كان هناك اسم له هذا الشأن أو بعض هذا الشأن فهو حقيقه الاسم الخارجيه التى ينطبق عليها مفهوم اللفظ نوعا من الانطباق و هى الاسم حقيقه و اللفظ الدال عليها اسم الاسم.

و لم يرد فى لفظ الآيه نبأ من هذا الاسم الذى ذكروه بل الذى تتضمنه الآيه أنه كان عنده علم من الكتاب،و أنه قال: أَنَا آتِيكَ بِهِ ،و من المعلوم مع ذلك أن الفعل فعل الله حقيقه،و بذلك كله يتحصل أنه كان له من العلم بالله و الارتباط به ما إذا سأل ربه شيئا بالتوجه إليه لم يتخلف عن الاستجابه و إن شئت فقل:إذا شاءه الله سبحانه.

و يتبين مما تقدم أيضا أن هذا العلم لم يكن من سنخ العلوم الفكريه التى تقبل الاكتساب و التعلم.

و قوله:« أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ » الطرف -على ما قيل-

اللحظ و النظر و ارتداد الطرف وصول المنظور إليه إلى النفس و علم الإنسان به،فالمراد أنا آتيک به فی أقل من الفاصله الزمانیه بین النظر إلى الشیء و العلم به.

و قیل: الطرف تحریک الأجفان و فتحها للنظر،و ارتداده هو انضمامها و لکونه أمرا طبیعیا غیر منوط بالقصد أوثر الارتداد على الرد فقیل: قَبْلَ أَنْ یَرْتَدَّ إِلَیْکَ طَرْفُکَ و لم یقل:قبل أن یرد.هذا.

و قد أخطأ فالطرف کالتنفس من أفعال الإنسان الاختیاریه غیر أن الذی یبعث إلیه هو الطبیعه کما فی التنفس و لذلک لا یحتاج فی صدوره إلى ترو سابق کما یحتاج إلیه فی أمثال الأکل و الشرب،فالفعل الاختیاری ما یرتبط إلى إراده الإنسان و هو أعم مما یسبقه التروی، و الذی أوقع هذا القائل فیما وقع ظنه التساوی بین الفعل الصادر عن اختیار و الصادر عن ترو،و لعل النکته فی إیثار الارتداد على الرد هی أن الفعل لعدم توقفه على التروی کأنه یقع بنفسه لا عن مشیه من اللاحظ.

و الخطاب فی قوله:« أَنَا آتِیکَ بِهِ قَبْلَ أَنْ یَرْتَدَّ إِلَیْکَ طَرْفُکَ »لسلیمان(ع) فهو الذی یرید الإتیان به إلیه و هو الذی یراد الإتیان به إلیه.

و قیل:الخطاب للعفریت القائل: أَنَا آتِیکَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِکَ و المراد بالذی عنده علم من الکتاب عند هذا القائل هو سلیمان،و إنما قاله له إظهارا لفضل النبوه و أن الذی أقدره الله علیه بتعلیمه علما من الکتاب أعظم مما یتبجح به العفریت من القدره،فالمعنى:قال سلیمان للعفریت لما قال ما قال:أنا آتیک بالعرش قبل ارتداد طرفک.

و قد أصر فی التفسیر الکبیر،على هذا القول و أورد لتأییده وجوها و هی وجوه ردیئه و أصل القول لا یلائم السیاق کما أومأنا إلیه.

قوله تعالى:« فَلَمّٰا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قٰالَ هٰذٰا مِنْ فَضْلِ رَبِّی »إلى آخر الآیه، أی لما رأى سلیمان العرش مستقرا عنده قال هذا،أی حضور العرش و استقراره عندی فی أقل من طرفه العین من فضل ربی من غیر استحقاق منی لیبلونی أی یمتحننی أ أشکر نعمته أم أکفر و من شکر فإنما یشکر لنفسه أی یعود نفعه إلیه لا إلى ربی و من کفر فلم یشکر فإن ربی غنی کریم-و فی ذیل الکلام تأکید لما فی صدره من حدیث الفضل-.

ص :۳۶۴

و قيل:المشار إليه بقوله« هٰذٰا »هو التمكن من إحضاره بالواسطه أو بالذات.

و فيه أن ظاهر قوله:« فَلَمّٰا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قٰالَ »إلخ،إن هذا الثناء مرتبط بحال الرؤيه و الذى فى حال الرؤيه هو حضور العرش عنده دون التمكن من الإحضار الذى كان متحققا منذ زمان.

و فى الكلام حذف و إيجاز،و التقدير فأذن له سليمان فى الإتيان به كذلك فأتى به كما قال:« فَلَمّٰا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ »و فى حذف ما حذف دلاله بالغه على سرعه العمل كأنه لم يكن بين دعواه الإتيان به كذلك و بين رؤيته مستقرا عنده فصل أصلا.

قوله تعالى:« قٰالَ نَكِّرُوا لَهٰا عَرْشَهٰا نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاٰ يَهْتَدُونَ قال فى المفردات:،تنكير الشىء من حيث المعنى جعله بحيث لا يعرف،قال تعالى:« قٰالَ نَكِّرُوا لَهٰا عَرْشَهٰا »و تعريفه جعله بحيث يعرف.انتهى.

و السياق يدل على أن سليمان(ع)إنما قاله حينما قصدته ملكه سبإ و ملؤها لما دخلوا عليه،و إنما أراد بذلك اختبار عقلها كما أنه أراد بأصل الإتيان به إظهار آيه باهره من آيات نبوته لها،و لذا أمر بتنكير العرش ثم رتب عليه قوله:« نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِي »إلخ،و المعنى ظاهر.

قوله تعالى:« فَلَمّٰا جٰاءَتْ قِيلَ أَ هٰكَذٰا عَرْشُكِ قٰالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهٰا وَ كُنّٰا مُسْلِمِينَ »أى فلما جاءت الملكه سليمان(ع)قيل له من جانب سليمان:

« أَ هٰكَذٰا عَرْشُكِ » و هو كلمه اختبار.

و لم يقل:أ هذا عرشك بل زيد فى التنكير فقيل: أَ هٰكَذٰا عَرْشُكِ ؟فاستفهم عن مشابهه عرشها لهذا العرش المشار إليه فى هيئته و صفاته،و فى نفس هذه الجمله نوع من التنكير.

و قوله:« قٰالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ »المراد به أنه هو و إنما عبرت بلفظ التشبيه تحرزا من الطيش و المبادره إلى التصديق من غير تثبت،و يكنى عن الاعتقادات الابتدائيه التى لم يتثبت عليها غالبا بالتشبيه.

و قوله:« وَ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهٰا وَ كُنّٰا مُسْلِمِينَ »ضمير« قَبْلِهٰا »لهذه الآيه أى الإتيان بالعرش أو لهذه الحاله أى رؤيتها له بعد ما جاءت،و ظاهر السياق أنها تتمه

کلام الملکه فهی لما رأت العرش و سألت عن أمره أحست أن ذلک منهم تلویح إلی ما آتی الله سلیمان من القدره الخارقه للعاده فأجابت بقولها:« وَ أُوتِینَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهٰا » إلخ،أی لا حاجه إلی هذا التلویح و التذکیر فقد علمنا بقدرته قبل هذه الآیه أو هذه الحاله و کنا مسلمین لسلیمان طائعین له.

و قیل:قوله:« وَ أُوتِینَا الْعِلْمَ »إلخ،من کلام سلیمان،و قیل:من کلام قوم سلیمان،و قیل من کلام الملکه،لکن المعنی و أوتینا العلم بإتیان العرش قبل هذه الحال-و هی جمیعا وجوه ردیئه-.

قوله تعالی:« وَ صَدَّهٰا مٰا کٰانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ إِنَّهٰا کٰانَتْ مِنْ قَوْمٍ کٰافِرِینَ »الصد :المنع و الصرف،و متعلق الصد الإسلام لله و هو الذی ستشهد به حین تؤمر بدخول الصرح فتقول: أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَیْمٰانَ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِینَ ،و أما قولها فی الآیه السابقه:« وَ کُنّٰا مُسْلِمِینَ »فهو إسلامها و انقیادها لسلیمان(ع).

هذا ما یعطیه سیاق الآیات و للقوم وجوه أخر فی معنی الآیه أضربنا عنها.

و قوله:« إِنَّهٰا کٰانَتْ مِنْ قَوْمٍ کٰافِرِینَ »فی مقام التعلیل للصد،و المعنی:و منعها عن الإسلام لله ما کانت تعبد من دون الله و هی الشمس علی ما تقدم فی نبإ الهدهد و السبب فیه أنها کانت من قوم کافرین فاتبعتهم فی کفرهم.

قوله تعالی:« قِیلَ لَهَا ادْخُلِی الصَّرْحَ »إلی آخر الآیه، الصرح هو القصر و کل بناء مشرف و الصرح الموضع المنبسط المنکشف من غیر سقف،و اللجه المعظم من الماء و الممرد اسم مفعول من التمرید و هو التملیس،و القواریر الزجاج.

و قوله:« قِیلَ لَهَا ادْخُلِی الصَّرْحَ »کأن القائل بعض خدم سلیمان مع حضور من سلیمان ممن کان یهدیها إلی الدخول علیه علی ما هو الدأب فی وفود الملوک و العظماء علی أمثالهم.

و قوله:« فَلَمّٰا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَ کَشَفَتْ عَنْ سٰاقَیْهٰا »أی لما رأت الصرح ظنت أنه لجه لما کان علیه الزجاج من الصفاء کالماء و کشفت عن ساقیها بجمع ثیابها لئلا تبتل بالماء أذیالها.

و قوله:« قٰالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوٰارِیرَ »القائل هو سلیمان نبهها أنه لیس بلجه

بل صرح مملس من زجاج فلما رأت ما رأت من عظمه ملك سليمان و قد كانت رأت سابقا ما رأت من أمر الهدهد و رد الهديه و الإتيان بعرشها لم تشك أن ذلك من آيات نبوته من غير أن يؤتى بحزم أو تدبير و قالت عند ذلك: رَبِّ إِنِّی ظَلَمْتُ نَفْسِی إلخ.

و قوله:« قٰالَتْ رَبِّ إِنِّی ظَلَمْتُ نَفْسِی وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمٰانَ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ » استغاثت أولا بربها بالاعتراف بالظلم إذ لم تعبد الله من بدء أو من حين رأت هذه الآيات ثم شهدت بالإسلام لله مع سليمان.

و فی قوله:« وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمٰانَ لِلّٰهِ »التفات بالنسبه إليه تعالى من الخطاب إلى الغيبه و وجهه الانتقال من إجمال الإيمان بالله إذ قالت: رَبِّ إِنِّی ظَلَمْتُ نَفْسِی »إلى التوحيد الصريح فإنها تشهد أن إسلامها لله مع سليمان فهو على نهج إسلام سليمان و هو التوحيد ثم تؤكد التصريح بتوصيفه تعالى برب العالمين فلا رب غيره تعالى لشیء من العالمين و هو توحيد الربوبيه المستلزم لتوحيد العباده الذی لا يقول به مشرك.

(كلام فی قصه سليمان(ع))

١ ما ورد من قصصه فی القرآن:

لم يرد من قصصه(ع)فی القرآن الكريم إلا نبذه يسيره غير أن التدبر فيها يهدی إلى عامه قصصه و مظاهر شخصيته الشريفه.

منها:وراثته لأبيه داود قال تعالى:« وَ وَهَبْنٰا لِدٰاوُدَ سُلَيْمٰانَ» :ص:٣٠،و قال «وَ وَرِثَ سُلَيْمٰانُ دٰاوُدَ» :النمل:١۶.

و منها:إيتاؤه الملك العظيم و تسخير الجن و الطير و الريح له و تعليمه منطق الطير و قد تكرر ذكر هذه النعم فی كلامه تعالى كما فی سوره البقره الآيه ١٠٢ و الأنبياء الآيه ٨١،و النمل الآيه ١۶-١٨،و سبإ الآيه ١٢-١٣ و_ص الآيه ٣۵-٣٩.

و منها:الإشاره إلى قصه إلقاء جسد على كرسيه كما فی سوره_ص الآيه ٣٣.

و منها:الإشاره إلى عرض الصافنات الجياد عليه كما فی سوره_ص الآيه ٣١-٣٣.

و منها:الإشاره إلى تفهيمه الحكم فی الغنم التی نفشت فی الحرث كما فی سوره الأنبياء الآيه ٧٨-٧٩.

و منها:الإشاره إلى حديث النمله كما فی سوره النمل الآيه ١٨-١٩.

و منها:قصه الهدهد و ما یتبعها من قصته(ع)مع ملکه سبإ سوره النمل الآیه ۲۰-۴۴.

و منها:الإشاره إلی کیفیه موته(ع)کما فی سوره سبإ الآیه ۱۴.

و قد أوردنا ما یخص بکل من هذه القصص من الکلام فی ذیل الآیات المشیره إلیها الموضوعه فی هذا الکتاب.

۲ الثناء علیه فی القرآن:

ورد اسمه(ع)فی بضعه عشر موضعا من کلامه تعالی و قد أکثر الثناء علیه فسماه عبدا أوابا قال تعالی: «نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّٰابٌ» :-ص:

۳۰،و وصفه بالعلم و الحکم قال تعالی: «فَفَهَّمْنٰاهٰا سُلَیْمٰانَ وَ کُلاًّ آتَیْنٰا حُکْماً وَ عِلْماً» :الأنبیاء:۷۹«و قال وَ لَقَدْ آتَیْنٰا دٰاوُدَ وَ سُلَیْمٰانَ عِلْماً» :النمل:۱۵ و قال: «وَ قٰالَ یٰا أَیُّهَا النّٰاسُ عُلِّمْنٰا مَنْطِقَ الطَّیْرِ» :النمل:۱۶،و عده من النبیین المهدیین قال تعالی:

«وَ أَیُّوبَ وَ یُونُسَ وَ هٰارُونَ وَ سُلَیْمٰانَ» :النساء:۱۶۳،و قال: «وَ نُوحاً هَدَیْنٰا مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِهِ دٰاوُدَ وَ سُلَیْمٰانَ» :الأنعام:۸۴.

۳ ذکره(ع)فی العهد العتیق:

وقعت قصته فی کتاب الملوک الأول و قد أطیل فیه فی حشمته و جلاله أمره و سعه ملکه و وفور ثروته و بلوغ حکمته غیر أنه لم یذکر فیه شیء من قصصه المشار إلیها فی القرآن إلا ما ذکر أن ملکه سبإ لما سمعت خبر سلیمان و بناءه و بیت الرب بأورشلیم و ما أوتیه من الحکمه أتت إلیه و معها هدایا کثیره فلاقته و سألته عن مسائل تمتحنه بها فأجاب عنها ثم رجعت (۱).

و قد أساء العهد العتیق القول فیه(ع)فذکر (۲)أنه(ع)انحرف فی آخر عمره عن عباده الله إلی عباده الأصنام فسجد لأوثان کانت تعبدها بعض أزواجه.

و ذکر أن والدته کانت زوج أوریا الحتی فعشقها داود(ع)ففجر بها فحبلت منه فاحتال فی قتل زوجها أوریا حتی قتل فی بعض الحروب فضمها إلی أزواجه فحبلت منه ثانیا و ولدت له سلیمان.

ص:۳۶۸

۱- ۱) الإصحاح العاشر من الملوک الأول.

۲- ۲) الإصحاح الحادی عشر و الثانی عشر من کتاب صموئیل الثانی.

و القرآن الكريم ينزه ساحته(ع)عن أول الرميتين بما ينزه به ساحه جميع الأنبياء بالنص على هدايتهم و عصمتهم و قال فيه خاصه: «وَ مٰا كَفَرَ سُلَيْمٰانُ» بقره:١٠٢.

و عن الثانيه بما يحكيه من دعائه(ع)لما سمع قول النمله: «رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلىٰ وٰالِدَيَّ» :النمل:١٩،فقد بينا فى تفسيره أن فيه دلاله على أن والدته كانت من أهل الصراط المستقيم الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين.

۴ الروايات الوارده فى قصصه(ع):

الأخبار المرويه فى قصصه و خاصه فى قصه الهدهد و ما يتبعها من أخباره مع ملكه سبإ يتضمن أكثرها أمورا غريبه قلما يوجد نظائرها فى الأساطير الخرافيه يأباها العقل السليم و يكذبها التاريخ القطعى و أكثرها مبالغه ما روى عن أمثال كعب و وهب.

و قد بلغوا من المبالغه أن ما رووا أنه(ع)ملك جميع الأرض،و كان ملكه سبعمائه سنه،و أن جميع الإنس و الجن و الوحش و الطير كانوا جنوده،و أنه كان يوضع فى مجلسه حول عرشه ستمائه ألف كرسى يجلس عليها ألوف من النبيين و مئات الألوف من أمراء الإنس و الجن.

و أن ملكه سبإ كانت أمها من الجن،و كانت قدمها كحافر الحماره و كانت تستر قدميها عن أعين النظار حتى كشفت عن ساقيها حينما أرادت دخول الصرح فبان أمرها،و قد بلغ من شوكتها أنه كان تحت يدها أربعمائه ملك كل ملك على كوره تحت يد كل ملك أربعمائه ألف مقاتل و لها ثلاثمائه وزير يدبرون ملكها و لها اثنا عشر ألف قائد تحت يد كل قائد اثنا عشر ألف مقاتل إلى غير ذلك من أعاجيب الأخبار التى لا يسعنا إلا أن نعدها من الإسرائيليات و نصفح عنها (١)

١- ١) و على من يريد الوقوف عليها أن يراجع جوامع الأخبار كالدر المنثور و العرائس و البحار و مطولات التفاسير.

(بحث روائی)

فی الاحتجاج،روی عبد الله بن الحسن بإسناده عن آبائه(ع): أنه لما أجمع أبو بکر علی منع فاطمه(ع)فدک-و بلغها ذلک جاءت إلیه و قالت له:یا ابن أبی قحافه-أ فی کتاب الله أن ترث أباک و لا أرث أبی؟لقد جئت شیئا فریا-أ فعلی عمد ترکتم کتاب الله و نبذتموه وراء ظهورکم-إذ یقول: وَ وَرِثَ سُلَیْمٰانُ دٰاوُدَ . الحدیث.

و فی تفسیر القمی،فی روایه أبی الجارود عن أبی جعفر(ع): فی قوله عز و جل:

« فَهُمْ یُوزَعُونَ »قال:یحبس أولهم علی آخرهم.

و فی الاحتجاج،عن أمیر المؤمنین(ع)فی حدیث قال: و الناظره فی بعض اللغه هی المنتظره-أ لم تسمع إلی قوله:« فَنٰاظِرَهٌ بِمَ یَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ »

و فی البصائر،بإسناده عن جابر عن أبی جعفر(ع)قال: إن اسم الله الأعظم علی ثلاث و سبعین حرفا-و إنما کان عند آصف منها حرف واحد-فتکلم به فخسف بالأرض ما بینه و بین سریر بلقیس-ثم تناول السریر بیده ثم عادت الأرض کما کانت- أسرع من طرفه عین،و عندنا نحن من الاسم اثنان و سبعون حرفا،و حرف عند الله استأثر به فی علم الغیب عنده-و لا حول و لا قوه إلا بالله العلی العظیم.:

أقول:و روی هذا المعنی أیضا عن أبی عبد الله(ع)،و رواه فی الکافی،عن جابر عن أبی جعفر و عن النوفلی عن أبی الحسن صاحب العسکر(ع) .

و

قوله: «إن الاسم الأعظم کذا حرفا و کان عند آصف حرف تکلم به» لا ینافی ما قدمنا أن هذا الاسم لیس من قبیل الألفاظ فإن نفس هذا السیاق یدل علی أن المراد بالحرف غیر الحرف اللفظی و التعبیر به من جهه أن المعهود عند الناس من الاسم الاسم اللفظی المؤلف من الحروف الملفوظه.

و فی المجمع،: فی قوله تعالی:« قَبْلَ أَنْ یَرْتَدَّ إِلَیْکَ طَرْفُکَ »ذکر فی ذلک وجوه -إلی أن قال-و الخامس أن الأرض طویت له: و هو المروی عن أبی عبد الله (ع) .

أقول:و ما رواه من الطی لا یغایر ما تقدمت روایته من الخسف.

و الذی نقله من الوجوه الأخر خمسه أحدها:أن الملائکه حملته إلیه.الثانی:

أن الریح حملته.الثالث:أن الله خلق فیه حرکات متوالیه.الرابع:أنه انخرق مکانه حیث هو هناک ثم نبع بین یدی سلیمان.الخامس:أن الله أعدمه فی موضعه و أعاده فی مجلس سلیمان.

و هناک وجه آخر ذکره بعضهم و هو أن الوجود بتجدد الأمثال بإیجاده و قد أفاض الله الوجود لعرشها فی سبإ ثم فی الآن التالی عند سلیمان.و هذه الوجوه بین ممتنع کالخامس و بین ما لا دلیل علیه کالباقی.

و فیه،و روی العیاشی فی تفسیره،بالإسناد قال: التقی موسی بن محمد بن علی بن موسی و یحیی بن أکثم-فسأله.قال:فدخلت علی أخی علی بن محمد(ع)-إذ دار بینی و بینه من المواعظ-حتی انتهیت إلی طاعته فقلت له:جعلت فداک إن ابن أکثم سألنی عن مسائل أفتیه فیها-فضحک ثم قال:هل أفتیته فیها قلت:لا.قال:و لم؟قلت:

لم أعرفها-قال:ما هی؟قلت:قال:أخبرنی عن سلیمان-أ کان محتاجا إلی علم آصف بن برخیا؟ثم ذکرت المسائل الأخر:- قال:اکتب یا أخی بسم الله الرحمن الرحیم-سألت عن قول الله تعالی فی کتابه:

« قٰالَ الَّذِی عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْکِتٰابِ »فهو آصف بن برخیا-و لم یعجز سلیمان عن معرفه ما عرف آصف-لکنه أحب أن تعرف أمته من الجن و الإنس-أنه الحجه من بعده-و ذلک من علم سلیمان أودعه آصف بأمر الله-ففهمه الله ذلک لئلا یختلف فی إمامته و دلالته-کما فهم سلیمان فی حیاه داود-لیعرف إمامته و نبوته من بعده-لتأکید الحجه علی الخلق.

أقول:و أورد الروایه فی روح المعانی،عن المجمع

ثم قال:و هو کما تری انتهی و لا تری لاعتراضه هذا وجها غیر أنه رأی حدیث الإمامه فیها فلم یعجبه.

و فی نور الثقلین،عن الکافی عن أمیر المؤمنین(ع)قال: کن لما لا ترجو أرجی منک لما ترجو-إلی أن قال-و خرجت ملکه سبإ فأسلمت مع سلیمان(ع).

[سوره النمل (۲۷): الآیات ۴۵ الی ۵۳]

اشاره

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا إِلیٰ ثَمُودَ أَخٰاهُمْ صٰالِحاً أَنِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ فَإِذٰا هُمْ فَرِیقٰانِ یَخْتَصِمُونَ (۴۵) قٰالَ یٰا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّیِّئَهِ قَبْلَ اَلْحَسَنَهِ لَوْ لاٰ تَسْتَغْفِرُونَ اَللّٰهَ لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ (۴۶) قٰالُوا اِطَّیَّرْنٰا بِکَ وَ بِمَنْ مَعَکَ قٰالَ طٰائِرُکُمْ عِنْدَ اَللّٰهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (۴۷) وَ کٰانَ فِی اَلْمَدِینَهِ تِسْعَهُ رَهْطٍ یُفْسِدُونَ فِی اَلْأَرْضِ وَ لاٰ یُصْلِحُونَ (۴۸) قٰالُوا تَقٰاسَمُوا بِاللّٰهِ لَنُبَیِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِیِّهِ مٰا شَهِدْنٰا مَهْلِکَ أَهْلِهِ وَ إِنّٰا لَصٰادِقُونَ (۴۹) وَ مَکَرُوا مَکْراً وَ مَکَرْنٰا مَکْراً وَ هُمْ لاٰ یَشْعُرُونَ (۵۰) فَانْظُرْ کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَهُ مَکْرِهِمْ أَنّٰا دَمَّرْنٰاهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِینَ (۵۱) فَتِلْکَ بُیُوتُهُمْ خٰاوِیَهً بِمٰا ظَلَمُوا إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ (۵۲) وَ أَنْجَیْنَا اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ کٰانُوا یَتَّقُونَ (۵۳)

(بيان)

إجمال من قصه صالح النبی(ع)و قومه،و جانب الإنذار فی الآیات یغلب علی جانب التبشیر کما تقدمت الإشاره إلیه.

قوله تعالی:« وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلی ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً »-إلی قوله-- یَخْتَصِمُونَ » الاختصام و التخاصم التنازع و توصیف التثنیه بالجمع أعنی قوله:« فَرِیقانِ »بقوله:

« یَخْتَصِمُونَ »لکون المراد بالفریقین مجموع الأمه و« فَإِذا »فجائیه.

و المعنی:و أقسم لقد أرسلنا إلی قوم ثمود أخاهم و نسیبهم صالحا و کان المرجو أن یجتمعوا علی الإیمان لکن فاجأهم أن تفرقوا فریقین مؤمن و کافر یختصمون و یتنازعون فی الحق کل یقول:الحق معی،و لعل المراد باختصامهم ما حکاه الله عنهم فی موضع آخر بقوله:«قالَ الْمَلَأُ الَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِینَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَ تَعْلَمُونَ

أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ» :الأعراف:۷۶.

و من هنا يظهر أن أحد الفريقين جمع من المستضعفين آمنوا به و الآخر المستكبرون و باقى المستضعفين ممن اتبعوا كبارهم.

قوله تعالى:« قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ »إلخ الاستعجال بالسيئه قبل الحسنه المبادره إلى سؤال العذاب قبل الرحمه التى سببها الإيمان و الاستغفار.

و به يظهر أن صالحا(ع)إنما وبخهم بقوله هذا بعد ما عقروا الناقه و قالوا له:

يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فيكون قوله:« لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »تحضيضا إلى الإيمان و التوبه لعل الله يرحمهم فيرفع عنهم ما وعدهم من العذاب وعدا غير مكذوب.

قوله تعالى:« قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللّهِ »إلخ التطير هو التشؤم،و كانوا يتشأمون كثيرا بالطير و لذا سموا التشؤم تطيرا و نصيب الإنسان من الشر طائرا كما قيل.

فقولهم خطابا لصالح:« اِطَّيَّرْنا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ »أى تشأمنا بك و بمن معك ممن آمن بك و لزمك لما أن قيامك بالدعوه و إيمانهم بك قارن ما ابتلينا به من المحن و البلايا فلسنا نؤمن بك.

و قوله خطابا للقوم:« طائِرُكُمْ عِنْدَ اللّهِ »أى نصيبكم من الشر و هو الذى تستوجبه أعمالكم من العذاب عند الله سبحانه.

و لذا أضرب عن قوله:« طائِرُكُمْ عِنْدَ اللّهِ »بقوله:« بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ »أى تختبرون بالخير و الشر ليمتاز مؤمنكم من كافركم و مطيعكم من عاصيكم.

و معنى الآيه:قال القوم:تطيرنا بك يا صالح و بمن معك فلن نؤمن و لن نستغفر قال صالح:طائركم الذى فيه نصيبكم من الشر عند الله و هو كتاب أعمالكم و لست أنا و من معى ذوى أثر فيكم حتى نسوق إليكم هذه الابتلاءات بل أنتم قوم تختبرون و تمتحنون بهذه الأمور ليمتاز مؤمنكم من كافركم و مطيعكم من عاصيكم.

و ربما قيل:إن الطائر هو السبب الذى منه يصيب الإنسان ما يصيبه من الخير

و الشر،فإنهم كما كانوا يتشأمون بالطير كانوا أيضا يتيمنون به و الطائر عندهم الأمر الذى يستقبل الإنسان بالخير و الشر كما فى قوله تعالى: «وَ كُلَّ إِنسٰانٍ أَلْزَمْنٰاهُ طٰائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ كِتٰاباً» :إسراء:١٣،و إذ كان ما يستقبل الإنسان من خير أو شر هو بقضاء من الله سبحانه مكتوب فى كتاب فالطائر هو الكتاب المحفوظ فيه ما قدر للإنسان.

و فيه أن ظاهر ذيل آيه الإسراء أن المراد بالطائر هو كتاب الأعمال دون كتاب القضاء كما يدل عليه قوله:« اِقْرَأْ كِتٰابَكَ كَفىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ».

و قيل:معنى« بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ »أى تعذبون،و ما ذكرناه أولا أنسب.

قوله تعالى:« وَ كٰانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ »إلخ قال الراغب: الرهط العصابه دون العشره و قيل إلى الأربعين انتهى،و قيل:الفرق بين الرهط و النفر أن الرهط من الثلاثه أو السبعه إلى العشره و النفر من الثلاثه إلى التسعه انتهى.

قيل:المراد بالرهط الأشخاص و لذا وقع تمييزا للتسعه لكونه فى معنى الجمع فقد كان المتقاسمون تسعه رجال.

قوله تعالى:« قٰالُوا تَقٰاسَمُوا بِاللّٰهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مٰا شَهِدْنٰا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَ إِنّٰا لَصٰادِقُونَ » التقاسم المشاركه فى القسم،و التبييت القصد بالسوء ليلا،و أهل الرجل من يجمعه و إياهم بيت أو نسب أو دين،و لعل المراد بأهله زوجه و ولده بقرينه قوله بعد:« ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مٰا شَهِدْنٰا »،و قوله:« وَ إِنّٰا لَصٰادِقُونَ »معطوف على قوله:« مٰا شَهِدْنٰا »فيكون من مقول القول.

و المعنى:قال الرهط المفسدون و قد تقاسموا بالله:لنقتلنه و أهله بالليل ثم نقول لوليه إذا عقبنا و طلب الثأر ما شهدنا هلاك أهله و إنا لصادقون فى هذا القول،و نفى مشاهده مهلك أهله نفى لمشاهده مهلك نفسه بالملازمه أو الأولويه،على ما قيل.

و ربما قيل:إن قوله:« وَ إِنّٰا لَصٰادِقُونَ »حال من فاعل نقول أى نقول لوليه كذا و الحال أنا صادقون فى هذا القول لأنا شهدنا مهلكه و أهله جميعا لا مهلك أهله فقط.

و لا يخفى ما فيه من التكلف و قد وجه بوجوه أخر أشد تكلفا منه و لا ملزم لأصل الحاليه.

قوله تعالى:« وَ مَكَرُوا مَكْراً وَ مَكَرْنا مَكْراً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ »أما مكرهم فهو التواطئ على تبييته و أهله و التقاسم بشهاده السياق السابق و أما مكره تعالى فهو تقديره هلاكهم جميعا بشهاده السياق اللاحق.

قوله تعالى:« فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنّا دَمَّرْناهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ » التدمير الإهلاك،و ضمائر الجمع للرهط،و كون عاقبه مكرهم هو إهلاكهم و قومهم من جهه أن مكرهم استدعى المكر الإلهى على سبيل المجازاه،و استوجب ذلك إهلاكهم و قومهم.

قوله تعالى:« فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا »إلخ، الخاويه الخاليه من الخواء بمعنى الخلاء،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى:« وَ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ »فيه تبشير للمؤمنين بالإنجاء، و قد أردفه بقوله:« وَ كانُوا يَتَّقُونَ »إذ التقوى كالمجن للإيمان و قد قال تعالى:

«وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» :الأعراف:۱۲۸،و قال: «وَ الْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى» :طه:۱۳۲.

[سوره النمل (۲۷): الآيات ۵۴ الى ۵۸]

اشاره

وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ اَلْفاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (۵۴) أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ اَلرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ اَلنِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (۵۵) فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (۵۶) فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ اِمْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ اَلْغابِرِينَ (۵۷) وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ اَلْمُنْذَرِينَ (۵۸)

ص: ۳۷۵

(بیان)

إجمال قصه لوط(ع)و هی کسابقتها فی غلبه جانب الإنذار علی جانب التبشیر.

قوله تعالی:« وَ لُوطاً إِذْ قٰالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفٰاحِشَهَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ »معطوف علی موضع« أَرْسَلْنٰا »فی القصه السابقه بفعل مضمر و التقدیر و لقد أرسلنا لوطا.کذا قیل،و یمکن أن یکون معطوفا علی أصل القصه بتقدیر اذکر و الفاحشه هی الخصله البالغه فی الشناعه و المراد بها اللواط.

و قوله:« وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ »أی و أنتم فی حال یری بعضکم بعضا و ینظر بعضکم إلی بعض حین الفحشاء فهو علی حد قوله فی موضع آخر :«وَ تَأْتُونَ فِی نٰادِیکُمُ الْمُنْکَرَ» :العنکبوت:۲۹،و قیل:المراد إبصار القلب و محصله العلم بالشناعه و هو بعید.

قوله تعالی:« أَ إِنَّکُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجٰالَ شَهْوَهً مِنْ دُونِ النِّسٰاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » الاستفهام للإنکار،و دخول أداتی التأکید-إن و اللام-علی الجمله الاستفهامیه للدلاله علی أن مضمون الجمله من الاستبعاد بحیث لا یصدقه أحد و الجمله علی أی حال فی محل التفسیر للفحشاء.

و قوله:« بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ »أی مستمرون علی الجهل لا فائده فی توبیخکم و الإنکار علیکم فلستم بمرتدعین،و وضع« تَجْهَلُونَ »بصیغه الخطاب موضع«یجهلون» من وضع المسبب موضع السبب کأنه قیل:«بل أنتم قوم یجهلون فأنتم تجهلون».

قوله تعالی:« فَمٰا کٰانَ جَوٰابَ قَوْمِهِ إِلاّٰ أَنْ قٰالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْیَتِکُمْ إِنَّهُمْ أُنٰاسٌ یَتَطَهَّرُونَ »أی یتنزهون عن هذا العمل و هو وارد مورد الاستهزاء.

قوله تعالی:« فَأَنْجَیْنٰاهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنٰاهٰا مِنَ الْغٰابِرِینَ »المراد بأهله أهل بیته لقوله تعالی: «فَمٰا وَجَدْنٰا فِیهٰا غَیْرَ بَیْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِینَ» :الذاریات:۳۶،و قوله:

« قَدَّرْنٰاهٰا مِنَ الْغٰابِرِینَ »أی جعلناها من الباقین فی العذاب.

قوله تعالی:« وَ أَمْطَرْنٰا عَلَیْهِمْ مَطَراً فَسٰاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِینَ »المراد بالمطر الحجاره من سجیل لقوله تعالی: «وَ أَمْطَرْنٰا عَلَیْهِمْ حِجٰارَهً مِنْ سِجِّیلٍ» :الحجر:۷۴،فقوله:

« مَطَراً »یدل بتنکیره علی النوعیه أی أنزلنا علیهم مطرا له نبأ عظیم.

ص:۳۷۶

[سوره النمل (۲۷): الآيات ۵۹ الى ۸۱]

اشاره

قُلِ اَلْحَمْدُ لِلّهِ وَ سَلاٰمٌ عَلىٰ عِبٰادِهِ اَلَّذِينَ اِصْطَفىٰ آللّهُ خَيْرٌ أَمّٰا يُشْرِكُونَ (۵۹) أَمَّنْ خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ اَلسَّمٰاءِ
مٰاءً فَأَنْبَتْنٰا بِهِ حَدٰائِقَ ذٰاتَ بَهْجَةٍ مٰا كٰانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهٰا أَ إِلٰهٌ مَعَ اَللّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (۶۰) أَمَّنْ جَعَلَ اَلْأَرْضَ قَرٰاراً وَ جَعَلَ
خِلاٰلَهٰا أَنْهٰاراً وَ جَعَلَ لَهٰا رَوٰاسِيَ وَ جَعَلَ بَيْنَ اَلْبَحْرَيْنِ حٰاجِزاً أَ إِلٰهٌ مَعَ اَللّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (۶۱) أَمَّنْ يُجِيبُ اَلْمُضْطَرَّ إِذٰا
دَعٰاهُ وَ يَكْشِفُ اَلسُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفٰاءَ اَلْأَرْضِ أَ إِلٰهٌ مَعَ اَللّهِ قَلِيلاً مٰا تَذَكَّرُونَ (۶۲) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمٰاتِ اَلْبَرِّ وَ اَلْبَحْرِ وَ مَنْ
يُرْسِلُ اَلرِّيٰاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَ إِلٰهٌ مَعَ اَللّهِ تَعٰالَى اَللّهُ عَمّٰا يُشْرِكُونَ (۶۳) أَمَّنْ يَبْدَؤُا اَلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ اَلسَّمٰاءِ
وَ اَلْأَرْضِ أَ إِلٰهٌ مَعَ اَللّهِ قُلْ هٰاتُوا بُرْهٰانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (۶۴) قُلْ لاٰ يَعْلَمُ مَنْ فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ اَلْغَيْبَ إِلاَّ اَللّهُ وَ مٰا
يَشْعُرُونَ أَيّٰانَ يُبْعَثُونَ (۶۵) بَلِ اِدّٰارَكَ عِلْمُهُمْ فِي اَلْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهٰا بَلْ هُمْ مِنْهٰا عَمُونَ (۶۶) وَ قٰالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا أَ إِذٰا
كُنّٰا تُرٰاباً وَ آبٰاؤُنٰا أَ إِنّٰا لَمُخْرَجُونَ (۶۷) لَقَدْ وُعِدْنٰا هٰذٰا نَحْنُ وَ آبٰاؤُنٰا مِنْ قَبْلُ إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ أَسٰاطِيرُ اَلْأَوَّلِينَ (۶۸) قُلْ سِيرُوا فِي اَلْأَرْضِ
فَانْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ اَلْمُجْرِمِينَ (۶۹) وَ لاٰ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمّٰا يَمْكُرُونَ (۷۰) وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا اَلْوَعْدُ إِنْ
كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (۷۱) قُلْ عَسىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ اَلَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (۷۲) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى اَلنّٰاسِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لاٰ يَشْكُرُونَ (۷۳) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مٰا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مٰا يُعْلِنُونَ (۷۴) وَ مٰا مِنْ غٰائِبَةٍ فِي اَلسَّمٰاءِ وَ اَلْأَرْضِ إِلاّٰ فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ
(۷۵) إِنَّ هٰذَا اَلْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلىٰ بَنِي إِسْرٰائِيلَ أَكْثَرَ اَلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۷۶) وَ إِنَّهُ لَهُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (۷۷) إِنَّ رَبَّكَ
يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْعَلِيمُ (۷۸) فَتَوَكَّلْ عَلَى اَللّهِ إِنَّكَ عَلَى اَلْحَقِّ اَلْمُبِينِ (۷۹) إِنَّكَ لاٰ تُسْمِعُ اَلْمَوْتىٰ وَ لاٰ تُسْمِعُ اَلصُّمَّ
اَلدُّعٰاءَ إِذٰا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (۸۰) وَ مٰا أَنْتَ بِهٰادِي اَلْعُمْيِ عَنْ ضَلاٰلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاّٰ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيٰاتِنٰا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (۸۱)

ص: ۳۷۷

(بيان)

انتقال من القصص التی قصها سبحانه و هی نماذج من سنته الجاریه فی النوع الإنسانی من حیث هدایته و إراءته لهم طریق سعادتهم فی الحیاه و إکرامه من اهتدی منهم إلی الصراط المستقیم بالاصطفاء و عظیم الآلاء و أخذه من أشرک به و أعرض عن ذکره و مکر به بعذاب الاستئصال و ألیم النکال.

إلی حمده و السلام علی عباده المصطفین و تقریر أنه هو المستحق للعبودیه دون غیره مما یشرکون ثم سرد الحدیث فی التوحید و إثبات المعاد و ما یناسب ذلک من

ص :۳۷۸

متفرقات المعارف الحقه فسیاق آیات السوره شبیه بما فی سوره مریم من السیاق علی ما مر.

قوله تعالی:« قُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ وَ سَلاٰمٌ عَلیٰ عِبٰادِهِ الَّذِینَ اصْطَفیٰ آللّهُ خَیْرٌ أَمّٰا یُشْرِکُونَ »لما قص من قصص الأنبیاء و أممهم ما قص و فیها بیان سنته الجاریه فی الأمم الماضین و ما فعل بالمؤمنین منهم من الاصطفاء و مزید الإحسان کما فی الأنبیاء منهم و ما فعل بالکافرین من العذاب و التدمیر-و لم یفعل إلا الخیر الجمیل و لا جرت سنته إلا علی الحکمه البالغه-انتقل منها إلی أمر نبیه بأن یحمده و یثنی علیه و أن یسلم علی المصطفین من عباده و قرر أنه تعالی هو المتعین للعباده.

فهو انتقال من القصص إلی التحمید و التسلیم و التوحید و لیس باستنتاج و إن کان فی حکمه و إلا قیل:فقل الحمد لله«إلخ»أو فالله خیر«إلخ».

فقوله:« قُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ »أمر بتحمیده و فیه إرجاع کل حمد إلیه تعالی لما تقرر بالآیات السابقه أن مرجع کل خلق و تدبیر إلیه و هو المفیض کل خیر بحکمته و الفاعل لکل جمیل بقدرته.

و قوله:« وَ سَلاٰمٌ عَلیٰ عِبٰادِهِ الَّذِینَ اصْطَفیٰ »معطوف علی ما قبله من مقول القول و فی التسلیم لأولئک العباد المصطفین نفی کل ما فی نفس المسلم من جهات التمانع و التضاد لما عندهم من الهدایه الإلهیه و آثارها الجمیله-علی ما یقتضیه معنی السلام-ففی الأمر بالسلام أمر ضمنی بالتهیؤ لقبول ما عندهم من الهدی و آثاره فهو بوجه فی معنی قوله تعالی: «أُولٰئِکَ الَّذِینَ هَدَی اللّهُ فَبِهُدٰاهُمُ اقْتَدِهْ» :الأنعام:۹۰،فافهمه.

و قوله:« آللّهُ خَیْرٌ أَمّٰا یُشْرِکُونَ »من تمام الخطاب للنبی ص و الاستفهام للتقریر و محصل المراد أنه إذا کان الثناء کله لله و هو المصطفی لعباده المصطفین فهو خیر من آلهتهم الذین یعبدونهم و لا خلق و لا تدبیر لهم یحمدون علیه و لا خیر بأیدیهم یفیضونه علی عبادهم.

قوله تعالی:« أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَکُمْ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً »إلی آخر الآیه،الحدائق جمع حدیقه و هی البستان المحدود المحوط بالحیطان و ذات بهجه صفه حدائق،قال فی مجمع البیان:،ذات بهجه أی ذات منظر حسن یبتهج به من رآه و لم یقل:ذوات بهجه لأنه أراد تأنیث الجماعه و لو أراد تأنیث الأعیان لقال:

ذوات.انتهى.

و«أم»فى الآيه منقطعه تفيد معنى الإضراب،و«من»مبتدأ خبره محذوف و كذا الشق الآخر من الترديد و الاستفهام للتقرير و حملهم على الإقرار بالحق و التقدير على ما يدل عليه السياق بل أمن خلق السماوات و الأرض«إلخ»خير أم ما يشركون.

و الأمر على هذا القياس فى الآيات الأربع التاليه.

و معنى الآيه:بل أمن خلق السماوات و الأرض و أنزل لكم أى لنفعكم من السماء و هى جهه العلو ماء و هو المطر فأنبتنا به أى بذلك الماء بساتين ذات بهجه و نضاره ما كان لكم أى لا تملكون و ليس فى قدرتكم أن تنبتوا شجرها أ إله آخر مع الله سبحانه-و هو إنكار و توبيخ.

و فى الآيه التفات من الغيبه إلى الخطاب بالنسبه إلى المشركين و النكته فيه تشديد التوبيخ بتبديل الغيبه حضورا فإن مقام الآيات السابقه على هذه الآيه مقام التكلم ممن يخاطب أحد خواصه بحضره من عبيده المتمردين المعرضين عن عبوديته يبث إليه الشكوى و هو يسمعهم حتى إذا تمت الحجه و قامت البينه كما فى قوله:« آللّٰهُ خَيْرٌ أَمّٰا يُشْرِكُونَ »هاج به الوجد و الأسف فتوجه إليهم بعد الإعراض فأخذ فى حملهم على الإقرار بالحق بذكر آيه بعد آيه و إنكار شركهم و توبيخهم عليه بعدولهم عنه إلى غيره و عدم علم أكثرهم و قله تذكرهم مع تعاليه عن شركهم و عدم برهان منهم على ما يدعون.

و قوله:« بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ »أى عن الحق إلى الباطل و عن الله سبحانه إلى غيره و قيل:أى يعدلون بالله غيره و يساوون بينهما.

و فى الجمله التفات من الخطاب إلى الغيبه بالنسبه إلى المشركين و رجوع إلى خطاب النبى ص و الإضراب فيه لبيان أن لا جدوى للسير فى حملهم على الحق فإنهم عادلون عنه.

قوله تعالى:« أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرٰاراً »إلى آخر الآيه، القرار مصدر بمعنى اسم الفاعل أى القار المستقر،و الخلال جمع خلل بفتحتين و هو الفرجه بين الشيئين، و الرواسى جمع راسيه و هى الثابته و المراد بها الجبال الثابتات،و الحاجز هو المانع

المتخلل بين الشيئين.

و المعنى:بل أمن جعل الأرض مستقره لا تميد بكم،و جعل فى فرجها التى فى جوفها أنهارا و جعل لها جبالا ثابته و جعل بين البحرين مانعا من اختلاطهما و امتزاجهما هو خير أم ما يشركون؟و الكلام فى قوله:« أَ إِلهٌ مَعَ اللّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ » كالكلام فى نظيره من الآيه السابقه.

قوله تعالى:« أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللّهِ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ »المراد بإجابه المضطر إذا دعاه استجابه دعاء الداعين و قضاء حوائجهم و إنما أخذ وصف الاضطرار ليتحقق بذلك من الداعى حقيقه الدعاء و المسأله إذ ما لم يقع الإنسان فى مضيقه الاضطرار و كان فى مندوحه من المطلوب لم يتمحض منه الطلب و هو ظاهر.

ثم قيده بقوله:« إِذا دَعاهُ »للدلاله على أن المدعو يجب أن يكون هو الله سبحانه و إنما يكون ذلك عند ما ينقطع الداعى عن عامه الأسباب الظاهريه و يتعلق قلبه بربه وحده و أما من تعلق قلبه بالأسباب الظاهريه فقط أو بالمجموع من ربه و منها فليس يدعو ربه و إنما يدعو غيره.

فإذا صدق فى الدعاء و كان مدعوه ربه وحده فإنه تعالى يجيبه و يكشف السوء الذى اضطره إلى المسأله كما قال تعالى: «ادْعُونِی أَسْتَجِبْ لَکُمْ» :المؤمن:۶۰،فلم يشترط للاستجابه إلا أن يكون هناك دعاء حقيقه و أن يكون ذلك الدعاء متعلقا به وحده،و قال أيضا: «وَ إِذا سَأَلَکَ عِبادِی عَنِّی فَإِنِّی قَرِیبٌ أُجِیبُ دَعْوَهَ الدّاعِ إِذا دَعانِ» :البقره:۱۸۶،و قد فصلنا القول فى معنى الدعاء فى الجزء الثانى من الكتاب فى ذيل الآيه.

و بما مر من البيان يظهر فساد قول بعضهم إن اللام فى« اَلْمُضْطَرَّ »للجنس دون الاستغراق فكم من مضطر يدعو فلا يجاب فالمراد إجابه دعاء المضطر فى الجمله لا بالجمله.

وجه الفساد أن مثل قوله:« اُدْعُونِی أَسْتَجِبْ لَکُمْ »و قوله:« فَإِنِّی قَرِیبٌ أُجِیبُ دَعْوَهَ الدّاعِ إِذا دَعانِ »يأبى تخلف الدعاء عن الاستجابه،و قوله:كم من مضطر يدعو

فلا يجاب،غير مسلم إذا كان دعاء حقيقه لله سبحانه وحده كما تقدم بيانه.

على أن هناك آيات كثيره تدل على أن الإنسان يتوجه عند الاضطرار كركوب السفينه نحو ربه فيدعوه بالإخلاص فيستجاب له كقوله تعالى: «وَ إِذٰا مَسَّ الْإِنْسٰانَ الضُّرُّ دَعٰانٰا لِجَنْبِهِ أَوْ قٰاعِداً أَوْ قٰائِماً XالآيهX:يونس:١٢،و قوله:« حَتّٰى إِذٰا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ Xإلى قولهX وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» :يونس:٢٢، و كيف يتصور تعلق النفس بتوجهها الغريزى الفطرى بأمر لا اطمئنان لها به فما قضاء الفطره فى ذلك إلا كقضائها عند إدراك حاجتها الوجوديه إلى من يوجدها و يدبر أمرها أن هناك أمرا يرفع حاجتها و هو الله سبحانه.

فإن قلت:نحن كثيرا ما نتوسل فى حوائجنا من الأسباب الظاهريه بما لا نقطع بفعليه تأثيره فى رفع حاجتنا و إنما نتعلق به رجاء أن ينفعنا إن نفع.

قلت:هذا توسل فكرى مبدؤه الطمع و الرجاء و هو غير التوسل الغريزى الفطرى نعم فى ضمنه نوع من التوجه الغريزى الفطرى و هو التسبب بمطلق السبب و مطلق السبب لا يتخلف،فافهم.

و ظهر أيضا فساد قول من قال:المراد بالمضطر المذنب إذا دعاه استغفره فإن الله يغفر له و هو إجابته.

و فيه أن إشكال الاستغراق بحاله فما كل استغفار يستتبع المغفره و لا كل مستغفر يغفر له.على أنه لا دليل على تقييد إطلاق المضطر بالمذنب العاصى.

و ذكر بعضهم:أن الاستغراق بحاله لكن ينبغى تقييد الإجابه بالمشيه كما وقع ذلك فى قوله تعالى: «فَيَكْشِفُ مٰا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شٰاءَ» :الأنعام:٤١.

و فيه أن الآيه واقعه فى سياق لا تصلح معه لتقييد الإجابه فى آيه المضطر و هو قوله تعالى:« قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتٰاكُمْ عَذٰابُ اللّٰهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السّٰاعَةُ أَ غَيْرَ اللّٰهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ بَلْ إِيّٰاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مٰا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شٰاءَ »فالساعه من القضاء المحتوم لا يتعلق بكشفها طلب حقيقى،و أما العذاب الإلهى فإن طلب كشفه بتوبه و إيمان حقيقى فإن الله يكشفه كما كشف عن قوم يونس و إن لم يكن كذلك بل احتيالا للنجاه منه فلا لعدم كونه طلبا حقيقيا بل مكرا فى صوره الطلب كما حكاه الله عن فرعون لما

أدرکه الغرق «قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاَّ الَّذِی آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِیلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِینَ آلْآنَ وَ قَدْ عَصَیْتَ قَبْلُ وَ کُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِینَ» :یونس:۹۱،و حکی عن أقوام آخرین أخذهم بالعذاب: «قالُوا یا وَیْلَنا إِنّا کُنّا ظالِمِینَ فَما زالَتْ تِلْکَ دَعْواهُمْ حَتّی جَعَلْناهُمْ حَصِیداً خامِدِینَ» :الأنبیاء:۱۵.

و بالجمله فمورد قوله:« فَیَکْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَیْهِ إِنْ شاءَ »لما کان مما یمکن أن یکون الطلب فیه حقیقیا أو غیر حقیقی کان من اللازم تقیید الکشف و الإجابه فیه بالمشیه فیکشف الله عنهم إن شاء و ذلک فی مورد حقیقه الطلب و الإیمان و لا یکشف إن لم یشأ و هذا غیر مورد آیه المضطر و سائر آیات إجابه الدعوه الذی یتضمن حقیقه الدعاء من الله سبحانه وحده.

و قوله:« وَ یَجْعَلُکُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ »الذی یعطیه السیاق أن یکون المراد بالخلافه الخلافه الأرضیه التی جعلها الله للإنسان یتصرف بها فی الأرض و ما فیها من الخلیقه کیف یشاء کما قال تعالی: «وَ إِذْ قالَ رَبُّکَ لِلْمَلاٰئِکَهِ إِنِّی جاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِیفَهً» :البقره:۳۰.

و ذلک أن تصرفاته التی یتصرف بها فی الأرض و ما فیها بخلافته أمور مرتبطه بحیاته متعلقه بمعاشه فالسوء الذی یوقعه موقع الاضطرار و یسأل الله کشفه لا محاله شیء من الأشیاء التی تمنعه التصرف أو بعض التصرف فیها و تغلق علیه باب الحیاه و البقاء و ما یتعلق بذلک أو بعض أبوابها ففی کشف السوء عنه تتمیم لخلافته.

و یتضح هذا المعنی مزید اتضاح لو حمل الدعاء و المسأله فی قوله:« إِذا دَعاهُ » علی الأعم من الدعاء اللسانی کما هو الظاهر من قوله تعالی: «وَ آتاکُمْ مِنْ کُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللّٰهِ لاٰ تُحْصُوها» :إبراهیم:۳۴،و قوله: «یَسْئَلُهُ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» :الرحمن:۲۹،إذ یکون علی هذا جمیع ما أوتی الإنسان و رزقه من التصرفات من مصادیق کشف السوء عن المضطر المحتاج إثر دعائه فجعله خلیفه یتبع إجابه دعائه و کشف السوء الذی اضطره عنه.

و قیل:المعنی و یجعلکم خلفاء من قبلکم من الأمم فی الأرض تسکنون مساکنهم و تتصرفون فیها بعدهم هذا.و ما قدمناه من المعنی أنسب منه للسیاق.

و قیل:المعنی:و یجعلکم خلفاء من الکفار بنزول بلادهم و طاعه الله تعالی بعد شرکهم و عنادهم.و فیه أن الخطاب فی الآیه کسائر الآیات الخمس التی قبلها للکفار لا للمؤمنین کما علیه بناء الوجه.

و قوله:« قَلِیلاً مٰا تَذَکَّرُونَ »خطاب توبیخی للکفار و قرئ« یذکرون » بالیاء للغیبه و هو أرجح لموافقته ما فی ذیل سائر الآیات الخمس کقوله:« بَلْ هُمْ قَوْمٌ یَعْدِلُونَ »« بَلْ أَکْثَرُهُمْ لاٰ یَعْلَمُونَ »و غیرهما،فإن الخطاب فیها جمیعا للنبی ص بطریق الالتفات کما مر بیانه.

قوله تعالی:« أَمَّنْ یَهْدِیکُمْ فِی ظُلُمٰاتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ مَنْ یُرْسِلُ الرِّیٰاحَ بُشْراً بَیْنَ یَدَیْ رَحْمَتِهِ »إلخ،و المراد بظلمات البر و البحر ظلمات اللیالی فی البر و البحر ففیه مجاز عقلی،و المراد بإرسال الریاح بشرا إرسالها مبشرات بالمطر قبیل نزوله و الرحمه المطر، و الباقی ظاهر.

قوله تعالی:« أَمَّنْ یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ وَ مَنْ یَرْزُقُکُمْ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ »إلخ، بدء الخلق إیجاده ابتداء لأول مره و إعادته إرجاعه إلیه بالبعث و تبکیت المشرکین بالبدء و الإعاده مع إنکارهم البعث کما سیذکره بقوله:« وَ قٰالَ الَّذِینَ کَفَرُوا »إلخ، بناء علی ثبوت المعاد بالأدله القاطعه فی کلامه فأخذ کالمسلم ثم استدرک إنکارهم له أو شکهم فیه فی الآیات التالیه.

و قیل:المراد ببدء الخلق ثم إعادته إیجاد الواحد من نوعه ثم إهلاکه و إیجاد نظیره بعده و بالجمله إیجاد المثل بعد المثل فلا یرد أن المشرکین منکرون للمعاد فکیف یحتج به علیهم.هذا و هو بعید من ظاهر الآیه.

و ما تتضمنه الآیه من لطائف الحقائق القرآنیه یفید أن لا بطلان فی الوجود مطلقا بل ما أوجده الله تعالی بالبدء سیرجع إلیه بالإعاده و ما نشاهده من الهلاک فیها فقدان منا له بعد وجدانه.

و أما ما أجمع علیه المتکلمون من امتناع إعاده المعدوم فی بعض الموجودات کالأعراض و اختلفوا فی جواز إعاده بعض آخر کالجواهر،لا ارتباط له بمسأله البعث علی ما تقرره الآیه،فإن البعث لیس من باب إعاده المعدوم حتی یمتنع بامتناع إعادته

لو امتنعت بل البعث عود الخلق و رجوعه و هو خلق من غير بطلان إلى ربه المبدئ له.

و قوله:« وَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ »إشاره إلى ما وقع من تدبيره لأمرهم بين البدء و العود و هو رزقهم بأسباب سماويه كالأمطار و أسبابها و الأرضيه كعامه ما يتغذى به الإنسان من الأرضيات.

و قوله:« قُلْ هٰاتُوا بُرْهٰانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ »لما ذكر سبحانه فصولا مشتمله على عامه الخلق و التدبير مع الإشاره إلى ارتباط التدبير بعضه ببعض و ارتباط الجميع إلى الخلق و عاد الخلق و التدبير بذلك أمرا واحدا منتسبا إليه قائما به تعالى و أثبت بذلك أنه تعالى هو رب كل شيء وحده لا شريك له و كان لازم ذلك إبطال ألوهيه الآلهه التى يدعونها من دون الله.

-و ذلك أن الألوهيه و هى استحقاق العباده تتبع الربوبيه التى هى تدبير عن ملك فالعباده على ما يتداولونها إما لتكون شكرا للنعمه أو اتقاء للنقمه و على أى حال ترتبط بالتدبير الذى هو من شئون الربوبيه-.

-و كان إبطال ألوهيه الآلهه من دون الله هو الغرض من الفصول الموروده فى هذه الآيات كما يدل على ذلك قوله بعد إيراد كل واحد من الفصول:« أَ إِلٰهٌ مَعَ اللّٰهِ ».

أمر نبيه ص بقوله:« قُلْ هٰاتُوا بُرْهٰانَكُمْ »أن يطالبهم بالبرهان على ما يدعونه من ألوهيه آلهتهم ليظهر بانقطاعهم أنهم مجازفون فى دعواهم إذ لو استدلوا على ألوهيتها بشيء كان من الواجب أن ينسبوا إليها شيئا من تدبير العالم و الحال أن جميع الخلق و التدبير له تعالى وحده.

قوله تعالى:« قُلْ لاٰ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللّٰهُ وَ مٰا يَشْعُرُونَ أَيّٰانَ يُبْعَثُونَ »لما أمره(ص)بعد إبطال ألوهيه آلهتهم بانتساب الخلق و التدبير إليه تعالى وحده أن يطالبهم بالبرهان على ما يدعونه أمره ثانيا أن يواجههم ببرهان آخر على بطلان ألوهيه آلهتهم و هو عدم علمهم بالغيب و عدم شعورهم بالساعه و أنهم أيان يبعثون مع أنه لا يعلم أحد ممن فى السماوات و الأرض-و منهم آلهتهم الذين هم الملائكه

و الجن و قـديسو البشـر-الغيب و ما يشـعرون أيان يبعثون،و لو كانوا آلهه لهم تـدبير أمر الخلق-و من التـدبير الجزاء يوم البعث- لعلموا بالساعه.

و قـد ظهر بهـذا البيـان أن قوله:« لاٰ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللّٰهُ »برهان مسـتقل على بطلان ألوهيه آلهتهم و اختصاص الألوهيه به تعالى وحده و أن قوله:« وَ مٰا يَشْعُرُونَ أَيّٰانَ يُبْعَثُونَ »من عطف أوضح أفراد الغيب عليه و أهمها علما بالنسبه إلى أمر التدبير.

و ظهر أيضا أن ضميرى الجمع فى« وَ مٰا يَشْعُرُونَ أَيّٰانَ يُبْعَثُونَ »لمن فى السماوات لعدم تمام البيان بدونه.

فقول بعضـهم:إن الضـمير للمشـركين و إن كـان عـدم الشـعور بما ذكر عاما لئلا يلزم التفكيك بينه و بين الضـمائر الآتيه الراجعه إليهم قطعا.

فيه أنه ينافى ما سيقت له الآيه الكريمه من البيان كما قدمنا الإشاره إليه و التفكيك بين الضمائر مع وجود القرينه لا بأس به.

قوله تعالى:« بَلِ ادّٰارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَهِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهٰا بَلْ هُمْ مِنْهٰا عَمُونَ » ادارک فى الأصل تـدارک و التدارک تتابع أجزاء الشـىء بعضـها بعـد بعض حتى تنقطع و لا يبقى منها شـىء،و معنى تـدارک علمهم فى الآخره أنهم صرفوا ما عنـدهم من العلم فى غيرها حتى نفد علمهم فلم يبق منه شىء يدركون به أمر الآخره على حد قوله تعالى:

«فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّٰى عَنْ ذِكْرِنٰا وَ لَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيٰاهَ الدُّنْيٰا ذٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ» :النجم:۳۰ و« عَمُونَ »جمع عمى.

لمـا انتهى احتجـاجه تعالى إلى ذكر عـدم شـعور أحد غيره تعالى بوقت البعث و تبكيت المشركين بـذلك رجع إلى نبيه ص و ذكره أنهم فى معزل عن الخطاب بـذلك إذ لاـ خبر لهم عن شـىء عن أمور الآـخره فضـلا عن وقت قيـام السـاعه و ذلـك أنهم صرفوا مـا عنـدهم من العلم فى جهـات الحيـاه الـدنيا فهم فى جهـل مطلق بالنسبه إلى أمور الآـخره بـل هم فى شـک من الآخره يرتابون فى أمرها كما يظهر من احتجاجاتهم على نفيها المبنيه على الاسـتبعاد بل هم منها عمون و الله أعمى قلوبهم عن التصديق بها و الاعتقاد بوجودها.

و قد ظهر بهذا البيان أن تكرر كلمه الإضراب لبيان مراتب الحرمان من العلم بالآخره و أنهم فى أعلاها،فقوله:« بَلِ ادّٰارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ »أى لا علم لهم بها كأنها لم تقرع سمعهم،و قوله:« بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهٰا »أى أنه قرع سمعهم خبرها و ورد قلوبهم لكنهم ارتابوا و لم يصدقوا بها،و قوله:« بَلْ هُمْ مِنْهٰا عَمُونَ »أى إنهم لم ينقطعوا عن الاعتقاد بها من عند أنفسهم و باختيار منهم بل الله سبحانه أعمى أبصار قلوبهم فصاروا عمين فهيهات أن يدركوا من أمرها شيئا.

و قيل:المراد بتدارك علمهم تكامله و بلوغه حد اليقين لتكامل الحجج الداله على حقيه البعث و الجمله مسوقه للتهكم،و فيه أنه لا يلائم ما يتبعه من الإضراب بالشك و العمى.

قوله تعالى:« وَ قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَ إِذٰا كُنّٰا تُرٰاباً وَ آبٰاؤُنٰا أَ إِنّٰا لَمُخْرَجُونَ -إلى قوله- اَلْأَوَّلِينَ »حكايه حجه منهم لنفى البعث مبنيه على الاستبعاد أى كيف يمكن أن نخرج من الأرض بشرا تامين كما نحن اليوم و قد متنا و كنا ترابا نحن و آباؤنا كذلك؟.

و قوله:« لَقَدْ وُعِدْنٰا هٰذٰا نَحْنُ وَ آبٰاؤُنٰا مِنْ قَبْلُ »حجه أخرى منهم مبنيه على الاستبعاد أى لقد وعدنا هذا و هو البعث بعد الموت نحن و آباؤنا وعدوه قبل أن يعدنا هذا النبى و الذين وعدوا قبلا هم الأنبياء الماضون فهو وعد قديم لم نزل نوعد به و لو كان خبرا صادقا و وعدا حقا لوقع إلى هذا اليوم و إذ لم يقع فهو من الخرافات التى اختلقها الأولون و كانوا مولعين باختلاق الأوهام و الخرافات و الإصغاء إليها.

قوله تعالى:« قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ »إنذار و تخويف لهم على إنكارهم وعد الأنبياء بالبعث بأمرهم أن يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبه المجرمين المكذبين للأنبياء المنذرين لهم بالبعث فإن فى النظر إلى عاقبه أمرهم على ما تدل عليه مساكنهم الخربه و ديارهم الخاليه كفايه للمعتبرين من أولى الأبصار،و فى التعبير عن المكذبين بالمجرمين لطف بالمؤمنين فى ترك الجرائم.

كذا قيل.

و يمكن أن تقرر الآيه حجه تدل على المعاد و تقريبها أن انتهاء عاقبه أمر المجرمين

إلى عـذاب الاستئصـال دليـل على أن الاـجرام و الظلم من شـأنه أن يؤاخـذ عليه و أن العمل إحسانا كان أو إجراما محفوظ على عامله سيحاسب عليه و إذ لم تقع عامه هذا الحساب و الجزاء-و خاصه على الأعمال الصالحه-فى الدنيا فذلك لا محاله فى نشأه أخرى و هى الدار الآخره.

فتكون الآـيه فى معنى قوله تعـالى: «أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجّارِ» :-ص:٢٨،و يؤيد هذا التقرير قوله:

« عَاقِبَهُ الْمُجْرِمِينَ »و لو كان المراد تهديـد مكـذبى الرسل و تخويفهم كان الأنسب أن يقال:عاقبه المكذبين،كما تقدمت الإشاره إليه.

قـوله تعـالى:« وَ لاـ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لاـ تَكُنْ فِى ضَـيْقٍ مِمّـا يَمْكُرُونَ »أى لاـ يحزنـك إصـرارهم على الكفر و الجحود و لاـ يضـق صدرك من مكرهم لإبطال دعوتك و صدهم الناس عن سبيل الله فإنهم بعين الله و ليسوا بمعجزيه و سيجزيهم بأعمالهم.

فالآيه مسوقه لتطييب نفس النبى ص،و قوله:« وَ لا تَكُنْ فِى ضَيْقٍ »إلخ، معطوف على ما قبله عطف التفسير.

قـوله تعـالى:« وَ يَقُولُونَ مَـتى هَـذَا الْوَعْـدُ إِنْ كُنْتُمْ صَـادِقِينَ »الظـاهر أن المراد بالوعـد الوعـد بعـذاب المجـازاه أعم من الـدنيا و الآخره،و السياق يؤيد ذلك و الباقى ظاهر.

قوله تعالى:« قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ »قالوا:

إن اللاـم فى« رَدِفَ لَكُمْ »مزيـده للتأكيـد،كالبـاء فى قوله: «وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَهِ» :البقره:١٩٨،و المعنى تبعكـم و لحق بكم،و قيل:إن ردف مضمن معنى فعل يعدى باللام.

و المراد ببعض الـذى يسـتعجلونه هو عـذاب الـدنيا قبـل عـذاب الآـخره فـإنهم كانوا يسـتعجلون إنجاز ما وعـدهم الله من الحكم الفصل،و هو ملازم لعـذابهم،و عـذابهم فى الـدنيا بعض العذاب الذى يسـتعجلونه باسـتنجاز الوعد،و لعل مراد الآيه به عذاب يوم بدر كما قيل.

قالوا:إن«عسى و لعل»من الله تعالى واجب لأن حقيقه الترجى مبنيه على

الجهل و لا يجوز عليه تعالى ذلك فمعنى قوله:« عَسىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ »سيردفكم و يأتيكم العذاب محققا.

و فيه أن معنى الترجى و التمنى و نحوهما كما جاز أن يقوم بنفس المتكلم يجوز أن يقوم بالمقام أو بالسامع أو غيرهما و هو فى كلامه تعالى قائم بغير المتكلم من المقام و غيره و ما فى الآيه من الجواب لما أرجع إلى النبى ص كان الرجاء المدلول عليه بكلمه عسى قائما بنفسه الشريفه و المعنى: قل أرجو أن يكون ردف لكم العذاب.

و فى تفسير أبى السعود:،و عسى و لعل و سوف فى مواعيد الملوك بمنزله الجزم بها، و إنما يطلقونها إظهارا للوقار،و إشعارا بأن الرمز من أمثالهم كالتصريح ممن عداهم و على ذلك مجرى وعد الله تعالى و وعيده انتهى و هو وجه وجيه.

و معنى الآيه:قل لهؤلاء السائلين عن وقت الوعد:أرجو أن يكون تبعكم بعض الوعد الذى تستعجلونه و هو عذاب الدنيا الذى يقربكم من عذاب الآخره و يؤديكم إليه،و فى التعبير بقوله:« رَدِفَ لَكُمْ »إيماء إلى قربه.

قوله تعالى:« وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّٰاسِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَشْكُرُونَ » معنى الآيه فى نفسها ظاهر و وقوعها فى سياق التهديد و التخويف يفيد أن تأخيره تعالى العذاب عنهم مع استحقاقهم ذلك إنما هو فضل منه عليهم يجب عليهم شكره عليه لكنهم لا يشكرونه و يسألون تعجيله.

قوله تعالى:« وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مٰا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مٰا يُعْلِنُونَ »أى إن تأخير العذاب ليس عن جهل منه تعالى بحالهم و ما يستحقونه بالكفر و الجحود فإنه يعلم ما تستره و تخفيه صدورهم و ما يظهرونه.

ثم أكد ذلك بأن كل غائبه-و هى ما من شأنه أن يغيب و يخفى فى أى جهه من جهات العالم كان-مكتوب محفوظ عنده تعالى و هو قوله:« وَ مٰا مِنْ غٰائِبَةٍ فِي السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ إِلاّٰ فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ ».

قوله تعالى:« إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلىٰ بَنِي إِسْرٰائِيلَ »-إلى قوله-اَلْعَزِيزُ الْعَلِيمُ » تطييب لنفس النبى ص و تمهيد لما سيذكره من حقيه دعوته و تقويه لإيمان المؤمنين به، و بهذا الوجه يتصل بقوله قبلا:« وَ لاٰ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ »إلخ المشعر بحقيه دعوته.

فقوله:« إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلىٰ بَنِی إِسْرٰائِیلَ أَکْثَرَ الَّذِی هُمْ فِیهِ یَخْتَلِفُونَ » یشیر إلی ما یقصه القرآن من قصص الأنبیاء و یبین الحق فیما اختلفوا فیه من أمرهم و منه أمر المسیح(ع)و یبین الحق فیما اختلفوا فیه من المعارف و الأحکام.

و قوله:« وَ إِنَّهُ لَهُدیً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِینَ »یشیر إلی أنه یهدی المؤمنین بما قصه علی بنی إسرائیل إلی الحق و أنه رحمه لهم تطمئن به قلوبهم و یثبت الإیمان بذلک فی نفوسهم.

و قوله:« إِنَّ رَبَّکَ یَقْضِی بَیْنَهُمْ بِحُکْمِهِ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْعَلِیمُ »إشاره إلی أن القضاء بینهم إلی الله فهو ربه العزیز الذی لا یغلب فی أمره العلیم لا یجهل و لا یخطئ فی حکمه فهو القاضی بینهم بحکمه فلترض نفس النبی ص بربه العزیز العلیم قاضیا حکما و لترجع الأمر إلیه کما ینبغی أن تفعل مثل ذلک فی حق المشرکین و لا تحزن علیهم و لا تکون فی ضیق مما یمکرون.

قوله تعالی:« فَتَوَکَّلْ عَلَی اللّٰهِ إِنَّکَ عَلَی الْحَقِّ الْمُبِینِ »تفریع علی مجموع ما أمر به قبال کفر المشرکین و اختلاف بنی إسرائیل أی إن أمرهم جمیعا إلی الله لا إلیک فاتخذه وکیلا فهو کافیک و لا تخافن شیئا إنک فی أمن من الحق.

قوله تعالی:« إِنَّکَ لاٰ تُسْمِعُ الْمَوْتیٰ -إلی قوله- فَهُمْ مُسْلِمُونَ »تعلیل للأمر بالتوکل أی إنما أمرناک بالتوکل علی الله فی أمر إیمانهم و کفرهم لأنهم موتی و لیس فی وسعک أن تسمع الموتی دعوتک و إنهم صم لا یسمعون و عمی ضالون لا تقدر علی إسماع الصم إذا ولوا مدبرین-و لعله قید عدم إسماع الصم بقوله:« إِذٰا وَلَّوْا مُدْبِرِینَ » لأنهم لو لم یکونوا مدبرین لأمکن تفهیمهم بنوع من الإشاره-و لا علی هدایه العمی عن ضلالتهم،و إنما الذی تقدر علیه هو أن تسمع من یؤمن بآیاتنا الداله علینا و تهدیهم فإنهم لإذعانهم بتلک الحجج الحقه مسلمون لنا مصدقون بما تدل علیه.

و قد تبین بهذا البیان أولا أن المراد بالإسماع الهدایه.

و ثانیا:أن المراد بالآیات الحجج الداله علی التوحید و ما یتبعه من المعارف الحقه.

و ثالثا:أن من تعقل الحجج الحقه من آیات الآفاق و الأنفس بسلامه من العقل ثم استسلم لها بالإیمان و الانقیاد لیس هو من الموتی و لا ممن ختم الله علی سمعه و بصره.

(بحث روائی)

فی تفسیر القمی، ": فی قوله تعالی:« وَ سَلاٰمٌ عَلیٰ عِبٰادِهِ الَّذِینَ اصْطَفیٰ »قال:هم آل محمد(ع).":

أقول:و رواه أیضا فی جمع الجوامع،عنهم(ع)مرسلا مضمرا

،و قد عرفت فیما تقدم من البیان فی ذیل الآیه أن الذی یعطیه السیاق أن المراد بهم بحسب مورد الآیه الأنبیاء المنعمون بنعمه الاصطفاء و قد قص الله قصص جمع منهم فقوله(ع) -لو صحت الروایه-هم آل محمد(ع)من قبیل الجری و الانطباق.

و نظیرها ما رواه فی الدر المنثور،عن عده من أصحاب الکتب عن ابن عباس، ":فی الآیه قال:هم أصحاب محمد فهو-لو صحت الروایه-إجراء منه و تطبیق.

و منه یظهر ما فیما رواه أیضا عن عبد بن حمید و ابن جریر عن سفیان الثوری ":

فی الآیه قال:نزلت فی أصحاب محمد خاصه،فلا نزول و لا اختصاص.

و فی تفسیر القمی،أیضا ":فی قوله تعالی:« بَلْ هُمْ قَوْمٌ یَعْدِلُونَ »قال:عن الحق.

و فیه،:فی قوله تعالی:« أَمَّنْ یُجِیبُ الْمُضْطَرَّ إِذٰا دَعٰاهُ »الآیه،:

حدثنی أبی عن الحسن بن علی بن فضال عن صالح بن عقبه عن أبی عبد الله(ع)قال: نزلت فی القائم من آل محمد(ع)-هو و الله المضطر إذا صلی فی المقام رکعتین-و دعا إلی الله عز و جل-فأجابه و یکشف السوء و یجعله خلیفه فی الأرض.

أقول:و الروایه أیضا من الجری و الآیه عامه.

و فی الدر المنثور،أخرج الطبرانی عن سعد بن جناده قال:قال رسول الله ص:

من فارق الجماعه فهو فی النار علی وجهه-لأن الله تعالی یقول:« أَمَّنْ یُجِیبُ الْمُضْطَرَّ إِذٰا دَعٰاهُ-وَ یَکْشِفُ السُّوءَ وَ یَجْعَلُکُمْ خُلَفٰاءَ الْأَرْضِ »فالخلافه من الله عز و جل-فإن کان خیرا فهو یذهب به-و إن کان شرا فهو یؤخذ به،علیک أنت بالطاعه فیما أمر الله به.

أقول:الروایه لا تخلو من شیء فقد تقدم أن المراد بالخلافه فی الآیه-علی ما یشهد به السیاق-الخلافه الأرضیه المقدره لکل إنسان و هو السلطه علی ما فی الأرض بأنواع التصرف دون الخلافه بمعنی الحکومه علی الأمه بإداره رحی مجتمعهم.

و مع الغض عن ذلك فمتن الروايه لا يخلو عن تدافع فإن كان المراد بكون الخلافه من الله تعالى أن سلطانه على الناس بتقدير من الله و بعباره أخرى انتسابها التكوينى إلى الله سبحانه كما ورد فى ملك نمرود من قوله تعالى: «أَنْ آتٰاهُ اللّٰهُ الْمُلْكَ» :البقره:

۲۵۸،و قوله حكايه عن فرعون: «أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ» :الزخرف:۵۱،فمن البين أن الخلافه بهذا المعنى لا تستتبع وجوب الطاعه و حرمه المخالفه و إلا كان نقضا لأصل الدعوه الدينيه و إيجابا لطاعه أمثال نمرود و فرعون و كم لها من نظير،و إن كان المراد به الجعل الوضعى الدينى و بعباره أخرى انتسابها التشريعى إلى الله تعالى ثم وجبت طاعته فيما يأمر به و إن كان معصيه كان ذلك نقضا صريحا للأحكام،و إن كان الواجب طاعته فى غير معصيه الله

لقوله(ص): «لا طاعه لمخلوق فى معصيه الخالق» جازت مفارقه الجماعه فى الجمله و هو يناقض صدر الروايه.

و نظير الإشكال يجرى فى قوله ذيلا:«عليك أنت بالطاعه فيما أمر الله به»فلو كان المراد مما أمر الله به طاعته مقام الخلافه و إن كان فى معصيه كان نقضا صريحا لتشريع الأحكام و إن كان المراد به طاعه الله و إن استلزم معصيه مقام الخلافه كان ناقضا لصدر الروايه.

و قد اتضح اليوم بالأبحاث الاجتماعيه أن إمضاء حكومه من لا يحترم القوانين المقدسه الجاريه لا يرضى به مجتمع عاقل رشيد فمن الواجب تنزيه ساحه مشرع الدين عن ذلك،و القول بأن مصلحه حفظ وحده الكلمه و اتفاق الأمه أهم من حفظ بعض الأحكام بالمفارقه معناه جواز هدم حقيقه الدين لحفظ اسمه.

و فى الدر المنثور،أيضا أخرج الطيالسى و سعيد بن منصور و أحمد و عبد بن حميد و البخارى و مسلم و الترمذى و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن مسروق قال": كنت متكئا عند عائشه فقالت عائشه:ثلاث من تكلم بواحده منهن فقد أعظم على الله الفريه.قلت:و ما هن؟قالت:من زعم أن محمدا رأى ربه- فقد أعظم على الله الفريه-قال:و كنت متكئا فجلست و قلت:يا أم المؤمنين أنظرينى و لا تعجلى على أ لم يقل الله:« وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ »« وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرىٰ »؟

فقالت:أنا أول هذه الأمه سأل هذا رسول الله ص-فقال:جبرئيل.لم أره على صورته التى خلق عليها-غير هاتين المرتين رأيته منهبطا من السماء سادا-عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض.قالت:أ لم تسمع الله عز و جل يقول:« لاٰ تُدْرِكُهُ اَلْأَبْصٰارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ اَلْأَبْصٰارَ-وَ هُوَ اَللَّطِيفُ اَلْخَبِيرُ »؟أ و لم تسمع الله يقول:« وَ مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اَللّٰهُ إِلاّٰ وَحْياً -إلى قوله- عَلِيٌّ حَكِيمٌ ».

و من زعم أن محمدا كتم شيئا من كتاب الله-فقد أعظم على الله الفريه و الله جل ذكره يقول:« يٰا أَيُّهَا اَلرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ-وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ وَ اَللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ اَلنّٰاسِ ».

قالت:و من زعم أنه يخبر الناس بما يكون فى غد-فقد أعظم على الله الفريه و الله تعالى يقول:« قُلْ لاٰ يَعْلَمُ مَنْ فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ اَلْغَيْبَ إِلاَّ اَللّٰهُ .

أقول:و فى متن الروايه شىء أما آيات الرؤيه فإنما تنفى رؤيه الحس دون رؤيه القلب و هى من الرؤيه وراء الإيمان الذى هو الاعتقاد و قد أشبعنا الكلام فيها فى الموارد المناسبه له.

و أما قوله تعالى:« يٰا أَيُّهَا اَلرَّسُولُ بَلِّغْ »الآيه فقد أوضحنا فى تفسير الآيه أنها خاصه غير عامه و لو فرضت عامه فإنما تدل على أن كل ما أنزل إليه مما فيه رساله وجب عليه تبليغه و من الجائز أن ينزل إليه ما يختص علمه به(ص)فيكتمه عن غيره.

و أما قوله:« قُلْ لاٰ يَعْلَمُ مَنْ فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ اَلْغَيْبَ إِلاَّ اَللّٰهُ »فلا يدل إلا على اختصاص علم الغيب بالذات به تعالى كسائر آيات اختصاص الغيب به،و لا ينفى علم الغير به بتعليم منه تعالى كما يشير إليه قوله: «عٰالِمُ اَلْغَيْبِ فَلاٰ يُظْهِرُ عَلىٰ غَيْبِهِ أَحَداً إِلاّٰ مَنِ اِرْتَضىٰ مِنْ رَسُولٍ» :الجن:۲۷،و قد حكى الله سبحانه نحوا من هذا الإخبار عن المسيح(ع)إذ قال: «وَ أُنَبِّئُكُمْ بِمٰا تَأْكُلُونَ وَ مٰا تَدَّخِرُونَ» :آل عمران:۴۹،و من المعلوم أن القائل إن النبى ص كان يخبر الناس بما يكون فى غد لا ينفى كون ذلك بتعليم من الله له.

و قد تواترت الأخبار على تفرقها و تنوعها من طرق الفريقين على إخباره(ص) بكثير من الحوادث المستقبله.

[سوره النمل (۲۷): الآيات ۸۲ الى ۹۳]

اشاره

وَ إِذا وَقَعَ اَلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دابَّةً مِنَ اَلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ اَلنّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ (۸۲) وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً
مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ (۸۳) حَتّى إِذا جاؤُ قالَ أَ كَذَّبْتُمْ بِآياتِي وَ لَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً أَمّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۸۴) وَ وَقَعَ
اَلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ (۸۵) أَ لَمْ يَرَوْا أَنّا جَعَلْنَا اَللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَ اَلنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
(۸۶) وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي اَلصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي اَلسَّماواتِ وَ مَنْ فِي اَلْأَرْضِ إِلاّ مَنْ شاءَ اَللّهُ وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ (۸۷) وَ تَرَى اَلْجِبالَ
تَحْسَبُها جامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ اَلسَّحابِ صُنْعَ اَللّهِ اَلَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ (۸۸) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ
هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (۸۹) وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي اَلنّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۹۰) إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ
أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ اَلْبَلْدَةِ اَلَّذِي حَرَّمَها وَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ اَلْمُسْلِمِينَ (۹۱) وَ أَنْ أَتْلُوَا اَلْقُرْآنَ فَمَنِ اِهْتَدى فَإِنَّما
يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ اَلْمُنْذِرِينَ (۹۲) وَ قُلِ اَلْحَمْدُ لِلّهِ سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ
(۹۳)

(بیان)

هی من تمام الفصل السابق من الآیات تشیر إلی البعث و بعض ما یلحق به من الأمور الواقعه فیه و بعض أشراطه و تختم السوره بما یرجع إلی مفتتحها من الإنذار و التبشیر.

قوله تعالی« وَ إِذٰا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنٰا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النّٰاسَ كٰانُوا بِآيٰاتِنٰا لاٰ يُوقِنُونَ »مقتضی السیاق-بما أن الآیه متصله بما قبلها من الآیات الباحثه عن أمر المشرکین المعاصرین للنبی ص أو خصوص أهل مکه من قریش و قد کانوا أشد الناس عداوه للنبی ص و دعوته-أن ضمائر« عَلَيْهِمْ »و« لَهُمْ » و« تُكَلِّمُهُمْ »للمشرکین المحدث عنهم لکن لا لخصوصهم بل بما أنهم ناس معنیون بالدعوه فالمراد بالحقیقه عامه الناس من هذه الأمه من حیث وحدتهم فیلحق بأولهم من الحکم ما یلحق بآخرهم و هذا النوع من العنایه کثیر الورود فی کلامه تعالی.

و المراد بوقوع القول علیهم تحقق مصداق القول فیهم و تعینهم لصدقه علیهم کما فی الآیه التالیه:« وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمٰا ظَلَمُوا »أی حق علیهم العذاب،فالجمله فی معنی« حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ »و قد کثر وروده فی کلامه تعالی،و الفرق بین التعبیرین أن العنایه فی« وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ »بتعینهم مصداقا للقول و فی« حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » باستقرار القول و ثبوته فیهم بحیث لا یزول.

و أما ما هو هذا القول الواقع علیهم فالذی یصلح من کلامه تعالی لأن یفسر به قوله: «سَنُرِيهِمْ آيٰاتِنٰا فِي الْآفٰاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ :حم السجده:

۵۳،فإن المراد بهذه الآیات التی سیریهم غیر الآیات السماویه و الأرضیه التی هی بمرآهم و مسمعهم دائما قطعا بل بعض آیات خارقه للعاده تخضع لها و تضطر للإیمان بها أنفسهم فی حین لا یوقنون بشیء من آیات السماء و الأرض التی هی تجاه أعینهم و تحت مشاهدتهم.

و بهذا یظهر أن قوله:(أَنَّ النّٰاسَ كٰانُوا بِآيٰاتِنٰا لاٰ يُوقِنُونَ)تعلیل لوقوع القول علیهم و التقدیر لأن الناس،و قوله:(كٰانُوا)لإفاده استقرار عدم الإیقان فیهم و المراد بالآیات الآیات المشهوده من السماء و الأرض غیر الآیات الخارقه،و قرئ(أَنَّ)بکسر

الهمزه و هی أرجح من قراءه الفتح فیؤید ما ذکرناه و تکون الجمله بلفظها تعلیلا من دون تقدیر اللام.

و قوله:(أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ)بیان لآیه خارقه من الآیات الموعوده فی قوله:(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) و فی کونه وصفا لأمر خارق للعاده دلاله علی أن المراد بالإخراج من الأرض إما الإحیاء و البعث بعد الموت و إما أمر یقرب منه،و أما کونها دابه تکلمهم فالدابه ما یدب فی الأرض من ذوات الحیاه إنسانا کان أو حیوانا غیره فإن کان إنسانا کان تکلیمه الناس علی العاده و إن کان حیوانا أعجم کان تکلیمه کخروجه من الأرض خرقا للعاده.

و لا نجد فی کلامه تعالی ما یصلح لتفسیر هذه الآیه و أن هذه الدابه التی سیخرجها لهم من الأرض فتکلمهم ما هی؟و ما صفتها؟و کیف تخرج؟و ما ذا تتکلم به؟بل سیاق الآیه نعم الدلیل علی أن القصد إلی الإبهام فهو کلام مرموز فیه.

و محصل المعنی:أنه إذا آل أمر الناس-و سوف یئول-إلی أن کانوا لا یوقنون بآیاتنا المشهوده لهم و بطل استعدادهم للإیمان بنا بالتعقل و الاعتبار آن وقت أن نریهم ما وعدنا إراءته لهم من الآیات الخارقه للعاده المبینه لهم الحق بحیث یضطرون إلی الاعتراف بالحق فأخرجنا لهم دابه من الأرض تکلمهم.

هذا ما یعطیه السیاق و یهدی إلیه التدبر فی الآیه من معناها،و قد أغرب المفسرون حیث أمعنوا فی الاختلاف فی معانی مفردات الآیه و جملها و المحصل منها و فی حقیقه هذه الدابه و صفتها و معنی تکلیمها و کیفیه خروجها و زمان خروجها و عدد خروجها و المکان الذی تخرج منه فی أقوال کثیره لا معول فیها إلا علی التحکم،و لذا أضربنا عن نقلها و البحث عنها،و من أراد الوقوف علیها فعلیه بالمطولات.

قوله تعالی:(وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ) الفوج کما ذکره الراغب- الجماعه الماره المسرعه،و الإیزاع إیقاف القوم و حبسهم بحیث یرد أولهم علی آخرهم.

و قوله:(وَ يَوْمَ نَحْشُرُ)منصوب علی الظرفیه لمقدر و التقدیر و اذکر یوم نحشر و المراد بالحشر هو الجمع بعد الموت لأن المحشورین فوج من کل أمه و لا اجتماع لجمیع

الأمم فی زمان واحد و هم أحیاء،و(مِنْ)فی قوله:(مِنْ کُلِّ أُمَّهٍ)للتبعیض،و فی قوله:(مِمَّنْ یُکَذِّبُ)للتبیین أو للتبعیض.

و المراد بالآیات فی قوله:(یُکَذِّبُ بِآیاتِنا)مطلق الآیات الداله علی المبدإ و المعاد و منها الأنبیاء و الأئمه و الکتب السماویه دون الساعه و ما یقع فیها و عند قیامها و دون الآیات القرآنیه فقط لأن الحشر لیس مقصورا علی الأمه الإسلامیه بل أفواج من أمم شتی.

و من العجیب إصرار بعضهم علی أن الکلام نص فی أن المراد بالآیات هاهنا و فی الآیه التالیه هی الآیات القرآنیه قال:لأنها هی المنطویه علی دلائل الصدق التی لم یحیطوا بها مع وجوب أن یتأملوا و یتدبروا فیها لا مثل الساعه و ما فیها انتهی.

و فساده ظاهر لأن عدم کون أمثال الساعه و ما فیها مراده لا یستلزم إراده الآیات القرآنیه مع ظهور أن المحشورین أفواج من جمیع الأمم و لیس القرآن إلا کتابا لفوج واحد منهم.

و ظاهر الآیه أن هذا الحشر فی غیر یوم القیامه لأنه حشر للبعض من کل أمه لا لجمیعهم و قد قال الله تعالی فی صفه الحشر یوم القیامه: (وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً) :الکهف:۴۷.

و قیل:المراد بهذا الحشر هو الحشر للعذاب بعد الحشر الکلی الشامل لجمیع الخلق فهو حشر بعد حشر.

و فیه أنه لو کان المراد الحشر إلی العذاب لزم ذکر هذه الغایه دفعا للإبهام کما فی قوله تعالی: (وَ یَوْمَ یُحْشَرُ أَعْداءُ اللّهِ إِلَی النّارِ فَهُمْ یُوزَعُونَ حَتّی إِذا ما جاؤُها) :حم السجده:۲۰ مع أنه لم یذکر فی ما بعد هذه الآیه إلا العتاب و الحکم الفصل دون العذاب و الآیه کما تری مطلقه لم یشر فیها إلی شیء یلوح إلی هذا الحشر الخاص المذکور و یزیدها إطلاقا قوله بعدها:(حَتّی إِذا جاؤُ)فلم یقل:حتی إذا جاءوا العذاب أو النار أو غیرها.

و یؤید ذلک أیضا وقوع الآیه و الآیتین بعدها بعد نبإ دابه الأرض و هی من أشراط الساعه و قبل قوله:(وَ یَوْمَ یُنْفَخُ فِی الصُّورِ)إلی آخر الآیات الواصفه لوقائع یوم القیامه،و لا معنی لتقدیم ذکر واقعه من وقائع یوم القیامه علی ذکر شروعه و وقوع عامه ما یقع فیه فإن الترتیب الوقوعی یقتضی ذکر حشر فوج من کل أمه لو کان من وقائع یوم القیامه بعد ذکر نفخ الصور و إتیانهم إلیه داخرین.

و قـد تنبه لهـذا الإشـكال بعض من حمل الآيه على الحشـر يوم القيامه فقال:لعل تقديم ذكر هذه الواقعه على نفخ الصور و وقوع الواقعه للإيـذان بـأن كلا مما تضـمنه هـذا و ذاك من الأحوال طامه كبرى و داهيه دهياء حقيقه بالتـذكير على حيالها و لو روعى الترتيب الوقوعى لربما توهم أن الكل داهيه واحده.

و أنت خبير بـأنه وجه مختلق غير مقنع،و لو كـان كمـا ذكر لكـان دفع توهم كون الحشـر المـذكور فى الآـيه فى غير يوم القيـامه بوضع الآيه بعد آيه نفخ الصور مع ذكر ما يرتفع به الإبهام المذكور أولى بالرعايه من دفع هذا التوهم الذى توهمه.

فقد بان أن الآيه ظاهره فى كون هذا الحشر المذكور فيها قبل يوم القيامه و إن لم تكن نصا لا يقبل التأويل.

قوله تعـالى:(حَتّٰى إِذٰا جٰاؤُ قٰالَ أَ كَذَّبْتُمْ بِآيٰاتِي وَ لَمْ تُحِيطُوا بِهٰا عِلْماً أَمّٰا ذٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)المراد بالمجىء-بإعانه من السياق-هو الحضور فى موطن الخطاب المـدلول عليه بقوله:(قٰالَ أَ كَذَّبْتُمْ)إلـخ و المراد بالآيات-كما تقـدم فى الآيه السابقه-مطلق الآيات الـداله على الحق،و قوله:(وَ لَمْ تُحِيطُوا بِهٰا عِلْماً)جمله حاليه أى كـذبتم بها حال كونكم لا علم لكم بها لإعراضـكم عنها فكيف كذبتم بما لا تعلمون أى رميتموها بالكذب و عدم الدلاله من غير علم،و قوله:(أَمّٰا ذٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)أى غير التكذيب.

و المعنى:حتى إذا حضـروا فى موطن الخطاب قال الله سـبحانه لهم:أ كـذبتم بآياتى حال كونكم لم تحيطوا بها علما أم أى شـىء كنتم تعملون غير التكـذيب،و فى ذلـك عتـابهم بأنهم لم يشـتغلوا بشـىء غير تكـذيبهم بآيات الله من غير أن يشـغلهم عنه شاغل معذر.

قوله تعالى:(وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمٰا ظَلَمُوا فَهُمْ لاٰ يَنْطِقُونَ)الباء فى(بِمٰا ظَلَمُوا) للسببيه و(ما)مصدريه أى وقع القول عليهم بسبب كونهم ظالمين،و قوله:(فَهُمْ لاٰ يَنْطِقُونَ)تفريع على وقوع القول عليهم.

و بـذلك يتأيـد أن المراد بالقول الـذى يقع عليهم قوله تعالى: (إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰالِمِينَ) :الأنعام:۱۴۴،و المعنى:و لكونهم ظالمين فى تكذيبهم بالآيات لم يهتدوا إلى ما يعتذرون به فانقطعوا عن الكلام فهم لا ينطقون.

و ربمـا فسر وقوع القول عليهم بوجوب العـذاب عليهم و الأـنسب على هـذا أن يكون المراد بـالقول الواقع عليهم قضـاؤه تعـالى بالعذاب فى حق الظالمين فى مثل قوله:

(أَلاّ إِنَّ الظّالِمِينَ فِى عَذّابٍ مُقِيمٍ) :الشورى:۴۵،و المعنى:و لكونهم ظالمين قضى فيهم بالعذاب فلم يكن عندهم ما ينطقون به،و الوجه السابق أوجه.

و أما تفسير وقوع القول بحلول العذاب و دخول النار فبعيد من السياق لعدم ملاءمته التفريع فى قوله: فَهُمْ لاٰ يَنْطِقُونَ .

قوله تعالى:(أَ لَمْ يَرَوْا أَنّٰا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهٰارَ مُبْصِراً إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)لما وصف فى الآيات السابقه أن كثيرا من الناس فى صمم و عمى من استماع كلمه الحق و النظر فى آيات الله و الاعتبار بهما،ثم ذكر دابه الأرض و أنه سيخرجها آيه خارقه للعاده تكلمهم،ثم ذكر أنه سيحشر فوجا من كل أمه من المكذبين فيعاتبهم فتتم عليهم الحجه بقولهم بغير علم بالآيات لإعراضهم عنها وبخهم فى هذه الآيه و لامهم على تكذيبها بالآيات مع الجهل أنهم كانوا يرون الليل الذى يسكنون فيه بالطبع و أن هناك نهارا مبصرا يظهر لهم بها آيات السماء و الأرض فلم لم يتبصروا؟.

و قوله:(إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)أى فى جعل الليل سكنا يسكنون فيه و النهار مبصرا يبصرون فيه آيات السماء و الأرض آيات لقوم فيهم خاصه الإذعان و التصديق للحق اللائح لهم.

و المراد بالآيات العلامات و الجهات الداله فيهما على التوحيد و ما يتبعه من حقائق المعارف،و من جمله ذلك دلالتهما على أن الإنسان عليه أن يسكن فيما من شأنه أن يسكن فيه،و هو الليل الذى يضرب بحجاب ظلمته على الأبصار،و يتحرك فيما من شأنه أن يتحرك فيه و هو النهار المبصر الذى يظهر به الأشياء التى تتضمن منافع الحياه للأبصار.

فعلى الإنسان أن يسكت عما حجبته عنه ظلمه الجهل و لا يقول بغير علم و لا يكذب بما لا يحيط به علما و أن يقول و يؤمن بما تجليه له بينات الآيات التى هى كالنهر المبصره.

قوله تعالى:(وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِى السَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِى الْأَرْضِ إِلاّٰ مَنْ شٰاءَ اللّٰهُ وَ كُلٌّ أَتَوْهُ دٰاخِرِينَ) النفخ فى الصور كنايه عن إعلام الجماعه الكثيرين كالعسكر بما يجب عليهم أن يعملوا به جمعا كالحضور و الارتحال و غير ذلك،و الفزع كما قال الراغب انقباض و نفار يعترى الإنسان من الشىء المخيف و هو من جنس الجزع،و الدخور الذله و الصغار.

قیل:المراد بهذا النفخ النفخه الثانیه للصور التی بها تنفخ الحیاه فی الأجساد فیبعثون لفصل القضاء،و یؤیده قوله فی ذیل الآیه:(وَ کُلٌّ أَتَوْهُ دٰاخِرِینَ)و المراد به حضورهم عند الله سبحانه،و یؤیده أیضا استثناؤه(مَنْ شٰاءَ اللّٰهُ)من حکم الفزع ثم قوله فیمن جاء بالحسنه:(وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ یَوْمَئِذٍ آمِنُونَ)حیث یدل علی أن الفزع المذکور هو الفزع فی النفخه الثانیه.

و قیل:المراد به النفخه الأولی التی یموت بها الأحیاء بدلیل قوله: (وَ نُفِخَ فِی الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ إِلاّٰ مَنْ شٰاءَ اللّٰهُ ثُمَّ نُفِخَ فِیهِ أُخْریٰ فَإِذٰا هُمْ قِیٰامٌ یَنْظُرُونَ) :الزمر:۶۸،فإن الصعقه من الفزع و قد رتب علی النفخه الأولی و علی هذا یکون المراد بقوله:« وَ کُلٌّ أَتَوْهُ دٰاخِرِینَ)رجوعهم إلی الله سبحانه بالموت.

و لا یبعد أن یکون المراد بالنفخ فی الصور یومئذ مطلق النفخ أعم مما یمیت أو یحیی فإن النفخ کیفما کان من مختصات الساعه،و یکون ما ذکر من فزع بعضهم و أمن بعضهم من الفزع و سیر الجبال من خواص النفخه الأولی و ما ذکر من إتیانهم داخرین من خواص النفخه الثانیه و یندفع بذلک ما یورد علی کل واحد من الوجهین السابقین.

و قد استثنی سبحانه جمعا من عباده من حکم الفزع العام الشامل لمن فی السماوات و الأرض، و سیجیء کلام فی معنی هذا الاستثناء فی الکلام علی قوله الآتی:(وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ یَوْمَئِذٍ آمِنُونَ).

و الظاهر أن المراد بقوله:(وَ کُلٌّ أَتَوْهُ دٰاخِرِینَ)رجوع جمیع من فی السماوات و الأرض حتی المستثنین من حکم الفزع و حضورهم عنده تعالی،و أما قوله: (فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلاّٰ عِبٰادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِینَ) :الصافات:۱۲۷،فالظاهر أن المراد نفی إحضارهم فی الجمع للحساب و السؤال لا نفی بعثهم و رجوعهم إلی الله و حضورهم عنده فآیات القیامه ناصه علی عموم البعث لجمیع الخلائق بحیث لا یشذ منهم شاذ.

و نسبه الدخور و الذله إلی أولیائه تعالی لا تنافی ما لهم من العزه عند الله فإن عزه العبد عند الله ذلته عنده و غناه بالله فقره إلیه نعم ذله أعدائه بما یرون لأنفسهم من العزه الکاذبه ذله هوان.

قوله تعالی:(وَ تَرَی الْجِبٰالَ تَحْسَبُهٰا جٰامِدَةً وَ هِیَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحٰابِ صُنْعَ اللّٰهِ الَّذِی

أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمٰا تَفْعَلُونَ

)الآيه بما أنها واقعه فی سیاق آیات القیامه محفوفه بها تصف بعض ما یقع یومئذ من الآیات و هو سیر الجبال و قد قال تعالی فی هذا المعنی أیضا: (وَ سُيِّرَتِ الْجِبٰالُ فَكٰانَتْ سَرٰاباً) :النبأ:۲۰،إلی غیر ذلک.

فقوله:(وَ تَرَى الْجِبٰالَ)الخطاب للنبی ص و المراد به تمثیل الواقعه،کما فی قوله: (وَ تَرَى النّٰاسَ سُكٰارىٰ) :الحج:۲، أی هذا حالها المشهوده فی هذا الیوم تشاهدها لو کنت مشاهدا،و قوله:(تَحْسَبُهٰا جٰامِدَةً)أی تظنها الآن و لم تقم القیامه بعد جامده غیر متحرکه،و الجمله معترضه أو حالیه.

و قوله:(وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحٰابِ)حال من الجبال و عاملها(تَرَى)أی تراها إذا نفخ فی الصور حال کونها تسیر سیر السحاب فی السماء.

و قوله:(صُنْعَ اللّٰهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)مفعول مطلق لمقدر أی صنعه صنعا و فی الجمله تلویح إلی أن هذا الصنع و الفعل منه تعالی تخریب للدنیا و هدم للعالم،لکنه فی الحقیقه تکمیل لها و إتقان لنظامها لما یترتب علیه من إنهاء کل شیء إلی غایته و إیصاله إلی وجهته التی هو مولیها من سعاده أو شقاوه لأن ذلک صنع الله الذی أتقن کل شیء فهو سبحانه لا یسلب الإتقان عما أتقنه و لا یسلط الفساد علی ما أصلحه ففی تخریب الدنیا تعمیر الآخره.

و قوله:« إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمٰا تَفْعَلُونَ)قیل:إنه تعلیل لکون ما ذکر من النفخ فی الصور و ما بعده صنعا محکما له تعالی فإن علمه بظواهر أفعال المکلفین و بواطنها مما یستدعی إظهارها و بیان کیفیاتها علی ما هی علیه من الحسن و السوء و ترتیب آثارها من الثواب و العقاب علیها بعد البعث و الحشر و تسییر الجبال.

و أنت تری ما فیه من التکلف و أن السیاق بعد ذلک کله لا یقبله.

و قیل:إن قوله:(إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمٰا تَفْعَلُونَ)استئناف فی حکم الجواب عن سؤال مقدر کأنه قیل:فما ذا یکون بعد هذه القوارع فقیل إن الله خبیر بعمل العاملین فیجازیهم علی أعمالهم و فصل بقوله:(مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهٰا)إلی آخر الآیتین.

و هاهنا وجه آخر مستفاد من الإمعان فی سیاق الآیات السابقه فإن الله سبحانه أمر فیها نبیه ص أن یتوکل علیه و یرجع أمر المشرکین و بنی إسرائیل إلیه فإنه إنما

يستطيع هدايه المؤمنين بآياته المستسلمين للحق و أما المشركون فى جحودهم و بنو إسرائيل فى اختلافهم فإنهم موتى لا يسمعون و صم عمى لا يسمعون و لا يهتدون إلى الحق بالنظر فى آيات السماء و الأرض و الاعتبار بها باختيار منهم.

ثم ذكر ما سيواجههم به-و حالهم هذه الحال لا يؤثر فيهم الآيات-و أنه سيخرج لهم دابه من الأرض تكلمهم و هى آيه خارقه تضطرهم إلى قبول الحق و أنه يحشر من كل أمه فوجا من المكذبين فيتم عليهم الحجه،و بالآخره هو خبير بأفعالهم سيجزى من جاء بحسنه أو سيئه بعمله يوم ينفخ فى الصور ففزعوا و أتوه داخرين.

و بالتأمل فى هذا السياق يظهر أن الأنسب كون(يَوْمَ يُنْفَخُ)ظرفا لقوله:(إنه خبير بما يفعلون)و قراءه(يفعلون)بياء الغيبه أرجح من القراءه المتداوله على الخطاب.

و المعنى:و إنه تعالى خبير بما يفعله أهل السماوات و الأرض يوم ينفخ فى الصور و يأتونه داخرين يجزى من جاء بالحسنه بخير منها و من جاء بالسيئه بكب وجوههم فى النار كل مجزى بعمله،و على هذا تكون الآيه فى معنى قوله تعالى: «أَ فَلاٰ يَعْلَمُ إِذٰا بُعْثِرَ مٰا فِي الْقُبُورِ وَ حُصِّلَ مٰا فِي الصُّدُورِ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ) :العاديات:١١،و قوله:

(يَوْمَ هُمْ بٰارِزُونَ لاٰ يَخْفىٰ عَلَى اللّٰهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ) :المؤمن:١۶،و يكون قوله:(مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَهِ)إلخ،تفصيلا لقوله:(إنه خبير بما يفعلون)من حيث لازم الخبره و هو الجزاء بما فعل و عمل كما أشار إليه ذيلا بقوله:(هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) و الالتفات من الغيبه إلى الخطاب فى قوله:(هَلْ تُجْزَوْنَ)إلخ،لتشديد التقريع و التأنيب.

و فى الآيه أعنى قوله:(وَ تَرَى الْجِبٰالَ تَحْسَبُهٰا جٰامِدَهً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحٰابِ) إلخ،قولان آخران:

أحدهما:حملها على الحركه الجوهريه و أن الأشياء كالجبال تتحرك بجوهرها إلى غايه وجودها و هى حشرها و رجوعها إلى الله سبحانه.

و هذا المعنى أنسب بالنظر إلى ما فى قوله:(تَحْسَبُهٰا جٰامِدَهً)من التلويح إلى أنها اليوم متحركه و لما تقم القيامه،و أما جعل يوم القيامه ظرفا لحسبان الجمود و للمرور كالسحاب جميعا فمما لا يلتفت إليه.

و ثانيهما:حملها على حركه الأرض الانتقاليه و هو بالنظر إلى الآيه فى نفسها معنى

جيد إلا أنه أولا:يوجب انقطاع الآيه عما قبلها و ما بعدها من آيات القيامه و ثانيا:

ينقطع بذلك اتصال قوله:(إنه خبير بما يفعلون)بما قبله.

قوله تعالى:(مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهٰا وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ)هذه الآيه و ما بعدها-كما تقدمت الإشاره إليه-تفصيل لقوله:(إنه خبير بما يفعلون) من حيث أثره الذى هو الجزاء و المراد بقوله:(مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهٰا)أن له جزاء هو خير مما جاء به من الحسنه و ذلك لأن العمل أيا ما كان مقدمه للجزاء مقصود لأجله و الغرض و الغايه على أى حال أفضل من المقدمه.

و قوله:(وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ)ظاهر السياق أن هذا الفزع هو الفزع بعد نفخ الصور الثانى دون الأول فيكون فى معنى قوله:(لاٰ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَ تَتَلَقّٰاهُمُ الْمَلاٰئِكَهُ هٰذٰا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) :الأنبياء:١٠٣.

قوله تعالى:(وَ مَنْ جٰاءَ بِالسَّيِّئَهِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى النّٰارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)يقال: كبه على وجهه فانكب أى ألقاه على وجهه فوقع عليه فنسبه الكب إلى وجوههم من المجاز العقلى و الأصل فكبوا على وجوههم.

و قوله:(هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)الاستفهام للإنكار،و المعنى ليس جزاؤكم هذا إلا نفس العمل الذى عملتموه ظهر لكم فلزمكم فلا ظلم فى الجزاء و لا جور فى الحكم.

و الآيتان فى مقام بيان ما فى طبع الحسنه و السيئه من الجزاء ففيهما حكم من جاء بالحسنه فقط و من أحاطت به الخطيئه و استغرقته السيئه و أما من حمل حسنه و سيئه فيعلم بذلك حكمه إجمالا و أما التفصيل ففى غير هذا الموضع.

قوله تعالى:(إِنَّمٰا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هٰذِهِ الْبَلْدَهِ الَّذِى حَرَّمَهٰا وَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ) الآيات الثلاث-من هنا إلى آخر السوره-ختام السوره يبين فيها أن هذه الدعوه الحقه تبشير و إنذار فيه إتمام للحجه من غير أن يرجع إليه(ص)من أمرهم شىء و إنما الأمر إلى الله و سيريهم آياته فيعرفونها ليس بغافل عن أعمالهم.

و فى قوله:(إِنَّمٰا أُمِرْتُ)إلخ،تكلم عن لسان النبى ص فهو فى معنى:قل إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلده،و المشار إليها بهذه الإشاره مكه المشرفه،و فى الكلام تشريفها من وجهين:إضافه الرب إليها،و توصيفها بالحرمه حيث قال:

رب هذه البلده الذى حرمها.و فيه تعريض لهم حيث كفروا بهذه النعمه نعمه حرمه بلدتهم و لم يشكروا الله بعبادته بل عدلوا إلى عباده الأصنام.

و قوله:(وَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ)إشاره إلى سعه ملكه تعالى دفعا لما يمكن أن يتوهم أنه إنما يملك مكه التى هو ربها فيكون حاله حال سائر الأصنام يملك الواحد منها على عقيدتهم جزء من أجزاء العالم كالسماء و الأرض و بلده كذا و قوم كذا و أسره كذا، فيكون تعالى معبودا كأحد الآلهه واقعا فى صفهم و فى عرضهم.

و قوله:(وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)أى من الذين أسلموا له فيما أراد و لا يريد إلا ما يهدى إليه الخلقه و يهتف به الفطره و هو الدين الحنيف الفطرى الذى هو مله إبراهيم.

قوله تعالى:(وَ أَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدىٰ فَإِنَّمٰا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمٰا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ)معطوف على قوله:(أَنْ أَعْبُدَ)أى أمرت أن أقرأ القرآن و المراد تلاوته عليهم بدليل تفريع قوله:(فَمَنِ اهْتَدىٰ)إلخ،عليه.

و قوله:(فَمَنِ اهْتَدىٰ فَإِنَّمٰا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ)أى فمن اهتدى بهذا القرآن فالذى ينتفع به هو نفسه و لا يعود نفعه إلى.

و قوله:(وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمٰا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ)أى و من لم يهتد به بالإعراض عن ذكر ربه و هو الضلال فعليه ضلاله و وبال كفره لا على لأنى لست إلا منذرا مأمورا بذلك و لست عليه وكيلا و الله هو الوكيل عليه.

فالعدول عن مثل قولنا:و من ضل فإنما أنا من المنذرين و هو الذى كان يقتضيه الظاهر إلى قوله:(فَقُلْ إِنَّمٰا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ)لتذكيره(ص) بما تقدم من العهد إليه أنه ليس إلا منذرا و ليس إليه من أمرهم شىء فعليه أن يتوكل على ربه و يرجع أمرهم إليه كما قال:(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ إِنَّكَ لاٰ تُسْمِعُ الْمَوْتىٰ)إلخ،فكأنه قيل:و من ضل فقل له قد سمعت أن ربى لم يجعل على إلا الإنذار فلست بمسئول عن ضلال من ضل.

قوله تعالى:(وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ سَيُرِيكُمْ آيٰاتِهِ فَتَعْرِفُونَهٰا وَ مٰا رَبُّكَ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ)معطوف على قوله:(فَقُلْ إِنَّمٰا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ)و فيه انعطاف إلى ما ذكره بعد أمر نبيه ص بالتوكل عليه فى أمرهم من أنه سيجعل للمشركين عاقبه سوء

و یقضی بین بنی إسرائیل فیما اختلفوا فیه و یریهم من آیاته ما یضطرون إلی تصدیقه ثم یجزیهم بأعمالهم.

و محصل المعنی:و قل الثناء الجمیل لله تعالی فیما یجریه فی ملکه حیث دعا الناس إلی ما فیه خیرهم و سعادتهم و هدی الذین آمنوا بآیاته و أسلموا له و أما المکذبون فأمات قلوبهم و أصم آذانهم و أعمی أبصارهم فضلوا و کذبوا بآیاته.

و قوله:(سَیُرِیکُمْ آیاتِهِ فَتَعْرِفُونَها)إشاره إلی ما تقدم من قوله:(وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَیْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ)و ما بعده،و ظهور قوله:(آیاتِهِ)فی العموم دلیل علی شموله لجمیع الآیات التی تضطرهم إلی قبول الحق مما یظهر لهم قبل قیام الساعه و بعده.

و قوله:(وَ ما رَبُّکَ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ)الخطاب للنبی ص و هو بمنزله التعلیل لما تقدمه أی إن أعمالکم معاشر العباد بعین ربک فلا یفوته شیء مما تقتضیه الحکمه قبال أعمالکم من الدعوه و الهدایه و الإضلال و إراءه الآیات ثم جزاء المحسنین منکم و المسیئین یوم القیامه.

و قرئ(عما یعملون)بیاء الغیبه و لعلها أرجح و مفادها تهدید المکذبین و فی قوله:(رَبُّکَ)بإضافه الرب إلی الکاف تطییب لنفس النبی ص و تقویه لجانبه.

(بحث روائی)

فی تفسیر القمی،:فی قوله تعالی:(وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَیْهِمْ)الآیه:حدثنی أبی عن ابن أبی عمیر عن أبی بصیر عن أبی عبد الله(ع)قال: انتهی رسول الله ص إلی أمیر المؤمنین(ع)-و هو نائم فی المسجد قد جمع رملا و وضع رأسه علیه-فحرکه برجله ثم قال:قم یا دابه الأرض-فقال رجل من أصحابه:یا رسول الله-أ یسمی بعضنا بعضا بهذا الاسم؟فقال:لا و الله ما هو إلا له خاصه-و هو الدابه الذی ذکره الله فی کتابه فقال:(وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَیْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ-تُکَلِّمُهُمْ أَنَّ النّاسَ کانُوا بِآیاتِنا لا یُوقِنُونَ).

ثم قال:یا علی إذا کان آخر الزمان أخرجک الله-فی أحسن صوره و معک میسم تسم به أعداءک.

فقال رجل لأبی عبد الله(ع):إن العامه یقولون:إن هذه الآیه إنما(تکلمهم) فقال أبو عبد الله(ع):کلمهم الله فی نار جهنم إنما هو تکلمهم من الکلام.

أقول:و الروایات فی هذا المعنی کثیره من طرق الشیعه.

و فی المجمع،و روی محمد بن کعب القرطی قال: سئل علی عن الدابه-فقال:أما و الله ما لها ذنب و إن لها للحیه.

أقول:و هناک روایات کثیره تصف خلقتها تتضمن عجائب و هی مع ذلک متعارضه من أرادها فلیراجع جوامع الحدیث کالدر المنثور أو مطولات التفاسیر کروح المعانی.

و فی تفسیر القمی،حدثنی أبی عن ابن أبی عمیر عن حماد عن أبی عبد الله(ع) قال: ما یقول الناس فی هذه الآیه(یَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ کُلِّ أُمَّهٍ فَوْجاً)؟قلت:یقولون إنه فی القیامه.قال:لیس کما یقولون إنها فی الرجعه-أ یحشر الله فی القیامه من کل أمه فوجا و یدع الباقین؟إنما آیه القیامه(وَ حَشَرْنٰاهُمْ فَلَمْ نُغٰادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً .

أقول:و أخبار الرجعه من طرق الشیعه کثیره جدا.

و فی المجمع،":فی قوله تعالی:(وَ نُفِخَ فِی الصُّورِ):و اختلف فی معنی الصور-إلی أن قال-و قیل:هو قرن ینفخ فیه شبه البوق-و قد ورد ذلک فی الحدیث.

و فیه،":فی قوله تعالی:(إِلاّٰ مَنْ شٰاءَ اللّٰهُ)قیل:یعنی الشهداء فإنهم لا یفزعون فی ذلک الیوم-و روی ذلک فی خبر مرفوع.

و فی تفسیر القمی،":فی قوله تعالی:(صُنْعَ اللّٰهِ الَّذِی أَتْقَنَ کُلَّ شَیْءٍ -قال:فعل الله الذی أحکم کل شیء.

و فیه،":فی قوله تعالی:(مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ خَیْرٌ مِنْهٰا-وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ یَوْمَئِذٍ آمِنُونَ- وَ مَنْ جٰاءَ بِالسَّیِّئَهِ فَکُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِی النّٰارِ)قال:الحسنه و الله ولایه أمیر المؤمنین (ع)-و السیئه و الله عداوته.

أقول:و هو من الجری و لیس بتفسیر و هناک روایات کثیره فی هذا المضمون ربما أمکن حملها علی ما سیأتی.

و فی الخصال،عن یونس بن ظبیان قال:قال الصادق جعفر بن محمد(ع): إن الناس یعبدون الله علی ثلاثه أوجه:فطبقه یعبدونه رغبه فی ثوابه-فتلک عباده الحرصاء

و هو الطمع،و آخرون يعبدونه فرقا من النار-فتلك عباده العبيد و هى الرهبه،و لكنى أعبده حبا له فتلك عباده الكرام و هو الأمن-لقوله تعالى:(وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ)،و لقوله:(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّٰهَ فَاتَّبِعُونِی-يُحْبِبْكُمُ اللّٰهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) فمن أحب الله أحبه الله و من أحبه الله كان من الآمنين.

أقول:لازم ما فيه من الاستدلال تفسير الحسنه فى الآيه بالولايه التى هى عبادته تعالى من طريق المحبه الموجبه لفناء إراده العبد فى إرادته و توليه تعالى بنفسه أمر عبده و تصرفه فيه و هذا أحد معنيى ولايه على(ع)فهو(ع)صاحب الولايه و أول فاتح لهذا الباب من الأمه و به يمكن أن يفسر أكثر الروايات الوارده فى أن المراد بالحسنه فى الآيه ولايه على(ع).

و فى الدر المنثور،أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه و الديلمى عن كعب بن عجره عن النبى ص: فى قول الله:(مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهٰا)يعنى بها شهاده أن لا إله إلا الله،و من جاء بالسيئه يعنى بها الشرك-يقال:هذه تنجى و هذه تردى.

أقول:و هذا المعنى مروى عنه(ص)بألفاظ مختلفه من طرق شتى و ينبغى تقييد تفسير الحسنه بلا إله إلا الله بسائر الأحكام الشرعيه التى هى من لوازم التوحيد و إلا لغا تشريعها و هو ظاهر.

و فى تفسير القمى،":فى قوله تعالى:(إِنَّمٰا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هٰذِهِ الْبَلْدَهِ الَّذِی حَرَّمَهٰا)قال:مكه.

و فيه،عن أبيه عن حماد بن عيسى عن حريز عن أبى عبد الله(ع)قال: لما قدم رسول الله ص مكه يوم افتتحها-فتح باب الكعبه فأمر بصور فى الكعبه فطمست- فأخذ بعضادتى الباب فقال:ألا إن الله قد حرم مكه يوم خلق السماوات و الأرض- فهى حرام بحرام الله إلى يوم القيامه-لا ينفر صيدها و لا يعضد شجرها و لا يختلى خلالها- و لا تحل لقطتها إلا لمنشد.

فقال العباس:يا رسول الله إلا الإذخر فإنه للقبر و البيوت-فقال رسول الله إلا الإذخر:

أقول:و هو مروى من طرق أهل السنه أيضا .

و فى الدر المنثور،أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبى ص قال: ما كان فى القرآن(وَ مَا اللّٰهُ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ)بالتاء،و ما كان(و ما ربك بغافل عما يعملون)بالياء.

تم و الحمد لله.

تعریف مرکز

بسم الله الرحمن الرحیم
هَلْ يَسْتَوِی الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
الزمر: ٩

المقدمة:
تأسّس مركز القائمیة للدراسات الكمبیوترية فی أصفهان بإشراف آیة الله الحاج السید حسن فقیه الإمامی عام ١۴٢۶ الهجری فی المجالات الدینیة والثقافیة والعلمیة معتمداً علی النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائیین والمثقفین فی الجامعات والحوزات العلمیة.

إجراءات المؤسسة:
نظراً لقلة المراكز القائمة بتوفیر المصادر فی العلوم الإسلامیة وتبعثرها فی أنحاء البلاد وصعوبة الحصول علی مصادرها أحیاناً، تهدف مؤسسة القائمیة للدراسات الكمبیوترية فی أصفهان إلی التوفیر الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلی الباحثین فی العلوم الإسلامیة وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الكترونیة من الكتب والمقالات العلمیة والدراسات المفیدة وهی منظمة فی برامج إلكترونیة وجاهزة فی مختلف اللغات عرضاً للباحثین والمثقفین والراغبین فیها.
وتحاول المؤسسة تقدیم الخدمة معتمدة علی النظرة العلمیة البحتة البعیدة من التعصبات الشخصیة والاجتماعیة والسیاسیة والقومیة وعلی أساس خطة تنوی تنظیم الأعمال والمنشورات الصادرة من جمیع مراكز الشیعة.

الأهداف:
نشر الثقافة الإسلامیة وتعالیم القرآن وآل بیت النبیّ علیهم السلام
تحفیز الناس خصوصا الشباب علی دراسة أدقّ فی المسائل الدینیة
تنزیل البرامج المفیدة فی الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثین والمحققین فی الحوزت العلمیة والجامعات
توسیع عام لفكرة المطالعة
تهمید الأرضیة لتحریض المنشورات والكتّاب علی تقدیم آثارهم لتنظیمها فی ملفات الكترونیة

السیاسات:
مراعاة القوانین والعمل حسب المعاییر القانونیة
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتنباب عن الروتینیة وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمی البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فی نشر المعلومات

من الواضح أن یتحمل المؤلف مسؤولیة العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الکتب والملزمات والدوریات

إقامة المسابقات فی مطالعة الکتب

إقامة المعارض الالکترونیة: المعارض الثلاثیة الأبعاد، أفلام بانوراما فی الأمکنة الدینیة والسیاحیة

إنتاج الأفلام الکرتونیة والألعاب الکمبیوتریة

افتتاح موقع القائمیة الانترنتی بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافیة وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمی لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدینیة والأخلاقیة والاعتقادیة والردّ علیها

تصمیم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ویب کیوسک kiosk، الرسالة القصیرة ((sms

إقامة الدورات التعلیمیة الالکترونیة لعموم الناس

إقامة الدورات الالکترونیة لتدریب المعلمین

إنتاج آلاف برامج فی البحث والدراسة وتطبیقها فی أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ویمکن تحمیلها علی ۸ أنظمة؛

JAVA.۱

ANDROID.۲

EPUB.۳

CHM.۴

PDF.۵

HTML.۶

CHM.۷

GHB.۸

إعداد ۴ الأسواق الإلکترونیة للکتاب علی موقع القائمیة ویمکن تحمیلها علی الأنظمة التالیة

ANDROID.۱

IOS.۲

WINDOWS PHONE.۳

WINDOWS.۴

وتقدّم مجاناً فی الموقع بثلاث اللغات منها العربیة والانجلیزیة والفارسیة

الکلمة الأخیرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلی، الرقم ۱۲۹، الطبقة الأولی.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكترونی : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزی ۰۳۱۳۴۴۹۰۱۲۵

هاتف المكتب فی طهران ۸۸۳۱۸۷۲۲ ـ ۰۲۱

قسم البيع ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹شؤون المستخدمين ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹.

مركز القائمية اصبهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹